

لغة الحوار في القرآن الكريم

دراسة وظيفية أسلوبية

د. فوز سهيل كامل نزال

الجامعة الأردنية

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملئكة
ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن
أولياؤكم في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي
أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ومن
أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين
ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا
الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


لغة الحوار
في القرآن الكريم

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٣/٦/١١٢١)

٢٢٥,٣

نزال، فوز سهيل
لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية/
فوز سهيل نزال ـ عمان:دار الجوهرة، ٢٠٠٣.
( ) ص.
ر.إ. : ٢٠٠٣/٦/١١٢١
الواصفات:/ القرآن// اللغة العربية/

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957 - 34 - 003 - 4 (ردمك)



عمان - جبل الحسين - شارع خالد بن الوليد
قرب دوار الداخلية - عمارة النشاشيبي - مكتب 304 - ط2
تلفاكس 5627306 ص.ب 182997 عمان 11118 الأردن

لغة الحوار

في القرآن الكريم

دِراسة وظيفيّة أسلوبيّة

د. فوز سهيل كامل نزّال
الجامعة الأردنيّة



للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من علماني أبجدية الحوار مع ذاتي ومع الآخر............

إلى أبي وأمي اللذين سطرا كتاب أيامي بمداد من حبهما وعطائهما وبصيرتهما وصبرهما...........

إلى من حاوروني بصدق حب...............إلى إخوتي.

إلى من حاوروا تراب فلسطين الحزين فغدا في أيديهم حجارة من سجيل....إلى أبطال انتفاضة الأقصى.....

............أهدي عملي

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث



مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان، ليقيم تواصلاً حوارياً مع عناصر الكون الواسع يفضي به إلى اليقين بوجود إله واحد أوحد. والصلاة والسلام على ناقل الحوار الإلهيّ إلى البشر، سيدنا محمد الذي أدّى الرسالة، وبلغ الأمانة متبعاً احسن القول، وبعد:

تناولت هذه الدراسة طبيعة التشكّل اللغوي في الحوار القرآني تناولاً أسلوبياً ينصب على البنية اللغوية وصولاً إلى الكشف عن انفعالات أطراف الحوار ومشاعرها واستحضاراً لها بتأمل طريقتها في الصياغة والتعبير والاختيار المؤدي للغرض.

ولمّا كانت لغة الحوار القرآني هي لغة القرآن ذاتها، بأسلوبها الرفيع، فقد ظهرت علّة تأمل تفردّها الأسلوبي، فالمقولات الحوارية التي حكاها الله على لسان الشخوص تقولبت بطريقة خاصة تعكس أمزجتهم الانفعالية والفكريّة وطباعهم ومكنونات أنفسهم.

ويعود اختيار الباحثة للغة الحوار القرآني مادة للبحث إلى رغبتها في البدء بالخطوة الأولى في درب تأمل لغة النص القرآني تأملاً أسلوبياً؛ هذا التأمّل الذي يمتزج فيه الإحساس بالجمال والجلال، فإعجاز القرآن إعجاز أسلوبي قائم على الكيفيّة التي جسّمت فيها الصياغة اللغوية المعنى تجسيماً تحدّى الله به الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله.

سبب آخر يعزى إليه الاختيار يتمثل في رسوخ هذا النمط من أنماط الخطاب الإلهي في النص القرآني وتنوع أساليبه وتعدد أشكاله، إنه عالم من

التشكلات الأدائية النابضة بالحياة التي تغري الناظر بتأمل كيفية البعث اللغوي للموقف الحواري وتشخيصه يملأ الأسماع والأبصار بكل خلجة من خلجات أطراف الحوار وبكل نفثة من نفثات صدورهم، فقد أمسك القرآن بزمام الموقف الحواري وأداره بأسلوب معجز، وذهب فيه كل مذهب ولونه ألوانا مختلفة حسب مقتضى الحال وداعية المقام.

وقد زاد من رغبة الباحث في طرق هذا الموضوع ملاحظتها أن جلّ الدراسات التي تناولت الحوار القرآني انبرت لعرض ما يحويه من مضامين، دون أن تبرز أدور التوظيفات اللغوية الخاصة في إثراء هذه المضامين إيحائيّاً إبرازاً مطرداً، فقد تعرض عدد منها للقالب اللغوي الذي سكبت فيه المقولة الحوارية، لكنه تعرض عابر وسريع، يسلط الضوء على مجموعة من الانزياحات اللغويّة أو علل الاختيار ثم يعود القهقرى شارحاً المضامين، أو مكتفيا بعرض عناصر المحاورة دون ربط بين الرسالة وأطراف التواصل. وهذا هو الحال في دراسة عبد المرضي زكريا (الحوار ورسم الشخصيّة في القصص القرآني)، ودراسة تمام حسان (البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني)، ودراسة خليل عبد المجيد (الحوار والمناظرة في القرآن الكريم)، ودراسة عبد الحليم حنفي (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم).

وتناولت دراسات عديدة الحوار في حديثها عن القصة القرآنيّة بوصفه عنصر الحركة الذي يساند السرد ويتبادل معه أدوار نقل المغزى وتصعيد الأحداث، نذكر منها، دراسة عبد الكريم الخطيب (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه)، ودراسة علي أحمد علي (الإعجاز والبيان في قصص القرآن)، ودراسة سليمان الطراونة (دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية).

واقتصرت مجموعة من الدراسات على مضامين الحوار القرآني مستخلصة آداب الحوار والسلوكيات التي ينبغي على المحاور أن يتحلّى بها، نذكر منها: دراسة إدريس حمادي (الخطاب الشرعي وطرق استثماره)، ودراسة محمد حسين فضل الله (الحوار في القرآن، قواعده، أساليبه، معطياته)، ودراسة أحمد الصويان (الحوار: أصوله المنهجية وآدابه السلوكية).

وقد أفادت الدراسة من هذه المؤلّفات وما فيها من ومضات أسلوبيّة متفرّقة هنا وهناك، وخطّت لنفسها طريقاً جديدة في ولوج عالم النص الحواري القرآني، تعدّ قراءة مخصوصة للغة الحوار، أي أن لغة الحوار فيها غاية بذاتها لا مجرّد وسيلة للوصول إلى غايات أخرى.

وسبق للباحثة أن تعاملت مع القالب الأدائي ذاته بركائز المنهج الأسلوبي ودعائمه، وذلك في أطروحة الماجستير المعنونة بـ (مقامات الحريري: دراسة أسلوبية) حيث تناولت في أحد فصولها مكوّنات لغة الحوار في المقامات وخصائصها، فرأت في الحوار قالباً حيوياً يبرز اللغة موظّفة في حدث كلامي قائم على التجابه التواصلي بين طرفين، تتأثر صياغة مقولة كلٍ منهما بالمقام، والعلاقة الرابطة بينهما، والانفعال الذي يريد كل طرف إيصاله للآخر.

ولهذا رأت الباحثة مواصلة تأمل هذا النمط الأدائي في نصوص أدبية أخرى فهداها الله للحوار القار في كتابه العزيز، هذا الحوار الذي يدعو إلى الإبحار في عوالم النص وطرفي الحوار.

واستعانت الباحثة بمجموعة من المصادر والمراجع، نذكر من الأولى أمهات كتب التفسير مثل: (الكشاف)، و (تفسير التحرير والتنوير)، و (البحر المحيط). وأمهات كتب العلوم القرآنية مثل: (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، و (الإتقان)، و(البرهان) وغيرها.

كما استعانت بعدد من الدراسات القرآنية التي ولجت لغة النص القرآني، مثل: دراسة كاظم الظواهري (بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم)، ودراسة عبد الله إبراهيم (أسرار ترتيب القرآن)، ودراسة حميد العامري (التقديم والتأخير في القرآن الكريم)، ودراسة خلود العموش (الخطاب القرآني: دراسة في علاقة النص والسياق)، دراسة خالد قاسم بني دومي (التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني: دراسة لغوية أسلوبيّة) وغيرها.

وقد انتظمت الدراسة في هيكل تنظيمي قائم على ثلاثة فصول، تناولت في الفصل الأول مفهوم الحوار لغة واصطلاحاً، ومفهوم الحوار القرآني، وأنواعه، والأطراف التي شكّلته، ومضامين الحوار، وأشكاله التي أمكن حصرها

في وضعيات التواصل الآتية: (الحوار الخارجي الثنائي، والحـــوار الداخلـــي، والحوار التلقيني، والمناجاة (الدعاء)، والحوار بالإشارة).

كما تناولت فاعلية الحوار بوصفه اختياراً من بين بدائل خطابية متعـــددة، وبوصفه قالباً يؤدي وظائف وأدواراً مخصوصة في النص القرآني، وأتبعت هذه الفاعلية ببيان أطوال الحوارات القرآنية، وربط طول المقولة الحواريّة خاصـــة والتراجع الحواري عامة بظروف المقام وانفعالات الشخصيّة وغاياتها التي تريد إيصالها إلى الطرف المقابل.

وتناولت في الفصل الثاني أكثر التراكيب اللغويّة حضوراً في النصـــوص الحواريّة مبرزة علّة رسوخها، وطاقتها في إنتاج الدلالات وكيفيّة تواجدها فـــي النص وتآلفها مع بقية عناصره، وتمثّلت هذه التراكيب بـــ) :الســـؤال، الأمـــر، النهي، والنداء).

كما تعرضت الدراسة لأسلوبيّة ردّ المتلقي (الطرف الآخر فـــي التواصـــل الحواري) على الدلالات القارة في التراكيب السابقة.

وفي الفصل الثالث تناولت الدراسة أبرز آثار التواصل الحـــواري علـــى الصياغة اللغوية للمقولة الحوارية، فعرضـــت لأســـلوبيّة التقديـــم والتـــأخير، والتكرار، والحذف، والإلتفات.

وختمت الدراسة بمجموعة من النتائج التي أفضى إليها رصـــد الظواهـــر الأسلوبية في النصوص الحوارية القرآنية، ووصفها، وتعليلها.

وأخيراً، فإنّ هذه الدراسة خطوة طفلة قد تفتح للباحثة آفاقاً فـــي المســـتقبل للسير في درب مكابدة للنص القرآني بخطى أكثر نضجاً ووثوقٍ أو هي بدايـــة لمسؤولية صعبة ولكنها تنطوي على لذة غير محدودة، فتأمّل النّص القرآني وعد دائم بانفتاح على آفاق واسعة، إنّه النص الذي يحاور عقل الإنسان وقلبه وروحه مغرقاً إياه في بحر لغته وصولاً إلى أعماق الحقيقة.

والله أسأل أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأعتذر عن أيّ تقصير يشفع له قصور طاقتي وجهدي، كما أعتذر عن أيّ سهو أو خطأ أو نسيان فيما يتعلّق بجلال النّص القرآني من حيث الفهم أو الضبط.

وأردد عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه في ذلك متطولاً، وليصلح فيه ما يحتاج إلى الإصلاح متفضلاً، فالتقصير من الأوصاف البشرية، وليست الإحاطة بالعلم إلا لبارئ البريّة، والله من وراء القصد".

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

فوز نزال



الفصل الأول



الحوار

المدلول اللغوي:

جاء في لسان العرب تحت مادة (حَوَرَ): " **الحَـــوْرُ**: الرجوع عن الشـــــيء والى الشيء، وحار إلى الشيء وعنه حوراً ومحاراً ومحارة وحـــــواراً: رجـــع عنـــه وإليه...، ويقال كذلك: الباطل في حور؛ أي في نقص ورجوع.

وأحار عليه جوابه: ردّه. وأحرت له جواباً، وما أحار بكلمة .والاسم مـــــن المحاورة الحَوير، تقول: سمعت حَوِيْرَهما وحوارهما.

والمحاورة: المجاوبة. والتحاور: التجاوب، وتقول: كلمته فما أحار إلـــيَّ جواباً وما رجع إليّ حَويراً ولا حَويرة ولا مَحُورة ولا حواراً؛ أي ماردّ جوابـــاً. واستحاره أي: استنطقه.

وفي حديث علي – كرم الله وجهه –: يرجع إليكما ابناكما بحَوْر ما بعثتُمـــا به، أي: بجواب ذلك، يقال: كلمته فما رد إلي حواراً، أي: جواباً، وقيل: أراد به الخيبة والإخفاق .وأصل الحور: الرجوع إلى النقص، ومنه حديث عبادة: يوشـك أن يرى الرجل من ثبج المسلمين قرّاء القرآن على لسان محمد – ﷺ – فأعاده وأبدأه لا يحور فيكم إلا كما يحور صاحب الحمار الميت؛ أي: لا يرجـــع فيكـــم بخير ولا ينتفع بما حفظه من القرآن كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه. وفـــي حديث سطيح: فلم يحر جواباً أي لم يرجع ولـــم يـــرد. وهـــم يتحـــاورون أي: يتراجعون الكلام. **والمحاورة**: مراجعة المنطق والكـــلام في المخاطبـــة، وقـــد

حاوره. والمحورة: من المحاورة مصدر، كالمشورة من المشاورة كـــالمحورة، وأنشـــد:

لحاجة ذي بثٍ ومَحْــوَرةٍ لــه   كفى رَجْعُها من قصـــة المتكلـــم

وما جاءتني عنه مَحُورة، أي: ما رجع إليّ عنه خبر. وإنّه لضعيف الحَــــوْر، أي: المحاورة، وقولـــه:

وأصفَرَ مَضْبوحٍ نظرتُ حوارَه   على النار واستودعتُه كفَّ مُجمِدِ

ويروى: حويره، وانما يعني بحواره وحويره خروج القدح من النـــار، أي: نظرات الفلح والفوز. واستحار الدار: اســـتنطقها، مـــن الحـــوار الـــذي هـــو الرجوع"[1]. وخلاصة هذا التعريف أن: المحاورة هي: المجاوبـــة. والتحـــاور هـــو التجاوب. والحوار هو مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

ومن المصطلحات القريبة من مصطلح الحوار: الجدال أو الجـــدل. جـــاء فـــي اللسان مادة (جدل) أنّ " الجدل: شدة الفتل، يقال: جدلت الحبل أجدله جـــدلاً إذا شددت فتله، وفتلته فتلاً محكما. والجدل بمعنى الصرع، يقال: طعنه فجدلـــه؛ أي رماه فانجدل أي سقط.

والجَدَل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلـــة وجـــدالاً. ورجل جدل ومجدل ومجدال: شديد الجدل، يقال: جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي: غلبته .ورجل جدل إذ كان أقوى في الخصام .وفي حديث الرسول ﷺ (ما أوتـــي الجدل قوم إلا ضلوا)، والمراد به الجدل بالباطل"[2].

كما وجدت هذه التفرقة بين مدلول المادتين في استعمال القرآن لهما، حيـــث جاءت مادة (جدل) في تسعة وعشرين موضعاً دلّ جلها علـــى الحديـــث غـــير المجدي ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾ [هود:٧٤]، أو الحديـــث المذمـــوم: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾[البقرة:١٩٧] .ولم يلجأ القرآن إلى الجدل إلا في حالات الضرورة،

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (حَوَرَ).

٢- ابن منظور، لسان العرب، مادة (جَدَلَ).

على أن يكون محموداً يقصد به الحق، مع الإلتزام بآداب الحديث: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت:٤٦]. وأما المحاورة فقد وردت مادتها في القرآن في ثلاثة مواضع؛ اثنان منها في قصة صاحب الجنتين، حيث استهلت مقولته الحوارية بـ: ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ [الكهف:٣٤]، كما استهلت مقولة صاحبه المؤمن بـ: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ [الكهف:٣٧] مثبتة أن المقولتين جزء من مراجعة كلامية طويلة دارت بين الصاحبين، اقتطف القرآن منها هذه اللقطة التي برز فيها الفارق بين الشخصيّتين، أي أن المحاورة التي دارت بينهما أدت إلى الخصومة.

والموضع الثالث الذي أكد هذه التفرقة جاء في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ ﴾ [المجادلة:١]؛ فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة عبر عنها القرآن بالجدل (تجادلك)، ولكن حديثها مع النبي كان مراجعة في الكلام، ولذا أطلق عليه لفظ المحاورة (تحاوركما).

ويمكن أن نخرج من هذا التتبع اللغوي لمدلول المادتين بفارق واضح بينهما؛ فالجدال والمجادلة والجدل تنحو منحى الخصومة والمغالبة، وأما المحاورة فهي مراجعة الكلام في أسلوب، لا تقصد به الخصومة، فقد تحوي هذه المراجعة خصومة وقد لا تحوي.

ولهذا آثرت اختيار لفظة " الحوار" على " الجدال"؛ لأن الحوار يتسع في دلالته ليشتمل الجدال، بينما يقف مصطلح الجدال عاجزاً عن استيعاب أبعاد الحوار وآفاقه، فهو يدور في محيط الخصومة حتى وإن تعداها.

الحوار القرآني:

تحول من تحولات الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، ووجه من وجوهه المتعددة التي يتضافر معها في إيصال رسالة السماء إلى المتلقي بفاعلية تنطلق

به من حدود الجملة المكتوبة إلى آفاق عالم مسموع ومرئي، ومن حيادية التلقي إلى معايشة الحدث الكلامي.

يتكون الحوار القرآني من جملة منطوقات تبادلها طرفان أو أكثر بلغة القرآن ذاتها ولكن بتشكل خاص يتناسب مع الطرف المحاور؛ "فالواقعية في لغة الحوار القرآني واقعية نفسية لا لغوية"[١]. وتحقق هذا النمط التعبيري في ألف وخمسمائة وثلاث وتسعين آية، أي ما يعادل ربع القرآن الكريم، ولعل في هذا الحضور دعوة فعلية باتخاذ الحوار منهجاً يكشف الحقائق ويرسخها، فالقرآن كتاب الحوار، إنه يجعله سبيلاً لجلّ قضاياه، ابتداء بباب الحوار الأول الذي فتحه الله أمام الملائكة والشيطان لما أراد خلق آدم، مروراً بحوارات رسله مع أقوامهم، وانتهاءً بحواره مع خلقه يوم القيامة.

وتوزع الحوار القرآني على مكيّ القرآن ومدنيّه، حصل القسم المكّي منه على نصيب الأسد، فقد جاء الحوار في ألف وثلاثمائة وست وتسعين آية مكية مقابل مائة وسبع وتسعين آية مدنية. ويمكن تعليل هذا التفاوت في التوزيع بسببين:

الأول: ضخامة حجم القرآن المكي مقارنة بحجم القرآن المدني[٢].

الثاني: ارتباط الحوار بالقصص القرآني الموزع على مساحة في القرآن المكي أوسع منها في القرآن المدني، لأسباب ترتبط بالدعوة تجعل من هذه القصص أداة تأثير فاعلة في توجيه الرسول وأتباعه.

وقد استقرأت هذه الدراسة نصيب سور القرآن من الحوار بعد أن رتبت حسب النزول، فوجدت أن القرآن بدأ بسورة خلا جلها من الحوار، ثم بدأ الحوار يفرض وجوده في بنى السور الواقعة بين سورتي (ص) و(الحاقة)، وبعدها أخذ غياب الحوار يطغى على حضوره[٣].

١- سليمان الطراونة، دراسة نصيّة أدبية في القصة القرآنية، ص١٧٢.

٢- نسبة حجم القرآن المكي ٧٥,٤%، ونسبة حجم القرآن المدني ٢٤,٥%.

٣- ينظر الملحق التفصيلي، ص (٣٦٦-٣٧٠) من هذه الدراسة.

إنه التواجد بما يقتضيه الحال والمقام، والدور الذي يؤديه هذا النمط الخطابي مرتبطاً بالمرحلة التي عايشها متلقوه؛ فقد دار جلّ أوائلِ السور في فلك قدرة الله وآياته المعجزة، لإثارة تأمل المتلقي وتحديه وصولاً إلى إقراره واستسلامه لهذه القدرة. كما عرضت طبيعة الدور الذي يجب على متلقي الوحي الأول (محمد ﷺ) أن يؤديه لينطلق بدعوة الله.

وتثير هذه الرسالة المخاطبين فينقسمون إلى فريقين؛ فريق آمن واستسلم ، وفريق كفر وتمرد. وبين ثنائية الكفر والإيمان تبزغ شرارة المواجهة وتستعر متجسمة في حوارات يسعى كل طرف من أطرافها إلى دحض الآخر. ويحكي القرآن هذه المرحلة التي تأزم فيها الحوار بين أنصار الحق وأنصار الباطل، ببعث حوارات مماثلة جرت بين أنصار الفريقين وعاقبة تلك الحوارات لتثبيت الرسول وأتباعه، وتحذير خصومه من المشركين وأهل الكتاب. كما قفزت مجموعة من هذه الحوارات إلى عالم الغيب؛ لتوضيح عاقبة كلا الفريقين ترغيباً وترهيباً.

وبعد أن تأسست الدولة الإسلامية واستقرت دعائمها، خفت صوت خصومها، فلم يعودوا قادرين على المواجهة الصريحة مع المسلمين، ولهذا تقلص ظهور الحوار، القالب الذي جسم هذه الخصومة والخصومات المماثلة لها، في جل السور المدنية، وأخذ ينقل مضامين جديدة ويتقولب بما يناسبها، حتى كاد الصوتان المتعارضان يختفيان؛ لأن جلّ هذه الحوارات دارت بين الأنبياء وأتباعهم، أو بين طرفين أحدهما مقهور لا يقوى على النقاش أو التحدي، ولبروز الحوار التلقيني الذي يتولاه طرف واحد حاملاً أحكاماً وتشريعات تتعلق بمعاملات المسلمين.

وظهرت هذه الحوارات ظهوراً خاطفاً، فهي لا تمتد في بنية السور امتداد الحوارات في السور المكية، إنها تحولٍ مفاجئ لنمط الخطاب يثير تأمل المتلقي لما يحويه من مضمون ثم يغيب تاركاً النمط الخطابي الذي احتضنه يواصل مسيرته في عالم السورة.

والحوار في القرآن الكريم نوعان: حوار قصصي وحوار غير قصصي[1] الحوار **القصصي** هو الذي حاكاه الله على لسان أطراف شكل تفاعلها أحداثاً مضت وصراعات تأزمت يندرج جلها بين عناصر الخير والشر وذلك في إطار الرسالات السماوية وما يدور في فلكها، كالحوارات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم، والحوارات التي دارت بين غير الأنبياء كالحوار في قصة أصحاب الجنة، وقصة صاحب الجنتين، وقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين.

أما الحوار **غير القصصي** فيشمل المقولات التي لقنها الله لرسوله محمد – ﷺ– ليقوم بتبليغها إلى أتباعه أو إلى خصومه من المشركين وأهل الكتاب. كما يشمل المقولات التي حكاها الله على ألسنة البشر وغير البشر يوم القيامة؛ كحوارات أهل النار مع بعضهم، وحوارهم مع خزنة جهنم، وحوارات أهل الجنة، وحوارات أهل الأعراف.

وهذا يعني أن تخلّل الحوارغير القصصي للأحداث الواقعة في محيط الدائرة الإسلامية والأحداث المستقبلية، "وهذه الأحداث لم يسمها القران قصصاً، لأن القصَّ تتبع للآثار الماضية، والتفات إلى الوراء"[2].

مضامين الحوار القرآني:

لم يقتصر الحوار القرآني على موضوع معين، بل شمل موضوعات القرآن على تنوعها، وهي موضوعات شاملة أسس فيها القرآن منهاج حياة يهدي للتي هي أقوم: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾[الكهف:٥٤] ، فالحوار لم يأت ولم يستدعه

١– للقصة القرآنية مفهومها الخاص المحدد " بإعادة عرض الأنباء والأحداث التاريخية التي نسيها الناس أو غفلوا عنها، لتذكيرهم بها، وإلفاقهم إليها، ليكون لهم منها عبرة وموعظة. وهي أنباء وأحداث حقيقية، لم تتلبس بشيء من الخيال، و لم يدخل عليها شيء غير الواقع قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١]، ينظر عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني، ص٤٨–٤٩.

٢– عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني، ص٤٧

سياق أو غرض بعينه، إنه نمط من أنماط الخطاب القرآني يتضافر معها في تحقيق أغراضه الشاملة لأمور الدنيا والآخرة. وهو أسلوب من أساليب عرض الدعوة له وقعه الخاص في نفس المتلقي قد ينقله من دائرة التنظير إلى دائرة التنفيذ.

دارت مضامين كثير من الحوارات القرآنية في فلك الدعوة إلى عبادة الله وحده، وهذا ما حكته حوارات الأنبياء مع أقوامهم وما اشتملت عليه من سلوكيات تتناسب مع العقيدة الصحيحة: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢]. وأتبع شعيب أمر الدعوة إلى الله بإرشادات وإصلاحات واقتصادية واجتماعية: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف:٨٥].

وعالجت مجموعة من الحوارات عدداً من أمراض النفس البشرية كالحقد والحسد الذي تمثل في شخص أحد ابني آدم[١]، والغرور والتكبر المتمثلين في شخص صاحب الجنتين[٢]، والشذوذ الجنسي الذي مثله قوم لوط[٣].

وعالج حوار موسى مع الخضر، عليهما السلام، أخلاقيات المتعلم والعالم[٤]. ودار مضمون الحوار بين بلقيس وسليمان في فلك السياسة[٥]. ومثل

١- ينظر الحوار في المائدة: (٢٧-٣٢).

٢- ينظر الحوار في سورة الكهف: (٣٤-٤٢).

٣- ينظر حوار قوم لوط مع قومهم في: الأعراف: (٨٠-٨٢)، هود: (٧٨-٧٩)، الحجر: (٧٠).

٤- ينظر الحوار في سورة الكهف: (٦٦-٨٢).

٥- ينظر الحوار في سورة النمل: (٢٨-٤٤).

حوار السحرة مع فرعون كيفية مواجهة القوى الطاغية علناً[1]، بينما حكى حوار أهل الكهف موقف التقية[2]. ومثل حوار يوسف مع السجينين جانباً مـــن عـــالم الحلم وتأويلاته[3]. وقفزت بنا حوارات يوم القيامة إلى عالم الغيب وتفرقت فـــي خطين؛ الأول خط المعذبين في نار جهنم وما دار بينهم من خصـــام وتلاعـــن وتكذيب، والخط الثاني خط الفائزين بجنة الخلد وما فـــي كلامـــهم مـــن حمـــد وإحساس بالنعيم وذكريات من عالمهم الأرضي. هذا جزء مـــن كـــل لا يحـــده تصنيف، ونظرة إلى المضمون الرئيس في هذه الحوارات الـــذي يتفـــرع إلـــى مضامين عديدة.

وقد تتقارب الملامح الأسلوبية في الحوارات التي تدور في فلك مضمونـــي واحد، فردود الكافرين على أنبيائهم، مثلاً، تقولب كثير منها في قالب الســـؤال، من تنغيم صاعد يتناسب مع عنفهم وغضبهم وحقدهم، ولقدرته على اســـتيعاب الدلالات المتعددة التي يريدون إحاطة الرسل وأولياء الله بظلالـــها؛ كالســـخرية والإنكار والتوبيخ والتهديد وغيرها[4].

وبرز تركيب الأمر وتوالى في كثير مـــن مقـــولات الأنبيـــاء الموجهـــة لأقوامهم، لما فيها من طلب الامتثال لتعاليم الدعوة الإلهية وتنفيذ السلوكيات التي تنبثق عنها[5].

كما أثرت مضامين الحوار على مكونات الجملة الحواريـــة وخصائصـــها وحركتها وطولها، وهذا ما ستحاول الدراسة بيانه.

١- ينظر الحوار في سورة طـــه: (٦٥-٧٣)، والأعراف: (١٠٣-١٢٦).

٢- ينظر الحوار في سورة الكهف: (١٤-١٦).

٣- ينظر الحوار في سورة يوسف: (٣٦-٤١).

٤- نذكر من هذه الأسئلة ما جاء في: طـــه:٤٩، ٥١، ٥٧، الشعراء: ٤٩، ١١١، المؤمنون:٤٧، الأعراف:٧٠، الأحقاف: ٢٢، هود: ٦٢.

٥- نذكر من هذه الأوامر ما جاء في: الشعراء: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤.

أطراف الحوار:

تنازعت الجمل الحوارية أطراف متعددة، تنوعت في جنسها وعددها وصفاتها مثبتة أن باب الحوار في القران مفتوح للجميع، وأن التفاعل مع الآخر – أيّا كان نوع هذا التفاعل– غاية في ذاتها .واتسع مفهوم هذا "الآخر"؛ فقد يكون من جنس المحاور، وقد يكون من جنس آخر، وقد يكون خصماً لدوداً لمن يحاوره، وقد يكون محباً ودوداً. وقد يكون أعلى مرتبة ممن يحاوره، وقد يكون دونه،أو معه في منزلة واحدة. وقد يكون فرداً، وقد يكون إثنين، وقد يكون جماعة... إلى آخر هذه التصنيفات التي قد لا يحيط بها تصنيف.

ولعل في هذا دعوة إلهية إلى فتح آفاق الحوار مع الآخر أياً كان جنسه أو توجهه ومذهبه أو مكانته .وفيه أيضاً دليل على شمول الخطاب الإلهي واتساعه واستيعابه لما في الكون الواسع من تلون وتعدد واختلاف وتناقض، ومحاكاته لكل هذا وكشفه عنه وصولاً إلى الحقيقة المطلقة.

والله عز وجل هو الطرف الأعلى المحرك للحوارات القرآنية المهيمن عليها، إنه يُحمّل أطراف الحوار كلامها بلسان عربي مبين تاركاً لها فرصة الترجمة عن ذواتها وبسط انفعالاتها، دون أن نشعر بأن مُلقّنا من ورائها يلقنها الكلمات التي تلقيها في المشهد، أو يحركها الحركة التي تؤديها فيه.

ويشارك الله (الرواي العليم)، في عدد من النصوص الأطراف الأخرى في حواراتها، فيقوم بدور الراوي للحدث الكلامي المشارك في انتاجه، ويحكي كلامه كما يحكي أقوال الأطراف الأخرى مُصدّراً إيّاها بـ (قال أو إحدى أخواتها)، ومثاله ما جاء في الحوار الآتي بينه وبين إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ، أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ؟!

قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِن؟!

قَالَ: بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ

جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٠]

إنه عز وجل ينقل كلامه بأسلوب الغائب (قال) مثل نقله لكلام إبراهيم-عليه السلام-، ويتكلم في الجملة الحوارية الأخيرة عن ذاته بأسلوب الغائب أيضاً فقد قال: (واعلم أن الله عزيز حكيم) ولم يقل: (واعلم بأني عزيز حكيم).

وهذا الأسلوب هو الغالب في جل المشاهد الحوارية التي شارك الله فيها، إنه عز وجل يشعرنا باستقلال هذا النمط من الخطاب وتميزيه عن الأنماط الأُخرى، فيدخلنا في بؤرة النص بحيادية تبعدنا عن المباشرة أو المواجهة التي قد يوحي بها أسلوب المتكلم .ويظهر صوته عز وجل مندمجاً مع أصوات المتحاورين في البنية الحوارية لعدد من النصوص، وهذا ما سنوضحه في حديثنا عن الالتفات في الحوارات القرآنية.

وغالباً ما يعلّق الله عز وجل على مقولات المتحاورين أو على ما يدور في دواخلهم من صراعات وهواجس، ويبدو هذا في بنى السرد التي تتخلل الحوار.

ويمكن تصنيف الطرق التي وجه الله بها خطابه إلى خلقه في أشكال ثلاث:

١- **الوحي أو الإلهام**، وهو الكلام الخفي الذي يدور في نفس الموحى إليه ويتفاعل مع هواجسه ومشاعره حافزاً إياه إلى التصرف والتنفيذ الفعلي أو القولي، وليس هو وحي الأنبياء[1]. ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ: أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص:٧]، وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ. قُلْنَا: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ، وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه:٦٧-٦٩].

١- فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص٤٧٦.

٢- خطاب الأنبياء وغيرهم من وراء حجاب، حيث يوجه الله خطابه مباشرة ودون وساطة إلى من يريد من خلقه، ويجاذبه أطراف الحديث.

٣- توجيه الخطاب الإلهي بوساطة الملائكة الذين يتمثلون بهيئة البشر ليتقبلهم المتلقي؛ فمنطق الحوار أو التواصل الكلامي يقتضي وحدة النوع بين الفريقين ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام:٩]. وقد يسمع المتلقي صوت الملائكة دون أن يراها، ومثاله الطريقة التي حاورت بها الملائكة زكريا ومريم عليهما السلام[١].

ووجه الله خطابه لرسوله محمد ﷺ بوساطة الوحي جبريل، عليه السلام، الذي كان يتمثل له بصورة بشرية حيناً وبصورته الملائكية حيناً آخر. ولا يظهر الوسيط في النص القرآني، فيبدو الخطاب الإلهي موجهاً إلى الرسول توجيهاً مباشراً .وعلى الرسول أن يوصل هذا الخطاب إلى الناس: ﴿ قُلْ: أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ﴾ [الجن:١].

ويمكن أن نصنف الحوارات في القرآن الكريم وفقاً للأطراف التي شكّلتها إلى:

أ- الحوار بين الله -تبارك وتعالى- و:

١- **الملائكة:** وهم عباده المخلصون الذين يفعلون ما يؤمرون .وحاورهم الله في موطنين؛ الأول: حين أراد الله خلق آدم، فأخبر ملائكته بتلك الإرادة:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ: إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً.

قَالُوٓاْ: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟! قَالَ: إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ، فَقَالَ: أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ. قَالُواْ: سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ. قَالَ: يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ، فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ،

١- تنظر الحوارات في: آل عمران: (٣٩، ٤٣-٤٦).

﴿قَالَ: أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ؟! ﴾ [البقرة:٣٠-٣٢].

والموطن الثاني: حين يحاورهم الله يوم القيامة على مسمع من المشركين: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ: أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ؟ قَالُواْ: سُبْحَٰنَكَ، أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم، بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ووجه الله خطابه للملائكة آمراً إياهم بتنفيذ أوامر معينة في أربعة مواطن كان رد الملائكة فيها فعلياً لا قولياً[1]، كقوله: ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ، فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]. ولعلّ في حوار الله للملائكة دعوة إلى استشارة الأتباع والأعوان الذين يغلب عليهم طابع الاستسلام والإذعان والخوف من إبداء الرأي أو المشاركة فيه.

٢- **إبليس**: حاور عز وجل إبليس لما رفض الإمتثال لأمره بالسجود لآدم، سامحاً له بالتصريح بأهوائه ومشاعره، بالرغم من علمه المحيط بها ومعرفته المسبقة بنهاية هذا الحوار، وكأنه عز وجل يعلم الناس أن يلجؤوا إلى الحوار قبل لجوئهم إلى القوة، مهما ملكوا من وسائل القوة، ومهما كان خلاف مخالفيهم. وجاء حوار الله مع إبليس هذا الحوار في خمسة مواطن[2]، نذكر منها ما جاء في الحوار الآتي في سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ: ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ. فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ.

١- تنظر هذه المواطن في: سبأ: (٤٠-٤١)، والصافات: (٢٢-٢٣)، والحاقة: (٣٠-٣٢)، غافر: (٤٦).

٢- تنظر هذه المواطن في: الأعراف: (١١-١٨)، الإسراء: (٦١-٦٥)، والنساء: (١١٨-١١٩)، وص: (٧١-٨٥).

قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ؟!
قَالَ: أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ.
قَالَ: فَٱهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا، فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ.
قَالَ: أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.
قَالَ: إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ.
قَالَ: فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ.
قَالَ: ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف:١١-١٨].

٣- **الأنبياء والرسل:** ويعكس هذا الحوار العلاقة المباشرة بين الله وأصفيائه من الخلق، وتواصله معهم، ودعمه الدؤوب لهم، واطّلاعه على أحوالهم. والأنبياء والرسل الذين حاورهم الله حواراً مباشراً دون وسيط (ملك الوحي) هم: -آدم عليه السلام، في قوله: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ، أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ ﴾ [البقرة:٣٣]. وقوله: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ، ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥]. يحوي الخطابان أمراً على المخاطب أن ينفذه، ولهذا كان رد آدم عليها فعلياً لا قولياً[١]، ولكنا نسمع ردَّ آدم وحواء على تساؤل ربهما الإنكاري التوبيخي في الحوار الآتي: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل

١- ينظر أيضاً الخطاب الذي وجهه الله لآدم في: طه: (١١٧-١١٩).

لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ؟! قَالَا: رَبَّنَا، ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٢-٢٣]. ونوح عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ: رَبِّ، إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي، وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ، وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ. قَالَ: يَٰنُوحُ، إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ، إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ، فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ، إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ. قَالَ: رَبِّ، إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ. قِيلَ: يَٰنُوحُ، ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود:٤٥-٤٨]، ولعل استخدام صيغة المبني للمجهول (قيل) يوحي بخطاب إلهي غير مباشر أو منقول بحرفيته بوساطة ملك. أو لعله يوحي بإسدال الستارة على المشهد الحواري السابق، والبدء بخطاب إلهي يحوي مضموناً جديداً.

- وهود عليه السلام في قوله: ﴿ قَالَ: رَبِّ، ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ. قَالَ: عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٣٩-٤٠]. وصالح عليه السلام في قوله: ﴿ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ، فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ، وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴾ [القمر:٢٧-٢٨]. وإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ، قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ. قَالَ: وَمِن ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤]. وقوله: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ: أَسۡلِمۡۖ. قَالَ: أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١]، وقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ: رَبِّ، أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ؟ قَالَ: أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ؟! قَالَ: بَلَىٰ، وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ. قَالَ: فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ، ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا، ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ

سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة:٢٦٠].

ويرجع التعدد السابق في الحوارات إلى كون إبراهيم خليل الله، فهو يَسأل ويُسأل، وينفذ الأمر الموجّه إليه مباشرة من الآمر مستشعراً هذا التخصيص والتكريم اللذين تجسما في توجيه الخطاب الإلهي إليه أكثر من مرة.

– وموسى، عليه السلام، الذي قال له الله: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٤] فقد حاوره الله مرات عديدة[1]، وكلمه بأسلوب خاص يوحي بالاصطفاء والتكريم، واستمع إليه وحقق دعاءه، وشد عزمه، وكرر تطمينه، ليحاور فرعون الطاغية، مع علمه عز وجل أن فرعون لن يستجيب لدعوته. وهذا يؤكد ما ذكرناه من الدعوة إلى فتح باب الحوار مع الخصم وعدم اليأس منه فـ ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٤٤].

وقد تكرر حضور الحوار المتضمن أولَ خطاب إلهي وجهه الله إلى موسى، ومنحه معجزة (العصا) و (اليد البيضاء)، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون، وطلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، يشد به أزره، ويشركه في أمره، واستجابة الله لطلبه، مع فروق بسيطة يقتضيها سياق السورة، تكرر في سورة طه، والنمل، والقصص.

وظهر في حوار غير مباشر في سورة البقرة[2] حيث حاور موسى ربه بإلحاح من بني إسرائيل، ونقل إليهم كلامه دون أن يسمع الحضور صوته -عز وجل- لأن الخطاب الإلهي المباشر نعمة يختص بها الله من يشاء من عباده، نذكر من هذا الحوار المقطع الآتي: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨ ﴾ [البقرة:٦٨] إنه عليه السلام ينقل طلب قومه إلى الله، وربما

١- تنظر هذه المواطن في: الأعراف: (١٤٢-١٤٥) (١٥٥-١٥٦)، طه: (١١-٤٨)(٦٨-٦٩) (٨٣-٨٥)، الشعراء: (١٠-١٧)، النمل: (٨-١٢)، القصص: (٣٠-٣٥)، يونس(٨٧-٨٩)، المائدة: (٢٥-٢٦).

٢- البقرة: (٦١-٧١).

كان يصرح بطلبهم على مسمع منهم، ولكنّه وحده من يسمع الرّد، ثم يقوم بمهمة إيصاله إلى بني إسرائيل.

- وعيسى عليه السلام، في موطنين: **الأول**: في سورة آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ: يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ، وَرَافِعُكَ إِلَىَّ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ، وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ؛ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [آل عمران:٥٥-٥٧].

والثاني: في سورة المائدة، وقد اخترنا من هذا الحوار[1] المقطع الآتي: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ: يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ، ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ؟! قَالَ: سُبْحَـٰنَكَ، مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦].

- وحاور الله رسله أجمعين يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ: مَاذَآ أُجِبْتُمْ؟ قَالُواْ: لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة:١٠٩].

٤- أهل النار وأهل الجنة: حاور الله أهل النار في ستة عشر مشهداً حوارياً[2]، حكى جلها أمل المعذبين بأن يخرجهم الله من جهنم ورجاءهم بعد أن

١- ينظر الحوار الكامل بين الله وعيسى في سورة المائدة: (١١٠-١١٨).

٢- ينظر حوار الله مع أهل جهنم في المواطن التالية: الأنعام: (٢٢،٢٣،٣٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠)، الأعراف: ٣٨، إبراهيم: (٤٤-٤٥)، طـه،(١٢٥-١٢٦)، المؤمنون: (٦٥-٦٧)، (١٠٥-١١٥)، الفرقان، (١٧-١٩)، النمل: ٨، القصص: (٦٢-٧٥)، السجدة: (١٢، ١٤، ٢٠)، فاطر: ٣٧، يـس: (٥٩-٦٤)، الصافات: (٢٠-٢٥)، الجاثية: (٣١-٣٤)، الأحقاف: ٣٤، ق: (٢٧-٢٩).

أقروا بذنبهم مظهرين ندمهم، وكيف وبخهم الله مقرعا ومنكرا طلبهم وقد عصوه من قبل، وكانوا بآياته كافرين: ﴿ قَالُواْ: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ، رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ. قَالَ: ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ، إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ: رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ، فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ، إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١١١].

ولا نجد مثل هذه المراجعة الكلامية في المشاهد التي حاور فيها الله أصحاب الجنة، فهم يكتفون بتلقي الخطاب الإلهي وتنفيذ ما فيه من أوامر يجني مأمورها خير الآمر وعطاءه، وكأن حالة الانبهار بنعم الله ونعيمه الذي لم تره عين، ولم يخطر على بال أحد من خلقه قد ألجمت ألسنتهم: ﴿ يَٰعِبَادِ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ، ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ، ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ. يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ، وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[1].

٥- **حوار الله مع بشر غير الأنبياء.** وجاء هذا الحوار في موضعين: الأول: في سورة البقرة: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، قَالَ: أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟! فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ، قَالَ: كَمْ لَبِثْتَ؟ قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ،

١- الزخرف: (٦٨-٧٣). وينظر أيضا: الأعراف: ٤٣، ق: (٣٢-٣٤)، الحديد: ١٢، الحاقة: ٢٤

قَالَ: بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ، فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ، وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ، وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ، قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩].

فالقرآن لا يصرح بهوية هذا الرجل المار على القرية الخاوية، فقد يكون رسولاً أو رجلاً صالحاً أو كافراً منكراً. ولعل عدم التحديد يفيد أن التساؤل أو الحيرة التي لفّت مشاعر الرجل إزاء هذا المشهد المغرق في الدمار والخراب قد تطرأ على بال أي انسان، بدليل إدراجها مع المشهد الحواري الذي طلب فيه إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحي الموتى[1].

الثاني: في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟

قَالُواْ: بَلَىٰ، شَهِدْنَآ.

: أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ، أَوْ تَقُولُوٓاْ: إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ؟ ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

٦- **حوار الله مع مالا يتوقع نطقه**: كحواره مع جهنم: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ ٱمْتَلَأْتِ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِن مَّزِيدٍ؟ ﴾ [ق:٣٠].

وحواره مع السماء والأرض: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ: ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا. قَالَتَآ: أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١]. وتثبت هذه الحوارات قدرة الله المطلقة، فهو إذا أراد أن ينطق ما لم يجعله ناطقاً فعل، فكل شيء ملك يمينه، يكيفه كيفما أراد.

١- ينظر هذا الحوار في البقرة: ٢٦٠.

ب- حوارات الملائكة:

١- **بين الملائكة والرسل:** ذكرنا أن الملائكة هم الوسطاء بين الله ورسله؛ ينقلون إليهم خطابه، ويبلغونهم أوامره. وفي القران الكريم أربعة نماذج من هذا الحوار:

الأول: الحوار بين لوط، عليه السلام، والملائكة:

وتكرر هذا الحوار ثلاث مرات[١]، وهو يحكي قصة مجيء الملائكة إلى لوط، عليه السلام، بهيئة رجال حسان. وكيف هرع قوم لوط إليه، طالبين منه أن يخلي بينهم وبين ضيفه ليمارسوا عليهم شذوذهم، وطلب لوط منهم أن يتقوا الله في ضيفه، وأن يقضوا حاجتهم مع النساء بما يناسب الفطرة السليمة، ثم حصول الفرج من الله بأن يصرح الضيف بهويتهم، فهم رسل من عند الله، جاءوا لإيقاع العذاب بقومه الشاذين، وأمروه بأن يسري بأهله إلى حيث يؤمرون، ولا ينظر إلى الخلف؛ لئلا يرى عذاب قومه.

الثاني: الحوار بين إبراهيم، **عليه السلام، والملائكة:**

تكرر هذا الحوار ثلاث مرات[٢]، وهو يحكي قصة مجيء الملائكة إلى إبراهيم بهيئة رجال غرباء، فيلقون عليه السلام، ويرد تحيتهم بأحسن منها، ثم يجيء بعجل سيمن، ويدعوهم للطعام، ولكنهم لا يأكلون، فيوجس في نفسه خيفة منهم، فيخبرونه بأنهم رسل من رب العالمين، وقد بعثهم ليبشروه بأنه سينجب غلاماً عليماً، فيتعجب من هذه البشارة هو وزوجه كونهما عجوزين، ولكون زوجه عقيماً، فتخبرهما الملائكة بأن هذا أمر الله، الذي إذا أراد شيئاً فعله. كما تخبره الملائكة بأنهم ذاهبون إلى قوم لوط لإيقاع عذاب الله عليهم.

الثالث: الحوار بين داود، عليه السلام، والملَكْين:

جاء هذا الحوار في سورة (ص) [٣]، وفيه خبر الملكين اللذين بعثهما الله إلى داود في صورة رجلين تسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه

١- الأولى في: هود: (٧٧-٨٣)، والثانية في: الحجر: (٦١-٧٧)، والثالثة في: العنكبوت: (٣٣-٣٥).

٢- الأولى في سورة هود: (٦٩-٧٦)، والثانية في الحجر: (٤٩-٦٠)، والثالثة في: الذاريات: (٢٤-٣٧).

٣- الآيات: (٢٢-٢٥).

جالسان، ففزع منهما. فأمراه ألا يفزع، فهما لا يريدان به سوءاً، وطلبا منه أن يحكم بينهما، فهما خصمان، قد بغى أحدهما على الآخر. ويعرض أحدهما المسألة، ويحكم له داود، ثم يدرك فجأة أن في المسألة التي عرضت عليه تعريضاً بفعل قام به أو همّ بالقيام به، وأن عتاب الله وتنبيهه جاء ممثلاً بهذه المسألة دون التصريح أو المجاهرة، فخر داود راكعاً طالباً من الله الغفران.

الرابع: الحوار بين زكريا، عليه السلام، والملائكة:

وقد تكرر مرتين[1]، وهو يحكي دعاء زكريا لربه بأن يهبه الذرية الطيبة، فتناديه الملائكة مبشرة إياه باستجابة الله لدعائه. ويدرك زكريا أن هذا الصوت المبشر، هو صوت ملائكة الله، فيوجه خطابه إلى الله مباشرة متسائلاً عن كيفية تحقق دعائه وهو رجل مسن وهْن العظام، وزوجه امرأة عاقر: ﴿ رَبِّ، أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران:٤٠]، ولا يصرح النص القرآني بالكيفية التي أوصلت الملائكة بها البشارة، ربما اقتصر الأمر على مناداته دون أن يظهر المنادي: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران:٣٩] ويبدو أنّ الروح (جبريل) عليه السلام كان المجيب عن تساؤل زكريا ناقلاً رد الله إليه: ﴿ قَالَ: كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾ [مريم:٩].

وأضيف إلى هذه النماذج: الحوار الذي دار بين مريم والملك الذي تمثل لها بشراً سوياً، وقد حكى هذا الحوار قصة البشرى بعيسى، عليه السلام، وتعجب مريم من كيفية تحقق هذه الأمر وإنكارها إياه؛ فهي فتاة عذراء، لم تتزوج، ولم تك بغياً. ويوضح الملك أنها إرادة الله ناقلاً لها خطابه عز وجل: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٢١]. وتكرر هذا الحوار مرتين؛ **الأولى:** في سورة آل عمران[2]،

١- آل عمران: (٣٨-٤١)، ومريم: (١-١٠).

٢- الآيات: (٤٥-٤٧).

والثانية: في سورة مريم[1].

٢- الحوار بين الملائكة والكافرين الذين حقّ عليهم العذاب: حاور الملائكة الكافرين في موقفين؛ **الأول:** وقت قبض أرواحهم، وجاء هذا في خمسة مواطن[2]، نذكر منها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ: أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ؟! قَالُواْ: ضَلُّواْ عَنَّا. وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٣٧]. وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ، فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ: مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ. بَلَىٰٓ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ، فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ، فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النحل:٢٨-٢٩].

وتشكل هذه الحوارات بداية سلسلة لا تنتهي من العذاب، وهي نتيجة لحوارات خاضها أولئك المعذبين مع أطراف الحق والإيمان، ونتيجة لأعمالهم السيئة في دنياهم، وهذا يؤكد أن الحوارات في القرآن تدور في فلك واحد، وتسير سيراً منطقياً، فالحوار اللاحق نتيجة حتمية لحوار سابق. ويحكي القرآن الحوارات التي ستدور بين الملائكة (خزنة جهنم) والمعذبين الذين سبق حوارهم يوم القيامة، ودارت هذه الحوارات في أربعة مواطن[3] ، نذكر منها: الحوار الذي دار بين مالك (خازن جهنم) والمجرمين الذي استحقوا الخلود في نار جهنم: ﴿ وَنَادَوۡاْ: يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ.

قَالَ: إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ، لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ، وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[الزخرف:٧٧-٧٨]. والحوار الذي دار بين الذين في النار وخزنة جهنم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ:

١- الآيات: (١٦-٢١).

٢- الأنعام:٩٣، الأعراف: ٣٧، الأنفال: (٥٠-٥١)، النحل: (٢٨-٢٩)، يونس: (٩٠-٩١).

٣- هي: الزخرف: (٧٤-٧٨)، الملك: (٨-١٠)، ص: ٥٩، غافر: (٤٩-٥٠).

قَالُوٓاْ: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ؟! قَالُواْ: بَلَىٰ. قَالُواْ: فَٱدْعُواْ، وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر:٤٩-٥٠].

ج- الحوارات بين الرسل وأقوامهم*:

وهي الحوارات الأكثر حضوراً في القصص القرآني، والأكثر تلوناً وتحدياً، فحوار أحد الرسل، عليهم السلام، لقومه قد يتكرر في سور عدة، مع اختصاص كل سورة بإبراز جانب من جوانب هذا الحوار. وتدور حوارات الرسل وأقوامهم في فلك الدعوة إلى توحيد الله، فمن المعروف أن كل رسول أرسل إلى قومه قد دعاهم إلى كلمة التوحيد. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]؛ فعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له هو دعوة جميع رسله من عهد نوح إلى عهد محمد، وكثيراً ما وردت حوارات عدد من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة، وقد تركزت في حيز مخصوص من بنية النص، أو رتبت فيها بتناسق وتسلسل يؤكد هذه الحقيقة ويؤيدها.

١- الحوار بين نوح، عليه السلام، وقومه:

ورد هذا الحوار في ست سور، اختص كل منها بإبراز جانب من جوانب الحوار، وإن تكررت عباراته وكلماته في أكثر من موضع. وهذه السور ومواضع الحوار فيها، وقد رتبناها حسب ترتيب النزول:

* قمنا بترتيب حوارات الأنبياء ترتيباً زمنياً؛ ابتداءً بحوارات نوح ، عليه السلام، وانتهاء بحوارات عيسى عليه السلام. ثم رتبنا حوارات كل نبي مع قومه حسب ترتيب نزول السورة التي جاء فيها آخذين بنصيحة د. فضل عباس الذي يرى أن الدراسة الموضوعية للقصة القرآنية لا تتم إلا إذا كانت ركيزتها الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول، لنعرف ما الذي نزل أولاً، وما الذي نزل بعد ذلك. كما يرى أن هذه الركيزة ليست لدراسة القصة فحسب، بل لا بد منها في دراسة أي موضوع من موضوعات القرآن، وقد جاء هذا في حديثه عن كيفية تناول موضوع التكرار في القصة القرآنية الذي أثار زوبعة من الجدل أسالت مداد أقلام الباحثين بين مدافع ومشكك. (ينظر: فضل عباس، قصص القران الكريم، ص٧) وقد قام د: فضل عباس في كتابه المذكور بتتبع قصص الأنبياء من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهد مبيناً اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها، وشخصيتها. وهذا ما جعلنا نوجز في بيان هذا اللون من التكرار.

الأعراف: (٥٩-٦٤)، الشعراء: (١٠٥-١٢٢)، يونس: (٧١-٧٢)، هود: (٢٥-٤٣)، نوح: (٣،٤،{١٠-٢٠}،٢٣)، المؤمنون: (٢٣-٣٠).

ويحوي هذا الحوار تفصيلات دعوته، عليه السلام، لقومه، وتعنتهم واستكبارهم وسخريتهم منه، ثم تيئيس الله له من عدم إيمانهم، وأمره بصنع السفينة، ثم حصول الطوفان، وغرق الذين ظلموا ومنهم ابن نوح، الذي لم يستجب لتوسلات أبيه إليه بركوب السفينة.

٢- الحوار بين هود، عليه السلام، وقومه:

ورد هذا الحوار في خمس سور هي: الأعراف: (٢٥-٧٢)، والشعراء: (١٢٤-١٣٦)، وهود (٥٠-٥٧)، والأحقاف: (٢١-٢٣)، والمؤمنون: (٣٢-٣٨). ويحكي هذا الحوار دعوة هود لقومه، واستكبارهم واتهامهم له بأن آلهتهم قد مسته بسوء فيعلن لهم أنه قد بلغ رسالته، ويتوعدهم أن الله سيستخلف قوماً غيرهم.ويأتي أمر الله فينجي هوداً والذين آمنوا معه، ويهلك الكافرين.

٣- الحوار بين صالح، عليه السلام، وقومه:

وجاء في خمس سور أيضاً هي: القمر: (٢٣-٢٦)، والأعراف: (٧٣-٧٩)، والنمل: (٤٥-٤٩)، وهود: (٦١-٦٥)، والشعراء: (١٤٢-١٥٦). ويحكي الحوار دعوة صالح لقومه، وتذكيره لهم بما جاءهم من ربه من معجزة بينه تمثلت في الناقة، تمكينها، وتحذيرهم من أن يمسوها بسوء، حتى لا يمسهم عذاب الله، كما ذكرهم بنعم الله عليهم. ولكنهم سخروا منه، وتجاهلوا تحذيره، وعقروا الناقة، فأخذتهم الرجفة.

٤- الحوار بين إبراهيم، عليه السلام، وأبيه وقومه:

جاء حواره، عليه السلام، لأبيه وقومه في ست سور هي: مريم: (٤٢-٤٨)، والأنعام: (٧٤-٨٢)، والصافات: (٨٥-٩٧)، والأنبياء: (٥٢-٦٩)، والشعراء:(٧٠-٨٩)، والعنكبوت: (١٦-٢٦). ويحكى هذا الحوار دعوة إبراهيم لأبيه وقومه إلى الهداية مشيراً إلى ما يعبدونه من أصنام لا تسمع ولا تبصر شيئاً، واستخدامه للحجج والبراهين المفحمة. ولكنهم أصروا على التمسك

بآلهتهم، وهددوا إبراهيم ووبخوه على كلامه، فحطم أصنامهم، فألقوه في النـــار التي جعلها الله برداً وسلاماً. وحاور إبراهيم النمرود الذي حاجه في ربه وأفحمه بالحجة الساطعة[1].

٥- الحوار بين لوط، عليه السلام، وقومه:

وجاء في ست سور هـــي: الأعــراف: (٨٠-٨٢)، والنمــل: (٥٤-٥٦)، وهود: (٧٨-٧٩)، والحجر: (٦٨-٧١)، والشعراء: (١٦١-١٦٨)، والعنكبوت: (٢٨-٢٩). ويحكي الحوار إنكار لوط على قومه إتيان الفاحشة الشنيعة التي لـم يأتها أحد قبلهم، وتجاوزهم لحدود العقل والذوق والفطرة. ولكن القوم كانوا غير مبالين بكلامه؛ فقد كانت شهوتهم مسيطرة على عقولهم ومشاعرهم، فلم يزيـدوا على قولهم: أخرجوا آل لوط من قريتكم، إنهم أناس يتطهرون.

ويقتصر حوار لوط، عليه السلام، لقومه على نهيهم عن الفاحشة وتقبيحها في كل المواطن التي أتى فيها، باستثناء الحوار المذكور في سورة الشعراء فقـد بدأه بإخبارهم عن رسالته وأمانته، وأمرهم بتقوى الله وطاعته موضحاً أنـــه لا يريد على ذلك أجراً منهم، فأجره على الله[2]، ثم أخذ بتوبيخـــهم علـــى فعلتـــهم القبيحة. وذلك لمجاراة حوارات الأنبياء القارة في سورة الشعراء، والتي استهلت كلها بتلك العبارة مؤكدة وحدة الرسالة التي جاء بها رسل الله إلى أقوامهم.

وتكرر نصح لوط لقومه وتقبيحه لفعلهم حين زارته الملائكة بهيئة رجال حسان، فجاء قومه مسرعين وأمروه أن يخلي بينهم وبينٍ ضيفه. ولعل في تكرار حوار لوط مع قومه وإبراز العقوبة التي حاقت بهم دعوة إلى العبرة والتـــأمل، فمساكن قوم لوط لم تكن بعيدة عن العرب الذي نزل فيهم القرآن أول ما نـــزل، فهم يمرون عليها في طريقهم إلى الشام[3]. ولا شك أن مشاهدة آثارهـــم أبلـــغ

١- ينظر هذا الحوار في سورة البقرة: ٢٥٨.

٢- (كذبت قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم أخوهم لوط: ألا تتقون؟! إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلا على رب العالمين). الشعراء: (١٦١-١٦٤).

٣- التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص١٢٣. وفضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص٣٤٥.

تأثيراً في الاتعاظ بهم، والاعتبار بمصرعهم، فإن في أطلال قريتهم الخالية حجة شاهدة بصدق ما روى القرآن من أخبارهم[1].

٦- الحوار بين شعيب، عليه السلام، وقومه:

وذلك في أربع سور هي: الأعراف: (٨٥-٩٣) والشعراء: (١٧٧-١٨٨)، وهود (٨٤-٩٣)، والعنكبوت: (٣٦-٣٧)، وقد وجه شعيب خطابه في سورة الأعراف وهود والعنكبوت إلى (أهل مدين)، بينما وجه، عليه السلام، خطابه في سورة الشعراء إلى أصحاب الأيكة. ورافق هذا الاختلاف في المتلقي اختلاف في بنية الاستهلال الحواري؛ فالحديث عن خطاب شعيب لأهل مدين يستهل بقوله تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيب)، بينما تختفي هذه العلاقة في سورة الشعراء ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ: أَلَا تَتَّقُونَ؟! ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧] مظهرة تمايزها عن بنى الاستهلال الأخرى الموطئة لحوارات الأنبياء مع أقوامهم في السورة ذاتها.

فهل أصحاب الأيكة قوم غير أهل مدين؟ يرى ابن كثير أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وعلل عدم قوله عز وجل في سورة الشعراء: أخوهم شعيب بأنهم "نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبه إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أنّ أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً، عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال ثلاث أمم"[2].

ويحكي حوار شعيب مع قومه دعوته لهم إلى توحيد الله وعبادته، ثم أمره لهم بإيفاء الكيل والوزن بالقسط والعدل، ونهيه عن بخس الناس حقوقهم، والإفساد في الأرض، والصد عن الحق، وذكّرهم بنعم الله عليهم، ولكنهم قابلوا

١- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١٣٨.

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٣٤.

نصحه بالاستهزاء والتهديد، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

٧- حوار موسى، عليه السلام، مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل:

احتلت الحوارات التي شارك فيها موسى، عليه السلام، المساحة الكبرى من حوارات الأنبياء، وتعددت الأطراف التي جاذبت موسى الحديث، واختلفت اتجاهاتها ومواقفها. واتخذت هذه الحوارات طابع الجدل والمماحكة، سواء أدارت بين موسى وخصومه أم بينه وبين أتباعه، فقد أرسل إلى فئتين كانت كل منهما على جانب من العناد والقسوة والكفر: فئة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه)، وأخرى استمرأت الذل والتبعية والنقاش العقيم (بنو إسرائيل).. وليس غريباً أن تتكرر هذه الحوارات، مسلطة الضوء في كل مرة على بؤرة جديدة، ملاحقة المسلمين دافعة إياهم إلى تأملها وتدبرها، فصراعهم مع بني إسرائيل بدأ منذ فجر الرسالة المحمدية، وهو مستمر إلى يومنا هذا.

أ- الحوار بين موسى، عليه السلام، وفرعون:

وفيه يبين لفرعون أنه رسول من رب العالمين، لا يقول إلا الحق، ويطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، موضحاً له طريق الهداية التي توجب الرحمة والنجاة، وطريق الضلالة المؤدية إلى العذاب، ويطلب فرعون منه معجزة يثبت بها صدق دعوته، ويتحداه ساخراً منه، متهماً إياه بالسحر وبالجنون. هذا هو لب الحديث الذي دار بين موسى وفرعون، وقد تكرر بأساليب مختلفة، وتنوعت المضامين التي اختلطت بما يناسب موضوع السورة التي جاء فيها، وترتيب نزولها، فما ذكر في سورة بتفصيلٍ واسهاب، قد يذكر في السورة التي تليها باختصار وإيجاز، وقد يكشف جانباً من جوانب المحاورة لم يذكر سابقا[1].

جاء حوار موسى مع فرعون وملئه بما في ذلك سحرته موزعاً في عشر سور هي. الأعراف: (١٠٤،١٠٥،١٠٦،١١٥، ١١٦، ١٣٢، ١٣٤)، وطه: (٤٧-٦١، ٦٥-٦٦)، والشعراء: (١٦-٣١، ٤٣، ٤٤)، القصص: (٣٦-٣٨)، والإسراء: (١٠١-١٠٢)، يونس: (٧٦-٨١)، غافر: (٢٤-٢٧)، الزخرف: (٤٦، ٤٩، ٥٣)، الدخان: (١٨-٢١)، النازعات: (١٨-١٩).

١- لتوضيح جوانب القصة التي اختصت بها كل سورة تنظر الدارسة القيمة التي قام بها د. فضل عباس في كتابه قصص القرآن الكريم ص٤٦٦-٦١٧.

ب- حوار موسى، عليه السلام، مع بني إسرائيل:

جاء حوار موسى مع بني إسرائيل في السور التالية: الأعراف: (١٣٨-١٤١، ١٥٠)، طه: (٨٦-٨٧، ٩٢-٩٨)، الشعراء: (٦١-٦٢)، القصص: (١٨-١٩)، يونس: (٨٤-٨٦)، إبراهيم: (٦-١٥)، البقرة: (٥٤-٧١)، الصف: (٥)، المائدة: (٢٠-٢٤). والحديث عن حوار موسى مع بني إسرائيل له جوانب متعددة، ففيه يبين موسى نعم الله عليهم، وجحودهم بها وما استحقوه من عقاب. وقد يكون في هذا درس للمسلمين فيما يكلفون به حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل .وليتبينوا أخلاقهم المتأصلة فيهم فيحذروهم.

ولئن اقتصر الحديث عن فرعون على السور المكية، فقد تجاوز الحديث عن بني إسرائيل ذلك إلى السور المدينة، وهذا ما تقتضيه ظروف متلقي الحوار القرآني، فالمسلمون كانوا يعايشون اليهود في المدينة ويتعاملون معهم. وحكى الحوار في سورة الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى، وقد مرّوا على قوم عاكفين على أصنامهم، أن يجعل لهم آلهة، وإنكار موسى لطلبهم وتبكيتهم مستهجناً أن يعيينهم على الشرك، ومذكراً إياهم بنعم الله عليهم: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٠].

ويحكي غضب موسى على بني إسرائيل لاتخاذهم العجل إلهاً في غيبته، وعكوفهم على عبادته، وإنكاره عليهم أشد الإنكار، فاشتد ندمهم، وتيقنوا ضلالهم، فأعلنوا توبتهم: ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٩]، وانضوى تحت حواره لبني إسرائيل حواره لأخيه هارون، الذي صب عليه جام غضبه منكراً تقصيره في تحمل مسؤوليتهم، فيطلب منه أخوه هارون أن لا يشمت به الأعداء، فقد استضعفوه وكادوا يقتلونه. وفي سورة طه، يبين بنو إسرائيل سبب عبادتهم للعجل مشيرين إلى السامري الذي صنعه لهم .وظهر حوار هارون معهم، الذي لم يذكر في سورة الأعراف: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ [طه:٩٠] وردهم عليه ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ

إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:٩١]، كما ظهر في سورة طـــــه تعليل هارون لأخيه وفيـــه يبيّن مانعه من اللحاق بــــه: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه:٩٤]، وفيها أيضاً مشهد لم يذكر كذلـــك فـــي ســـورة الأعراف وهو الحوار الذي دار بين موسى والسامري وفيه يفصـــل الســـامري لموسى سر ما صنعه، فيواجهه موسى بجزائيه العاجل والآجل.

ويبين الاستعراض السابق لحوار موسى مع بني إسرائيل في سورة طـــه والحوار المماثل في سورة الأعراف انتفاء التكرار التام للحوار؛ فلكـــل ســـورة زاويتها الخاصة التي تناولت منها الحوار. وفي سورة إبراهيم، يذكر موسى بني إسرائيل بنعم الله عليهم، التي من أعظمها نعمة الحرية ورفع نـــير الاســـتعباد، ومبيناً لهم عاقبة الشكر والكفران، ومحذراً من عاقبة تماثل عاقبة ما حل بالأقوام السابقة التي كذبت رسلها، وكفرت بأنعم الله. وبهذا ينتهي حواره، عليه الســلام، مع قومه في السور المكية.

ننتقل بعدها إلى حواره معهم الوارد في سورة البقرة، وفيـــها يذكـــر الله اليهود بما كان بين نبيهم موسى وأجدادهم من حوارات، ويوجـــه إليـــه الكـــلام بضمير المخاطب موحداً بينهم وبين أجدادهم، لأنهم يسيرون على نهجهم ولـــو كانوا في زمانهم لفعلوا مثل فعلهم. وتحكي هذه الحوارات لـــوم موســـى لبنـــي إسرائيل لاتخاذهم العجل، وطلبه منهم قتل أنفسهم ليتوب الله عليهم، وقول بنـــي إسرائيل لموسى: أرنا الله جهرة. وكيف أخذتهم الصاعقة، وطلبهم من موسى أن يستبدل المن والسلوى بالثوم والعدس والبصل، واستهجانه لهذا الطلب.

ثم يحكي الله الحوار الذي دار بين موسى وبني إسرائيل حول ذبح البقـــرة، وكيف تطاولوا على أمر الله وتماطلوا في تنفيذه، فكانت المراجعة بينهم وبيـــن موسى والله ليبين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها، ولم يذبحوها إلا بعـــد هـــذا الجدل العقيم .ويحكي الحوار في سورة الصـــف إنكـــار موســـى علـــى قومـــه ومساءتـــه منهم؛ إنه ينكر عليهم إيذاءه وهم مستيقنون أنه رسول الله إليهم. ثـــم تأتي آخر حلقات حوار موسى مع بني إسرائيل في سورة المائدة، وفيها يذكـــر موسى قومه بالنعم التي أنعمها الله عليهم؛ فقد كان منهم الأنبياء، وجعـــل منـــهم

الملــوك بعد أن كانوا مستبعدين أرقاء، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين. ثم يأمر موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، فيرفض بنــــو إسرائيل الامتثال لأمر نبيهم مظهرين جبنهم وذلهم، ويطلبون بوقاحة الجبــان أن يتولى موسى أمر القتال بمعونة ربه، وأن يتركهم وشأنهم .ويحوي هذا الحــوار مقولة رجلين من بني إسرائيل أنعم الله عليهما، وفيها يطلبان مـــن قومــهما أن يدخلوا الأرض المقدسة، فالنصر سيكون حليفهم. وتضمنت قصة موسى، عليـــه السلام حوارات أخرى شاركته في تشكيلها أطراف خرجت من دائرة فرعـــون وملأيه، ومن دائرة بني إسرائيل، وتشمل: حواره مع الفتـــاتين اللتيــن كانتــا تذودان غنمهما عن الماء في مدين، ومع أبيهما الشيخ الكبير[1]. وحواره مع فتاه (خادمه) ومع الخضر عليه السلام[2].

٨- الحوار بين عيسى، عليه السلام، وقومه:

ورد حوار عيسى مع قومه في خمـــس ســـور هـــي: مريــم (٣٠-٣٦)، والزخرف: (٦٣-٦٤)، وآل عمران: (٤٩-٥٣)، والصـــف: (٦،١٤)، والمـــائدة: (٧٢،١١٢-١١٣). ولحوار عيسى في سورة مريم ميزة خاصـــة، فـــهو معجــزة خارقة في حد ذاته؛ لصدوره عن طفل وليد، وتم هذا النطق بإرادة الله لتبرئـــة مريم، عليها السلام، من تهمة الزنا التي أوشك قومها أن يلصقوهــا بــها، لمــا رأوها تحمل عيسى بين ذراعيها. ويبين حواره في ســـورة الزخــرف أصــل دعوتــه وهدفها.

وفي سورة آل عمران يفصل المعجزات التي جاء بها عيسى إلى قومــــه، والتي تستدعي منهم تقوى الله وطاعة رســوله. ثــم يصــور الحــوار إيمــان الحواريين .وفي سورة الصف يحكي تفاصيل دعوة عيسى وتبشيره برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد)، وإلصاق الذين كفروا من بني إســرائيل تهمــة الســحر بعيسى عليه السلام .ويتكرر ظهور حوار الحواريين مع عيسى، عليه الســـلام. وقد أضيف إلى تلك الحوارات نبأ المائدة التي أنزلها الله على الحواريين استجابة لدعاء نبيهــم.

١- ينظر الحوار في: سورة القصص: (٢٣-٢٩).

٢- ينظر الحوارين في: سورة الكهف: (٦٠-٨٢).

د- **الحوار بين نماذج بشرية خارج إطار النبوة:**

حكى القرآن الكريم حوارات دارت بين البشر، وتأرجح جل هذه الحوارات بين حدي الخير والشر؛ فأحد الأطراف يمثل النموذج الذي يحتذى به لأنه يجسد الخير بأبعاده، والآخر يمثل النموذج الذي يرفض لأنه يعكس الشر بألوانه. ويضع الحوار هذين النموذجين في تقابل معبراً عن موقف كل منهما إزاء الآخر، وما يعترك بهذا الموقف من مشاعر وانفعالات. وينتهي هذا الحوار بانتصار الخير على الشر، ولا نحصر الانتصار بالقضاء المادي الملموس كالقتل مثلاً، لأن الطرف الشرير قد يقتل طرف الخير، ومع هذا يكون القاتل هو المغلوب، والمقتول هو الغالب، فالانتصار الحقيقي هو انتصار الفكرة والمبدأ، لا انتصار القوة المادية.

وقد يسقط أصحاب هذه الفكرة مضرجين بدمائهم دفاعاً عنها وإعلاءً لكلمتها، كما حدث لهابيل، بن آدم عليه السلام وسحرة فرعون بعد أن آمنوا، ومؤمن آل فرعون، وغيرهم. وقد تتكرر هذه النماذج البشرية في كل زمان ومكان، فهي ليس مقتصرة على أشخاص بأعيانهم. ولعل عزوف القرآن عن تسمية هذه النماذج يؤكد هذا التعميم. ومثالها:

١- الحوار بين ابني آدم (قابيل وهابيل) [1]:

يحكي هذا الحوار صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، ذلك الصراع الذي يكشف عن طبيعة النفس البشرية،وما تحويه من نزعات ورغبات. ويمتد هذا الصراع الأول فيظل لون العلاقة الرابطة بين أبناء آدم إلى قيام الساعة. وكشف الحوار بين ابني آدم الستارعن الانفعالات النفسية والخلقية القارة في الشخصيتين؛ ففي الجملة الحوارية التي توجه بها قابيل إلى أخيه هابيل (لأَقْتُلَنَّكَ) قسم وتأكيد يوحيان بالجزم على القتل والاندفاع العنيف نحو الشر.بينما توحي المفردات المكونة لقولة هابيل بالوداعة والطيبة والمسالمة: **قال تعالى:** ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ، لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٨] إنه ينفي مؤكداً

١- ينظر هذا الحوار في: المائدة: (٢٧-٣٢).

عدم رده على اعتداء أخيه بالمثل، فهذا العمل يجعله في زمرة الظالمين الذين لا يخشون الله، وقد جاء الشرط في مقولته بلفظ الفعل (لئن بسطت)، وجاء الجزاء باسم الفاعل منفياً بما والباء للتأكيد (ما أنا بباسط). ونفي الصفة أبلغ من نفي الفعل، لما يوحي به الفعل من تقلب وحركة، وما توحي به الصفة من ثبات وديمومة. وفي هذا استعطاف لأخيه وتقبيح للفعل الذي سيقدم عليه، وتأكيد بأنه نزوة غضب عارضة، تزول بزوال أسبابها المتمثلة في الأنانية والحسد وحب الذات والحقد.

وينتهي الحوار بين الشقيقين بالقتل (فطوعت له نفسه قتل أخيه فأصبح من الخاسرين) لقد استجاب قابيل لهواجس الشر في داخله فقتل أخاه. وبهذا القتل ينتهي الصراع الخارجي بين أطراف الحوار، وتنطفئ شرارة الغضب والحقد التي حرقت عنصر الخير في نفس قابيل، فيعود له وعيه الذي كان مغيباً وقد رأى أخاه جثة هامدة، ويبدأ صراعه الداخلي العنيف: ﴿ قَالَ: يَٰوَيۡلَتَىٰٓ، أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ. فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

٢- الحوار بين صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن[١]:

التقط القرآن الموقف المتوتر من الحوار الذي دار بين صاحب الجنتين وصاحبه، وقد بدأ صاحب الجنتين هذا الموقف باستفزاز صاحبة واحتقاره مبرزاً تميزه عليه بالمال والأهل (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) وكأن صاحبه قد كبت غيظه فلم يرد على مقولته، لكنه انفجر كالبركان الثائر، حين يسمع تتمة مقولة صاحب الجنتين، ففيها أضفي على جنته صفة الخلود (ما أظن أن تبيد هذه أبداً)، وشكك في قيام الساعة (وما أظن الساعة قائمة)،وأكّد ضمن تشكيكه وافتراضه غير المؤكد أنه لوردّ إلى الله ليجدنَّ خيراً من جنتيه؛ إنّه يستشعر فوقيته واستحقاقه للخير. وتكشف قوله لصاحبه في نهاية وعظة له (إن ترن أنا أقل

١- الكهف: (٣٢-٤٢).

منك مالاً وولدا) التي أتبعهـا بالدعـاء عليـه ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف:٤١] مقدار الألم وعمـق الجرح الذي سببته عبارات صاحب الجنتين المنتفخة غروراً وقوة وغطرسـة. وفي هذا تجسيد واقعي للمشاعر الإنسانية التي تحركها الكلمات الجارحة فالقرآن يجسد هنا بشرية أطراف الحوار لا صفاتهم المثالية؛ وهذا ما أكده الله في بيـان صفات رسـله: ﴿ قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسـراء:٩٣] فكيف بالبشر العاديين؟! وينتصر الخير في النهاية بتحقق دعاء المؤمن، ونـدم صاحب الجنتين وإعلان توبته.

٣- الحوار بين الشاب الكافر ووالديه المؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ: أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى. وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ: وَيْلَكَ ءَامِنْ، إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ. فَيَقُولُ: مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف:١٧]، إنه حوار عام لا يختص بأشخاص معينيـن، فقد يحدث بين أطراف الخير وأطراف الشر الذين تربطهم علاقة القربى في كـل زمان ومكان، وتبدو مشاعر الطرفين أكـثر وضوحـاً وصدقـاً، وتحمـل مقـولات أطراف الخير جرعة انفعالية أكبر من تلك المحمولـة فـي مقـولات أطراف الخير الذين لا تربطهم بالأطراف المقابلة علاقة مماثلة. وتمتزج هـذه الجرعة بالخوف على الطرف الضال والحرص عليه والتعطش لهدايتـه، فـي الوقت الذي تتسم فيه مشاعر أطراف الخير والحق في المشـهد السـابق بنـبرة الحيادية. ولعل هذا يعلّل السرَّ الكامن وراء بعث كل رسول إلى قومه خاصة.

هـ - حوارات النساء:

شاركت المرأة مشاركة محدودة في تكوين الحوارات مقارنـة بمشـاركة الرجل، ولعل هذا الحضور المحدود كان المميز لتلك الحوارات التي بدت نغمـة لها إيقاعها الخاص في لحن طويل ذكوري النغمات .وعكست هـذه الحـوارات نماذج نسائية متعددة منها:

أ- حوار المرأة المؤمنة العابدة:

وقد حكته امرأة عمران في قولها مناجية ربها: ﴿ رَبِّ، إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا، فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:٣٥] فلما أنجبت أنثى قالت: ﴿ رَبِّ، إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ، وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:٣٦] لقد رسمت مناجاتها صورة المرأة الداعية المبتهلة التي تتوجه إلى ربها بأعز ما عندها ليرضى عنها، فقد نذرت ما في بطنها ليكون في خدمة بيت الله، فلما أنجبت أنثى توجهت إلى ربها معتذرة آسفة؛ لأن الذكر أقدر على خدمة بيت الله وملازمته من الأنثى. ثم طلبت من الله أن يجنّب ابنتها وما سيكون من ذريتها من وساوس الشيطان. ويستجيب الله لدعاء امرأة عمران، فتنشأ مريم نشأة بر وتقوى، وتلازم بيت الله تخدمه وتتعبد فيه.

ورسم حوارها مع زكريا شخصية الفتاة العابدة المؤمنة المستشعرة وجود الله معها ورعايته لها: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ: يَٰمَرْيَمُ، أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا؟! قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:٣٧].

وحكت مناجاة امرأة فرعون قوة إيمانها وتعلقها بالعطاء الإلهي رغم وجودها في بيئة ملوثة بالغرور والتسلط والطغيان والمراء العقيم: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ: رَبِّ، ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ، وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم:١١].

إنها مؤمنة ترفض الظلم الأرضي، وتنشد العدل الإلهي. لم يخف عليها بطش زوجها وطغيانه، فثارت عليه، ودعت الله أن ينجيها منه ومن ظلمه، وبدا

في دعائها إيمانها المطلق بالغيبيات، فهي تؤمن باليوم الآخر، وما فيه من عقاب وثواب، وتأمل أن تكون من الفائزين طالبة من الله أن يبني لها بيتاً في الجنة.

ب- حوار المرأة الأم:

وهو حوار يفيض بعاطفة الأمومة وما تحمله من حب وحنان، ومثاله قول امرأة فرعون وقد هَّم جنوده بقتل الطفل الرضيع موسى: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص:٩]، إنها تصرخ مشفقة على الطفل الصغير (لا تقتلوه) ثم تعلل نهيها محاولة إغراء فرعون بالإبقاء عليه: (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) إنها تقدم المنفعة، وهي مؤخرة في نفسها، على اتخاذه ولدا، وهو الأمر المقدم الذي تريده وتتمناه، لإقناع فرعون وجنوده بعدم قتله، ففرعون قد يبقيه ليصبح خادما من خدمه المطيعين أو حارسا من حراسه، ولكنه قد يرفض أن يتبناه.

وجسم الحذف الواضح في مقولتها لهفتها على هذا الطفل وحرصها على المحافظة على حياته، فقد حذفت المبتدأ الدال عليه مبرزة الخبر (قرة عين لي) فبه ستقر عينها. ويبدو أنها من الذكاء والحكمة بحيث لا تجعل الطفل قرة عين لفرعون أيضا، فقد يرفض كبرياؤه واستعلاؤه أن يكون هذا الطفل اللقيط قرة عينه، ولهذا أرجح أن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، وأن يكون في الجملة بتر بتركيب النهي (لا تقتلوه) الذي برز في ثنايا خطابها لفرعون، وقد رأت جنوده يهمون بقتل موسى فقطعت حديثها متوجهة إلى الجنود ناهية إياهم عن قتله، ثم تابعت حديثها مع فرعون. وحكى القرآن مقولة امرأة متلهفة على الإنجاب وممارسة دور الأمومة بأبعاده الواسعة وهذه المرأة هي زوج إبراهيم التي بشرتها الملائكة بأنها ستنجب غلاما وهي عجوز عقيم، فصرخت متسائلة قالت: ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ، ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا؟! إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود:٧٢]،إنه تساؤل المتعجب المندهش لا تساؤل المنكر الرافض، ففي صرختها (يا ويلتا) تفاجئ فرح أتبع بتساؤل يوحي مضمونه بخوف عدم تحقق البشارة لانعدام أسبابها في الواقع.

ج- حوار المرأة الطاهرة الشريفة، ذات النشأة الطيبة:

وتمثل هذا الحوار في قول مريم بنت عمران للرجل الذي اقتحم محرابها فجأة مبشراً إياها بأنها ستنجب غلاماً زكياً: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا، فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ: إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا.

قَالَ: إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا.

قَالَتْ: أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا؟![مريم:١٦-٢٠].

لقد جسمت مقولتا مريم انتفاضة الفتاة الشريفة المدافعة عن عرضها وطهرها، واستوعب تساؤلها تعبيرات انفعالها المتمثلة بالإنكار والغضب والتوبيخ والخوف والرفض، لما فيه من تنغيم صاعد.

وقد مثل هذا النمط من النساء ابنتا شعيب، حيث جسمت طريقة حوارهما مع موسى طهرهما ونشأتهما الطيبة: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ، وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ. قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟! قَالَتَا: لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص:٢٣]، إنه رد مختصر دال على تأدب الفتاتين وتحفظهما في مخاطبة رجل غريب، فهما لم تطيلا الحديث معه، فقد أجابتا إجابة بليغة دلالتها أكبر من حجم المفردات التي احتضنتها، استهلتاها ببيان ما يدل على حسن أخلاقهما وطهر صفاتهما؛ (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) إنهما تأنفان من الاختلاط بالرجال ومزاحمتهم على الماء؛ ولهذا تنتظر الفتاتان مغادرة السقاة ثم تقومان بسقي أغنامهما. وقد أتبعتا هذا البيان بتعليل يجيب عن تساؤل يدور في ذهن موسى وهو السبب الذي يدفع هاتين الفتاتين إلى القيام بهذا العمل الشاق الذي ينوء بحمله الرجال: (وأبونا شيخ كبير) إنهما مجبرتان على القيام به إذا.

وتلا الحوار السابق حوار أحادي الطرف وجهته إحدى الفتاتين إلى موسى، إنه يومئ بما أومأ إليه الحوار الأول، ولكنه يسبق بجملة توضح الكيفية التي ألقت بها الفتاة مقولتها: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ، قَالَتۡ: إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ [القصص:٢٥] إنها تمشي إلى موسى على خفر واستيحاء، ووشت هذه المشية بالتحول الطارئ على شخصية الفتاة، ففي اللقاء الأول كانت مشاعرها حيادية اتجاه موسى، ولكنها وقد رأت نبل أخلاقه ونجدته للغير، وقوته أخذت تميل إليه، وترغب في الزواج منه.

لقد أومأت برغبتها إيماء مثله الحياء، إنها لا تمشي على الأرض ولكنها" تمشي على حياء تتعثر فيه قدماها، وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيانها".[١] فالحياء حركة إيمائية توحي بمشاعر هذه الفتاة الصالحة العفيفة التي تستجيب لطبيعتها في طلب الزواج دون التصريح الذي قد يخدش الحشمة، فهي تختصر في مقولتها فلا تفضح عباراتها مشاعرها، وتظهر احتراسا يحول دون تشكل أي ظن سيئ تجاهها؛ فهي تؤكد له أن أباها هو من يدعوه، لا هي ولا أختها، وتبين سبب هذه الدعوة (ليجزيك أجر ما سقيت لنا).

د- حوار المرأة العاشقة:

وحكى الحوار القرآني نمطين من أنماط النساء العاشقات؛ النمط الأول: المرأة التي تسعى للحصول على الرجل الذي تريد بالتلميح الحريص لا بالتصريح مبقية على حيائها وحشمتها ووقارها، وقد مثلت ابنة شعيب، التي سبق الحديث عنها، هذا النمط، إنها تلك التي مشت إلى موسى على استحياء، ودخلت به بيت أبيها، وأغرت أباها بالاستمساك به والحرص عليه (يا أبت أستأجره) كاشفة عن صفتين في موسى تزيدان الرغبة فيه، وتوثقان الصلة بينه وبين أبيها، عله يبقيه قريبا منها: ﴿ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦]، لقد أخذت مكانها في هذا المشهد الحواري، وأدلت برأيها بذكاء وتخطيط وتدبير، ويثمر هذا التدبير اللطيف، ويؤتي أكله، فيستجيب الشيخ لمقترح ابنته، وقد أحس

١- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص١٠٨.

بما يدور في داخلها: ﴿ قَالَ: إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾ [القصص:٢٧].

أما النمط الثاني من النساء العاشقات فقد مثلته إمرأة العزيز التي استبدت بها شهوتها وغلبها الهوى فتتبعت داعيه، ومالت معه مندفعة بكل عاطفتها، مستخدمة كل ما أوتيت من دهاء ومكر، فجعلت تطارد فتاها دون حياء مصرحة برغبتها فيه: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ، وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ، وَقَالَتۡ: هَيۡتَ لَكَۚ. قَالَ: مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ، إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف:٢٣]؛ إنها تراوده، وتغلق الأبواب، وتعرض ذاتها أمامه بصراحة وإلحاح، ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ ﴾ [يوسف:٢٥] لقد كشف هذا السرد الإصرار على وقوع ما ترغب فيه، وعندما تفاجأ بزوجها لدى الباب، وهي في تلك الحالة المريبة يبلغ قلبها حنجرتها، فبادرت مدافعة عن ذاتها نافية عنها أي اتهام بقولها: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾ إنها تلصق التهمة بمعشوقها، لتحول نظرات زوجها إليه. لكنها لا تلبث أن تشير إلى العقوبة محددة إياها بالسجن أو العذاب الأليم: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [يوسف:٢٥]، وتبرز هذه العقوبة مقدار عشقها ليوسف، فهي لا تحكم عليه بالقتل أو النفي، لأنها حريصة على حياته. وسرعان ما ينتشر الخبر، وتلوكه الألسنة، فتستل امرأة العزيز سيف مكرها ودهائها للدفاع عن نفسها، وإفحام بنات جنسها: ﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ: ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ، قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ.

فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ، وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا، وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا، وَقَالَتِ: ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ.

فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ، وَقُلۡنَ: حَٰشَ لِلَّهِ، مَا هَٰذَا بَشَرًا، إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ؟!

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف:٣٠-٣٢].

ومما لا شك فيه أن امرأة العزيز قد حققت هدفها من هذا اللقاء مثبتة لهؤلاء النسوة أن لومها على مراودة هذا الشاب الجميل لغو لا فائدة منه، فأي امرأة ستراه ستهيم فيه وتشتهيه، وهل أدل على ذلك من تقطيعهن أيديهن لما رأينه، ووصفهن ليوسف بأنه ليس من البشر، وأنه ملك كريم. ولهذا تعلن بوضوح وتصميم وصراحة أنها راودته عن نفسه واستعصم، وتهدده أمامهن جميعاً بأنه سيسجن ويكون من الصاغرين إن لم يفعل ما تأمره به، يؤكد هذا توالي لام القسم ونون التوكيد.

كما يحكي المشهد عادة النساء في نقل الأخبار وأسلوبهم في ترتيب عناصر الجملة بما يشوق في سماع الخبر ويثير المتلقي إلى متابعته، فقد بدأن بذكر من سيدور محور الحديث عنها، وهي (إمرأة العزيز)، إنّها إمرأة عالية المكانة، أخبارها تهم الآخرين وتثير فضولهم، فكيف اذا ألصقت بها فضيحة؟! سيكون الإنكار أعظم، والتعطش لمعرفة تفاصيلها أكبر؛ لهذا نراهن يتبعن الخبر ﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ بتعليقين يمثلان موقفهن من هذه المراودة: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

كما حكى الحوار عاطفة النساء وانفعالهن الذي يطغى على إحساسهن في مواقف الدهشة؛ فقد فقدن السيطرة على السكاكين التي يحملنها فجرحن أيديهن حين رأين يوسف، ووصفنه بانفعال وانبهار وجردنه من صفاته البشرية: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ؟! ﴾.

ثم يحكي القرآن حواراً شاركت فيه إمرأة العزيز يبرز التغيّر الذي جدَّ على شخصيتها بعد بضع سنين من هذه الحادثة، فقد بدت تائبة نادمة معترفة بذنبها حين أجرى الملك تحقيقاً مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن بطلب من يوسف: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ؟!

قُلۡنَ: حَٰشَ لِلَّهِ، مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٍۚ.
قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ: ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ، أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ، وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ. ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ، وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف:٥١-٥٣].

هـ- حوار المرأة الملكة أو صاحبة السُّلطَة والسيادة:

ومثاله ما حكاه القرآن على لسان ملكة سبأ ببراعة جسمت اختلاط عواطف السيطرة والسلطان في نفس الملكة مع عواطف الخضوع الأنثوية(١).

وصف القرآن ملكة سبأ على لسان الهدهد بأنها: ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ [النمل:٢٣] فهي محاطة بكل أسباب الترف والنعيم. ولإضفاء أجواء السيادة والسلطان صنعت لها عرشاً عظيماً يلبي ما أرادته من عظمة وأبهة حكم.

هذه الملكة العظيمة نجدها تفزع فجأة إلى قومها طالبة منهم المشورة عندما تصلها رسالة سليمان: ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل:٣١]، فتقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ، أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي،مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ [النمل:٣٢]، إنها خائفة من القوة المهددة التي تنتظر ردّها، ولكن هذا الملأ كان دائماً طوع أمرها، فهي التي تحركه، وتصدر القرارات، وهو يشهد وينفذ ما تأمر به. وهذا ما وشت به مقولتها: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ ، فهي لم تقل حتى تشيرون علي، فقد كانت مفتونة بقدرتها على تسيير حاشيتها بإشارة منها، فغيب انبهارها بأناها (الآخر) جاعلاً منه أداة تنفيذ فحسب. إنها تحاول استشارة حاشيتها بإظهار أهمية رأيهم وكلمتهم، وكأن الخوف أفقدها القدرة على

١- سليمان الطروانة، دراسة نصية في القصة القرآنية، ص٢٢١.

إطلاق حكم قاطع، إنه موقف يحير الرجال ويثير مخاوفهم فكيف يكون وقع الأمر على امرأة مجبولة بطبيعتها على الخوف والوجل؟!

ونجد ملمحاً آخر من ملامح سياسة الأنثى وتفضيلها للحلول السلمية على المواجهة العسكرية في ردها على تلميح حاشيتها بميلهم للحرب:

﴿ قَالُواْ: نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ.

قَالَتۡ: إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ. وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل:٣٣-٣٥].

إنها تمارس سياسة الاسترضاء، وكسر حدّة الآخر باللطف واللين. وتبدو متلهفة لمعرفة نتيجة هذا المكر الأنثوي؛ لقد قدرت ملكة سبأ أنها إن استطاعت أن تغري سليمان بالهدية فإنها ستستطيع أن تحاربه وتقاومه وتتغلب عليه، وإلا فليس بها قدرة عليه. وحين يبوء مكرها بالفشل ترحل إلى سليمان لمقابلته، ويظهر كلامها معه لباقة وذكاءٍ وحكمة، فحين وصلت إلى قصر سليمان، سئلت عن عرشها: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾ قالت: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ ؛ إنها لم تجب بالنفي ولا بالإثبات؛ فلو نفت أن يكون المشار إليه عرشها لخالفت حقيقة ساطعة أمامها، فهو يشبهه حد التطابق .ولو أجابت بالإثبات لخالفت حدود المعقول والممكن، فكيف سينتقل عرشها العظيم المحاط بالحرس بهذه السهولة والسرعة؟! وربما حالت لباقتها وتأدبها دون التصريح، فقولها بأنه هو يعني إتهام سليمان بسرقته والتعدي عليه. وبهذا أظهرت إجابتها: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ [النمل:٤٢] حصافة وحكمة، إنها إجابة حيادية تبتعد عن أي تحديد ملزم.

وتدرك الملكة أن ما أعطيه سليمان، عليه السلام، ليس مما يعطاه ملوك الدنيا، إنه رجل يجمع إلى الملك النبوة، فتعلن إسلامها ﴿ رَبِّ، إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤]، لقد أبرزت مقولتها

"عواطف الخضوع الأنثوية؛ فكانت استجابتها لسليمان أقرب للاستسلام للذكر الأقوى"[1]؛ فهي تؤكد تبعيتها له بقولها: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

هذه هي أبرز الأنماط النسائية المشاركة في الحوار القرآني وقد مثلت المرأة بطبيعتها وما تخضع له هذه الطبيعة من ميول وانفعالات وغرائز، وبإنسانيتها التي تتساوى بها مع الرجل، فالمرأة تماثل الرجل وتخالفه في الوقت ذاته، وهذا ما يمثله الحوار.

و - حوارات أهل النار وأهل الجنة:

تقاسمت حوارات يوم القيامة مجموعة من الأطراف ذكرنا منهم الله عز وجل في حواره مع الملائكة، والأنبياء، والمعذبين في نار جهنم، والفائزين بجنة الخلد، وحواره مع جهنم .والملائكة في حوارهم مع أهل النار وأهل الجنة، وحوارهم مع الله. ونذكر هنا:

١- حوارات بين الكافرين المعذبين:

دارت في النار خصومات عنيفة وصراعات بين المعذبين فيها، وأبرزت الحوارات الدائرة بينهم العلاقة العدائية المشحونة عنفا وغيظا وحقدا ولوما وتقريعا، وهي لون من ألوان العذاب في نار جهنم. وجاءت هذه الحوارات نتيجة حتمية لممارسات أصحابها الفعلية والقولية في حياتهم الدنيا منها:

- **الحوار بين أول الأمم التي دخلت النار وآخرها:**

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا، قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ: رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ. قَالَ: لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ: فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٣٨-٣٩].

١- سليمان الطراونة، دراسة نصية للقصة القرآنية، ص٢٢٣.

- الحوار بين الأفواج المتقدمة والأفواج المتأخرة:

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ: لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ. قَالُوا: بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ. قَالُوا: رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ. وَقَالُوا: مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ؟! أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾

[ص:٥٩-٦٣].

- حوارات بين الأتباع والمتبوعين:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا: أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

- حوارات بين الذين أشركوا وشركائهم:

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا، هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ: إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [النحل:٨٦]. ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ. فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ، وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم: مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

[يونس:٢٨-٢٩].

- بين الشيطان ومن اتبعوه:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ: لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٢٢].

ويوبخ الكافر الشيطان الذي فتنه ثم تبرى منه، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ. حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ: يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٨].
ويرد قرينه موجها خطابه إلى الله: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ: رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ، وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ. قَالَ: لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ [ق:٢٧-٢٨].

- حوار بين الكافرين وبعض أعضائهم:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ: لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا؟! قَالُوٓا۟: أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت:٢٠-٢٣]. إن نطق ما لا يتوقع نطقه يخلق مفاجأة تهز المتلقي، فيكون المتكلم مثار دهشته أكثر من الرسالة التي ينقلها إليه، ويفسر التساؤل الذي وجهه المعذبون لأعضائهم من

الإجابة؛ فقولهم: لم شهدتم علينا؟ يعني: كيف نطقتم، بدليل إجابة أعضائهم: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

٢- حوارات بين المؤمنين والكافرين:

وفي هذه الحوارات تبرز المغايرة وتحول أوضاع المتحاورين؛ فالمؤمنون قد فازوا برضا الله وجنته، إنهم في موضع القوة إذا، بينما تخيم الذلة والمسكنة على الكافرين، الذين سخط الله عليهم وأدخلهم النار، فأصبحوا غير ما كانوا عليه في الدنيا. وجاءت هذه الحوارات في ثلاثة مواطن؛ **الأول في سورة المدثر**: ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ، فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالُواْ: لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ، حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر:٣٩-٤٧].

والثاني في سورة الأعراف: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟! قَالُواْ: نَعَمْ.

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ، ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأعراف:٤٤-٤٥].

ويظهر في السورة ذاتها حوار آخر بين الفريقين يستهله أصحاب النار: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ: أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ. قَالُوٓاْ: إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٥٠].

والثالث في سورة الصافات: ويحوي الخطاب الذي وجهه قائل من أهل الجنة إلى قرينه الكافر الذي كان يحاول إغواءه في الدنيا، وقد رآه في وسط الجحيم: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ، قَالَ: تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ، وَلَوْلَا

نِعۡمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات:٥٥-٥٧].

٣- حوار بين المؤمنين والمنافقين:

وهو حوار مميز لثنائية النور والظلام التي يمثلها الفريقان؛ فالنور الذي أشرق في أرواح المؤمنين في الدنيا مخرجاً إياهم من ظلمة الكفر أخذ، يوم القيامة، يشع منهم ويفيض بين أيديهم بينما لف المنافقين ظلام يمثل ضميرهم وظلمات الخفاء المستور؛ لأنهم رفضوا النور في حياتهم فكان جزاؤهم الحرمان من النور يوم القيامة، فأخذوا يستجدون النور من المؤمنين: ﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ: ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ.

قِيلَ: ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورًا. فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ.

يُنَادُونَهُمۡ: أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ؟!

قَالُواْ: بَلَىٰ، وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ، وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ. فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ، مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

[الحديد:١٣-١٥].

٤- حوارات بين أهل الجنة:

وهي حوارات هادئة مسالمة أنتجتها أطراف تربطها علاقة المودة التي لا يشوبها غل ولا حقد، فحوارهم سمر ونجوى لا تخاصم وجدال: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر:٤٧]. وجاءت هذه الحوارات في موطنين فقط، **الأول في سورة الصافات:** ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ، قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ: إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ، يَقُولُ: أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ؟! أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ؟! قَالَ: هَلۡ أَنتُم

مُّطَّلِعُونَ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ. قَالَ: تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الصافات:٥٠-٦٠].

والثاني في سورة الطور: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ، قَالُوٓاْ: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ، إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور:٢٥-٢٨]. لقد استهل الحواران بما يجسم علاقة الألفة الرابطة بين الأطراف فهم يقبلون على بعضهم ثم يتجاذبون أطراف الحديث: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، كما لا يظهر الصوتان المتقابلان في حوارهم، فحديثهم محمول بصوت واحد يجسم وحدتهم وتآلفهم. ولعلّ انعدام الصراع بين المؤمنين الفائزين بجنة الخلد كان وراء قلة المشاهد الحوارية المصورة لحالتهم التي جسمها الخطاب الإلهي أحسن تجسيم بأسلوب الإخبار الذي يستوعب الوصف والتفصيل، وهذا ملا يطيقه الحوار ولا يتناسب معه.

ز- الحوار بين البشر وغير البشر:

ذكرنا الحوارات التي تقاسمتها الملائكة مع البشر في الدنيا والآخرة، ونذكر هنا الحوارات التي اختص بها نبي من أنبياء الله وهو سليمان، عليه السلام، مع النملة والهدهد والجن .وهي حوارات حقيقة حكاها الله على ألسنة هؤلاء ليبرز عظم النعمة التي أسبغها على سليمان، فقد سخر له ما في الكون لخدمته، ومكنه من التواصل اللغوي معها، فكل ما في الكون ينطق، ولكن إدراك مدلولات هذه المنطوقات يكاد ينحصر فيمن ينتمي مع الناطق إلى مجموعة أو تصنيف نوعي معين .فإذا أدرك من لا ينتمي إلى هذا التصنيف منطوقات أعضائه فإن إدراكه يكون خارجاً عن المألوف في عملية التواصل .ولهذا كسرت حوارات سليمان مع المخلوقات غير البشرية توقع المتلقي، وأثارت دهشته، وجسمت له عظم نعمته – عز وجل– على عبده سليمان. وماثلت مقولات هذه المخلوقات مقولات

الأطراف الأخرى في الحوارات القرآنية، فلم تظهر تميزا في أسلوبيتها يجعلها تفارق المقولات الأخرى، فالواقعية في لغة الحوار واقعية نفسية لا لغوية.

❑ **الحوار بين سليمان والهدهد:**

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ: أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ؛ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ. قَالَ: سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ. ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل:٢٢-٢٨].

❑ **الحوار بين سليمان وعفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب:**

﴿ قَالَ: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟، أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ؟

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ: أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ. قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ: أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ. فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ، قَالَ: هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٣٨-٤٠].

- حوار النملة مع النمل وإدراك سليمان لقولها وإشارتها لجنسها:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ، ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ: رَبِّ ، أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَـٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٨-١٩].

ح - حوارات الشخصية الجماعية (اتحاد المخاطبين الذي صدر عنهم الحوار):

برز الصوت الجماعي في الحوارات القرآنية بروزاً لافتاً، ودل على رأي أو موقف جمعي توحدت فيه ومن أجله مجموعة من الأفراد. ويؤكد هذا التعميم في طرح الشخصية تمثيل القرآن لنماذج قد تكرر في كل زمان ومكان، والآراء قد يجتمع على كل منها مجموعة تتبناها وتدافع عنها.

ويفتح الصوت الجمعي الباب للاحتمالات والتوقعات التي تبين كيفية صدور المقولة أو القالب التركيبّي الذي تقولبت فيه، فالصوت الجمعي مزيج من الأصوات وحّدتها المقولة ولكنها غير موحدة النغمات، فصوت ينغم المقولة تنغيم السؤال الإنكاري، وصوت ينغمها تنغيم السؤال التعجبي، وصوت ينغمها تنغيم الخبر، إلى آخر هذه التنغيمات التي يكشفها السياق وقرائن الحال والقرائن اللفظية .ويفيد هذا في التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية؛ فكل قراءة تصور موقفاً لبعضٍ من كلٍ صوتي، مبينة ما لطرائق أداء المقولة من أثر في المعنى واختلافه. ومن الأصوات الجماعية ما جاء في حوارات أهل الكهف: ﴿ قَالُواْ: لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ: رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ، أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامًا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ، وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١٩].

وما جاء في حوارات الاخوة أصحاب الجنة (البستان): ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ أَنِ: ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ. فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ، أَن: لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ، وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟: إِنَّا لَضَآلُّونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القلم:٢١-٢٧].

وما جاء في حوارات أقوام الأنبياء مع بعضهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ؟!

قَالُوٓا۟: إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟: إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

وفي حواراتهم لأنبيائهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ: لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:٨٨].

وما جاء في جل حوارات يوم القيامة: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ: أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟: إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف:٥٠].

واختلف عدد الأطراف الذين تبادلوا الحوارات القرآنية، ويمكن أن نقسم الحوار من حيث عدد المتحاورين إلى:

أ- **الحوار أحادي الطرف**، وفيه ينتج طرف واحد الرسالة الكلامية، ويكتفي الطرف الآخر بدور المتلقي أو السامع، ومثاله ما جاء في حوار الله -عز وجل- للمؤمنين الفائزين بالجنة: ﴿ يَٰعِبَادِ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ، وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ. ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ، ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف:٦٨-٧٠]. وحواره مع الذين حق عليهم

العـــــــــــذاب: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّـةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ: أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل:٨٣-٨٥]، ولعل شدّة انفعال المتلقي في المشهدين حالت دون قدرته على المحاورة.

ب- **الحوار بين اثنين**، كالحوار بين موسى وأخيه هارون فـــي المشـــهد الآتـــي: ﴿ قَالَ: يَـٰهَـٰرُونُ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى؟ قَالَ: يَبْنَؤُمَّ، لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ، إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ [طه:٩٢-٩٤].

والحوار بين موسى وفرعـون: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ، فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ: إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا. قَالَ: لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ، وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١-١٠٢]. وتبـــدو العلاقـــة والتلاحم بين الطرفين قوية، فكل طرف يوجه حديثه لطرف واحد فقـــط وهـــذا يحول دون تشتت المرسل والمستقبل.

ج- **الحوار بين واحد من جانب واثنين من الجانب الآخر**، كالحوار بيـــن فرعون من طرف وموسى وهارون من الطرف الآخـــر: ﴿ قَالَ: فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ؟ قَالَ: رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

والحوار بين موسى من طرف وابنتي شعيب من الطرف الآخر:

﴿ قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ قَالَتَا: لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص:٢٣].

د- **الحوار بين واحد وجماعة**، وهو النمط الغالب في الحوارات القرآنيـــة، وساد بشكل خاص في حوارات الأنبياء مع أقوامهم: (نوح مع قومه، وهود مع

قومه، وصالح مع قومه، وشعيب مع قومه، ولوط مع قومه، وإبراهيم مع أبيه وقومه، وموسى مع بني إسرائيل والملأ من قوم فرعون، وعيسى مع بني إسرائيل والحواريين) .وظهر في حوارات الملوك لأقوامهم، كحوار فرعون مع حاشيته، وحوار ملكة سبأ مع حاشيتها.

هـ- الحوار بين جماعة وجماعة، كحوارات أهل الحنة مع أهل النار:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ: أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ. قَالُوٓاْ: إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف:٥٠].

وحوارات أهل جهنم الذين تفرقوا أحزاباً وفرقاً متخاصمة: ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ: إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا، فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ؟ قَالُواْ: لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ [إبراهيم:٢١] **وحوارات المؤمنين مع الكافرين:** ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ: أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ؟! قَالُوٓاْ: إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ. قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ: إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

و- حوار أفراد الجماعة الواحدة (حوار جماعي)، وفيه يحكي الله رأي جماعة ما بمقولة تأتي على لسانهم جميعا بدلا من حكاية موقفهم بأسلوب الإخبار، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ، فَقَالُوٓاْ: أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ؟! إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ. أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا؟! بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾ [القمر:٢٣-٢٥]، إنه حوار جامع لحوارات متعددة جرت بين قوم ثمود، لخص مضمونها الرئيس الذي دارت حوله وبطريقة الأداء التي قولب فهيا. وما جاء في قوله تعالى على لسان فرعون وملأيه: ﴿ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ؟! ﴾ [المؤمنون:٤٧]. ومثله الصوت الجمعي

الذي حمل حوار رسل الله إلى أقوامهم، والصوت الجمعي الذي حمل ردود الكافرين عليهم ممثلا وحدة الرسالة التي جاء بها رسل الله وموقف الكافرين منهم في كل زمان ومكان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ: إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ، وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَتْ رُسُلُهُمْ: أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ. قَالُوٓاْ: إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم:٩-١٠].

ز- **الحوار بين اثنين وجماعة**، كالحوار بين رجلين مؤمنين من بني إسرائيل وقومهما المتخاذلين عن القتال ودخول الأرض المقدسة: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا: ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣].

أشكال الحوار القرآني
(وضعيات التواصل الحواري)

لم يلتزم القرآن الكريم بأسلوب محدد في تشكيل البنية الحوارية، فقد تقولبت حكاية القائلين في أشكال عدة، أكثرها حضورا الأشكال التالية:

١- الحوار الخارجي (الثنائي):

وهو النمط الحواري السائد في القصص القرآني خاصة، فقد جسم الثنائيات التي ظللت جل الحوارات القرانية، وأهمهما ثنائية الحق والباطل .وتنازعته أطراف الحوار المتعددة التي فصلت في الموضع السابق من هذه الدراسة، وقد لاحظنا تصوير الحوار لهذه الأطراف وكشفه عن همومها المختلفة، فأسلوبية المقولة الحوارية تتناسب مع الطرف المحاور وتصدر عنه صدورا، ولكل طرف معجمه اللغوي الخاص "الذي قد يبرز جليا أو يختفي اختفاء كاملا حسب السياق"[١]، وتضفي هذه الخصوصية ظلالها على تركيب الجملة الحوارية أيضا، وعلى طول المقولة الحوارية وحركتها.

٢- الحوار الداخلي

وهو الحوار الذي يدور بين الشخص وذاته، فيكون مرسلا ومستقبلا في الوقت ذاته، إنها مقولة غير معلنة، ويرجح حصولها داخل النفس. وقد جاء هذا النمط من الحوار في عدد من المواطن، وتضافر مع الحوار الخارجي في تحريك الحدث وتأزم الموقف مطلعا قارئ النص الحواري أو سامعه على باطن الشخصية وما يعتملها من صراعات. ويميز الحوار الداخلي بالقرائن المصاحبة

١- سليمان الطراونة، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص١٧٢.

للموقف الكلامي، فهو يحتاج إلى دراسة سياقية نصية شاملة، وقد يؤدي إدراج عدد من المقولات تحته إلى حل إشكالية التناقض التي دفعت عدداً من المفسرين إلى تبريرات وتعليلات غير مقنعة. [1] ومن الحوار الداخلي مقولة إبراهيم، عليه السلام، التي امتزجت فجأة مع ردة المعلن على قومه في الحوار الآتي: ﴿ قَالُوٓاْ: أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ؟! قَالَ: بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٥-٥٧] فلا يمكن أن يتصور نطق إبراهيم بجملة ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ على مسمع قومه، لقد أسرها في نفسه مضمراً مكيدته. ولو أعلنها لبطشوا به، فالمساس بأصنامهم أو التهديد بتدميرها جريمة لا تغتفر. ويثبت تساؤل قومه حين رأوا ما حلّ بأصنامهم سرّية مقولته: ﴿ قَالُواْ: مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٩] فلو كان قد قال مقولته علناً لما ذهب قومه يلتمسون الفاعل. ومثلها الحوار الذي حصل في نفس يوسف، عليه السلام، في المشهد الحواري الذي دار بينه وبين إخوته: ﴿ قَالُوٓاْ:إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ: أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ. قَالُواْ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ، إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا، فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ، إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف:٧٧-٧٨]، فجملة ﴿ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ مقولة داخلية، حددت الجملة السردية السابقة لها نوعها (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم)، وهي جملة تعج بما يوحي بالسرّية فبعد أن قال: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ ﴾ أتبعها بما يؤكد المعنى ﴿ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ ﴾

١- ينظر تعليق الزمخشري على مقولة إبراهيم لضيفه (قوم منكرون)، الكشاف، ج٤، ص٣٩١.

والمتتبع لسير الأحداث في القصة يلاحظ حرص يوسف على إخفاء شخصه وهويته عن اخوته، وقد أدى هذا إلى تكتيم مشاعره وعدم تقييم كـــلام إخوتـــه الجارح بالتكذيب أو التوبيخ. كما أكدت مقولة إخوته التي لحقت مقولته مباشـــرة أنهم لم يتعرضوا لتوبيخ أو إنكار، ففيهما محاولة لإقناعه بأن يترك أخاهم ويأخذ أحدهم مكانه، فلو سمعوا توبيخه لما توجهوا له بهذا الطلب.

ونظير ذلك مقالـــة إبليس بين يدي رب العـــزة، عندما أمره أن يسجــــد لآدم: ﴿ قَالَ: ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا. قَالَ: أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٦١-٦٢]، فمقولة إبليس التي جاءت بعد فعل القول المكرر توحي بالمكر وحوك الدســـائس لآدم وبنيه. لقد قالها سراً، بعد أن رد على استفسار الله منه عن سر امتناعه عن السجود لآدم: ﴿ قَالَ: ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟! ﴾ ثم انتقل من الجهر إلـــى الســـر ليقـــول: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ تماماً كما فعل إبراهيم مع قومه، ولكن مع فارق يكشف عن روعة النظم القرآني ودقته؛ فقوم إبراهيم لا يملكون قـــدرة الاطلاع على ما في نفسه، أما ربّ العزة فهو مطلع على الجهر والسر وأخفـــى، لقد علم عز وجل ما دار في نفس إبليس فحكى مقولته السرية كما لو كان قالـــها جهراً، ورد عليها مواجهاً إبليس بما في داخله من هواجس وأفكـــــار: ﴿ قَالَ: ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا، وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ، وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ، وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإســـــراء:٦٣-٦٤]، ولعل تكرار فعل القول (قال) يوحي بالفصل بين مقالتي إبليس الجهرية والسرية.

وفي سورة الذاريات عندما دخلت الملائكة بهيئة رجال غرباء على ســـيدنا إبراهيم،امتزجت في رده العلني عليهم مقولة لا يمكـــن أن تصنـــف إلا ضمـــن الحوار الداخلي، لما عرف من خلق إبراهيـــم عليـــه الســـلام: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ

﴿فَقَالُواْ: سَلَٰمًا. قَالَ: سَلَٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥] فإبراهيم، عليه السلام، لا يمكن أن ينكر ضيوفه مواجها إياهم بموقفه منهم، إنه يرد على تحيتهم بأحسن منها قائلا لهم: (سلام) للدلالة على ثبات السلام وتحققه آخذا بأدب الله مكرما إياهم، فهل يعقل أن يستهل حواره معهم بالإنكار الذي يتنافى مع كرم أخلاقه؟!.

٣- الحوار التلقيني:

وهو الحوار الذي وجهه الله (الطرف المحرك للنصوص الحوارية) إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (متلقي الوحي) ليقوم بتوجيهه إلى الطرف المقصود بصيغة الأمر (قل) الموحية بتوجيه الله لرسوله، وبأهمية المقولة التي عليه أن ينقلها إلى الآخرين، وبالكيفية التي يجب أن تنقل فيها.

والحوار التلقيني حوار خاص برسول الله، إنه الخطاب المميز بين الذات المحمدية والوحي القرآني. وجاء هذا النمط من الحوار في مائتين وعشرة مواضع، توزعت على السور المكية والمدينة، مع استئثار السور المكية بالنصيب الأكبر منها[١]. واختلفت المضامين التي حواها الحوار التلقيني المكي عن تلك الموجودة في نظيره المدني، لاختلاف المتلقي (مسبب الحوار)؛ فقد أمر الرسول بتوجيه مقولات الله إلى الكافرين والمشركين في العهد المكي ردا على حججهم وسخريتهم من الرسول وإنكارهم لدعوته، ولذا حوت مقولات الله الموجهة إليهم وعيدا، أوإنذارا، أو سخرية، أو تكذيبا، أو تعليقا على أقوالهم، أو إنكارا لها، أو تقريرا لهم. أما وقد قامت الدولة الإسلامية، واستقرت أمورها، وأفحم أعداؤها فلم يعودوا قادرين على الجهر بعداوتهم للرسول وأتباعه، فتحولوا من المواجهة المباشرة إلى المواجهة السرية غير المعلنة المتمثلة في الدسائس والنفاق والمكر وإثارة الشبهات وتثبيط العزائم، فأدى الحوار التلقيني دور الكاشف الذي أزال الستار عن تلك الخصومات والدسائس التي أبرمت في الخفاء. فكثيرا ما نقل الله لرسوله مقولات أعدائه من المنافقين المتخاذلين والمشركين من أهل الكتاب، وأمره بالرد عليهم وفضحهم أمام أنفسهم،وفي هذا

١- جاء الحوار التلقيني في السور المكية في مائتين واثنين وعشرين موضعا، وفي ثمانية وثمانين موضعا في السور المدينة.

إثبات لهم وللجميع بصدق الرسول فهو متصل بالقدرة الإلهية المطَلِعَة عليهم والمُطْلِعَة إياه على خفاياهم. كما تضمّن الحوار التلقيني عرضاً لتساؤلات المسلمين واستفساراتهم المتعلقة بأمور دينهم ودنياهم وإجابة الله عنها.

- **ومن الأشكال التجريدية التي تقولب فيها الحوار التلقيني:**

(قالوا: ---------------------- قل: ----------------------).

كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ: لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ. قُلۡ: بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ، عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ:٣]. فمقولة الكافرين قد صدرت ونقلها الله على لسان أصحابها، وأمر رسوله بالرد عليهم، فتشكل حوار مسبق صدرت مقولة أحد أطرافه، وتنتظر مقولة الطرف الآخر التنفيذ.

(يقولون: ---------------------- قل: ----------------------).

كما في قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ: هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ؟! قُلۡ: إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ. يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ؛ يَقُولُونَ: لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ. قُل: لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ، وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

إن استهلال مقولة المنافقين بفعل الكلام (يقولون) وهو بصيغة المضارع يوحي بنقل حي ومباشر لما يدور في مجلس أولئك المنافقين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤمر الرسول بالرد عليهم مواجها إياهم بما يدور بينهم من حوارات. ثم يوجه الله خطابا خاصا لرسوله ﴿ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ ﴾ ثم ينقل له مقولة أخرى تبدو مكملة للمقولة الأولى، ويأمره بالرد عليهم، فيتشكل حوار ينتظر التنفيذ.

وما كان هذا الحوار ليتشكل لولا أمر الله، فالمنافقون لم يواجهوا الرسول بمقولتهم، والرسول لا يعلم ما في الصدور ولا ما يجري في الخفاء إلا إذا أخبره الله.

(قل:-------------؟ سيقولون:----------------- قل:--------------------).

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟! سَيَقُولُونَ: لِلَّهِۚ. قُلْ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟!﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٥] إنه عز وجل يطلع الرسول على الحوار الذي سيكون بينه وبين الكافرين، محدداً له إجابتهم الحتمية، وملقّناً إياه الرّد عليها .وهذا يعني ان مقولات الأطراف تنتظر شارة البدء (قل) ليكون ما أراده الله وأطلع عليه رسوله.

(قل:------------------؟ قل: --------------------).

وفي هذا النمط من التشكيل يلقن الله رسوله السؤال والإجابة عنه، فيكون الحوار أحادياً، ليواجه الرسول متلقيه بالسؤال والجواب مجرداً إياه من المشاركة، موحياً بهذا أن القضية المطروحة لا تحتاج إلى نقاش، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ: مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ؟ قُلِ: ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ:٢٤].

(قل:---------------------).

وفي هذا النمط أمر بطرح المقولة الإلهية على المتلقي دون استنطاق إجابته، ودون أن تكون المقولة رداً كلامياً على مقولة ما، ومثاله قوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قُلْ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحج:٤٩]، وقوله: ﴿ قُلْ: أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾ [الجن:١].

وقد يكون الأمر بالقول استجابة لاستفسار أو تساؤل لما لم يطرحه الله بلسان قائليه ربما لكون المستفسر عنه لا يشكل قضية تثير تحدياً أو خصومة يحتاجان إلى نسبة المقولة إلى قائلها؛ لإقامة الحجة له أو عليه. وظهر هذا النمط من الحوار في استفسارات المسلمين عن أمور دينهم ودنياهم، ومن ذلك:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ: مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٥]. وتنوعت الردود التي لقنها الله لرسوله في مواجهة خصومهم، وفيما يلي طائفة بأنواع من هذه الردود المصنفة بحسب أغراضها:

١- **قلب الدعوى**: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل: لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

٢- **السخرية**: ﴿ وَقَالُوٓا۟: أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ؟! قُلْ: كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [الإسراء:٤٩-٥١].

٣- **الوعيد**: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ [التوبة:٨١].

٤- **التعجيز**: ﴿ وَقَالُوا۟: لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ: هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١].

٥- **الإنكار**: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ. قُلْ: إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ؟! ﴾ [آل عمران:٧٢-٧٣].

٦- **التوبيخ**: ﴿ قُلْ: مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ؟! سَيَقُولُونَ لِلَّهِ. قُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟! ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧].

٤- المناجاة (الدعاء):

وهي شكل من أشكال الحوار الأحادي في القرآن الكريم، يتوجه فيها المخلوق برسالته الكلامية المتضمنة همومه المختلفة إلى خالقه، وهو متيقن بأن الله يسمعه ويبصره، متأملا أن يستجيب لدعائه. وتتمثل هذه الاستجابة بتنفيذ الطلب وتحقيقه لا في الرد الكلامي، فإن حصل رد كلامي فهذه خصوصية يمن بها الله على من يشاء من عباده. وقد تكون المناجاة سرية وقد تكون علنية ونمثل عليها بدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ، وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ، وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء:٨٣-٨٥].

٥- الحوار بالإشارة:

وهو شكل من أشكال التواصل اللاكلامي، يستعاض فيه عن الكلام بإشارات إيحائية مترجمة لما في نفس المشير. استخدم هذا الشكل الخطابي شخصان في موقفين متقاربين؛ الأول زكريا، عليه السلام، حين بشرته الملائكة بيحيى، فطلب من ربه آية فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام: ﴿ قَالَ: رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً. قَالَ: ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران:٤١]. فخرج على قومه من المحراب: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم:١١]. ومريم، عليها السلام، التي وجهها الله إلى كيفية مواجهة قومها بابنها عيسى الذي أنجبته دون أب: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا. فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ: يَٰمَرْيَمُ، لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا، يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ: كَيْفَ نُكَلِّمُ

مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم:٢٦-٢٩].

وهنا يفاجأ المتلقون بطفـــل وليـــد يتكلـــم: ﴿ قَالَ: إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا، وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ، وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا، وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ، وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

إن هذا الخطاب يشكل كسراً للقوانين البشرية فهو معجزة لم تتكرر، جاءت لإثبات معجزة أخرى هي إنجاب عيسى دون أب. ويمكـــن أن نعلـــل أمـــر الله لزكريا ومريم بالصيام عن الكلام، بكون معجزة إنجاب يحيى وعيسى أمراً واقعاً بوضوح يرفض الجدل والنقاش البشري، لأنه يفوق قدرة البشر وقوانينـــهم ولا شك في أن إنجاب عيسى معجزة تفوق معجزة إنجاب يحيى، ولـــهذا جعلـــه الله ينطق دفاعاً عن أُمه التي تعرضت لهجوم كلامي عنيف من قومها حين أتتـــهم به.

فاعليّة الحوار القرآني

الحوار أسلوب من أساليب نقل مضامين الرســـالة الإلهيـــة إلـــى البشـــر، والأسلوب هو الطريقة المختارة للتعبير عن المضمون، ولاختيار هذه الطريقـــة دون غيرها من طرق إيصال المعنى مقصد معين يقصده صاحب الأسلوب.

ويمكن إدراك جزءاً من هذا المقصد بالنظر إلى الوظائف التي أداها هـــذا الأسلوب في النص، فقد حقق الحوار القرآني أبعاداً عميقة وأدوارا هامـــة فـــي النص القرآني عامة، وفي القصة القرآنية خاصة، وبـــالوقوف علـــى فاعليـــات الحوار نقف على علة الإختيار، وبمعرفة علة الاختيار نضع أيدينا على فاعليـــة الحوار.

وسنعرض لعدد من الوظائف التي أداها الحوار بعد أن نلقي الضوء علـــى البعد التأثيري له بوصفه حواراً فحسب لا بوصفه حواراً عن كذا أو يفيد كـــذا،

فلكل أسلوب من أساليب القرآن تأثيره الخاص. فما هو البعد التأثيري للحوار بوصفه أسلوباً من أساليب الدعوة الإلهية في القرآن؟ أجاب عن هذا التساؤل الدكتور عبد الحليم حفني مبيناً تأثير المحاورة في ثلاث نقاط هي:

١- **مخاطبة المحاورة للجانب العقلي للإنسان** من جهتين إحداهما عرض الحقيقة نفسها، وهو موضوع المحاورة، وهذا قدر يتساوى فيه أسلوب المحاورة مع كل الأساليب، حيث أن لكل أسلوب موضوعاً أو فكرة وعندئذٍ يتاح لعقل المتلقي أن يفكر في هذه الحقيقة. والجهة الأخرى هي المباراة بين المتحاورين والصراع الفكري الذي يدور بينهما وكل ذلك يستدعي من المتلقي أن يشحذ عقله وينشط ذهنه، إما متقمّصاً شخصية الحكم، وإما منحازاً إلى أحد الطرفين، واستخدام العقل وتحريك التأمل من أهم أهداف القرآن في كل أساليبه.

٢- **مخاطبة المحاورة للغرائز**، حيث تخاطب غريزة من أسمى غرائز الإنسان، لقربها من العقل، ولصوقها بالمعرفة، وهي غريزة حب الاستطلاع؛ فأما لصوقها بالمعرفة، فلأن كل ما يستطلعه الإنسان ويقف على حقيقته إضافة جديدة إلى معرفته، مهما صغرت هذه الإضافة. وأما مخاطبة أسلوب المحاورة لحب الاستطلاع في الإنسان فلاشتمالها على طابع القصة في أقوى حالتها إثارة، وهي حالة الصراع بين قوتين، فهذا أقوى جوانب القصة إثارة لحب الاستطلاع، ومتابعة ما ينتهي إليه صراع هاتين القوتين، فالمتابع لصراع قوتين في أي قصة يكون، غالباً، منحازاً بعواطفه من حيث لا يقصد مع القوة الأساسية في القصة، وهو ما يعبر عنه في اصطلاحات القصة بالبطل، والمؤمن أو المصلح هو دائماً بطل المحاورة في القرآن، ولهذا سيكسب مشاعر المتلقي، وإن كان مخالفاً له بعقله أو بمنطقه، وهو كسب غير يسير، فالدين لا يقوم على العقل وحده، وإنما يقوم على المشاعر والعواطف.

٣- **يثير أسلوب المحاورة مشاعر الإنسان وانفعالاته المختلفة لما تشتمله من أحداث**، لأنها بذاتها مباراة وتنافس بين طرفين، وهذا التباري من شأنه أن يثير لذاته انفعال المشاهدين له، وهذا شيء في طبيعة النفس البشرية التي يثيرها الصراع بين قوتين، يؤكد هذا عمد الناس في كل زمان ومكان إلى اختلاق صنوف شتى من الصراع، سواء أكان صراعاً قتالياً كمبارزات السيوف، أم

صراعاً رياضياً كمباريات الكرة والملاكمة والمصارعة، أم صراعاً كلامياً كأشعار النقائض والمناظرات الأدبية[1].

وبهذا يبدو لنا البعد التأثيري للحوار الذي أبان عن علل من علل الاختيار. ننتقل الآن إلى الكشف عن علل أخرى تتمثل في الوظائف أو الأبعاد التي حققها هذا الأسلوب.

من وظائف الحوار في النص القرآني:

مثل الحوار القرآني القوة الدافعة للحركات الداخلية (النفسية) والخارجية؛ ففيه إخراج لخبايا النفوس، وكشف عن طوايا الصدور، ثم أخذ الأحداث بها، وإجراؤها على حسابها، فيكون التلائم بين المواقف والأحداث.

فالتبادل الكلامي بين موسى، عليه السلام، وفرعون مثلاً يؤجج انفعال الغضب والتحدي عند الأخير متمثلاً في سؤاله الإنكاري: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ؟! ﴾ [طه:٥٧]، ويدفعه صراعه الداخلي إلى التحرك السريع المتمثل بحشد السحرة للتصدي لموسى والسخرية منه: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه:٥٨]، وتحدث المفارقة التي صعقت فرعون وأثارت جنونه، فقد آمن سحرته بدعوة موسى بعد أن رأوا معجزته البينة: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ: ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ: ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ؟! إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه:٧٠-٧١].

لقد كشفت مقولته: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ؟! ﴾ الغطاء عن أهم ما يعنّي فرعون، وهو الدفاع عن سلطانه، فليس يهمه الإيمان أو عدمه في هذا الموقف الذي يمس سلطانه، فيحرك قوة بطشه لشل حركتهم المتمردة:

١- عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن ، ص(٥٠-٥٥) بتصرف.

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:٧١]، لقد جسمت مقولته بما فيها من تأكيدات (فلأقطعنّ، ولأصلبنّكم، ولتعلمنَّ) شدة غيظه من سحرته الذين خرجوا عن طاعته أمام الجموع الغفيرة، كما دلّت بوضوح على شدّة خوفه من زعزعة سلطانه، فلو كان واثقاً من نفوذه لما احتاج إلى حشد كل هذه التأكيدات، ولما كانت عقوبته بمثل هذه البشاعة إنه يهدد كل من تسول له نفسه باتخاذ موقف مماثل.

ولم تغب أهداف فرعون من كلامه وسلوكه عن السحرة، فردوا عليه مخاطبين أعماق نفسه: ﴿ قَالُواْ: لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا، فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ، إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ، وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٢-٧٣].

لقد استهلوا مقولتهم بالاستهانة بطاعته وسلطانه مقدمين الحق عليه، وقدموا ظهور الحق على ذات الله سبحانه قصداً: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾؛ وفي هذا التقديم تلائم مع الترتيب الزمني والعقلي لمعرفة الله والإيمان به، فظهور الحق سابق في الترتيب الزمني على معرفة الله والإيمان به. ثم أعلن السحرة تحدي فرعون: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ ساخرين منه، مستخفين بتهديده كاسرين توقعه، فقد أثبت ردهم فشل فرعون في أن يبلغ من نفوسهم ما يريد. وألحقوا مقولتهم بما يعمق سخريتهم من فرعون، فقد عللوا سبب إيمانهم برغبتهم في تطهير أنفسهم من الجريمة التي أجرمها فيهم، وهي الإكراه على السحر: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾. وأنهوا مقولتهم برد على مقولة فرعون لهم: (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) فقالوا: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وهذه المفاضلة ضربة قاسمة لملك فرعون وجبروته.

لقد مثلت المحاورة السابقة الصراع بين الباطل والحق تمثيلا حاضرا يملأ الأسماع والأبصار بكل خلجة أو خاطرة وقعت فيه. إننا في هذا الحوار نتلقى الكلمات من فم أصحابها حية نابضة بالمشاعر والأحاسيس، وقد بدت الكلمات متلاحقة متدفقة تجري في خفة واندفاع وتراشق أشبه الرمي بالسهام.

وقفز الحوار في كثير من المواطن بالمتلقي من مشهد إلى آخر طاويا بقفزته الزمان أو المكان أو كليهما، متجاوزا التفصيلات، ليضعه في مواجهة الحدث. إنه الحضور الفوري المفاجيء، الذي ينقلك من موقف إلى موقف في لحظة خاطفة، فترى نفسك في مسرح الحادثة، تشهد ما وقع وما جرى في هذا الموقف وكأنك واحد ممن حضروه أو شاركوا فيه[1].

ففي سورة طه وجه الله خطابه لموسى وأخيه آمرا إياهما بالذهاب إلى فرعون: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ، قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه:٤٧-٤٨] .هذه المقولة التي تلقاها الأخوان من ربهما نجدها تصل إلى سمع فرعون فور تلقيهما لها، ونجد فرعون يلقاهما بالرد، دون أن يجري ذكر اللقاء بينهما وبين فرعون، أو كيف تمكن أو غيرها من الأمور التي قد يتضمنها الموقف: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ؟! ﴾ [طه:٤٩] إن هذا الانتقال طوى سردا وحوارات قد ينسجها خيال المتلقي ويعيد خلقها.

ومثله ما جاء في سورة يوسف حيث نقلنا الحوار المتصل الذي وجهه أحد أبناء يعقوب إلى إخوته من مصر إلى أرض كنعان، فإذا به يصل مباشرة إلى يعقوب طاويا المسافات، والكيفية التي ألقى فيها أبناء يعقوب الخبر وصولا إلى رد يعقوب: ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ: يَٰٓأَبَانَآ، إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ. وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا

١- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني، ص١٣٢.

فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ. قَالَ: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف:٨١-٨٣].

وفي سورة آل عمران ينقلنا الحوار مباشرة من المشهد الذي جمع مريم بالملك المبشر بميلاد عيسى، عليه السلام، إلى المشهد الذي جمع عيسى ببني إسرائيل بعد أن كلفه الله بتبليغ دعوته، فدخل حديث عيسى في كلام الملك بطريق الحكاية: ﴿ قَالَتْ: رَبِّ، أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟ قَالَ: كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ، إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ، وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا، بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ، وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ، بِإِذْنِ ٱللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران:٤٧-٤٩]؛ لقد نقلنا الحوار من قصة مريم المحتارة الخائفة من الملك المبشر إلى ذروة المواجهة بين عيسى وقومه، وقد أوحى هذا القفز بين المشهدين بتحقيق البشارة والسرعة في إطلاع المتلقي على ما كان من المبشر به.

وينقلنا الحوار من عالم الشهادة إلى عالم الغيب في قوله تعالى حاكياً ما جاء على لسان الرجل المؤمن: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ، إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ، إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ. قِيلَ: ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ. قَالَ: يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس:٢٣-٢٧] فليس بين المشهدين سرد يهيئ لهذه النقلة؛ فالرجل المؤمن كأن يوجه كلامه إلى قومه منكراً شركهم ثم وجه كلامه إلى الرسل معلناً إيمانه، وكأن المتلقي يتوقع رداً من قومه أو من الرسل فإذا به يأتي من عالم الغيب مستهلاً بصيغة

المبني للمجهول (قيل). وهذا يعني أن الرجل قد قتل وبعث وأدخل الجنة، ولعل في هذه النقلة إبرازا للمتلقي لحسن عاقبة الرجل المؤمن، وسرعة مكافأته بتحوله من دار البلاء إلى دار الجزاء. إنها تقنية أسلوبية قارة في الحوار القرآني حركت أحداث القصة تحريكا تجاوز الحدود المتوقعة، فأثارت تأويلات المتلقي الذي شحذ انتباهه لتعليل هذه النقلات الحوارية، واستشفاف ما طوته من سرد أو حوار.

كما حقق الحوار القرآني حضورا في العرض، إنه يجعل المشهد صورة مسموعة ومرئية دون تدخل ملازم بالسرد أو الوصف، فيشعر المتلقي بأنه قد صار في بؤرة المشهد، يسمع الشخوص تتكلم عن ذواتها دون وسيط؛ ففي الحوار بعث للمشهد وإخراج له إلى حيز الوجود.

ولعل حذف فعل القول في كثير من المحاورات كان الأداة الفعالة في تحقيق هذا الحضور، لما في وجوده من تذكير بانفصال المشهد عن عالم المتلقي، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا: أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ؟! وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٦]، إن قائل مقولة: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ هم الكافرون، وقد أحدث حذف القوم مع الضمير الدال على الفاعل تغيرا في نمط الأداء، من الحديث عن الكافرين، إلى الحديث منهم، معطيا المتلقي إيحاء بأنه يسمع المقولة من القائل الحقيقي. ثم نفاجأ بعودة السرد من جديد في قوله تعالى: ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

وقوله في شأن المنافقين: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ: هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ؟ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:١٢٧] إنه أسلوب دقيق في الوصف، لكونه بلسان الموصوف، فمقولة المنافقين فضحت أخلاقهم وجسمتها. ونظير ذلك وصف الله عز وجل للكافرين يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ

يَغْشَى ٱلنَّاسَ: هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ: مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان:١٠-١٤]، إن تصوير هذا المشهد الغيبي بلسان من وقع عليهم يمثله في الأذهان بالصورة والصوت، فكأن قائليه ماثلون أمامنا في حالة الضراعة لربهم.

وكما أدى حذف فعل القول إلى تحقق الحضور بإخلاء ساحة العرض للحوار، فإن تكرار لفظ القول بين جزئي المقولة يحقق الحضور أيضا؛ فبه يستغنى عن السرد الذي كان سيقطع الحوار ليصف حالة أو تغيرا ما. ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ: لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ. ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ. قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ: لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ. قَالُواْ: يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ؟! أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف:٨-١٢].

إنه مشهد واحد يتكون من محاورتين بينهما فاصل؛ محاورة بين أبناء يعقوب في غيبة أبيهم، ومحاورتهم مع أبيهم، إذ لا يعقل أن تتم المؤامرة لقتل يوسف في حضرة الأب .فأين كان الأب وقتها؟ إنه إما أن يكون غائبا ثم حضر فيكون المشهد واحدا طرأ في أثنائه دخول يعقوب على أبنائه فبادروه بقولهم: (يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا.الخ)، وإما أن يكونوا قد غادروا مكان المؤامرة متوجهين إلى أبيهم لتنفيذ المؤامرة فيكون الموقف قد وقع في مكانين وانقسم إلى مشهدين. كل هذا دل عليه دخول كلمة (قالوا) التي جاءت فاصلا بين المشهدين أو دالة على دخول الأب موحية بالتغير الذي طرأ دون اللجوء إلى قطع الحوار بسرد التغير الطارئ، فهي بديل عما حذف من السرد ودليل عليه. وهذا يؤكد الحرص على روح العرض التي يبعثها الحوار وعدم قطعها، حيث

يؤدي المضمون المراد في قالب الحوار مع أقل إشارة ممكنة في السرد أو بدون إشارة وقد تحقق هذا بإحدى وسيلتين؛ حذف لفظ القول وتكراره.

ويصور الحوار القرآني الشخصيات التي أنتجته بأسلوب القرآن ذاته الذي يعلو ولا يسف، حتى مع تغير الشخصيات، فكل شخصية معجمها الحواري الخاص الذي يبرز جليا ويختفي اختفاء كاملا حسب السياق[1]. وتضفي هذه الخصوصية ظلالها على تركيب الجملة الحوارية أيضا. ونمثل هنا على تنوع الحوار حسب تنوع المعجم الحواري باللقطات الحوارية الآتية التي أنتجتها مجموعة من الشخوص اختلفت صفاتها وتنوعت طبائعها:

ونبدأ بعدد من مقولات خصوم الأنبياء التي توحي مفرداتها بالغضب والتهديد والضيق، فها هو آزر يهدد ابنه إبراهيم قائلا: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ؟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٦].

ويبرز هذا العنف في مقولة الملأ الذي استكبروا من قوم شعيب: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:٨٨].

وها هو فرعون يهدد السحرة ويتوعدهم بعد أن أعلنوا إيمانهم: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء:٤٩]، فالملمح اللغوي البارز في مقولة هؤلاء استخدام أسلوب التوكيد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، ويوحي هذا الأسلوب بعنفهم وغضبهم الشديدين، وضعفهم الداخلي الذي يدفعهم إلى إسكات الطرف الآخر بالقوة.

وترددت في حوارات المعذبين في جنهم مفردات عكست انفعالاتهم وصراعاتهم الداخلية والخارجية، أبرزها المفردات الدالة على التخاصم وتشمل: السب واللعن والتكذيب والبراءة والاتهام والنفي. ومن هذه المفردات ما جاء في الحوارات الآتية:

١- مريم:٤٦.

﴿ قَالُواْ: رَبَّنَا، هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل:٨٦].

و ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ: أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سبأ:٣٢].

و ﴿ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ. قَالُواْ: بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ص:٥٩-٦٠].

وللأنبياء والصالحين في الحوار القرآني مفرداتهم المميزة، وعباراتهم الخاصة منها: (يا قوم، اعبدوا الله، اتقوا الله، لا أسألكم عليه من أجر، ربنا، أطيعون، إني لكم رسول أمين، ألا تتقون) إنهم يدورون في محور الدعوة إلى الله، ولهذه الدعوة مفرداتها التي يتنازعها أفرادها في كل زمان ومكان.

كما عكس الحوار انفعالات أطرافه وتفاوتها، واستوعب أسلوبه آثارها. فالناظر إلى أسلوب الجمل الحوارية يدرك انفعال أصحابها، وهذا ما ستحاول الدراسة إيضاحه في حديثها عن أسلوبية مكونات الحوار وخصائصه، فالمثيرات التي يتعرض لها الإنسان كالخوف والغضب والتحدي والسخرية والفرح وغيرها تنعكس في عبارته فيلجأ إلى الحذف أو التكرار أو التقديم والتأخير أو التأكيد أو غيرها من التشكلات الأدائية. وبهذا يكون الحوار القرآني قد حقق أبعادا عميقة وأدوارا هامة في النص القرآني عامة، وفي القصة القرآنية خاصة؛ فهو باعث الحياة والحركة في الحدث، وهو مؤدي الهدف، ومظهر المغزى، وكاشف الصراع، وترجمان الشخصية، ومحقق الحضور.

أطوال الحوارات القرآنية:

طالت الحوارات في عدد من المواطن، وجاءت مجملة قصيرة في مواطن أخرى .ونحدد مفهوم طول الحوار بركيزتين؛ **الأولى:** امتداد المشهد الحواري؛ فقد يمتد تردد الكلام ومواجهته بين أطراف الحوار، فلا يقتصر على مقولة المرسل ورد المستقبل عليها، وإنما يتبع الرد رد وهكذا وصولا إلى مقولة تحسم

القضية (مثار الحوار). وقد يتكون المشهد الحواري من مراجعة واحدة فيبدو مجملا قصيرا.

أما الركيزة الثانية المعتمدة في تحديد طول الحوار فتتمثل في طول المقولة الحوارية؛ فقد تكون المقولة الحوارية الصادرة عن أحد الأطراف طويلة فيهما تفصيل وتوضيح يستلزمها السياق. وقد تكون قصيرة خاطفة قليلة العناصر.

من المشاهد الحوارية الممتدة، الحوار بين الله وموسى عليه السلام في سورة طه[1]، ففيه تفصيلات الدعوة التي حملها الله لموسى وتعديد النعم التي منها عليه. وحوار موسى مع الخضر في سورة الكهف[2] وفيه يظهر انفعالات موسى وردود الخضر عليه، وحوار موسى مع بني إسرائيل في سورة البقرة[3] وقد جسمت المراجعة فيه طبيعة بني إسرائيل الجدلية، والحوار بين الله وإبليس في سورة الأعراف[4] الذي امتد كاشفا حقد إبليس على آدم وبنيه وتصاعد هذا الحقد. والحوار بين نوح وقومه في سورة هود[5] وفي امتداده تصوير لمقدار الجهد الذي بذله نوح في الدعوة وإلحاحه على قومه الذين أصروا على الكفر.

ومن المشاهد الحوارية المقتصرة على مراجعة واحدة للحوار بين مالك والمعذبين في نار جهنم[6]، والحوار بين الله والذي حشره أعمى يوم القيامة[7]، ولعل صدور الكلمة الفصل حال دون الإطالة، فلا مجال للمفاوضة أو المساومة.

وقد يكون انعدام الصراع بين طرفي الحوار سببا في قصر المشهد الحواري، فالصراع – غالبا – ما يؤدي إلى تناوب الكلام بين الفريقين، ومن الحوارات التي اختفى فيها الصراع لإنحسام القضية وعدم الخوض فيها، ما جاء

١- امتد الحوار بين الآيتين (١١-٤٨).
٢- امتد الحوار بين الآيتين (٦٦-٨٢).
٣- امتد الحوار بين الآيتين (٦٧-٧١).
٤- امتد الحوار بين الآيتين (١٢-١٩).
٥- امتد الحوار بين الآيتين (٢٥-٣٤).
٦- ينظر الحوار في: الزخرف: (٧٧-٧٨).
٧- ينظر الحوار في: طه: (١٢٥-١٢٦).

في حوار زكريا مع مريم: ﴿ قَالَ: يَـٰمَرْيَمُ، أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا؟! قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧].

وحوار عيسى مع الحواريين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ: مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ؟ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف:١٤].

ومن الحوارات المكررة ما يكون ممتدا في موطن وقصيرا مجملا في موطن آخر، فحوار موسى مع فرعون في سورة الشعراء جاء ممتدا مفصلا[١]، بينما جاء الحوار ذاته في سورة النازعات قصيرا موجزا[٢]، ويمكن تعليل هذا بترتيب النزول، فسورة الشعراء نزلت قبل سورة النازعات، وقد فصل فيها الحوار بين موسى وفرعون فاستغني عن ذكر هذه التفصيلات في سورة النازعات.

وقد يحدث عكس ذلك، فيأتي الحوار الأول مجملا، ويأتي الحوار المكرر مفصلا ممتدا، ومثاله مجيء حوار إبراهيم مع قومه في سورة الصافات مجملا مختصرا،[٣] بينما جاء مفصلا ومضيفا ما هو جديد في الموضوع والمفردات في سورة الأنبياء[٤].

وكذلك الأمر بالنسبة للمقولات الحوارية؛ فمن المقولات الحوارية القصيرة رد أهل النار على سؤال أهل الجنة في الحوار الآتي: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا۟: نَعَمْ ﴾ [الأعراف:٤٤]. ولعل حالة الألم والحسرة واليأس حالت دون امتداد مقولة أهل النار فتمثلت في حرف الجواب (نعم) وقد يدل

١- امتد الحوار بين الآيتين (١٦-٣١).

٢- ينظر الحوار في سورة النازعات: (١٨-١٩).

٣- امتد الحوار بين الآيتين(٨٥-٩٧).

٤- امتد الحوار بين الآيتين(٥٢-٦٩)..

قصر المقولة على الإقرار والإذعان، ومثالها رد إبراهيم على مقولة ربه في الحوار الآتي: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وتطول المقولات الحوارية متسعة للتفصيلات والتوضيحات، ومثالها مقولة الله لعيسى، عليه السلام، في سورة المائدة[١]، ففيها تفصيل يتناول النعم التي أسبغها الله على عيسى ردا على الشبهات والافتراءات التي أحيطت به. كما تضمنت المقولة الحوار الذي دار بين عيسى والحواريين، والحوار الذي دار بين عيسى والله عز وجل.

ومن المقولات الحوارية المكررة ما تطول في موطن، وتختصر في موطن آخر وتجمل، ومثالها مجيء مقولة هود، عليه السلام، لقومه في سورة الشعراء[٢] طويلة استوعبت تفصيلات دعوته وتعداد نعم الله عليهم التي تستوجب منهم عبادته وحده. بينما اختصرت مقولة هود في سورة (المؤمنون)[٣] مقتصرة على طلبه من قومه أن يعبدوا الله ويتقوه.

١- امتد الحوار بين الآيتين (١٠٩-١١٦).

٢- امتد الحوار بين الآيتين (١٢٤-١٣٥).

٣- تنظر المقولة في الآية (٣٢).

الفصل الثاني



السؤال

يشكل السؤال[1] ظاهرة أسلوبية مهيمنة في لغة الحوار القرآني، فقد جاء في أربعمائة وأربعة عشر موضعا، أي ما يعادل نصف التراكيب المكونة للغة الحوار في القران الكريم.

حظيت الحوارات المكية بثلاثمائة وسبعة وثلاثين موضعا مقابل سبعة وسبعين تركيبا في الحوارات المدنية، وذلك يرجع إلى احتلال الحوار في القسم المكي مساحة واسعة تفوق تلك التي يحتلها في القسم المدني.

ولو كانت مساحة الحوار المدني توازي المساحة التي يحتلها الحوار المكي لتضاعفت نسبة تواجد السؤال في الحوار المدني لارتباط السؤال بالحوار، فقد بلغ عدد الآيات المكية التي ورد فيها الحوار ألفاً وثلاثمائة وستاً وتسعين آية،

١- فرق أبو هلال العسكري بين السؤال والاستفهام، اذ ذهب إلى "أن الاستفهام لا يكون الا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه، وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم، ويجوز أن يكون السائل سائلاً عما يعلم وعما لا يعلم، فالفرق بينهما ظاهر". (العسكري، الفروق في اللغة، ص٢٨). وقد انطلقنا في تسميتنا لهذا التركيب من التعريف السابق، مؤثرين استخدام مصطلح (السؤال) على مصطلح (الاستفهام)؛ لأن جل ما قيل عنه استفهام لا يدخل في دائرة مفهوم الاستفهام لغة واصطلاحاً؛ فالاستفهام يعني طلب الفهم، وهو لا يدخل في البلاغة إلا حيث لا يرد به هذا الطلب. ولذا رأينا أن إدارج هذه التراكيب تحت مصطلح السؤال يعطي آفاقاً رحبة تستوعب تنوع دلالات التركيب وتشعبها دون اللجوء إلى تبرير وتعليل يرضخانها لمعنى قاصر. خاصة حين تصدر التساؤلات من سائل عليم، فالسؤال تركيب نحوي تستعمل فيه أدوات مخصوصة يسأل به عن شيء طلب له جواب أو لم يطلب.

نسبة السؤال في بنيتها (٢٤%). وبلغ عدد الآيات المدينة التي ورد فيها الحوار مائة وسبعاً وتسعين آية، نسبة السؤال فيها (٣٩%).

وساير السؤال مضامين الحوارات المكية والمدينة، واستوعب تفجرات الدلالة المنبثقة من شحنات التفاعل الحواري الذي قام جلُّه بين أطراف متصارعة وأقطاب متنافرة. ولا تخفى الطاقة الإثارية والتأثيرية التي يفجرها السؤال، فهو وعاء لغوي تفرع فيه الأطراف المتحاورة مشاعرها وانفعالاتها مبرزاً حضوره الأكبر في إنتاج دلالات النص وتقديم حيثيات المضامين الحوارية.

وتنوع الوجود الفعلي لتركيب السؤال في النصوص الحوارية خارجاً من دائرة المفهوم الحقيقي للاستفهام إلى دلالات أخرى باستثناء نماذج محدودة. والذي يعنينا هنا هو هذا الخروج؛ لأنه مناط تألق التركيب وجماليته وسبيله إلى ولوج عالم الأساليب الانفعالية والتعبيرية والوجدانية، وهذا ما تعنى الدراسة الأسلوبية به، فهي تعالج السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل من تراكيب نحوية عديدة. وقد أثبت التوظيف الفعلي لهذا الإختيار هيمنته على سائر التراكيب النحوية الداخلة في مباحث علم المعاني، فكثيراً ما ترد هذه التراكيب في تركيب السؤال، كأن يأتي الأمر أو النهي أو التمني في صورة هذا التركيب، ولا يحدث أن يرد تركيب السؤال في صورة من صور التراكيب السابقة.

ولنا أن نتساءل عن علة اختيار السؤال من بين التراكيب اللغوية الأخرى ليكون القالب الذي تتقولب فيه معظم الدلالات التعبيرية؟!. لقد التفت عدد من الدارسين قديماً وحديثاً إلى ميزة جوهرية من ميزات السؤال يمكن أن تعد إحدى علل ذلك الاختيار تتمثل في البعد النفسي المكتنز في السؤال، والمتشكل في مستويين؛ مستوى المُرسِل ودلالة اختيار السؤال من بين البنى التركيبية الأخرى، ومستوى المتلقي ومدى فاعلية السؤال دون ما عداه من هذه البدائل[1].

١- نذكر منهم أبا هلال العسكري الذي أشار إلى دلالة التلطف بين السائل والمسؤول المنبثقة من بعض استعمالات السؤال لإثبات السؤال على الخبر الصريح في الدلالة على الخبر. (ينظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٤٤٥). وعبد القاهر الجرجاني في حديثه عن أثر السؤال الذي لا يتوفر للتراكيب الأخرى في دلالة الإنكار، واشارته إلى البعد النفسي في كيفية تفاعله مع نفس المتلقي (ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١١٩). وأحمد ماهر البقري الذي أشار إلى البعد النفسي بوصفه إحدى خصوصيات السؤال التي تميزه عن المألوف من

وهذا يعني أن التجاء أحد أطراف الحوار إلى السؤال لتفريغ شحنته الانفعالية أو لإنتاج شحنات انفعالية في نفس المتلقي ليس مجرد صدفة عشوائية، حتى وإن تغيب الوعي الكامل في عملية الاختيار، فالسؤال يكتنز بوسائل تأثيرية تجسم انفعالات السائل أو توتراته وتمارس فاعليتها في المخاطب، لا لكونه سؤالا عن شيء بعينه أو دالا على غرض معين ولكن لكونه سؤالا فحسب، فالسؤال يتفاعل مع نفس المخاطب قاطعا رتابة تلقيه للتراكيب الجاهزة، ومثيرا دهشته لتنشأ أقصى درجات التواصل بين أطراف المشهد الحواري.

ويكون السؤال أحادي الدلالة في سياق حواري ومتشعب الدلالة في سياق آخر. ويحتاج الكشف عن دلالات السؤال إلى وقفة تأملية تحيط بأبعاد الموقف الحواري، فقد يخبيء السؤال الواحد في حناياه دلالات وإيحاءات تستعصي على التحديد لغزارتها وتشابكها. هذا بالإضافة إلى الخصوصية التي يتمتع بها كل سؤال في سياقه، وتميزه في موضعه عن سؤال آخر قابع في سياق مشابه، الأمر الذي يعني ضرورة الاحتراز من التعميم في معالجة دلالة التركيب، فليس كل سؤال دل على الإنكار، مثلا، سواء فالدلالة الواحدة قد تتشعب إلى مجموعة من الدلالات الفرعية التي تتبدل بتبدل السياقات مثبتة استعصاء السؤال على التحديد والانحصار في دلالات بعينها، وهذا مظهر من مظاهر الانحراف في أسلوبية السؤال حري بالتأمل.

التفت عبد القاهر الجرجاني إلى إمكان إفادة التركيب أكثر من دلالة في بعض استعمالاته، مؤسسا أرضية انطلاق تدعونا للوقوف على أقصى إمكانات تراكيب السؤال في توليد الدلالات، ففي تعليقه على قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم في حوارهم معه: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ؟!﴾ [الأنبياء:٦٢] قال: "واعلم أن الهمزة فيها ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه"[1]. استثارت العبارة السابقة تأمل الدكتور عيد بلبع فكشف عن دلالات أخرى أفادها التركيب مبينا أن ما ذكره عبد القاهر لا يفي

أساليب النفي، فهو أقوى في دلالته النفسية من النفي الخبري (أحمد البقري، أساليب النفي في القرآن، ص ٢٨٧) ومحمد العبد في إشارته إلى القيم التأثيرية للسؤال في شعر السياب (محمد العبد، اللغة والإبداع الادبي، ص٧٠).

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١١٤.

دلالات السؤال حقها، "فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضا، لوضعهم المخاطب إبراهيم، عليه السلام، موضع مقارنة مع آلهتهم التي يجلونها ويقدسونها تحقيرا لم يطيقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه: ﴿ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾ والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يفعل هذا الفعل بالآلهة، على زعمهم، وأن يفعل منه هو هذا الفعل، فالسؤال يضع المخاطب دون الجرأة على القيام بهذا الفعل، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثله.

والسؤال يشير، إلى جانب ذلك، إلى نبرة تهديد غير خافية، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهلوه أو يتركوه، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك، وتستطيع أن تلمس التهديد في السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه، فمع أن إبراهيم، عليه السلام، كان من الجرأة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل، إلا أنه لم يقر بالفعل إقرارا صريحا. نعم، إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدهم، ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر، وفيها محاولة لإثنائهم عن أن يحلوا به عقابا على فعله"(١).

وبمثل الكيفية السابقة سنحاول تبين بعض دلالات التركيب في معالجتنا التطبيقية المنصبة على عدد من المشاهد الحوارية، مع إقرارنا المسبق بعجزنا عن حصر الدلالات المتنوعة التي تشربها التركيب في السياقات المختلفة الوارد فيها أو الإحاطة بها. وستسلمنا المحاولة إلى الحديث عن الأبعاد النفسية المتكشفة من دلالات التركيب المرتبطة بالسياق وطرفي الخطاب، ليتأكد أثر السؤال الذي لا يتوفر للتراكيب اللغوية الأخرى. وبالوقوف على فاعليات السؤال في إنتاج الدلالة نكون قد وضعنا أيدينا على علة الإختيار وطاقات السؤال الإبداعية وقيمته الأسلوبية التأثيرية الموجهه إلى التركيب (من المرسل) أو الناتجة عن التركيب في المتلقي. مع بيان أثر الدلالات المتقولبة في السؤال في كيفية وروده في النص الحواري، فالسؤال حين يوجد على درجة من الهيمنة في النص يتوزع

١- عيد بلبع، نقض البلاغة: أسلوبية السؤال، ص(٦٣-٦٤).

وفقاً لخصوصية النص الحواري التي تميزه وتشكل وجوده الخاص، ولذا سنتأمل أيضاً عدداً من النصوص الحوارية التي يشكل السؤال سمة مهيمنة في بنيتها اللغوية.

فاعلية السؤال وأسلوبيته في إنتاج الدلالات وتجسيمها:

لعلي لا أبالغ إذا قلت إنّ لكل سؤال خصوصية في سياقه لا تكون لسؤال غيره، صحيح أن الأسئلة قد تتشابه كما تتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال جاعلة منه وجوداً قائماً بذاته لا تحده مقولات ولا تحصره تصانيف. وسنحصر دراستنا لفاعلية السؤال وأسلوبيته في إنتاج دلالتين هما: دلالة الإنكار ودلالة التقرير؛ لأنهما أكثر الدلالات تقولباً في أسئلة الحوار القرآني، كما أن للأسئلة التي حوتها طابعها الخاص في النص الحواري، هذا بالإضافة إلى انطواء كثير من الدلالات تحت مظلة هاتين الدلالتين.

ونبدأ بدلالة الإنكار التي تجسمت في مائتي سؤال، وهذا يعادل ما نسبته (٤٨,٣%) من الدلالات المكتنزة في أسئلة الحوار القرآني.

جاء في اللسان أن إنكار الأمر إظهار النفور منه، والرغبة عنه، واستهجان وقوعه سواء أوقع هذا الأمر أم لم يقع[1].

ظواهر في الانكار:[2]

قد يوجه الإنكار إلى فعل واقع يريد المرسل بيان أنه ما كان ينبغي أن يقع، فيقبّح فاعله أو يوبخه أو يتهكم عليه أو غيرها من الدلالات التي يكشف عنها السياق وإعتبار طرفي الخطاب، ومن ذلك ما حكاه الله على لسان لوط في خطابه لقومه: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (نكر).

٢- وجه الإنكار إلى الأفعال الواقعة في ستة وأربعين موقعاً وهذا ما يعادل ٢٣% من نسبة الأسئلة الإنكارية

ٱلْعَٰلَمِينَ؟! ﴾ [الأعراف:٨٠] وقوله على لسان موسى في حواره مع الخضر: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا؟! ﴾ [الكهف:٧٤]، وقوله: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف:٧١]، فإتيان الفاحشة وقتل النفس وخرق السفينة أفعال واقعة من المخاطب.

وينكر الفعل الواقع بأسلوب النفي، ومنه ما حكاه الله على لسان هود في حواره مع قومه قال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟! ﴾ [الأعراف:٦٥] وقوله على لسان أهل الكتاب في حوارهم السري: ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟: أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! ﴾ [البقرة:٧٦]، ومنه ما حكاه على لسان إبراهيم في حواره مع قومه: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟! ﴾ [الأنعام:٨٠]، فالإنكار قد وجه للمخاطبين لأنهم لم يتقوا ولم يتعقلوا ولم يتذكروا، وهم موبخون على هذا الترك مطالبون بالتقوى والتعقل والتذكر. وجاء هذا الأسلوب الإنكاري في ختام الجمل مشكلا نهاية متوترة تستفز المتلقي، وقد صدر أكثره على ألسنة الأنبياء في حوارهم مع أقوامهم، واتصلت الأفعال في جميع مواطنها بواو الجماعة. كما وتنكر الأفعال غير الواقعة، ويراد بإنكارها نفي وقوعها واستبعاده، كقوله تعالى على لسان كفار مكة: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ؟! ﴾ [البقرة:١٣]، أي لن نؤمن وقوله تعالى على لسان إبليس: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:٦١] أي لن أسجد.

وفي عدد من المواطن أُنكرت أفعال لم تقع كأنها واقعة (إنكار الواقع في المستقبل) لتحققها ضرورة، كقول مؤمن آل فرعون لهم وقد تآمروا على قتل موسى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر:٢٨] فالقتل لم يقع، ولكنه أنكر كأنه واقع؛ لظهور إمارات تحققه وهي قول فرعون لحاشيته: ﴿ ذَرُونِىٓ

﴿ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ [غافر:٢٦]، وقول الملائكة لله تعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة:٣٠] فقد أنكر الملائكة الجعل ولم يكن قد وقع؛ لأنه جاء في وعد الصادق الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

وقد يقع الإنكار على متعلق الفعل المقدم عليه، فيفيد قصر إنكار الفعل بحال تعلقه بمعموله السابق: ﴿ قُلْ: أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:١٦٤]، فالمنكر إتخاذ رب غير الله، لا إتخاذ الرب. وقوله: ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [الأنعام:١٤٣]، فالمراد إنكار التحريم أصلا بإنكار وقوعه على جميع متعلقاته التي ارتبط بها.

قال السبكي: " ويلزم من إنكار تعلق الفعل بما انحصر فيه إنكار أصله؛ لأن الفعل لا بد له من محل يتعلق به، فإذا نفي محله لزم نفيه، وبهذا الاعتبار صار إنكار التعلق كناية على إنكار أصل التحريم، وقد أخرج هذا في قالب طلب التعيين"[1].

والغالب أن يوجه المتكلم إنكاره إلى من يخاطبه، ولكنه قد يوجهه إلى نفسه وهو يريد غيره تلطفا منه في النصح بالبعد عن المجاهرة بالنكير، وعن نسبة المخاطب إلى قبيح، كقول الرجل المؤمن لقومه الكافرين: ﴿ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً؟! ﴾ [يس:٢٢-٢٣] فكأنه قال: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم واليه ترجعون؟ أتتخذون من دونه آلهة؟!) وقد يريد المتكلم الإنكار على ذاته فعلا وذلك في حواره مع ذاته مقرعا إياها نادما على ما وقع منها، كقول ابن آدم وقد قتل أخاه فأصبح من النادمين: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى؟! ﴾ [المائدة:٣١].

١- بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ج٢، ص٢٩٨.

وقد يؤكد المتكلم نسبة الفعل المنكر إلى فاعله بزيادة الضمير المنفصل العائد عليه؛ واضعاً المخاطب في مواجهة مع ذاته ملاحقاً إياه؛ ليرغمه على الإعتراف بالحقيقة، كقول قوم إبراهيم له: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ؟! ﴾ [الأنبياء:٦٢] فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (أفعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟!)، لكن تلك الزيادة جاءت لمحاصرة إبراهيم، وإدانته بتأكيد نسبة الفعل المنكر إليه، وأكد التأكيد بمناداته أيضاً: (يا إبراهيم). وقد يؤكد المتكلم نسبة الفعل المنكر إلى فاعله ليبرئ ذاته من هذا الفعل: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ: أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم؟! بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سبأ:٣٢] فقد كان من الممكن الاكتفاء بقولهم: (أصددناكم عن الهدى). ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا إنكارهم وقوع هذا الفعل منهم فأبرزوا الضمير المتصل محاصرين الفعل (صدّ) بضميرين يعودان على ذات المتكلم.

كما قُدّمَ الفاعل على فعله في عدة مواطن لتأكيد إنكار نسبة الفعل إلى فاعلة المقدم كقوله تعالى في حواره التلقيني للرسول ﷺ: ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس:٥٩] فقد قدم الفاعل (الله) على فعله (أذن) لتأكيد إنكار صدور الإذن من الله ومجابهة المتلقي بإفترائه، ولذا أتبع السؤال بسؤال آخر وطلب من المتلقي التعيين ظاهراً، أي أن السؤال الثاني إجابة تزيت بزي السؤال: (أم على الله تفترون؟) ويعني إنما أنتم تفترون على الله، وقدمت شبه الجملة المعلقة بالفعل (تفترون) لتحذير المتلقي من المتقدم وتخويفه.

وقد يراد إنكار نسبة الخبر إلى المبتدأ فيقدّم الخبر: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ: أَحَقٌّ هُوَ؟! قُلْ: إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس:٥٣] فالمشركون يسألون الرسول منكرين مستهزئين أن يكون ما خبرهم به من العذاب الموعود حقاً، ولذا قدموا (الحق) على المبتدأ (هو) العائد على العذاب؛ لتسليط انكارهم وسخريتهم على هذا الخبر. قال الزمخشري: "وقرأ الأعمش: آلحق هو، وهو أدخل في

الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل"[1]. ومثله قول موسى، عليه السلام، لفرعون وحاشيته: ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ: أَسِحْرٌ هَٰذَا؟ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ [يونس:٧٧] فجملة: (أسحر هذا؟!) حكاية لكلامهم، وقد بدؤوا سؤالهم بالخبر (سحر) لإنكار الحق الذي جاء به موسى، وبت القول في أنه سحر على سبيل السخرية والاستهتار. فما كان منه، عليه السلام، إلاّ أن أنكر إنكارهم مؤكداً أن ما جاء به ليس سحراً وإنما حقيقة تفحم إنكارهم.

ويحذف الفعل الواقع ليسلط الإنكار على وقت وقوعه كما في قول الملك الموكل بإغراق فرعون: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩١]، وقول الملائكة للكافرين وقد آمنوا حين وقع عليهم العذاب: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس:٥١] أي أالآن تؤمنون؟! فإنكار الفعل مقيد بهذا الوقت الذي لا ينفع فيه الإيمان.

مؤكدات الإنكار:

تؤكَّد دلالة الإنكار التي يحويها السؤال بمراجعة السياق واعتبار طرفي الحوار وطبيعة العلاقة الرابطة بينهما، وهذا يعني تجاوز النظرة الجزئية الضيقة التي تبتر التركيب من سياقه فتحول دون استشفاف طبيعة الإنكار المكتنزة فيه، فليس كل سؤال خرج إلى دلالة الإنكار سواء.

وتعد القراءة الارتدادية للسياق الذي جاء فيه السؤال تأكيداً معنوياً لدلالة الإنكار التي يحويها، ولكن قد تؤكد هذه الدلالة أيضاً بمؤكدات لفظية مذكورة في بينه النص، كأن تسبق السؤال الإنكاري جملة تقوي الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ؟! وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ

١- الزمخشري، ج٢، ص٣٣٩.

أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ ﴾ [الأعراف:١٥٠]، فقد سبقت جملة القول عبارة تبين الحال التي كان عليها موسى لما رجع إلى قومه، فقد كان غضبان أسفا، وهذا يجسم صورة مرئية لملامح وجهه وصورة سمعية لتنغيم ما سيقوله. وحين تكلم استهل كلامه بجملة: ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ التي ذم فيها فعلتهم وأكد إنكاره لها، وانتهت هذه الجملة بصرخة إنكار تكاثفت كل العناصر السابقة في تقويتها: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟! ﴾ ويبدو أن الإنكار كان أكبر من الكلام، فتحول إلى فعل ينبض عنفا وغضبا: ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ ﴾. وهكذا فقد أحيط السؤال الإنكاري بجمل تقوي دلالته وتجسمها.

وقد تلحق السؤال الإنكاري جمل تقوي دلالته وذلك في عدة صور منها: أن تكون الجملة حالا كقوله تعالى على لسان لوط في حواره مع قومه: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ؟! ﴾ [النمل:٥٤] فإنكار إتيان الفاحشة يزداد حدة في حال إبصارهم إياها. وقوله على لسان موسى في حواره مع قومه: ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ؟! ﴾ [الصف:٥] فإيقاع الأذى به في حال علمهم علما يقينا أنه رسول الله إليهم يقوي دلالة الإنكار في تساؤله، ويبرز المفارقة بين علمهم وتصرفهم؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ووقره.

وقد تكون الجملة التالية للسؤال الإنكاري جملة استئناف، كقوله تعالى على لسان موسى في حواره مع الخضر وقد خرق السفينة: ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف:٧١] وقوله له وقد قتل الغلام: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف:٧٤] فقد سأل سؤالا إنكاريا وعلق على الفعل في السؤال بأنه شيء (إمر) في السؤال الأول، وشيء (نكر) في السؤال الثاني. والإمر والنكر يدلان على فعل منكر مستهجن فاعله، وهكذا يؤكد درجة الإنكار التي يحويها السؤالان.

وقد تكون الجملة المؤكدة للإنكار إضرابا ببل، كقوله تعالى على لسان كفار قريش المنكرين نبوة محمد ﷺ: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا؟! بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر:٢٥] وقول الذين استكبروا للذين استضعفوا وهم يختصمون في نار جهنم: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم؟! بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ:٣٢].

كما تأتي جملة شرط بعد السؤال الإنكاري مؤكدة دلالته كقول قوم عاد لنبيهم: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا؟! فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢] فقد أنكروا مجيئه بدعوة جديدة تصرفهم عن آلهتهم، وأكدوا انكارهم وسخريتهم بأن أمروه أن يأتيهم بما وعدهم، وأتوا بالشرط الذي يؤكد انكارهم ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، ولا يخفى ما لتقديم جواب الشرط ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ على جملة الشرط ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ من تأكيد انكار وقوع العذاب واستبعاده واستخفافهم بتحذير الرسول، فهم يطالبونه بالفعل والتنفيذ.

وقد يؤكد الإنكار بتلاحق الأسئلة وتواليها على لسان المتكلم، كقول ملائكة العذاب للكافرين الذين أعلنوا إيمانهم حين وقع عليهم العذاب: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ؟! ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ؟! ﴾ [يونس:٥١] فقد أكدوا إنكار إيمانهم بعد فوات الأوان بتكرار أداة السؤال، وتوجيه الإنكار إلى كلمة (الآن) الدالة على الوقت الحاضر المؤكدة لمدلول كلمة (ثم). ومن تكرار الهمزة لتأكيد الإنكار ما جاء في أسلوب أإذا وأإن، كما في قوله تعالى حكاية عن المنكرين للبعث: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟! أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ؟! ﴾ [الواقعة:٤٧-٤٨] إنّ مجيء السؤال جواباً للشرط أكّد الإنكار؛ فالمتحقق ما جاء بعد أداة الشرط (أإذا) وهو كون المتحدثين تراباً في المستقبل وهذا مبرر إنكارهم وعلته. ولا يخفى أن مجيء السؤال مكرراً في جملة الشرط وجوابه تأكيداً للإنكار، كما لا يخفى أن العطف

على فعل الشرط يضاعف تأكيد استبعاد جواب الشرط أن يكون، كما أن تكرار السؤال ﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يؤكد يقينهم في إنكار البعث. وقد تتلاحق أسئلة بأدوات مختلفة كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم في حواره مع الملائكة المبشرين إياه بغلام عليم: ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ؟! فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر:٥٤].

طاقة السؤال وأسلوبيته في تجسيم دلالة الإنكار:

يقول عبد القاهر الجرجاني مشيراً إلى أثر السؤال الذي لا يتوفر للتراكيب الأخرى في الدلالة على الإنكار وأثره في نفس المتلقي: " واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إما لأنه ادعى القدرة على أنه همّ بأنِ يفعل مالا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه، وقيل له: فأرناه في موضع وفي حال، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت."[١] وهذا يعني أن الإنكار المتقولب في السؤال يختلف عن الإنكار الخبري؛ فهو أكثر تأثيراً في نفس المخاطب، وأقدر تعبيراً عما يجول في خاطر المتكلم من انفعالات وتوترات.

وتشير كثرة توليد دلالة الإنكار إلى طبيعة العلاقة بين أطراف الحوار، فجل النصوص الحوارية دارت بين أقطاب متنافرة في الاعتقاد والممارسة، فيأخذ كل طرف بالدفاع عن اتجاهه ودحض الاتجاه الآخر منكراً أفكار حامليه موبخاً أو متهكماً أو مشفقاً أو منذراً أو غيرها من الدلالات المرتبطة بالإنكار والمخبوءة وراءه، التي يكشف عنها تأمل الظروف المحيطة بالنص الحواري.

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١١٩.

ومن الأمثلة على ذلك اكتناز الأسئلة بدلالة الإنكار في الحوارات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم مجسمة حدة الصراع بين الطرفين.

وجاءت هذه الأسئلة على لسان الأنبياء أحيانا وعلى لسان أقوامهم حينا، وقد يتنازعها الفريقان فيرد أحدهما على السؤال الإنكاري الموجه إليه بسؤال إنكاري ينكر ما جاء في سؤال الخصم.

لنتأمل السؤال الذي وجهه نوح، عليه السلام، لقومه في حواره معهم وقد امتزجت فيه دلالة الإنكار بمشاعر الحرص على هدايتهم، والخوف عليهم من سوء العاقبة التي ستحيق بهم، والتقريع والتوبيخ واللوم، يقول: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا. مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟! ﴾ [نوح:١٠-١٤].

لقد جسم هذا السؤال بتنغيمه الصاعد تأزم مشاعره، عليه السلام، فظهر صرخة إنكار متألمة تقرع المخاطبين على استكبارهم وعنادهم وعدم استجابتهم لدعوته التي طالت وامتد زمانها. وظهر كأنه وشاية تصور رد فعل المخاطبين على كلامه الذي استهله بهدوء النّاصح المذكر آمراً إياهم باستغفار ربهم مبيناً نعمة الله عليهم، ولكنّ رسالته لا تلقى آذاناً صاغية ولا قلوباً واعية، وعندها تعلو نبرة الخطاب لتشد انتباههم منفسة عن ضيق المتكلّم وتذمره.

وشكل السؤال سمة مهيمنة لها وضعية خاصة في الخطاب الذي وجهه موسى، عليه السلام، إلى قومه وأخيه مجسماً صدمة المرسل بالواقع وتوتره وغضبه، الذي وصل به حد الانيهار، وهذا يثبت خصوصيّة السؤال وتفوقه على التراكيب الأخرى في استيعاب الشحنات الإنفعالية الوجدانية التي تموج في نفس المتكلم، وإيصال نبضها وحرقتها إلى المتلقي وتطويقه بها: ﴿ قَالَ: يَٰقَوْمِ، أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟! أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ؟! أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى؟! ﴾ [طه:٨٦]، وبعد أن يجيبه قومه مبررين تصرفهم، يلتفت موسى إلى أخيه هارون ويسأله بالأسلوب ذاته

قـــــــائلا: ﴿ يَـٰهَـٰرُونُ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ؟! أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى؟! ﴾ [طه:٩٢-٩٣] إنه لا يأبه بإجابة المتلقي بل لا يريدها؛ لأنـــها مرفوضـــة مستنكرة، ولذلك نجده،عليه السلام، يجيب عن المتلقي المســـؤول موجـــها لـــه الخطاب في قالب السؤال الذي يستوعب تجسيم مشاعره، وبهذا يكون قد صفـــع مخاطبه بالسؤال الإنكاري والإجابة المتقولبة في تركيب السؤال الإنكاري مدخلا إياه في مواجهة مع نفسه تشعره بقبح فعله وسوء عاقبته.

وبدأ موسى خطابه لقومه بندائهم (يا قوم)؛ إنها صرخة غضب وأسف يريد بها المرسل الإحاطة بمخاطبه ومحاصرته بخطابه، وقد بيـــن الله الحـــال التـــي كـــان عليها موسى حين رجع إلى قومه بعد أن أخبره عز وجل أن قومـــه قـــد عبدوا العجل في غيبته: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ﴾ [طـــه:٨٦]، وهذا يعلل سبب الإتكاء على الأسئلة في مواجهة المتلقـــي؛ فمشـــاعر الغضـــب والأسف التي كانت تموج في نفس موسى دفعتة إلى السؤال دفعـــا لا إراديـــــا: ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟! ﴾ يذكر موسى بهذا السؤال قومه بوعـــد ربهم لهم مقررا إياهم بأسلوب السلب الذي يفيد الإثبات، والتوكيد منكرا تجاهلهم هذا الوعد موبخا لائما .ولا تخفى دلالة التحسير والأسف المكتنزة في الســـؤال، فهو يتحسر عليهم ويحسرهم على أنفسهم.

ويتبع التساؤل الإنكاري التقريري تساؤل آخر يحوي تفسيرا لدافـــع قـــد يكون وراء تصرفهم المنكر: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ؟! ﴾ وفيه يبرز ما يمكن أن يكون دافعهم في قالب السؤال ليواجهه متلقيه بكل ما يحويه الســـؤال مـــن دلالات الإنكار والاستخفاف بقدرتهم على الصبر. ويتصاعد الغضب في نفـــس المتكلم متجسما في سؤال ثالث يحوي دافعا آخر وجه اليه سيدنا موسى إنكـــار: ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى؟! ﴾ وفيـــه قدم النتيجة على السبب؛ ليجابه المتلقي بسوء العاقبة المترتبـــة علـــى إخلافـــهم الموعد، فهو يجعل من حلول غضب الله غاية سعوا اليها وأرادوها، ولذا فـــهو ينكر ما وقع من إرادتهـــم حلول الغضب: ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ

مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

ويلتفت موسى إلى أخيه موجهاً إليه سؤالاً ينكر فيه مانعه الذي حال دون اللحاق به: ﴿ قَالَ: يَٰهَٰرُونُ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ؟! ﴾ [طه:٩٢] ويتبع سؤاله سؤال يحوي إجابته التعليلية لما يرجح أن يكون سبباً وراء فعله المستنكر: ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى؟! ﴾ [طه:٩٣].

ولا تخفى قدرة السؤال وطاقته على المواجهة الكلامية الصادرة من فرد إلى جمع غفير؛ إنه سلاح قوي المفعول، يلجم الألسنة موقفاً المتلقي على رسالة المرسل الكلامية، وكأني بهذه الأسئلة المتوالية لكمات يوجهها موسى إلى قومه، فهو لا يريد بها استثارة تأملهم ولكنه يريد أن يصرخ بهم ويعاقبهم محرقاً إياهم بالنار المتأججة فيه، فلو استطاع أن يضربهم لفعل، ويؤكد هذا التوقع التجسيم الفعلي للغضب الذي تملك موسى؛ فقد ألقى الألواح التي كتبت عليها تعاليم دينهم، وأخذ برأس أخيه يجره من شعره، وتشير آية سورة الأعراف[1] إلى أن إلقاء الألواح جاء بعد الأسئلة التي خاطب بها قومه، أي أن التجسيم الفعلي للغضب جاء بعد التجسيم الكلامي.

لكنه يفعل العكس مع أخيه هارون، فقد بدأ بجر شعر لحيته ورأسه، ثم وجه له سؤالين إنكاريين[2]. الأمر الذي يثبت أن ترجيح الفعل على القول أو العكس يخضع لطبيعة العلاقة بين طرفي الحوار؛ فعلاقة الأخوة التي تربط بين موسى وهارون جعلت موسى يجسم انفعالاته فعلياً قبل تجسيمها كلامياً، بينما تحول العلاقة مع الطرف الأول دون ذلك.

وقد تتوالى الأسئلة الإنكارية على لسان الرسل في حوارهم مع أقوامهم حين يواجهون بوابل كلامي ينكر دعوتهم، أو يسخف أفكارهم، أو يهدد وجودهم، فيشهرون السؤال سلاحاً في تلك المبارزة الكلامية، ومن ذلك الأسئلة

١- تنظر الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

٢- ﴿ قَالَ: يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ؟! قَالَ: يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ....(٩٤) ﴾ [طه:٩٢-٩٤].

الإنكارية المتتابعة التي وجهها إبراهيم، عليه السلام، إلى قومه حين حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه، فقال لهم: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ؟! وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى ، شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟! وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا؟! فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟! ﴾ [الأنعام:٨٠-٨١]، لقد بدأ بسؤال تمتزج فيه دلالة الإنكار بالتيئيس وإحباط أية محاولة تضليل يقوم بها الخصم المخاطب، وفيه إيحاء وتجسيم لنبرة المتكلم الواثق من سلامة العقيدة التي يعتنقها وينادي بها. وقد لحقت بالسؤال جملة حال تقوي الإنكار المتقولب فيه: ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ فهو، وحاله هذه، فوق أية محاولة تضليل يقوم بها مخاطبه. ويتصاعد انفعال إبراهيم متبلوراً في سؤال إنكاري ثانٍ تمتزج فيه نكهة الأمر والتوبيخ بدلالة الإنكار: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟! ﴾ ؛ فترك التذكر والتأمل واقع من المخاطبين، وقد أنكر هذا الترك، وطلب منهم أن يتذكروا بأسلوب النفي مع إفادة التوبيخ بسبب إصرارهم على عدم التذكر. ولا يراد النفي في الحال فقط، بل في الماضي كذلك، فهم لم يتذكروا في الماضي ولا في الحاضر.

ويتلو هذا السؤال سؤال آخر يعمق الدلالات السابقة ويرسخها معيداً إشعالها من جديد:﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا؟! ﴾ إنه يؤدي الإنكار بالأداة (كيف)، مؤكداً إنكار وقوع فعل الخوف متعجباً من علة وقوعه، ومسخفاً طلبهم ومقرعاً إياهم .وينهي خطابه معهم بسؤال إنكاري جاعلاً له نهاية مفتوحة تستفز تأمل المخاطب، وتحثه على الإجابة التي لا يملك منها فراراً طالباً من المخاطب التحديد والتعيين: ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟! ﴾،

إنها إجابة ترتدي زي السؤال مشكلة نتيجة حتمية للتساؤلات التي سبقتها، لتثير انتباه المخاطب وترغمه على الاعتراف، ولو في نفسه، بأن الفريق الأحق بالأمن هو الفريق المؤمن بالله وحده.

كما توالت الأسئلة الإنكارية في الخطاب الذي وجهه لوط إلى قومه: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ: أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ؟! أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ؟! بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل:٥٤-٥٥]، إنه ينكر ما وقع ويقع من قومه في التساؤل الإنكاري الأول، ويفصل سبب إنكاره الممزوج بالإستهجان والتقزز والتوبيخ في السؤال الإنكاري الثاني. ولا تخفى قدرة السؤال في تجسيم انفعال لوط، عليه السلام، وتوصيل صرخته للمتلقي لردعه وتقبيح فعله.

وقد يفصل بين الأسئلة الإنكارية فاصل يقوي دلالة الإنكار في السؤال الأول، ويؤجج الانفعال ويبرزه في السؤال الثاني، ومن ذلك ما حكاه الله على لسان إبراهيم، عليه السلام، في حواره مع قومه المصرين على تقديس الأصنام وعبادتها وإيقاع أقسى ألوان العقوبة على من يتعرض لها بسوء مع علمهم بسلبيتها الدائمة؛ فهي لا تضر ولا تنفع: ﴿ قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟! أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]، فقد استهل خطابه بسؤال ينكر عبادتهم لغير الله، ويوبخهم متعجبا من عنادهم وإصرارهم، ويحقر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، وتتأكد دلالات السؤال بزفرة التذمر والتفجر المتمثلة بكلمة (أف) التي وجهها لهم ولما يعبدون دون خوف منهم أو احتراس، ويتصاعد انفعاله متقولبا بسؤال ثان يختم به خطابه جاعلا منه نهاية مفتوحة يتردد صداها في سمع المتلقي كاسرة جمود تفكيره: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! ﴾.

وتثير دعوة الرسل إنكار أقوامهم فيجسمون هذا الإنكار في تراكيب سؤاله متولية:﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟! أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ؟! ﴾ [الواقعة:٤٧-٤٨] فقد أنكر المشركون أن يبعثوا، وانصب

الإنكار على جملة ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وجملة ﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾، والإنكار فيهما إنكار وقوع ينفي ويستبعد نسبة الخبر إلى المبتدأ. والخبر في الأولى مذكور (مبعوثون)، وقد حذف في الجملة الثانية لأنه مفهوم من السياق والتقديم والتأخير، (أو آباؤنا الأولون مبعوثون أيضاً)، وقد جسم هذا الحذف إنكارهم الساخر نعم تجسيم، فلعلهم كانوا يتناولون مادة هذا الحديث أضحوكة في مجالسهم، وكانوا يستغرقون في السخرية إلى درجة عدم القدرة على إتمام عباراتهم.

وقد يتبادل الفريقان المتحاوران الأسئلة الإنكارية، فيأتي السؤال الإنكاري ردة فعل كلامية على سؤال إنكاري صدر عن أحد الأطراف.

نمثل على ذلك بأسئلة الإنكار المتبادلة بين نوح وقومه في الحوار الآتي الذي دار بينهما:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ؟! إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ أَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ، فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

قَالُوٓا۟: أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ؟!

قَالَ: وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ؟! إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء:١٠٥-١١٥].

لو استفتح نوح حواره بسؤال إنكاري يمتزج بدلالة الأمر والحث على فعل التقوى، ثم قولب الفكرة في قالب الأمر ليؤكدها بتنغيم آخر: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، وينهي خطابه بتكرار العباره السابقة إلحاحاً على مضمونها. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ وردّ قومه على تساؤله الإنكاري بتساؤل إنكاري يؤكد نفي وقوع إيمانهم به وتيئسه من استجابتهم لدعوته، فقولهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ ، يعني لن نؤمن، وأتبع قوم نوح تساؤلهم بجملة الحال ﴿ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾

التي أكدت الإنكار وما ارتبط به من دلالات السخرية والتحقير.

ويتصدى نوح لتساؤلهم بتساؤل مماثل، يقولب فيه دلالة النفي وما ارتبط بها من تعجب ودهشة، وهذا يختلف في تأثيره عن النفي المحض؛ فالأخير يوصل المعلومة مجردة من مشاعر المرسل وانفعالاته: (لا علم لي بما كانوا يعملون) بينما تتفجر المشاعر في قوله: ﴿ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ملاحقة المتلقي، كاشفة عن حرارة الصراع بين الفريقين. كما ويخلق السؤال إجابة خفية في نفس المخاطب تسلم بما يقوله الرسول، وبذلك يكون السؤال تمهيدا إقناعيا يعبر فيه المتكلم عن تأثره ويؤثر في الوقت ذاته على متلقيه، تعقبه إجابة عن تساؤلهم تفسر وتعلل وتوضح.

ويمتد السؤال ليشكل رؤية كاملة للنص الحواري الذي دار بين موسى، عليه السلام، والخضر[1]، فقد اشترط الخضر على موسى أن لا يوجه اليه أي سؤال ينكر فعله، أو يطلب تعليلا له إن أراد أن يرافقه في رحلته. أي أن استمرار العلاقة بين الطرفين مرهون بعدم طرح الطرف المشارك أية أسئلة: ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف:٧٠]. ولكن الخضر كان على يقين بأن سيدنا موسى لن يتحمل ما سوف يراه وسيدفعه انفعاله إلى السؤال دفعا فلما قال له موسى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟ ﴾ [الكهف:٦٦] قال الخضر: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؛ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ؟! ﴾ [الكهف:٦٧-٦٨].

وقبل أن نتعرض لدلالة السؤال الإنكاري الذي وجهه الخضر لموسى، عليه السلام، دعونا نتأمل دلالات السؤال الذي استهل به موسى حواره مع الخضر.

لقد قولب موسى طلبه بقالب السؤال تأدبا في العرض، فهو لا يفرض صحبته على الخضر حتى وإن تمناها وتلهف على حصولها، وإنما نراه ينتظر بسؤاله الإذن من المخاطب؛ ففي السؤال تخفيف من حدة الطلب فلو

١- ينظر الحوار كاملا في سورة الكهف: (٦٦-٧٧).

قال: (اجعلني تابعا لك على أن تعلمني مما علمت رشدا) مستخدما تركيب الأمر لاننفى عن التركيب دلالة إحساس موسى عليه السلام بالحاجز النفسي الذي يولده اللقاء الأول مع شخص غريب، هذا الإحساس الذي يحول دون أن يستهل المتكلم خطابه بأسلوب الفرض الذي نستشفه من فعل الأمر، فقد يكون طلب الشيء بصيغة الأمر أمرا مقبولا بين طرفين بينهما معرفة سابقة، ولكنه ليس بالأمر اللائق مع مخاطب لم تتجاوز معرفته بضع دقائق.

كما يوحي السؤال برغبة موسى، عليه السلام، بفتح آفاق الحوار مع الخضر والتفاعل معه، لأن السؤال يتطلب من المسؤول إجابة، وبذلك ستنشأ علاقة جدلية حيوية بين المرسل والمستقبل تنتهك حاجز الإحساس بالغربة خالقة بداية التواصل.

وتأتي إجابة الخضر مشفوعة بسؤال يعللها ويخفف من وقعها على نفس المتلقي، فحين قال: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾، قد يتوهم المتلقي أن المرسل يقلل من قدرته على الصبر والاحتمال معليا من قدرته هو على ذلك، ولذا أتبع ما أكده في بداية إجابته بسؤال جاعلا، بتلوينه الصوتي، عدم القدرة على الصبر أمرا لا يلام عليه المخاطب؛ لأنه يجهل الحكمة المرادة من هذه الأفعال. وقد صيغ هذا التنبيه بقالب السؤال؛ لدفعه إلى التدبر والتفكير الذي يسلم إلى محاولة التصبر؛ فما سيشاهده سيكون أمرا يتقهقر عنده الصبر. كما يخلق السؤال لدى المتلقي توقعا وترقبا يخففان من وقع الفعال الغريبة في نفسه.

ولا ينعتق تساؤل الخضر من دلالة استفزاز الفضول في نفس المخاطب؛ فإنكار الخضر لعدم وقوع الصبر، والتعجب من إمكانية هذا الوقوع، أثار رغبة موسى وتشوقه لمشاركة الخضر في رحلته: ﴿ قَالَ: سَتَجِدُنِىٓ، إِن شَآءَ ٱللَّهُ، صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الكهف:٦٩].

وتبدأ الرحلة فيأخذ الخضر بممارسة أفعال هي في ظاهرها مناكير، فلا يتمالك موسى، عليه السلام، أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذ رأى ذلك، ويأخذ في قولبة مشاعر الإنكار والاستهجان والتوبيخ في قالب السؤال الذي استوعب أقصى درجات التوتر والانفعال التي وصلت به حد الانهيار: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ

إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا. قَالَ: أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا؟! قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ [الكهف:٧١-٧٣].

أثار خرق السفينة إنكار موسى وفزعه واستهجانه فاندفع بالإنكار والفزع والاستهجان إلى السؤال دفعاً ناسياً شرط إتّباعه للخضر. وتؤكد الدلالات النابعة من سؤاله بالتعليق على فعله بأنه فعل عظيم القبح: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾، ولا تخفى قدرة السؤال، بتنغيمه الصاعد، على تجسيم صرخة الانفعال التي أطلقها موسى عليه السلام. وكأني بالسؤال يجسم ثورة المتكلم وتوتره أكثر من طلبه إجابة من المخاطب تعلل أو تفسر سر تصرفه. ويواجه الخضر هذا السؤال بسؤال ينكر طرح السؤال، ويقرر المخاطب بأسلوب النفي ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ ﴾ مذكراً ومعاتباً ومؤكداً توقعه الذي صارح المخاطب به في مستهل حوارهما: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٦٧]، فيتعذر موسى للخضر مبيناً أن ما حدث أنساه الشرط الذي بينهما.

ولكن غصّة الحيرة والفزع والإنكار وغيرها من المشاعر المضطربة ما زالت متأججة في نفس موسى، ولذا لم تلبث إلا وقد طفت متقولبة في تساؤل آخر: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ، قَالَ: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا. قَالَ: أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ؟! قَالَ: إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الكهف:٧٤-٧٦].

خلق تساؤل موسى كمّاً من الإنكار يفوق ذلك القارّ في التساؤل الأول، ويمكن أن نعلل السبب بالنظر إلى نتيجة الأفعال التي قام بها الخضر، فخرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك. وربما يؤكد ما ذهبنا إليه استخدام كلمة (إمرا) في وصف شيئا في الجملة التي تلت التساؤل

المنكر فعل الخرق: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف:٧١]. واستخدام كلمة (نكـرا) في الجملة التالية للسؤال الذي ينكـر فعـل القتـل: ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف:٧٤]. وللسائل أن يسأل عن الإمر والنكر وهل يصلح أحدهما فـي موضـع الآخر أم لكل واحِد معنى يخصصه بمكانه؟!.

أجاب الخطيب الإسكافي على هذا التساؤل قال: " قيـل الإمـر: الداهيـة، وقيل: إنه العجب. والنكر: ما تنكره العقول ولا تعرفه ولا تجوزه، وروي عـن قتادة أنه قال: (النكر أعظم من الإمر؛ لأن الإمر حمل على الداهية، فهي التـي تدهي الإنسان مما لم يخشه، فيحترز من وقوعه)، والعجب قـد يكـون غـير منكـر، والنكر لا يستعمل إلا في المذموم الذي يخرج عن المعروف في العقـل أو الدين. فاختص الأول بالإمر؛ لأن خرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهـون من قتل الغلام الذي قد هلك. وقيل الإمر أعظم من النكـر؛ لأن تغريـق أهـل السفينة أنكر من قتل نفس واحدة. وليس الأمر كذلك لأن الغرق لم يقع والقتل قد حصل"(١).

وجاء في الكشاف:" وقيل: معناه، ويقصد نكرا، جئت شـيئا أنكـر مـن الأول؛ لأن ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسد، وهذا، وقصد القتـل، لا سـبيل إلـى تداركه"(٢).

ويجيب الخضر عن التساؤل بتساؤل سبق أن طرحه في مواجـه السـؤال الإنكاري الأول، ولكنه اكتنز بجرعات إضافية من الـدلالات ذاتـها؛ ليناسـب الزيادة في شحنة الإنكار التي ظهرت في سؤال موسى. فعتـاب الخضـر فـي سؤاله الثاني قد ازداد حدة وعنفا وصل به حد الإنكار الممزوج بالتوبيخ؛ لكونها المرة الثانية التي يخترق فيها موسى، عليه السلام، شرط إتباعه. ولعل زيـادة (لك) في السؤال الثاني وإخلاء السؤال الأول منها يبرهن صحة ما ذهبنا إليـه.

١- الخطيب الاسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، ص(٢٨٣-٢٨٤).

٢- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٧٠٧.

يقول الزمخشري: "قان قلت: ما معنى زيادة (لك)؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية"[1]. ويعلل الخطيب الإسكافي هذا بقوله:" والجواب أن يقال: إنه في الأولى لما قرر موسى -عليه السلام- وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أن الصبر على ما يشاهده منه يثقل عليه فقال: (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا)، وهذا معناه، في غالب ظني، أنك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبادر إلى الإنكار. فلما رأى قتل الغلام وعاد إلى الإنكار، أكد التقرير الثاني بقوله: (لك)، كما يقول القائل: لك أقول، وإياك أعني، فيقدم لك وإياك. ولو قال: أقول لك وأعنيك بكلامي لاستويا في المعنى إلا في تأكيد الخطاب بالتقديم. فكأنه قال: ألم يكن خطابي لك دون سواك، وهذا وجب في الثاني لا في الأول الذي لم تتأكد حجة الخضر فيه، عليه السلام، كتأكدها في الثانية"[2].

ويشعر سيدنا موسى بالخجل من انفعاله المتكرر الذي يدفعه دفعا إلى خرق شرط إتباعه للخضر بطرح الأسئلة الإنكارية، فيضع شرطا على نفسه مجنبا الخضر الحرج الناتج عن تذكيره المستمر لشرط الإتباع: ﴿ قَالَ: إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف:٧٦]، لقد جعل مواصلة رحلته من الخضر مرهونا بعدم طرح أي تساؤل. ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ، قَالَ: لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف:٧٧] لم يتمالك موسى لما رأى الحرمان ومساس الحاجة أن قال ما قال طالبا من الخضر أن يأخذ أجرا على بنائه الجدار؛ ليستدفع به الضرورة. لقد حمل قوله بين طياته سؤالا خفيا بل مجموعة أسئلة يمكننا أن نقدرها بـ:

- لم بنيت الجدار الآيل للسقوط في هذه القرية التي أبى أهلها أن يضيفونا؟!

١- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٧٠٧.

٢- الخطيب الإسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، ص٢٨٥.

- لماذا أقمت هذا الجدار؟!

- ألا تتخذ على إقامته أجرا؟!

ولنا أن نتساءل عن علة تخفي تلك الأسئلة في قناع الجملة الخبرية؛ أهي تعبير عن مرحلة استطاع فيها موسى أن يضبط انفعالاته، فلم تعد صرخات الإنكار تتفلت منه متقولبة في تركيب السؤال؟ أو أن بناء الجدار لم يثر انفعالات سيدنا موسى، وإن أثار فضوله، كما فعل خرق السفينة وقتل الغلام؟! ولست أدري أكانت هذه محاولة ذكية أخفى فيها موسى سؤاله في قالب خبري كي يشفي غليل فضوله دون أن يستفز عتاب الخضر وإنكاره؟! ربما أومأت هذه التساؤلات إلى محاولة تعليل. ومهما يكن من أمر، فقد كشفت إجابة الخضر عن مقولة سيدنا موسى كشفت السؤال المخبوء فيها: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٨] لقد استشف الخضر السؤال الكامن في مقولة موسى، فأشار إليه بقوله: (هذا) وجعله مبتدأ وأخبر عنه: ﴿ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾، فالسؤال الثالث سبب الفراق وفقا لطلب موسى عليه السلام: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾

ويأخذ الخضر بتفسير الحكمة الكامنة وراء أفعاله مراعيا الترتيب في التعليل، مروسا كل إجابة بالكلمة المحور التي وقع عليها الفعل مثار السؤال[1]. كما برزت الأسئلة المكتنزة بدلالة الإنكار في الخطاب الإلهي الموجه للكافرين أو العصاة توجيها غير مباشر (بواسطة متلق وسيط بين المنكر والمنكر منه) أو مباشر (دون واسطة).

وتوالت الأسئلة وتلاحقت في جل أمثلة النمط الأول من الخطاب مشكلة سمة أسلوبية مهيمنة، في حين أنها لم تتلاحق التلاحق ذاته في الخطاب الإلهي المباشر. ولعل السبب في هذا يستشف من البحث عن فاعلية السؤال في تلك السياقات، فالأسئلة الإنكارية تتوالى في النمط الأول لتطارد فكر المخاطب

١- سورة الكهف: (٧٩-٨٢). سنتناول الاسلوب الذي تبلورت فيه الإجابة في حديثنا عن أسلوبية الجواب.

وتحاصره ممارسة فعلها الإقناعي الذي يدفعه إلى التأمل والتدبر والتفكر. إنها وسيلة مختارة لقنها الله لرسوله؛ ليجابه بما تحويه من دلالات إنكار للكفار وسخريتهم وعنادهم، وتفحم بتواليها جدلهم العقيم وتخرسه .وقد جاءت هذه الأسئلة الإنكارية نتيجة منطقية أفضت إليها مجموعة من الأسئلة التقريرية التي تستل الإجابة القاطعة من المخاطب نفسه، أو يتولى المخاطب الوسيط الإجابة عنها، فتكون هذه الإجابة الشرارة المولدة للسؤال الإنكاري.

ويختلف الدور الذي تؤديه الأسئلة الإنكارية في الخطاب الإلهي المباشر الموجه إلى العصاة أو الكافرين، فهي تمارس طاقتها التأثيرية التي تدفع المخاطب إلى الإحساس بالألم والندم والحسرة والخجل.ولا شك في أن الإنكار المباشر أشد وقعاً على نفس المتلقي، فغياب العلاقة الندية بين طرفي الحوار، وشعور الطرف المسؤول بالتقهقر أمام قوة السائل -عز وجل- يشحن السؤال بطاقة تأثيرية تطوق المسؤول وتلجمه، فالتأثير واقع لا محالة، إنه لا يحتاج إلى سلسة متوالية من الأسئلة لتؤكده. من الأمثلة على النمط الأول من الأسئلة، الأسئلة الإنكارية المرتدية ثوب التقرير وقد وجهها الله عز وجل للكافرين المنكرين البعث على لسان رسوله محمد (ص) في الحوار التلقيني الذي يتولى فيه الله طرح الأسئلة وطرح إجابات حتمية ستصدر عن المسؤولين تعقبها اسئلة إنكارية بلسان السائل الوسيط: ﴿ قُل: لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ؟!

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِۚ.

قُلۡ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟!

قُلۡ: مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ؟!

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِۚ

قُلۡ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟!

قُلۡ: مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ

تَعۡلَمُونَ؟!

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِۚ

قُلۡ: فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ؟! ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]. إنه حوار يعج بالإنكار، فالأسئلة التقريرية التي يأمر الله رسوله بتوجيهها لكفار مكة تحوي إنكارا يمتزج بالتقريع والتبكيت والتحدي؛ لأن السائل العليم يستنطقهم بالإجابة التي لا يملكون منها فرارا، إنها إجابه تؤكدة يقينهم الكامل بنسبة ملكية الأشياء المسؤول عن مالكها إلى الله وحده لا شريك له: (لله).

وأتبعت إجابتهم في كل مرة بتساؤل إنكاري يمتزج بالتقريع والتعجب من إصرارهم على الكفر، كما يمتزج بدلالة الأمر والحث على التذكر والتأمل والتقوى: (أفلا تذكرون؟! أفلا تتقون؟! فأنى تسحرون؟!) إن ملاحقة المخاطب بالأسئلة يضعه في موضع المواجهة مع ذاته كاشفا عن تناقضها. إنها مطاردة ومحاصرة عقلية تدفع المسؤول إلى التدبر والتأمل والتفكر وصولا إلى القناعة التامة. فمساءلة الخصم لانتزاع إجابته وسيلة تكشف الحقائق وترسخها، وتفحم المسؤول بإجابته التي لا يملك منها فرارا. ولا تخلق مثل هذه المثيرات في الأسلوب الخبري الذي يقتصر على إيصال المعلومة للمتلقي بدلالتها الجاهزة أو لنقل المغلقة. ومن هنا كان صب الإنكار وما ارتبط به من دلالات في قالب السؤال أسلوب الطرح الأمثل الذي أملاه الله على رسوله لمواجهة كفار مكة، الأمر الذي يثبت فاعلية السؤال في مجال الدعوة والإقناع.

وتتوالى الأسئلة التقريرية المملاة على النبي (ص) ليجابه بها الكفار في تكثيف يلاحقهم ويحاصرهم لتحقيق التفكير والتأمل والتدبر الذي يسلم إلى الإقرار والإذعان، تعقبها أسئلة إنكارية تولدها إجابة المخاطب، أو إجابة السائل الوسيط نفسه: ﴿ قُلۡ: مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ؟! أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ؟! وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ؟! وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ؟! فَسَيَقُولُونَ: ٱللَّهُۚ.

فَقُلۡ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟! فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا

ٱلضَّلَٰلُۖ؟! فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ؟! كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ.

قُلۡ: هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ؟

قُلِ: ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ. فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ؟

قُلۡ: هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ؟!

قُلِ: ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ، أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ؟! فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ؟!﴾ [يونس:٣١-٣٥].

إنها مواجهة خطابية يشكل السؤال سمة مهيمنة في بنيتها اللغوية، فيبرز بوصفه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات التي جاءت بمثابة الروافد التي تصب في مجرى دلالي واحد يتمثل في إنكار كفرهم وعنادهم وإصراهم على السير قدماً في طريق الضلال رغم وضوح الأدلة وإقرارهم بها، فقد جاءت الأسئلة الإنكارية نتيجة حتمية أفضت إليها المقدمات المنطقية المتقولبة في الأسئلة التقريرية، وتجسّدت في النص الحواري، نتيجة لذلك، صياغة محكمة في بعدها العقلي، فاعلة بعدها التأثيري.

لقد أمر الله عز وجل رسوله أن يستهل حواره مع الكفار المعاندين بأربعة أسئلة تقريرية متوالية تستفز تفكيرهم، وتستثير تأملهم، فلا يملكون حيالاها إلا الإقرار والإذعان. إنها أسئلة مكتنزة بدلالات التحدي والتعظيم والتعجيز بنفي إمكانية نسبة هذه الأفعال لأحد من الخلق، ونسبتها لله وحده. كما نستشف منها توبيخاً وتقريعاً لغفلتهم وتجاهلهم اختصاص الله بهذه الأفعال وعجزهم وعجز معبوداتهم عن فعلها وإنكار هذا التجاهل وتلك الغفلة. إن تجسيم هذه الدلالات في تراكيب السؤال أسلوب حكيم اختاره العليم بخبايا النفس البشرية وما يثيرها ويستفز تأملها وتفكيرها. وتبدو أهمية هذا الأسلوب في طرح الفكرة حين نقارنه بأسلوب آخر، كان يواجه الرسول (ص) هؤلاء الكفرة بجمل خبرية، غايتها إيصال المعلومة بدلالتها الجاهزة أو لنقل المغلقة للطرف المتلقي دون أن يشارك هذا الأخير في إنتاجها.

ومن هنا كان أسلوب طرح الأسئلة أكثر استدعاء لمثيرات المتلقي، عن مواجهة المسؤول بتركيب ذي دلالة ناقصة يستدعي مشاركته في إكمال إنتاجها، فتقوى أواصر التواصل بين مرسل السؤال ومستقبله.

كما أن مساءلة الخصم لانتزاع إجابته وسيلة لتكشيف الحقائق وترسيخها وإفحام المسؤول باعترافه الذي لا يملك منه فرارا. وتواجه إجابتهم بسؤال إنكاري يمتزج بدلالات التوبيخ والتعجب والحث على تقوى الله: (أفلا تتقون؟!) إنه تساؤل ولدته إجابتهم، التي أكدت ما يحويه من دلالات وأبرزتها، مجسما صرخة إنكار تجابه تناقضهم وتتعجب منه وتوبخهم عليه. ويتبع هذا التساؤل تساؤل يبرز في تركيب لافت تبدو غرابته في إتيان السؤال متبوعا بالإجابة، ويبدو الموقف أمام هذا التركيب أكثر إدهاشا لكون الإجابة ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها، إنها إجابة قاطعة صارمة لا يحتمل السؤال سواها: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ؟! ﴾ إنه يقف على الإجابة ويوقف المتلقي عليها بوضعه وجها لوجه أمام وسم واقعه بالضلال ليحمله على رفضه.

ويبرز إحكام الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرح في التركيب القصري للسؤال، فدلالة النفي لا تنفصل هنا عن أداة السؤال (ماذا) التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب فلا تدع أمام المتلقي سوى هذا الاختيار الوحيد. وهذا يسلمنا إلى الحديث عن علة إيثار النفي بتركيب السؤال على النفي الصريح، فلو استخدم تركيب النفي الصريح: (لا يوجد بعد الحق إلا الضلال) لانتفى عن التركيب دلالة استمرار التفاعل والتوتر بين الفريقين، ولأبان هذا النفي الصريح عن استقرار يقتل إيصال نبض المتكلم إلى المتلقي، أما تركيب السؤال فيحمل بعدا انفعاليا يجمع بين الدلالة والمتلقي في تفاعل لا يهدأ صابغا النفي بمشاعر المتكلم محطما برد الاستقرار في نفس المتلقي.

ويأتي بعد السؤال سؤال تعقيبي يكثف دلالة الإنكار وما امتزج بها من تعجب وتوبيخ مبقيا جذوة التوتر مستعرة بين المرسل والمتلقي: (فأنى تصرفون؟!) ويشكل هذا السؤال بداية متأججة لمجموعة جديدة من الأسئلة التي

يقصد منها فتح آفاق الرؤى التي أدرك المتكلم غيابها عن أذهانهم ليثير فيهم التأمل الدافع إلى يقين يحرص أن يحملهم عليه وأن يقنعهم به.

وإزاء هذه التساؤلات يغيب صوت المتلقي فلا نسمع إجابته، ويتولى صانع الأسئلة الإجابة عن التساؤلات التي يطرحها؛ فهو مدفوع إلى السؤال والإجابة بثبات اليقين، بل أن جل حرارة الموقف تكمن في هذا اليقين، الذي يؤكد بالإجابة الحقيقية التي طرحها عبر السؤال، فما تلك الإجابة سوى.ضرب آخر من الملاحقة والمطاردة على أي محاولة إخفاء أو تردد تنطوي عليها نفس المخاطب، فهي تقتضي أن السائل المجيب يعلم رسوخ هذه الحقيقة في نفس المتلقي مهما حاول إخفاءها وعدم التصريح بها، مؤكداً دلالة التحدي التي يحويها السؤال ونفي وجود شريك لله تنسب إليه هذه الأفعال، ويؤكد التقديم والتأخير المتجسد في بنية الإجابة الدلالات المكتنزة في السؤال؛ ليبلغ التأثير والإقناع مبلغه في نفس المخاطب، إذ جعل الفاعل (الله) يتقدم على فعله في قوله: ﴿ قُلِ: ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، وقوله: ﴿ قُلِ: ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾، واضعاً الحقيقة في بؤرة شعور المخاطب. وأتبعت الإجابة في كل مرة بتساؤل إنكاري يعج بالتعجب والتقريع:

﴿ قُلِ: ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟! ﴾ [يونس:٣٤]

﴿ قُلِ: ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ، أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ؟! فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟! ﴾ [يونس:٣٥].

لقد انتهى هذا الحوار المملى بتساؤلين أفضت إليهما التساؤلات السابقة، الأول وضع المخاطب أمام مقارنة بين من يهدي إلى الحق وبين من لا يهدي إلا أن يهدى ممارساً طاقته الإقناعية في انتهاك المساواة بينهما بشكل مطلق.

وتتجه بنية السؤال الأخير: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟! ﴾ نحو التركيز على الإنكار والتوبيخ والتعجب، فهو يضع المخاطب موضع المواجهة مع ذاته بزيادة ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾؛ فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يُكتفى

فيه بقوله: ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾، لقد زلزلت تلك الزيادة استقـرار المخاطـب الممكن تولده بعد انتهاء الخطاب المنتهي بجملة خبرية.

ولذا كان الختام بالسؤال تكثيفا لعملية الملاحقة والمطاردة التي يمارسـها السائل على المخاطب؛ إنها تتحول إلى طاقة تدمر استقرار المتلقي مثيرة توتره الدائم الباعث على التفكر، فالله عز وجل يلقن رسوله السؤال ويأمره أن يجيـب عنه منهيا إجابته بتساؤل إنكاري؛ مجردا المتلقي من المشاركة الحوارية، وكأني بالإنكار قد وصل حدا فاق فتح باب الحوار معه والاستماع إلى إجابته.

لنتأمل الآن عددا من الأسئلة الإنكارية التي وجهها الله -عز وجل- توجيها مباشرا إلى من عصى أوامره والى الكافرين المعذبين في جهنم. لقد صدرت هذه الأسئلة الإنكارية أو ستصدر في مكان آخر يختلف عن مكان صـدور النمـط الأول من الأسئلة الإنكارية، ورافق هذا الاختلاف اختلاف في طريقة الطـرح؛ فخطاب الله للبشر العاديين الموجودين على الأرض يتم بواسطة الرسـل، أمـا خطابه لمخلوقاته في السماء فجله مباشر دون وساطة، ومـن ذلـك: السـؤال الإنكاري الذي وجهه الله لإبليس حين رفض السـجود لآدم: ﴿ قَالَ: يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص:٧٥].

إنه سؤال صنعه السائل العليم الخبير بخبايا مخلوقاته ودوافعهم، ينكر فيه المـانع الذي حال دون سجود إبليس .ويجيب عن هذا التساؤل بتساؤل آخر يؤكد ما حواه السؤال الأول من دلالات الإنكار والتوبيخ والتـهديد: ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ؟! ﴾ مطالبا إبليس تعيين المانع الذي لا يخرج عما حدده الله في سـؤاله وهي موانع مستنكرة مستقبحة، ولا يخفى دور السؤال في إبرازهـا وتجليتـها لفضح نوايا المتلقي وهواجسه الخفية بتنغيم السؤال الصاعد.

وتؤكد إجابة إبليس عن تساؤله عز وجل انحصارها في الدافعيـن اللذيـن قولبهما الله فـي سـؤاله: ﴿ قَالَ: أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص:٧٦] فقد استهل إجابته بالإخبار عن أفضليته الموحية باستكباره: ﴿ أَنَا۠

﴿ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ ثم علل حكمه مفصلا بعقد مقارنـــه بينه وبين آدم، تؤكـــد شهـــوره بفوقيته التي تدفعه إلى تعظيم ذاته واحتقار الآخر: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.

كما شكلت الأسئلة الإنكارية المباشرة أداة من أدوات التعذيب المعنوي الذي أوقعه الله على المعذبين في جهنم، فقد حاصرتهم الأسئلة ملهبة مشاعر الحســـرة والندم واليأس في نفوسهم مولدة صراعا داخليا عنيفا قد يـــؤول إلـــى صـــراع خارجي أو إلى صمت مطبق يشوبه صراع داخلي. ومن ذلـــك قولـــه تعـــالى للمكذبين بآياته قبل أن يكبكبوا في النـــار: ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل:٨٤]، إنه يذكرهم بجريمتهم التي أدت بهم إلـــى هذا الموقف مقولبا الخبر بتركيب السؤال؛ لأنهم يعلمون ما فعلوا، ولكنـــه عـــز وجل يبرز هذه الأفعال بتنغيم السؤال إنكارا وتوبيخا وتقريعا يبعـــث الحســـرة فـــي النفوس. ويتبع السؤال الأول سؤال آخر يشحن الخطـــاب بشـــحنة إنكـــار إضافية نابعة من توالي الأسئلة.

يعلق الزمخشري على دلالة السؤال الثاني بقوله: ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ للتبكيت لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك، وقـــد علمته رويعي سوء: أتأكل نعمي، أم ماذا تعمل بها؟! فتجعل مـــا تبتـــدئ بـــه وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صح عندك من أكله وفســـاده، وترمـــي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل؛ لتبهتـــه وتعلمـــه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والصلاح؛ لمـــا شهر من خلاف ذلك .أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفـــر والتكذيـــب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون غير ذلك؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل غـــيره"[١]. ويغشاهم الإنكار فيمنعهم مـــن النطـــق والاعتـــذار: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل:٨٥].

١- الزمخشري، الكشاف، (ج٣، ص٣٧٣).

وقد يوجه الله سؤالاً مزدوج الدلالة؛ ظاهره التقرير وباطنه الإنكار إلى متلق وسيط ليس مقصوداً بالإنكار، وإنما هو وسيلة تنقل الإنكار وما ارتبط بها من دلالات إلى الذي حق عليهم القول الذين يؤدون دور المتلقي المهمش المقصود في الفعل الحواري، وهذا يجعل التقريع أشد، والتعبير أبلغ، والخجل أعظم؛ لأن المتلقي المقصود سيصفع بسؤال السائل وبإجابة المتلقي المخاطب. ومن ذلك السؤال الذي طرحه الله على الملائكة في الحوار الآتي: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ: أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ؟ قَالُوا۟: سُبْحَٰنَكَ، أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم، بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

يقول الزمخشري في تفسيره للآيتين: "هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر: إياك أعني واسمعي يا جاره"[١]. ففي توجيه السؤال للملائكة احتقار وتجاهل للكافرين بحرمانهم حتى من شرف الحوار المباشر مع الله، وهذا يعني أن دلالة الإنكار وما اتصل بها من دلالات أشد تركزاً وتأثيراً من تلك التي تحويها الأسئلة الموجهة توجيهاً مباشراً إلى الكافرين المعذبين. ويؤيد دلالة الاحتقار الكامنة في السؤال استخدام لفظة (هؤلاء) للإشارة إلى المعذبين، ففيها تنكير مقصود يجرد الكافرين من أية صفة أو لقب فهم لا شيء يذكر.

كما يبرز أسلوب التقديم في بنية السؤال، وذلك بتقديم المفعول به (إياكم) على جملة: ﴿ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾، وكأني بالله عز وجل يريد بهذا التقديم استثارة المتلقي المخاطب بتخصيصه بوقوع فعل العبادة عليه؛ ليقوم المتلقي بإنكار هذه النسبة وتنزيه ذاته منها وإظهار حرصه على نفي مضمون السؤال. وبهذا يحقق السؤال تأثيراً مزدوجاً ينصب على فئتين من المخاطبين، ومثاله السؤال الذي سيوجهه الله لعيسى ابن مريم يوم القيامة: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ؟! قَالَ: سُبْحَٰنَكَ مَا

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٥٦٩.

يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

[المائدة:١١٦-١١٨].

إن الله سائل السؤال سائل عليم، يعلم كون الملائكة وعيسى منزهين من مضمون السؤال الإنكاري المرتدي ثوب التقرير، وغرضه أن يجيب المسؤولان بما أجابا تقريعا لغيرهم وإنكار. وكأني به -عز وجل - يريد إظهار الحقائق والإخبار عنها بلسان المفترى عليهم ليدافعوا عن أنفسهم، ويقيموا الحجة على المفتري (المتلقي المهمش).

وندرك قيمة هذا الأسلوب في الطرح ومدى تأثيره، لو قارناه بأسلوب آخر تختفي فيه المساءلة، ويكتفي الله بتوجيه الخطاب المباشر و الصريح لهؤلاء المعذبين، ملصقا بهم عبادتهم للجن أو تأليههم لعيسى وأمه مريم، مبرئا الملائكة وعيسى ابن مريم من تضليل أولئك المشركين أو إغوائهم. ولكنه عز وجل أراد استفزاز الملائكة وعيسى بالسؤال ليثير إنكارهم لما وجه إليهم، وفي هذا إنكار غير مباشر للمشركين الذين سيرون حرص الملائكة وعيسى على نفي نسبة تلك الأفعال إلى ذواتهم؛ لأنها أفعال منكرة تورث سوء العاقبة. وعندها سيدب الرعب في قلوب المشركين، لأن هذه المحاولة الدفاعية الصادرة عن الطرف المسؤول توحي بسوء عاقبة من يقوم بالأفعال المسؤول عنها.

وكأن الطرف المسؤول قد أدرك غاية الله من سؤاله، فأراد أن يقرع بدوره من أراد الله إنكار أفعالهم وتقريعهم، فأجاب عن التساؤل بأسلوب يثير خوف المتلقي المقصود وإحساسه بقبح ما فعله في الدنيا وسوء عاقبته. ولذا فقد استهل الطرفان المسؤولان إجابتيهما بكلمة (سبحان) الدالة على تنزيه الله من أن يكون له شريك، والموحية بتنغيم الاستهجان والإنكار.

وتتفاوت دلالات الإنكار وحدته أو طبيعته بتفاوت العلاقة بين أطراف الحوار، ففي عدد من المشاهد الحوارية تواجهنا أسئلة إنكارية خرج فيها الإنكارعن اللون الصارخ الذي صبغه في الأسئلة السابقة، وذلك لغياب العلاقة الضدية السلبية بين المتحاورين، الأمر الذي يجعل للإنكار نكهة أخرى يكشف عنها السياق واعتبار طرفي الخطاب، ومن ذلك: السؤال الإنكاري الذي وجهه سيدنا إبراهيم، عليه السلام، لضيفه حين بشروه بغلام عليم: ﴿ قَالَ: أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ؟! ﴾ [الحجر:٥٤] ولنا أن نتخيل وقع هذه البشارة على نفس رجل مسن انقطع أمله بأن ينجب، وزوجته لم تنجب في شبابها فكيف ستنجب وهي عجوز هرمة؟! إنها بشارة تثير إنكار المخاطب وتعجبه ودهشته، فيقولب هذه المشاعر في سؤالين متواليين يجسمان صرخة داخلية غنية بالأحاسيس المتناقضة، وكأني بسيدنا إبراهيم يريد بهما التحقق مما سمعه، والتأكد من تخصيصه بهذه البشارة وهو في تلك الحالة، ففي السؤال الأول يتعجب من بشارتهم معللا سبب إنكاره لها وتعجبه ساخرا من ذاته، ومؤكدا هذه الدلالات بالسؤال الثاني: ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟! ﴾ إنه ييئس الملائكة من حالة مبينا أن إنجاب الغلام ليس بمقدوره، فليستبعدوا هذا الأمر عنه.

لقد خفف التساؤلان من وطأة الدهشة التي سيطرت على مشاعر إبراهيم وذلك بمجابهة الطرف المثير بالرفض؛ رفض رسالته وإنكارها، ليثيره فيدفعه إلى تفسيرها وتعليلها أو تأكيد صحتها. ولنا أن نستشف دلالات الأسئلة من إجابة ضيوف إبراهيم المبشرين أيضا: ﴿ قَالُواْ: بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ [الحجر:٥٥]، إنهم يؤكدون بشراهم ناهين إبراهيم عن القنوط. لقد استشف ضيف إبراهيم ما حوته أسئلته من دلالات اليأس والاستبعاد والاستحالة، فأمروه بالتخلص من تلك المشاعر وهنا يتأكد إبراهيم من صحة وقوع البشارة واختصاصه بها: ﴿ قَالَ: وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦] إنها تركيبة لافتة أتى فيها السؤال متبوعا بالإجابة القاطعة الصارمة التي ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها، إذا استعمل إبراهيم،

عليه السلام، في سؤاله (من) التي يطلب بها التصور، ولكنه لا يلبث أن يقوم بتعيين المطلوب: (إلا الضالون) إنه يقف على الإجابة ويوقف ضيفه عليها مؤكدا تصديقه للبشارة منزها ذاته عن القنوط من رحمة الله.

لقد أحكم الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرحه إبراهيم في التركيب القصري للسؤال، فدلالة النفي تنفصل هنا عن أداة السؤال (من) التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب مؤكدة للمتلقي انحصار القنوط بالضالين، وهو ليس منهم وهذا يعني تجرده من القنوط وإيمانه بأن الله على كل شيء قدير.

وجاء النفي مقولبا بتركيب السؤال لا بتركيب النفي الصريح: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾، ولاختيار هذا الأسلوب أهميته النفسية أو الانفعالية؛ فتركيب السؤال يجسم نبض المتكلم وانفعاله وثورته الداخلية، ولا يكتفي بالنفي المجرد.

وهكذا فقد أثارت الدلالات المكتنزة في سؤالي إبراهيم، عليه السلام، ضيفه الذي تناول الدلالات السلبية التي تضمنتها أسئلته محاولا تطهيره منها، فقام بدوره بتأكيد تجرده منها بسؤال وجواب مدفوعين بثبات اليقين.

لنرى الآن كيف تلقت زوج إبراهيم البشرى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ: يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا؟! إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود:٧١-٧٢]، لا شك أن وقع البشارة عليها كان أشد من وقعها على ابراهيم، فهي لم تنجب في شبابها وقوتها لأنها عقيم، ولنا أن نتصور تعطش العقيم للولد، وها هي تبشر وهي عجوز هرمة بأنها ستلد غلاما وسينجب هذا الغلام غلاما، إنها ستضحي أما وجدة، وهذه بشرى عظيمة تثيرها مؤججة انفعالاتها، فهي لم تكد تستوعب أنها ستؤدي دور الأم حتى بشرت بأن ابنها سيكبر وينجب غلاما. لقد تملكتها مشاعر متناقضة؛ سعادة ممزوجة بخوف وتعجب ولهفة وخجل عبرت عنها بصرخة الندبة: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ فهي غير قادرة على استيعاب ما سمعت، فندبت

ذاتها واستخدام هذا الأسلوب معروف عند النساء، فالمرأة حين تتملكها مشاعر التعجب والخوف أو الإنكار تعبر عن انفعالها بكلمات مخصوصة غالبا ما ترافقها حركات جسمية تعبيرية، كأن تضرب صدرها بيدها، وهذا يعني توترا مضاعفا، وانفعالات متناقضة تبوئ سؤالها درجة تفوق درجة سؤالي إبراهيم معا: ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا؟! ﴾ وكأنها بهذا التساؤل أرادت استفزاز المخاطب ليعيد على سمعها مضمون رسالته أو يؤكدها أو يوضحها.

إنها لا تقصد بإنكارها توجيه أية دلالات سلبية إلى المتلقين فهي لا ترمي إلى دحض رسالته، وإنما تعبر عن انفعالها، طالبة تعليلا يبين كيفية تحقق مضمون الرسالة وهي بتلك الحالة التي يستحيل فيها التحقيق. وأكدت ما حواه السؤال من إنكار تعجبي أو تعجب إنكاري بقولها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾. وينكر الملائكة إنكارها التعجبي ويتعجبون من عجبها، ولكنه إنكار تطميني، يؤكد البشرى وإمكانية تحققها بقدرة الله، فإنكار الإنكار يبطله، معيدا التوازن الانفعالي للمتلقي: ﴿ قَالُوٓاْ: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ؟! رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣].

ولذا فإني لا أتفق مع الزمخشري في تفسيره لدلالات السؤال في الآية الكريمة السابقة حيث قال: " وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها فـ ﴿ قَالُوٓاْ: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب"(١).

إن هذا التفسير يتجاهل وقع البشارة على زوج ابراهيم، جاعلا من إنكارها توبيخا للملائكة وعتابا لهم وقنوطا من رحمة الله، ولكن استشفاف مشاعر المتكلم يرجح كون تساؤلها صرخة، يؤكّد هذا سؤال الملائكة لها (أتعجبين؟!)؛ أي لا

١- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص (٣٩٥-٣٩٦).

تعجبي وقري عينا وتأكدي من تحقق ما سمعت، حتى وإن دل السؤال على العتاب، فإنه ليس كأي عتاب؛ فلم يقصد به التقريع أو إظهار استياء الملائكة مما سمعوا، وإنما قصد به رد التوازن الانفعالي لها وتذكيرها بقدرة الله، فالانفعال يغيب إدراك الفرد.

كما أن الملائكة على يقين بقوة الإيمان في نفس إبراهيم وزوجه، هذا الإيمان الذي يحول دون التشكيك بقدرة الله، ولذا فإنكار الملائكة جاء للتذكير والتأكيد لا للتوبيخ والتقريع والاستهجان، فليس الإنكار في كل النصوص على درجة واحدة أو بطبيعة متماثلة، واستشفاف هذه الطبيعة وتلك الدرجة يحتاج إلى تأمل السياق واعتبار طرفي الخطاب. ويؤكد ما ذهبنا إليه إتباع الملائكة تساؤلهم بجملة دعائية تؤكد حب الملائكة لأهل البيت: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾.

وتختلف الدلالات التي يحويها السؤال ذاته باختلاف المخاطب؛ فدلالة الإنكار التي يصفع بها السائل مخاطبه قد تختفي أو تحول إلى دلالة أخرى حين يوجه السؤال إلى مخاطب آخر. ومريم، عليها السلام، حين بشرها الروح، الذي تمثل لها بشرا سويا، بأنه سيهب لها غلاما صرخت به متسائلة: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا؟! ﴾ [مريم:٢٠] إنها تنكر البشرى التي جاء بها موبخة إياه، فقد تلبسها الخوف من هذا الغريب الذي اقتحم عليها خلوتها وارتابت من نواياه: ﴿ قَالَتْ: إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم:١٨]، لقد جسم تساؤلها صرخة دفاع عن شرفها وطهرها. وأكدت إنكارها بجملتين منفيتين توضحان حالها التي يستحيل معها أن يكون لها غلام: (لم يمسسني بشر ولم أك بغيا) وتتأكد البشرى بخطاب الملائكة لها: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ: يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:٤٥-٤٦] فالملائكة تؤكد البشرى، وتوضح لمريم صفات الغلام الذي سيهبه الله لها، بعد إن تسميه، ناسبة

إياه لها ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ فهو مخلوق منها وحدها بلا أب، وهذا يكشف هوية الرجل الماثل أمامها، إنه ملك أرسله الله لها ليبشرها. وبهذا تتلاشى مشاعر الخوف والإنكار والاستهجان من نفس مريم وتحل مكانها مشاعر اللهفة والدهشة والترقب الممزوج بالتعجب من كيفية خلق هذا الغلام بلا أب، فتتوجه مريم إلى الله بالسؤال ذاته الذي سبق أن وجهته إلى الملك ولكن بالدلالات الجديدة التي ذكرناها؛ فتغير مشاعر المتكلم واختلاف المتلقي يغير الدلالات التي يحويها السؤال: ﴿ قَالَتْ: رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟!﴾ [آل عمران:٤٧] ويؤكد حذف عباره (ولم أك بغياً) في هذا السؤال ما ذكرناه من تغير الدلالات؛ فهي تخاطب الله عز وجل العليم بحالها، فلا تحتاج أمامه أن تدافع عن شرفها أو تنزه ذاتها من الخطيئة.

وتطل دلالة الإنكار باستحياء من نافذة دلالات أُخرى مكتنزة في بنية السؤال حين يكون السائل دون منزلة المسؤول، ويريد أن يوجه إليه خطاباً ينكر فعله دون أن يثير غضبه أو استهجانه، مغرياً إياه بتنفيذ ما يأمره به أو الابتعاد عما ينهاه عنه، ومن ذلك: قول الملأ من قوم فرعون له: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ؟! ﴾ [الأعراف:١٢٧] فـ ﴿ قَالَ: سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] إنه تساؤل ماكر يظهر الحرص على فرعون وآلهته؛ ففيه إنكار فعل فرعون إنكار المعظم ذات المنكر منه، المقدس إياها، المشفق عليها، الحريص على مصلحتها، الرافض أية إساءة أو تقصير في حقها ولو كان المسؤول هو فرعون ذاته. فالإنكار يحول وسيله يكسب بها المنكر رضا المنكر منه وثقته حين يتقولب في تركيب السؤال الذي يستوعب تنغيمات التملق والتثوير والتعجب والعتاب.

ويؤتي هذا الأسلوب أكله فتثور حمية فرعون، ويغضب لذاته فيعلن أنه سيوقع عقوبة شديدة ببني إسرائيل ولا نتوقع رداً مماثلاً لو اختارت حاشيته في خطابه تركيباً خبرياً أو أمرا ونهياً صريحين، وان حملت هذه التراكيب الحرص ذاته، كأن يقولوا له: (إننا ننكر تركك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك

وآلهتك، فلا تذرهم والحق بهم واقض عليهم)؛ لأن نفس فرعون المتعالية المتعجرفة ترفض الانصياع للأوامر والنواهي وإن كانت لصالحه، كما أنها تكره المعارضة الصريحة، ولذا كان لا بد من تغليف خطابهم له بغلاف السؤال الذي يقدم الأفكار ذاتها، ولكنه يمزجها بانفعالات المتكلم ومشاعره، فيعطي خطابه المشروعية، بل ينال استحسان المخاطب وقبوله. ومنه قول إبراهيم،عليه السلام، لأبيه: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا ﴾ [مريم:٤٢] لقد اختار إبراهيم السؤال بداية يستهل بها خطابه مع أبيه مبتعدا عن التراكيب اللغوية الكاملة الدلالة؛ ليتجنب قسوة المواجهة وعنف الاصطدام، وليغلف إنكاره لفعل أبيه بمشاعره الخاصة نحوه، فالإنكار المتقولب في السؤال يختلف في تأثيره عن الإنكار المجرد، إنه يحاصر المتلقي برفق وعتاب لطيف، داعيا إياه إلى التأمل والتفكر في أمر غاب عن ذهنه، رغم وضوح بطلانه، فعبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابده شيئا فعل عبثي منكر فاعله.

وهذا يعني أن السؤال يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة تنتظر منه أن يكملها بلسانه أو في ذهنه، وبالتالي تقوى اللحمة والتواصل بين المرسل والمتلقي، وهذه غاية سعى إليها إبراهيم، عليه السلام، إنه يريد أن يفتح باب الحوار المنطقي الهادئ بينه وبين أبيه، ولذا نراه يستهل سؤاله بنداء والده متحببا متلطفا: (يا أبت) مبرزا العلاقة التي تربطه بمخاطبه فتدفعه إلى الخوف عليه والحرص على هدايته. .

وقد استخدم أبناء يعقوب الأسلوب ذاته للتأثير على والدهم وإنزاله على رغبتهم مازجين إنكارهم باللوم والعتاب مظهرين تبرمهم لانعدام ثقة والدهم بهم ﴿ قَالُواْ: يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ؟! ﴾ [يوسف:١١] إنهم يضعون أباهم وجها لوجه أمام التناقض الضمني الذي حوته بنية السائل ﴿ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ – وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ؟! ﴾ ليسلمه هذا التناقض إلى الشعور بالشفقة عليهم، والندم على سوء الظن بهم، والسعي إلى إرضائهم بتنفيذ طلبهم. وبهذا يحقق البعد الانفعالي الذي يجمع بين المرسل والمتلقي بعدا إقناعيا، فاختيار السؤال وطيد الصلة بمشاعر المرسل؛ لأنه أقوى في دلالته النفسية من النفي الخبري الذي يكفيه أن يقرر واقعا بعيدا عن نفس طرفي الخطاب، فلو

استخدموا في خطابهم أسلوب النفي: ﴿ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ؟!﴾ لما ظهر تذللهم لأبيهم ولا محاولتهم التأثير عليه، ولبدأ خطابهم معه خطاب الند للند.

وقد يدفع التلطف بالنصح وخشية استثارة غضب المخاطب المرسل إلى أن يوجه الإنكار إلى ذاته، ومن ذلك: قول الرجل المؤمن لقومه الذين كذبوا المرسلين: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ، ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟! ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً؟! إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ، إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٢٠-٢٤] إنه يوجه بالسؤالين المتلاحقين الإنكار وما ارتبط به من دلالات التوبيخ والاستهجان والنفي والتعجب إلى ذاته وهو يريد مخاطبيه، وهذا انحراف ذو عمق جوهري في تكوين التركيب فبه ينبه المخاطب؛ لأنه كسر توقعه فقد بدأ المرسل خطابه بنداء المتلقي (يا قوم) ثم أمره بإتباع المرسلين معللا سبب طلبه ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ، ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ في أثناء ذلك تبدأ خطوات تفاعل المتلقي مع المخاطب، ويتأجج الصراع الداخلي بتوقع إنكار يوجهه المرسل إلى متلقيه، فيستعد الأخير لرد فعل مقاوم لكنه يتفاجأ بالمرسل وقد صب جام إنكاره على ذاته مسائلا إياها. ويقف المتلقي مستمعا إلى هذه المساءلة أو لنقل إلى هذا البوح الوجداني دون أن يضيق بما تحويه من دلالات، ودون أن تهيج ثائرته على المرسل، فتصل إليه دلالات السؤال بل تصفعه دون استفزاز أو تثوير. وهذا يؤكد أن السؤال من أشد الأساليب مراوغة لأنه يحمل من الدلالات الضمنية أضعاف ما تشير إليه دلالاته الظاهرة المباشرة.

تجسيم السؤال لدلالة التعجب !

ومن الدلالات؛ التي حوتها الأسئلة الحوارية (التعجب)، وهي دلالة تنطوي تحت مظلة الإنكار. جاء في اللسان: العجب والعجب إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده، قال الزجاج: أصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: قد عجبت من كذا[1].

قال أبو حيان: "والتعجب تعظيم أمر في قلوب السامعين، ولا يكون إلا في شيء خارج عن نظرائه وأشكاله"[2]. وقد قيل إذا ظهر السبب بطل العجب، فالتعجب ينصب على ما خفي أو استبهم سببه، فمن شأن الناس أن يتعجبوا مما لا يعرف سببه[3].

وقد اختير السؤال من بين التراكيب النحوية ليجسم التعجب الذي انتاب أحد أطراف الحوار، لكون المتعجب يلتمس سر الشيء الذي خرج عن المألوف مسبباً له الإنبهار والحيرة، فهو يطلب المعرفة، والسؤال وقود المعرفة، وهو السبيل إلى برد اليقين، يتحول المتعجب بدلالته الناقصة إلى المتلقي ليكملها فيصل السائل إلى الاستقرار. ومن ذلك السؤال الذي حكاه الله على لسان زوج إبراهيم حين بشرتها الملائكة بأنها ستنجب غلاماً: ﴿ قَالَتْ: يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا؟! إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود:٧٢] تجسم عبارة ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰ﴾ وقع المفاجأة عليها موضحة درجة الانفعال التي وصلت حداً اختلطت فيها المشاعر؛ فتلقيها للبشرى شابه تلقي مصيبة أو كارثة لأنها تجهل الكيفية، فتحولت إلى المبشرين بسؤال تتعجب فيه من التناقض الصارخ بين البشرى وحالها وحال زوجها الذي يحول دون تحقيقها، إنه تعجب يمتزج باستنكار، واستنكار يمتزج بأمر وإلحاح يلاحقان المخاطب ليفك اللغز ويؤكد البشارة.

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجب) -بتصرف-.

٢- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص٢٦١.

٣- السيوطي، الإتقان، ج٢، ص٧٦.

وتأكدت دلالة التعجب التي يحويها السؤال بالتعليق الذي ختمت به تساؤلها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ لقد صرحت بوصف الإنجاب منها ومن زوجها وهما في تلك الحالة بأنه شيء عجيب، أي يدعو إلى العجب. كما تأكدت دلالة التعجب التي حوَاها تساؤلها بالرد الذي وجهته الملائكة لها: ﴿ قَالُوٓاْ: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ؟! رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣]. لقد أنكر الملائكة تعجبها الواضح، طالبين منها أن لا تتعجب لأنه أمر الله الذي لا تعجزه الأسباب، ثم يردون على تساؤلها التعجبي بتساؤل يحوي تعجباً من تعجبها لإبطاله وتأكيد تحقق ما جاؤوا به من بشارة.

ومنه قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟! ﴾ [البقرة:٣٠]إنهم يتعجبون تعجب المستنكر الواقف على تناقض ما بين وقوع الجعل من الله ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] وأن المجعول هذا سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فالسؤال ينصب على الصفة المنسوبة للمجعول، وهي الإفساد وسفك الدماء، لا على الجعل ولا على الخليفة في ذاته، لأن المسؤول عنه هو المعرّف بمن الموصولة، وبالتالي فإن السؤال يتعدد حول مستتبعات جملة الصلة.

وتمتزج دلالة التعجب بالاستنكار والدهشة والاسترشاد المنبثقة من عدم المعرفة التي دفعت الملائكة إلى السؤال .وهذا الذي بينه رده -عز وجل- على تساؤلهم: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠]، فالرد يقطع بأن هناك حكمة خافية تتضمن علماً لما لا يعلم السائل.

وقد تمتزج دلالة التعجب بالسخرية والتسخيف والتكذيب كقوله تعالى على لسان الكافرين المنكرين نبوة سيدنا محمد: ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا؟! إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ! ﴾ [ص:٤-٥]. وتأكدت هذه الدلالات بالتعقيب الذي أنهوا به سؤالهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي بليغ في

العجب، وهذا يؤميء بدرجة التعجب المكتنزة في السؤال، التي فاقت درجة التعجب القارة في سؤال زوج إبراهيم واختلفت في طبيعتها، فقد وسمت زوج إبراهيم إنجابها للطفل وهي عجوز وزوجها شيخ كبير بأنه شيء عجيب ووسم كفار قريش جعل الإله إلها واحدا بأنه شيء عجاب، فما الفرق بين العجيب والعجاب؟!

جاء في اللسان أن هنالك فرقا بينهما؛ "أما العجيب فالعجب يكون مثله، وأما العجاب فالذي تجاوز حد العجب، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: إن هذا لشيء عجاب (بالتشديد) وعجاب، بالتشديد، أكثر من عجاب"[١].

ولا يخفى أن دلالة التعجب في سؤال زوج إبراهيم ترتبط بأمر مرغوب فيه، فإنجاب الغلام شيء قد تاقت إليه في شبابها، وبات أمنية مكبوتة تحت تراب الزمن كشفتها البشارة ودبت فيها الحياة. أما دلالة التعجب في سؤال كفار قريش فترتبط بأمر مستهجن ومستنكر ومرفوض، ولذا كان تساؤلهم أقرب إلى الاستنكار منه إلى التعجب، فهم يستنكرون استنكار المندهش المتعجب المعترض غير الموافق، أو يتعجبون تعجب المستنكر.

وهذا يؤكد كون الانحراف خاصية دائمة التجدد مع السؤال في مختلف سياقاته، فلا يمكن أن يكون التحليل الذي يقال في أحد الأسئلة الدالة على التعجب صالحا لأن يقال في تحليل كل سؤال يحمل دلالة التعجب.

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجب).

طاقة السؤال وأسلوبيته في تجسيم دلالة التقرير :

من الدلالات التي اختارت السؤال قالبا مجسما في الحوارات القرآنية، فاكتسبت أبعادا تختلف عن تلك المتحققة في الأسلوب التقريري الإخباري؛ لأن هذا الأخير تركيب جاهز، قد يمنح المتلقي شيئا في بؤرة الخلق، ولكن دون أن يضعه هو بذاته في هذا الشيء أو في مواجهته كما يفعل السؤال.

جاء في اللسان أن القر: ترديد الكلام في أذن الأبكم أو المخاطب حتى يفهمه، وأقررت الكلام لفلان إقراراً: بينته حتى عرفه، وقرّ بالكلام والحديث في أذنه: فرغه وصبّهُ فيها. والإقرار والإذعان للحق والاعتراف به، وأقر بالحق: اعترف به، وقد قرره عليه وقرره بالحق غيره حتى أقر[1].

وجاء في القاموس: الإقرار هو الإذعان للحق، وقرّ في المكان يقر (بفتح القاف وكسرها) قراراً: ثبت وسكن، وقرر الشيء: جعله في قراره[2]. فمن معانيه اللغوية التحقيق والثبوت، وطلب الاعتراف والإذعان . وقد تجسم هذان المعنيان في سبعين سؤالاً حوارياً تنازعتها عدة أطراف ومواطن، وجه الله ستة وأربعين سؤالاً منها إلى خلقه توزعت على النحو الآتي:

- اثنان وعشرون سؤالاً لقنها الله لرسوله محمد (ص) ليوجهها إلى الكفار.
- ثمانية عشر سؤالاً سيوجهها الله يوم القيامة؛ منها خمسة عشر سؤالاً خاطب بها المعذبين في نار جهنم، وثلاثة أسئلة قرر بها المخاطب الوسيط (عيسى، الملائكة، الرسل)، وقصد بها إنكار فعل الذين حق عليهم القول(المخاطب المهمش).
- وستة أسئلة؛ منها ما وجه إلى الأنبياء، ومنها ما وجه إلى آدم وبنيه، ومنها ما وجه إلى الملائكة.

١- ابن منظور، اللسان، مادة (قرر).

٢- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة (قرر).

وغلبت قولبة التقرير بأسلوب السؤال المنفي الذي يستلزم من المخـــاطب الاعتراف بالثبوت، فقد ورد في واحد وثلاثين موضعا، وهذا يعادل مـــا نســبته ٤٤,٣% من نسبة الأسئلة التقريرية، منها أحد عشر سؤالا وجهها الله وخزنـــة جهنم للمعذبين يوم القيامة.

ولنا أن نتساءل: لم قرر الله (السائل العليم) مخاطبيه عامـــة والكـــافرين خاصة بالسؤال آمرا رسوله، صلى الله عليه وسلم، بذلك ؟! ألا يؤكد هذا كـــون السؤال أكثر التراكيب اللغوية استدعاءً للمثيرات عند المتلقـــي؟! وألا يومـــئ بالحالة الانفعالية التي يريد الله أن يلف مخاطبيه بها؛ فيسمو به من دور المتلقـــي السلبي الذي تغيب ذاته الفاعلة إزاء الرسالة الخطابية إلى متلق متفاعل حتى وإن لم ينبس بحرف؟!

تفتح الأسئلة التقريرية باب الحوار مع الآخر، فالسائل يسأل ليقوم المسؤول بالإجابة المؤكدة للحقيقة المتبلورة في السؤال، أو ليقف مستسلماً مبـــهوراً أمـــام مـــا يحمله عليه السؤال من إجابة لا يطلب منه سوى الإقرار بها، أو أمام مـــا يطرحه السائل من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير بإحتجابها عنه ولو للحظة خاطفة قد تتحدد بفترة سماع السؤال. فالسؤال يجابه المتلقي بالحقائق مســـتنطقاً إياه بإجابة حتمية داخلية كانت أم صريحة؛ لأنه يثير رد فعل تلقائي عنده فـــي محاولة الإجابة محققاً أقصى درجات التواصل بين أطراف دائرة الحوار.

تأملات في عدد من الأسئلة التقريرية:

يشكل السؤال التقريري الموجه إلى المعذبين في نار جـــهنم أداة تعذيـــب معنوي، يستنطقهم السائل (الله، خزنة جهنم، أصحاب الجنة) به تقريعاً أوتحسيراً أوتهكماً أوغيرها من الدلالات التي تصفع المخاطب وتطارده ملجمة إيـــاه عـــن الكلام، أو تدفع به إلى الإجابة الموجزة المؤكدة المتمثلة بكلمة (بلى) التي تجســـم حالة الاستسلام المطلقة المحيطة بالمعذب .وقد يقر المخاطب بما حواه الســـؤال من مضمون، فيثبت ما جاء فيه بأسلوب التقرير الخبري ممثـــلاً حالـــة مـــن حالات البوح الوجداني الذي يمارس فيه المعذب ما يمكن أن يسمى بجلد الذات،

ومن ذلك: قوله تعالى للذين كفروا يوم القيامة: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ، وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم: مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ؟ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الجاثية:٣١-٣٢].

يجابه الله الذين كفروا بما وقع من أفعالهم وجدالهم مع أنبيائهم بسؤال منفي يستوجب الاعتراف بالثبوت، فقوله: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني: (كانت آياتي تتلى عليكم)، وهذه الحقيقة المؤكدة التي لا يملك المخاطب إنكارها، تؤدي قولبتها في تركيب السؤال إلى ارتداد المخاطب إلى الزمن الذي وقع فيه الفعل وتجسيمه في الذاكرة. وقد أعاد الله كلامهم بصوتهم؛ ليقيم الحجة عليهم، ويزيد إحساسهم بالخجل والندم والحسرة، فيلجم لسانهم الذي تفوه بهذا الجدال العقيم. وقد يقرر الله الذين كفروا بما يرونه من العذاب الذي طالما أنكروه في الدنيا مكذبين رسلهم مستهزئين بهم، فتقلب الأدوار ويضحي المستهزئون مستهزءاً بهم:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ: أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ؟!

قَالُواْ: بَلَىٰ وَرَبِّنَا.

قَالَ: فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأحقاف:٣٤].

لقد استنطقهم الله عز وجل بسؤال يفيض تقريعاً وتهكماً مقرراً إياهم بالنار المتأججة التي تنتظر التهامهم، وقد فتحت أبوابها لاستقبالهم؛ إنها الحقيقة الماثلة التي لا يشوبها شك، والتساؤل عنها كشف للمشاعر المتأججة في نفس المسؤول، واستنطاق له بالإجابة، لتكون حسرة عليه لوقوعها بعد فوات الأوان: ﴿ قَالُواْ: بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ إنه إقرار واستسلام يلفهما الفزع والترجي بل التشبث بالسائل، لينقذهم من العذاب المحقق، ولذا أتبع حرف الجواب (بلى) بالقسم بالسائل، عز وجل، وفي هذا أيضاً تأكيد لإيمانهم بالله.

ولكن، جاء هذا الإقرار متأخرا ولهذا استحق الكفار العذاب: ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهكذا جاء السؤال التقريري أداة كشف عن التحول الجذري في شخوص الكافرين من معاندين مكابرين منكرين في الدنيا إلى مستسلمين أذلاء يوم القيامة.

كما يوجه خزنة جهنم أسئلة تقريرية مماثلة، وكأني بهم يعيدون صفع المذنبين بما تحويه هذه الأسئلة من دلالات التقريع والتهكم والتحسير التي سبق أن صفعهم الله بها: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟!

قَالُواْ: بَلَىٰ، قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا:مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[الملك:٨-٩].

استنطق خزنة جهنم بسؤالهم المنفي، الذي يستلزم الاعتراف بالثبوت، المعذبين فأخذ هؤلاء بالاعتراف والإقرار وتأكيد ما أكده السائل، فلم يكتفوا بقولهم: (بلى)، وإنما قولبوا الحقيقة القارة في السؤال بأسلوب الخبر التقريري ﴿ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ وأكدوا هذا التكذيب بإعادة ما وقع من قولهم: ﴿ وَقُلْنَا: مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾.

وقد يأتي السؤال التقريري بدل النفي في رد خزنة جهنم على طلب من طلبات المعذبين فيها، وهذا أبلغ في الرد، وأكثر إذلالا للمخاطب:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ.

قَالُوٓاْ: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ؟!

قَالُواْ: بَلَىٰ.

قَالُواْ: فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٤٩-٥٠].

يمثل السؤال رفضاً غير مباشر لطلب الكافرين: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا..﴾ يفوق في قطعيته عبارة بديلة كقولهم: (لن نفعل) مثلاً، لأن السؤال يؤزم الصراع الداخلي في نفس المخاطب، وقد يفتح، بدلالته الناقصة، آفاق توقعه، فتتأرج مشاعره بين حافتي اليأس والأمل، وتحول دون قدرته على الجدل أو النقاش ﴿ قَالُواْ: بَلَىٰ ﴾ إنها إجابة موجزة تفيض بالترقب مستنطقة السائل أن يكمل كلامه عله يومئ ببصيص أمل.

وتأتي الصدمة في تلك الواقفة الخاطفة بين الطلب (فادعوا) وبين التعليق على هذا الطلب ﴿ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴾ ، إنهم يصعدون بمشاعر الأمل إلى القمة حين يأمرون المعذبين بالدعاء، ولكنهم لا يلبثون أن يهووا بها إلى قاع سحيق حين يوضحون عاقبة هذا الدعاء. كما وجه أصحاب الجنة سؤالاً تقريرياً إلى أهل النار يبرز التناقض بين حالتيهم، مظهراً سرور السائل وسخريته من المسؤول، رابطاً الحاضر بالماضي الذي أنتجه:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن: قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقًّاۖ؟!

قَالُواْ: نَعَمۡۚ

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٤].

ولعل الفعل (نادى) يعلل، أيضاً، استخدام تركيب السؤال في تقرير أهل جهنم، فالنداء يوحي بوجود مسافة فاصلة بين المتحاورين أو حجاب ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌۚ ﴾ [الأعراف:٤٦] يحول دون الحوار وجهاً لوجه، ولذا يحرص المتكلم على إيصال رسالته للمخاطب بصوت واضح، وبتركيب قادر على استيعاب الانفعالات وتجسيمها. وهل أقدر من السؤال على ذلك؟!.

لقد جاءت بنية السؤال بطريقة تعمق دلالات الغبطة والشماتة، وتزيد في غم المخاطب وذلك بتقديم حال السائل وإبرازها، وتأخير حال أهل النار، ويعكس

هذا مشاعر السائل؛ فالمسرور بحاله يحب أن يظهرها للآخر، فكيف إذا كان الآخر خصمه اللدود الذي دأب على السخرية من كلامه وتكذيبه؟! لاشك أن المكذب سيجابه من كذبه بالحقيقة حين تثبت وتظهر بقوة وسطوع ليكيده ويفحمه. وربما يؤكد حذف المفعول في قولهم (فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً) دلالات قريبة الصلة من الدلالات السابقة.

قال الزمخشري: "فإن قلت: هل قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كلّ ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك"[1]. وقد يجسم هذا الحذف طبيعة العلاقة أو مقدارالصلة بين هؤلاء والله، عز وجل؛ فهي قوية وطيدة بين المؤمنين والله في الدنيا تجعل الوعد يصل إليهم مباشرة؛ لتمسكهم بتعاليمه وإيمانهم برسله. بينما كانت العلاقة مبتورة بين الكافرين وبين الله لابتعادهم عن تعاليمه وكفرهم برسله، فكان وعد الله لهم بالحساب والعذاب يصل إلى المؤمنين تطميناً وتثبيتاً. والله أعلم.

ويقرر الله الكافرين في الدنيا بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ملقناً إياه السؤال والإجابة القاطعة التي سينطقٍ بها الكافرون والمتمثلة بكلمي (بلى)، أو سيواجههم بها الرسول فيكون سائلاً ومجيباً في الوقت ذاته. وقد طرحت هذه الأسئلة وطرحت إجابتها بأساليب عدة منها:

ما قد جاء فيه السؤال متبوعاً بإجابة على لسان السائل نفسه، آخذاً الشكل التجريدي الآتي: (قل: سؤال تقريري.. قل: جواب).

كقوله تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ؟! قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤]. وقوله: ﴿ قُلْ: مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ

١-الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١٠.

تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ؟!

قُلِ: ٱللَّهُ.

ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١]

وقد تتوالى الأسئلة التقريرية وإجاباتها متخذة الشكل التجريدي الآتي: (قل: سؤال تقريري؟! قل: إجابة. سؤال إنكاري؟! قل: سؤال تقريري؟! قل: إجابة. سؤال إنكاري؟!)، كقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ قُلْ: هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ؟!

قُلِ: ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟!قُلْ: هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ؟! فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟! ﴾ [يونس: ٣٤-٣٥].

إنها محاصرة المتلقي ومطاردته بحقائق مسلم بها لكونه يعلمها لكنه يخفيها تحت تراب الكفر والعناد. وقد اختير السؤال في هذه المجابهة ليقف المخاطب وجها لوجه مصطدما بالحقيقة المخبأة، مستسلما مبهورا أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة، وأمام ما يطرحه من إجابة تعقب السؤال، فيدخل المسؤول في مواجهتين عنيفتين، يرجع إلى التناقض بين اليقين الكامن في المسؤول وبين تصرفه المناقض لهذا اليقين. تتجسم المواجهة الأولى في السؤال الذي ينقل للمتلقي دلالات التحدي والتعجيز والتوبيخ؛ ليظل التفاعل بينه وبين الدلالات قائما في جدل لا ينضب؛ يصده ويدخله في مواجهته مع نفسه، دافعا به إلى التأمل في أمور غاب عنها تأمله مستخدما فيه (من) التي يطلب بها التصور.

ولكن السائل لا يلبث أن يقوم بتعيين المطلوب، فتقع المواجهة الثانية المتمثلة في تلك الإجابة القاطعة الوحيدة التي لا يحتمل السؤال سواها

﴿ قُلِ: ٱللَّهُ ﴾

وهذا أسلوب لافت في الخطاب، تبدو غرابته في كون المرسل سائلا ومجيبا في الوقت ذاته، فهو مدفوع إلى السؤال والجواب بثبات اليقين، بل إن جل حرارة الموقف تكمن في هذا اليقين الذي تنطق به الإجابة.

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن في محاولة تحديد الغرض من السؤال هنا هو القول بأن غرضه التقرير، ولكن هذا القول يستدعي التساؤلات التي سبق أن طرحناها عن إيثار التقرير بتركيب السؤال على التقرير الصريح، فلو استخدم المرسل الأسلوب الأخير (الله يرزقكم من السماوات والأرض) أو (الله أنزل الكتاب..) أو (الله يبدأ الخلق ثم يعيده)، لا ننفي عن الخطاب الدلالات التي وضحناها، ولإبان هذا الإخبار عن استقرار من نوع ما، ربما يكون استقرار الاصطدام بالحقيقة، وربما يكون استقرار الرضوخ لهذه الحقيقة، وربما يكون ذلك كله. أما تركيب السؤال ففيه تأجيج للصراع الذي يحول دون وصول المتلقي إلى برد الاستقرار أيا كان نوعه، لتبقى جذوة السؤال وإجابته القاطعة متقدة في نفسه تثير فيه التأمل الدافع إلى اليقين..

كما أن في تقسيم الحقيقة إلى سؤال وجواب زيادة في التركيز والإبراز، بحيث يختص السؤال بالأفعال المعجزة الخارقة التي تفوق طاقة المخاطب وقدرته، ويختص الجواب بإبراز الفاعل الأوحد لها الذي تنسب اليه دون غيره، فيزيد التأمل في الفعل وفاعله. وجاءت الإجابة مجسمة في كلمة واحدة (الله) أو في عبارة تعاد فيها العناصر الموجودة في السؤال تأكيدا وترسيخا، وقد قدم الفاعل (الله) على فعله (يبدأ) لإبرازه ومجابهة المخاطب به.

وسبق أن بينا دور الأسئلة التقريرية في توليد السؤال الإنكاري أو التمهيد له، فبها يتأزم الصراع، ويستنطق المخاطب ويقرر فيقر مذعنا بإجابة داخلية أو إجابة متفوه بها (صريحة)، تقابل بسؤال ينكر التناقض بين الاعتقاد والممارسة الذي يكشفه السؤال التقريري.

وقد يأمر الله رسوله أن يحاصر خصومه بأسئلة تقريرية متوالية مخبرا إياه بإجابتهم، طالبا منه أن يرد عليها بسؤال إنكاري:

﴿ قُلْ: مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ؟! أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ؟! وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ؟!وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ؟!

فَسَيَقُولُونَ: ٱللَّهُ.

فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

لقد جسمت الأسئلة أداة الكشف التي أمر الله رسوله أن يوجهها للكافرين لينفض تراب كفرهم وعنادهم الذي ترسب على الحقيقة، وهنا يظهر التناقض، فالحقيقة تظهر على لسان المخاطب. إنه حوار كامل يضعه الله بين يدي رسوله، شكلت الأسئلة التقريرية جل بنيته، وعرفت رد الخصم عليها قبل أن توجه إليه، ولقّن السائل الوسيط الرد على تلك الإجابة بسؤال إنكاري جاء حصيلة ونتيجة منطقية للحوار السابق له الذي كشف التناقض بين يقين الكافرين وتصرفاتهم.

لقد أراد الله أن ينكر عدم تقوى الكافرين وإصرارهم على السير قدماً في طريق الضلال، ولكنه لم يوجه هذا الإنكار مباشرة، وإنما خلق حواراً حياً يستنطق به الكافرين بأسئلة تقريرية ليقيم الحجة عليهم، ويلفتهم إلى الحقيقة الراسخة فيهم، متخذا من إجابتهم البرهان الذي يؤجج صوت السؤال الإنكاري التالي لها. كما جعل الله إجابتهم واقعة في جواب الشرط مؤكداً لرسوله أنهم لن يتفوهوا إلا بها إن توجه إليهم بالسؤال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم: مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ، لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ؟!﴾ [العنكبوت:٦١].

وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم: مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا؟!

لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ. قُلِ: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

وهكذا أكد يقينهم بثلاثة أساليب:

الأول: أمر الرسول بتوجيه سؤال أو أسئلة تقريرية والإجابة عليها، فيكون

سائلا ومجيبا في الوقت ذاته، ويكون صمت المخاطب إقرارا لا يعرف الجدل.

الثاني: أمر الرسول بتوجيه سؤال أو أسئلة تقريرية واستنطاق المخاطب بالإجابة القاطعة التي لا يملك منها فرارا.

الثالث: تأكيد صدور هذه الإجابة إن سألهم الرسول مقررا إياهم.

هذه هي أهم مواطن توزع الأسئلة التقريرية في الحوار القرآني. أما بقية الأسئلة فقد تنازعها أطراف الحوار في مواطن متنوعة، وألصقت بها عدة غايات،منها ما طلب من المسؤول إجابة واضحة ومحددة، ومنها ما أكد مضمونا معينا دون أن يستنطقه بإجابة. نمثل على الأولى بقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ: لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ. قَالَ: ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى؟

قَالُوٓاْ: أَقْرَرْنَا.

قَالَ: فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

إنه السائل العليم بإجابة المسؤول، لكنه يستنطقه بها لتكون حجة عليه، وليترتب عليها توكيد وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشاهدة بعضهم على بعض. إنهم يتلفظون بالكلمة الدالة على الإقرار الوارد في السؤال (أقررنا) وفيه تأكيد يفوق دلالة حرف الجواب (نعم). ومثله قوله تعالى لبني آدم مشهدا إياهم على أنفسهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟!

قَالُواْ: بَلَىٰ، شَهِدْنَآ.

أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

[الأعراف:١٧٢-١٧٣].

إنه يقررهم بأسلوب السؤال المنفي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت مستنطقا إياهم بالإجابة. وجاءت إجابتهم موجزة يفسرها السؤال، يدل إيجازها على قمة التسليم والإذعان التي تحول دون النقاش والجدال: ﴿ بَلَىٰ، شَهِدْنَآ ﴾ ويعلل الله عقب إجابتهم سبب هذا الاستنطاق، المتمثلة في إقامة الحجة عليهم لئلا تصدر عنهم مبررات كفرهم إن كفروا بعد ذلك. وقد حكى الله بلسانهم ما يمكن أن يتحججوا به، وهذا أبلغ في التحذير، لأنه يضعهم في بؤرة المسؤولية.

وقد يقرر السائل مخاطبه طالبا منه إجابة ليسجلها عليه، كقول السحرة لفرعون: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٤١]، فهم يريدون منه أن يؤكد لهم الأجر الذي ينتظرهم إن كانت لهم الغلبة على موسى، عليه السلام، وفي هذا السؤال دلالات عدة منها: طلب الأجر والجزاء على صنيعهم، واستنطاق فرعون بالموافقة على ذلك الطلب، ليقوم بتنفيذه حين يحققون الفوز، وقد ترك أمر تحديد ذلك الأجر ونوعه إليه بدلالة تنكير الكلمة (لأجرا). كما نستشف من السؤال حرصهم على أن يؤكد لهم فرعون موافقته، فقد أكدوا طلبهم بأن واللام وتقديم شبه الجملة (لنا) على الأجر ليخصوا ذواتهم به، كما قدموا جملة جواب الشرط ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على جملة الشرط ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ مظهرين تشوقهم لتأكيد الجزاء وتحقيقه، وكأن التغلب على موسى وقهره أمر مؤكد لا يؤرقهم.

وكان جواب فرعون المتعطش لقهر موسى، المستقل أي أجر يبذل لذلك: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٢]، إنه يوافق على طلبهم، ويزيده تأكيدا بأن يعطف عليه القربى عنده والزلفى. وقد أكد رغبته في تحقيق الغلبة بقوله: (إذا) أي سيتحقق ذلك وأكثر إذا غلبتموه، هذا هو الشرط والغاية التي يريد. وقد تفيد قولبة التقرير في السؤال تنبيه المخاطب إلى المقرر لما فيه من توجيه الانتباه وتركيزه كقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٧].

لفت التساؤل عن العصا انتباه موسى إليها، فأضحت غاية بعد أن كانت وسيلة لا تحظى بالتأمل. لقد سأله الله ليريه عظم ما يخترعه في تلك الخشبة اليابسة من قلبها حية حقيقية تقهر فرعون وسحرته "ليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب اليه، وينبهه على قدرته الباهرة"[1]، فبعد أن أقر موسى بماهية العصا ﴿ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى، وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه:١٨] أمره الله أن يلقيها ليحدث التغير الجذري ﴿ قَالَ: أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ. فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه:١٩-٢٠].

كما يستنطق السائل مخاطبه لاختباره كقول سليمان، عليه السلام، لبلقيس: ﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ [النمل:٤٢] ، ففي سؤاله دعوة إلى التأمل وإمعان النظر في العرش الموجود أمامها، وملاحظة أوجه الشبه بينه وبين عرشها، إنه يؤجج الصراع في نفس بلقيس تأجيجا ما كان ليحصل لو أخبرها بأنه عرشها وقد أحضره إلى مجلسه رغم أنها غلقت عليه الأبواب، ونصبت عليه الحراس، أولو وجه إليها السؤال بأسلوب آخر كأن يقول: أهذا عرشك؟! لقد سألها: ﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أي: أمثل هذا عرشك؟ موقعا سؤاله على (هكذا) المكونة من: حرف التنبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة، ولعل في تقديم هاء التنبيه على كاف التشبيه محاصرة لانتباه المتلقي ومفاجأة له لما في صوت الهاء من مد يعمق الإحساس بالدهشة والمفاجأة، وهذا لا يتحقق في: (أكهذا).

ويوقع السؤال الملكة في حيرة وتساؤل عنيفين، فاستخدام كاف التشبه جازم بتغاير العرشين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فكأنه قال لها: أعرشك مثل عرشنا؟! أيتشابه عرشنا مع عرشك؟! كما رافقت المكر في السؤال مظاهر التنكير والتغيير على العرش، فقد أمر سليمان حراسه أن يغيروا من هيئة العرش وشكله لإثارة تأملها وتحديها ومعرفة مقدار علمها ورجاحة عقلها من إجابتها التي ستحاول بها الخروج من مأزق السؤال ﴿ قَالَ: نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل:٤١].

١-الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٥٥.

وظهر ذكاء الملكة في جوابها﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ [النمل:٤٢].

قال الإمام الزمخشري عن جواب الملكة: "لم تقل هو هو. ولا ليس هو، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل"[1]. فلو أجابت (هكذا هو) مطابقة السؤال، لدلت إجابتها على وضوح التغاير بين العرشين ووقوع الشبه بينهما لا غير .لكنها لا تكاد تجد ذلك التغاير واضحا، إنه عرشها، ومظاهر التنكير والتغيير عليه لم توقعها في اللبس. ولم تقل (هذا عرشي)، مع أنها كادت أن تصرخ: هو هو؛ لأنها لو أجابت بهذه الإجابة لكانت قد اتهمت رجال سليمان بأخذ العرش من قصرها، وهذا الاتهام سيوقعها في الخطر؛ لأنها في أرض سليمان بعيدة عن وطنها غريبة. كما لا يتفق هذا الاتهام وأصول "الكياسة" الرسمية، فكيف تبدأ الملكة زيارتها باتهام رجال الملك بسرقة عرشها؟! ولم تقل (ليس هو)، وكيف تقول ذلك أمام الشبه الواضح بين هذا العرض وعرشها؟! لقد كان جوابها (كأنه هو) قمة في حسن التخلص الذي يومئ بحصافتها وفطنتها ولباقتها؛ فلا هي اعترفت أنه هو، ولا هي نفت أنه هو لقد أبقت هذه الإجابة الباب مفتوحا لكل الاحتمالات؛ إنها إجابة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس.

وقد يطلب السائل الإجابة من مخاطبه لأن فيها المخرج مما هو فيه، كقول المنافقين منادين أهل الجنة، وقد فصل بينهم حائط ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ ﴾ [الحديد:١٤]، إنهم يقررونهم بالسؤال طالبين اعترافهم وموافقتهم بأنهم كانوا معهم ومنهم في الدنيا، ليساقوا معهم إلى الجنة.

ولا تخفى دلالة الخوف والدهشة والإحساس بالضياع القارة في السؤال، إنهم يتشبثون بالإجابة التي تؤكد صحبتهم للمؤمنين تشبث الغريق بخشبة عائمة، وجاء سؤالهم بأسلوب النفي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت.

وتأتي الإجابة المرتقبة لكنها تنقلب عليهم: ﴿ قَالُواْ: بَلَىٰ، وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٣٥٧.

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ. فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٤-١٥]. لقد أتبعت الإجابة باستدراك (ولكنكم) وهذا يعلل سبب الفصل بينهم، ففيه أربع أفعال وقعت من المخاطب آلت إلى ما هو عليه (فتنتم انفسكم، وارتبتم، وغرتكم الأماني، وغركم بالله الغرور)، ثم اتصلت فاء السببية بظرف الزمان الدال على حاضر المخاطب (فاليوم)، أي إن أفعالكم المذكورة آلت إلى حاضركم الأليم.

وقد تقدم الظرف على الحدث لإبرازه، لأنه وقت الكشف والحساب. كما أكد المكان الذي سيخلدون فيه بضمير الشأن (هي) العائد إلى النار ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يتم دونه (مأواكم النار ومولاكم) أو (النار مأواكم ومولاكم) لكنهم أرادوا بهذا الضمير التأكيد؛ تأكيد استحقاقهم المكوث في النار ومحاصرتهم بالكلمة والضمير العائد إليها تعذيبا وشماتة بهم. ولعل تقديم (مأواكم) على (النار) كان بقصد التجاور؛ تجاور الكلمة وضميرها لتكثيف الدلالة.أو لكون المأوى النهائي هو ما يؤرق المخاطب، فجاء تقديمه لتأجيج الصراع والترقب في نفس المنافقين ثم مواجهتهم بحقيقة هذا المأوى وتأكيده.

ومن الأسئلة التقريرية التي لا يطلب السائل فيها من مسؤوله التفوه بالإجابة، وإن كان صدورها محتملا، السؤال التقريري الذي وجهه الله لآدم وحواء بعد أن أزلهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي حرمها الله عليهما في الجنة: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ: إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ؟!﴾ [الأعراف:٢٢]. أفاد السؤال تذكيرا بتأكيد ما وقع من تحذير بأسلوب النفي، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ ....؟!﴾ إثبات لفعل النهي (نهيتكما) وفعل القول (قلت لكما). وقد امتزجت في السؤال دلالات التقريع واللوم والتخويف من انتهاك المحذور، فالسؤال يوحي بنبرة الوعيد المنذر بأمر لا تحسن عقباه.

إنه تساؤل يضع المخاطبين في بؤرة المواجهة محاصرا إياهما بما حوته بنيته من تأكيدات تسلطا الإنكار تسلط مباشرا عليهما، وذلك بتكرار (كما)، فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (ألم أنهكما عن تلك الشجرة وأقل: إن الشيطان عدو مبين)، ولكنه، عز وجل، أراد تأكيده بتوجيه النهي إليهما، وتوجيه القول إليهما كذلك، وفيه حصر عداوة الشيطان لهما دون غيرهما وذلك باعتراض (لكما) بين اسم إن (الشيطان) وخبرها (عدو مبين) لتخصيص هذه العداوة وتأكيدها، وحتى حين أشار إلى الشجرة استخدم ضمير الاثنين (تلكما).

ولعل في هذا ردا على من يدعي أن حواء هي التي أغوت آدم بالأكل من الشجرة، فالظاهر من بنية النص معاملة المخاطبين بمساواة تجمعها في بوتقة واحدة. وكانت نتيجة السؤال إقرار آدم وحواء بذنبهما تمهيدا لطلب المغفرة والرحمة من الله: ﴿ قَالَا: رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣]، ولعل إحساسهما بالخجل والندم الذي زاد في تأجيجه السؤال، جعلهما يتورعان من توجيه طلب مباشر من الله بصيغة الأمر، فقد قالا: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ﴾ [الأعراف:٢٣] ولم يقولا: (اغفر لنا وارحمنا) جاعلين من المغفرة والرحمة هبة يهبها الله لهما إن شاء. مبينين عاقبتهما إن لم يغفر الله لهما، وفي ذلك طلب خفي شديد الإلحاح، كشفه التوكيد في كلمة (لنكونن) بلام القسم ونون التوكيد، فتوكيد الخسارة يوحي بتوكيد الاعتذار والرجاء.

ومنها كذلك الأسئلة التقريرية التي يلاحق بها السائل ذاكرة مخاطبه ليستحضر خطابا سبق أن وجهه إليه وذلك لغايات يكشفها السياق. وهذا يعني تمثلا لحركة ارتداد إلى الخلف تدب الحياة في أوصال خطاب كان، واضعا إياه في بؤرة حوار حاضر. ففي السؤال السابق قرر الله آدم وحواء بما وقع من نهي وتحذير موبخا إياهم مقيما عليهما الحجة: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ: إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:٢٢]، إنه يواجه مخاطبيه

بخطاب سبق أن وجهه إليهما، ويقولبه في السؤال المنفي الذي يصفع المسؤول بما يعنيه من إثبات، وهذا يؤجج مشاعر الندم والحسرة في نفس المسؤول الذي ارتد التساؤل بذاكرته إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٩] ، وهذا ما نقل الله معناه بقوله: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١١٧]، الذي جاء في مقولة: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:٢٢].

كما أعاد التساؤل التقريري الذي وجهه الخضر لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٢]، قوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٢]، حيا إلى ذاكرة موسى محملا بالعتاب لنسيانه شرط اتباعه القائم على عدم طرح أية أسئلة. وينسى موسى شرط الإتباع فيطرح تساؤلا إنكاريا ثانيا، فيرد عليه الخضر بالسؤال التقريري السابق ولكنه يزيد في بنيته شبه الجملة (لك) وفيها زيادة في توكيد مقولته واختصاص موسى بها: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٢]، لقد طرحت هذه المقولة مرتان لإقامة الحجة على المتلقي، وحثه على الصبر، ففي كل مرة تخور فيها قدرة موسى على الصبر فيصرخ منكرا، كان سؤال الخضر يعيد إلى ذاكرته توقعه اليقيني بتقهقر قدرته أمام ما سيشاهده من عجائب.

وتقرير الله الملائكة في تساؤله: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة:٣٣] تقرير من قال شيئا ثم ثبتت صحته لمخاطبه. ومع أن الملائكة لا يطالبون الله بإثبات ما يقوله أو البرهنة على صحته، إلا أنه -عز وجل- يقنعهم بالحجة والدليل الموصلين إلى إقرار سليم لا تشوبه شائبة شك، فحين سأل الملائكة الله عن

حكمة خلق الإنسان، وهنا أكد الله علمه الذي سيكون منه الفساد: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟! ﴾ [البقرة:٣٠]، قال لهم: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠]، وأثبت لهم مقولته السابقة حين علم آدم الأسماء كلها وأمره أن ينبئ الملائكة بأسمائهم فأنبأهم الغيب للملائكة بتساؤل جاء بأسلوب النفي الذي يستلزم من الملائكة الإقرار بالثبوت. وقد يقرر السائل مخاطبه بخطاب سبق أن طرحه عليه، لكن مخاطبه في وقتها تجاهله أو سخف من كلامه ولم يكترث به. ثم يتأكد فحوى خطابه، فترجح كفته أمام مخاطبه فيذكره بخطابه وقد تملكته مشاعر الغبطة وزهوة الظفر، ومثاله:

قول يعقوب، عليه السلام، لقومه حين جاءه البشير بقميص يوسف وألقاه عليه فارتد بصيرا قال: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ: إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٩٦]، إن يعقوب، عليه السلام، يرتد بقومه إلى ما سبق أن ذكره لهم: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٨٦] وذلك في رده على قولهم: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف:٨٥].

ولا يخفى البون الشاسع في مشاعر يعقوب بين القولين، لقد حالت مشاعر الحزن والألم إلى غبطة وزهو جسمتهما بنية السؤال خير تجسيم. وقد يرد المسؤول على سؤال سائله بسؤال تقريري، ومن ذلك ما جرى في الحوار الآتي بين يوسف واخوته:

﴿ قَالَ: هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ؟!

قَالُوٓاْ: أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ؟!

قَالَ: أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ، إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٨٩-٩٠].

مثلت الأسئلة التقريرية التي تبادلها طرفا الحوار لحظة الكشف في قصة سيدنا يوسف، فالسؤال الذي سأله يوسف لإخوته يحمل في طيه خبرا يبين أن المتحدث إليهم إنما هو يوسف، إنه يكشف لهم عن هويته بتساؤل العليم العارف بخبايا مكيدتهم، اللائم إياهم على عداوتهم وتجنيهم، ولكنه لوم فيه لطف وإشفاق، فكأنه يقول لإخوته لم فعلتم ما فعلتم؟! لم ظلمتموني، وظلمتم أبانا، وظلمتم أنفسكم؟! فالسؤال يستنطقهم ليقروا بذنبهم فيتوبوا.

وقولبة الإخبار بفعلتهم الشنيعة في قالب السؤال يوحي بحلم يوسف وحرصه على عدم كشف القبيح، وهذا ما يؤديه السؤال الذي يصل المتلقي بدلالة ناقصة يكملها هو دون أن تخرج كلها إلى حيز الوجود، وهذا يعني حرص يوسف على كرامة اخوته في أرض غريبة، وحبه لهم، الذي يحول دون خدشهم أو توبيخهم توبيخا صريحا أمام الغرباء، يؤكد هذا تنكيره فعلتهم باستخدام (ما) التي لا يعلم مدلولها سوى إخوته، كذلك تعليقه على فعلتهم بقوله (إذ أنتم جاهلون) يمثل اعتذارا عنهم؛ لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلقوا عذرا كهذا.

لقد دفع سؤاله، عليه السلام، بذاكرة اخوته إلى أحداث بدأت بتآمرهم على أخيهم وإلقائه في غيابات الجب، وانتهت بقولهم، مجاهرين بعداوته والتجني عليه: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف:٧٧]. كما فسر السؤال لهم لغز طلب السائل في اللقاء الأول بهم: ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف:٥٩]، وكيف غاب عنهم أن يدركوا أنه هو يوسف على الرغم من هذه الإشارة.

لقد عصفت كل هذه الأحداث التي جرت في أزمان متباعدة بذاكرة اخوة يوسف متركزة في لحظة خاطفة يمكن أن نحددها في بفترة سماعهم السؤال وبعد انتهائه. لقد خاضوا صراعا عنيفا مع السؤال بدأ من كلمة في بنيته هي (يوسف) التي هالتهم بما تثيره من مدلولات، فأنعموا فكرهم في مغزى سؤاله، ودققوا نظرهم في ملامح وجهه، فانتقلوا من دور (الإنكار)؛ أي إنكارهم له وعدم معرفتهم به، إلى دور (الشك)؛ أي شكهم في أن الذي يكلمهم هو يا ترى

يوسف أم لا؟ ثم إلى دور (اليقين)؛ يقينهم بأن الذي يكلمهم هو يوسف، فاندفعوا إلى السؤال: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ [يوسف:٩٠] أي سؤال هذا؟! وكيف يمكن أن تحده مقولات البلاغيين أو تصينفاتهم؟!.

لقد امتزج في ردهم السؤال والجواب في بوتقة تثير تفسيرات لا حصر لها، إنها تجسيم لغوي ينبض بذهول الموقف ودهشته ومفاجأته، لعلهم توقفوا مضربين عن السؤال الذي استهلوا به عبارتهم، لأن شكهم قد انتقل بسرعة إلى يقين تبلور في أكثر من توكيد (إن واللام وتكرار ضمير المخاطب)، وكأني بالسؤال صرخة انفعال تحاصر يوسف حامله من هول المفاجأة ما تحمل، مبرزة التأكيد الذي بعدها. وأكد يوسف تأكيدهم بقوله: ﴿ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى.. ﴾، فإن قلت: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ قلت: من باب تطمين أخيه وتفريحه، فهو يؤكد العلاقة التي تربطه بالمشار إليه، ولعله أراد أن يمتع سمعه ولسانه برنين هذه اللفظة التي لم يتلفظ بها.

وتبرز تركيبة لافتة في بعض تكوينات السؤال التقريري، يأتي السؤال فيها متبوعا بالإجابة القاطعة الصارمة التي ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها ليقف السائل على الإجابة ويوقف المتلقي عليها مؤكدا إياها حاملا المتلقي على الإقرار بها، فالسؤال يفتح باب التأمل المفضي لليقين .ومن ذلك: ما جاء في قوله تعالى على لسان رسوله في الحوار التلقيني الذي سيواجه به الكافرين: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ؟! ﴾ [يونس:٣٢]، وقوله: ﴿ قُلْ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة:٥٢]، حيث يبرز دال القوة في إحكام الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرحه الله في التركيب القصري للسؤال، فدلالة التوكيد لا تنفصل هنا عن أداة السؤال التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب، فلا تدع أمام المتلقي سوى هذا الاختيار الوحيد، وهو في النص الأول لتأكيد حال المخاطب بأنه يقبع في ضلال يجانب الحق، وإبراز تلك الحال يفيد تحذير المخاطب من سوء واقعه وضرورة تغييره قبل فوات الأوان. ويفيد حصر التربص بإحدى الحسنيين مكايدة الكافرين بتأكيد

حســن عاقبة المتكلم (المسلمين) في كل الأحوال، فإما النصر أو الشهادة.

ومنه أيضاً قول امرأة العزيز لزوجها وقد ألفته عند الباب وهي على تلــك الحال المريبة: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٥]، لقد مثل السؤال ردة فعل دفاعية، تلاحق المتلقـــي وتلجمـــه، بســؤال وإجابة محددة ثنائية الدلالة؛ ففيها تهديد ليوسف وتخويف، وفيها إبراز غضبــها لزوجها ومحاولة تبرئة ساحتها من أي اتهام أو شبهة، ولهذا طــــالبت زوجــها بإيقاع عقوبة من عقوبتين اختارتهما هي مظهرة دور المعتدى عليه المتعطـــش لعقاب المعتدي.

والمتأمل طبيعة هاتين العقوبتين يدرك حب امرأة العزيز ليوسف وحرصها على سلامته وبقائه حياً، فهي التي حددت العقوبة مقررة زوجها بذلك مستلة منه الاعتراف والتأكيد مخيّرة إياه بين هاتين العقوبتين فقط، وكأنها تحاصره بهمـــا.

ظواهر أُسلوبية في بنية السؤال الحواري:

تآلفت العناصر اللغوية المكونة بنية السؤال الحواري تآلفا يجسم الدلالات القارة فيه .وقد تعرضنا لفاعلية السؤال الناجمة عن طبيعة العلاقة بين عناصره اللغوية وعلة اختياره قالبا مناسبا لتجسيم دلالتي الإنكار والتقرير، وكيف أثرت هاتان الدلالتان على بنية السؤال، فلكل دلالة بصماتها الواضحة التي تختلف باختلاف أطراف الحوار ومقاماتها.

ونشير هنا، وباختصار، إلى أهم الظواهر الأسلوبية في بنية السؤال الحواري، لأننا سنقف وقفات تأملية أمام عدد من الأسئلة في حديثنا عن أهم خصائص لغة الحوار القرآني التي شكل السؤال جزءا كبيرا من مكوناتها.

ومنها ظاهرة الحذف التي تعني بتر عنصر من عناصر بينة السؤال اعتمادا على القرائن اللفظية والحالية المرافقة للحدث الكلامي، كقوله تعالى على لسان إبراهيم، عليه السلام: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي؟! ﴾ [البقرة:١٢٤] حيث حذف أداة السؤال وما تلاها من جمل تأدبا في خطابه مع الله والاكتفاء بالتنغيم الذي يبرز الطلب على استحياء، فكأنه قال: (ومن ذريتي، يارب، ألن تجعل للناس إماما؟!).

وحذف الهمزة في قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٣] التي أثبتت في آية سورة الشعراء ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ [الشعراء:٤١] يعطي أبعادا دلالية أخرى للعبارة؛ منها إثبات الأجر وعظمته لكونهم واثقين من غلبتهم لموسى، ومنها السؤال عن استحقاقهم الأجر والحصول عليه، وقد أغنى التنغيم عن أداة السؤال المحذوفة، وقرينة المقال الظاهرة في قول فرعون: ﴿ نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٤].

ولعل حذف أداة السؤال في موضع وإبرازها في موضع آخر يصور لنا الجوانب التعبيرية التي تم بها الحدث أو أُلقي بها الكلام، ففي هذا التنوع تصوير لمواقف السحرة الذين صدر عنهم هذا القول؛ فمنهم من كان واثقاً من الغلبة

همه الحصول على الأجر فقولب مقولته بقالب الإخبار.ومنهم من حالت مهابة فرعون دون إلزامه بدفع الأجر، فقولب طلبه بقالب السؤال ليقرر فرعون باستحقاقهم الحصول على الأجر وتأكيده هو لهذا الأمر لا هم، فالسؤال يؤمئ بالتلطف في الطلب.

ولنا وقفة مع الجانب القرائي (القراءات القرآنية) لعدد من الأسئلة الحوارية التي تغايرت بين الإخبار والسؤال، مبينين كيف يمكن أن تتعدد رؤى توجيه هذا الجانب القرائي تبعا لتغاير النظرة إلى السياق أو المقام الواردة فيه، وبخاصة إذا ذهبنا إلى القول باتجاه المخاطبين الذين صدر عنهم هذا القول، حيث تصور كل قراءة من القراءتين موقفا لبعضهم، ومن ذلك قراءتي (أإنك) بهمزتين أو بهمزة واحدة على السؤال والإخبار[1] في قوله تعالى على لسان اخوة يوسف: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ [يوسف:٩٠]، إذ وردت حكايته بالإخبار (إنك لأنت يوسف) ممن عرفوه يقينا قبل غيرهم، ووردت بالسؤال ممن تدرجوا في معرفته من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾، وفي هذا محاكاة لواقع المتكلمين، فاخوة يوسف ليسوا على درجة واحدة من الإدراك واستشفاف المقصود من الكلام، كما أن قدرتهم التأملية ليست واحدة.

وقد تحذف الجملة الفعلية التي تلي أداة السؤال لتناوب الكلام بين الطرفين، الأمر الذي يجعل من ذكرها أمرا زائدا لا فائدة منه لكونه مدركا عند المخاطب لا محالة، كقوله تعالى على لسان الملك الموكل بإغراق فرعون: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس:٩١] أي (آلآن تؤمن).

ومن الظواهر الأسلوبية القارة في بنية السؤال الحواري ظاهرة التقديم والتأخير، وتعني التغيير في مواضع عناصر التركيب بحيث يقدم عنصر ويؤخر آخر وفقا لطبيعة التجربة الشورية المحيطة بالمتحاورين، والمعنى المراد نقله، والانفعال الذي يراد إحداثه في نفس المخاطب، أي أنها تتضافر مع البعد النفعي

١- قرأها الجمهور بهمزتين على الاستفهام، وقرأها ابن كثير وأبو جعفر بهمزة واحدة، وقرأها أبي (أإنك أو أنت) ينظر: الزمخشري، الكاشف، ج٢، ص٥٠٢، وأبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٥، ص٣٤٢.

الانفعالي الذي يفيده السؤال في تجسيم الدلالات، ليبلغ التأثير والإقناع مبلغهما في نفس المخاطب. ومن ذلك: تقديم الفاعل على الفعل في قول قوم شعيب له: ﴿ يَـٰشُعَيْبُ، أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟؟! إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود:٨٧] حيث قدم الفاعل (صلاتك) على الجملة الفعلية (تأمرك) لتسليط الإنكار والسخرية على ذلك المتقدم ومواجهة شعيب بهذه الدلالات وصفعه بها، لأن إنكار ما تدعو إليه صلاته والسخرية منه يعني توبيخه لتمسكه بها واستهجان هذا الأمر عليه؛ لأنه لا ينبغي له ولا يليق به، ولذا أنهوا سؤالهم الإنكاري بقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ إنهم يلاحقونه بصفاته الإيجابية التي تستلزم منه ترك صلاته، وذلك بالضمير المتصل، ولام التوكيد، والضمير المنفصل.

وقد يكون المفعول مثار اهتمام السائل فيقدمه على الفاعل كقول الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها: ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟! ﴾ [البقرة:٢٥٩] فالصفة التي يتصف بها المفعول (خاوية على عروشها) جعلت المتكلم يتعجب من قدرة الفاعل على إحياء هذه القرية، واستعظام هذه القدرة.

وقد تكون علة حدوث الفعل مثار إنكار المتكلم فيتقدم المفعول لأجله في السؤال لمواجهة المخاطب به، لعل هذه المواجهة تدفعه إلى إنكار تصرفاته وتغيرها، كما في قول إبراهيم لقومه: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ؟! ﴾ [الصافات:٨٦] لقد تملكت مشاعر الغضب والإنكار إبراهيم، عليه السلام، بسبب إصرار قومه على الكفر، فقدم علة أفعالهم (إفكا) والمفعول الذي يقع عليه فعل إرادتهم (آلهة) لكونها سبب إنكاره وغضبه فيصدمهم بغاية يعاندها ويرفضها، ويدخلهم في مواجهة مع أنفسهم. وبهذا يشكل التقديم تكتيكا لغويا يتضافر مع التكنيكات الأخرى القارة في السؤال لمحاصرة المتلقي وإقناعه.

وشكل توالي أدوات السؤال سمة أسلوبية بارزة في عدد من المواطن نذكر منها خطاب الرسل لأقوامهم خاصة، حيث تتوالى الأسئلة في تكثيف يلاحق المتلقي ويحاصره، مولدة دلالات يكشفها السياق تتجه، في مجملها، نحو الغاية

الإقناعية. ومن ذلك: توالي الكافرين الأسئلة في الحوار التلقيني الذي وجهه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ليوجهه بدوره للكافرين المعاندين: ﴿ قُلْ: مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ؟! أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ؟! وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ؟! وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ؟! فَسَيَقُولُونَ: ٱللَّهُ. فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟! ﴾ [يونس:٣١] فالأسئلة توالت في تكثيف يحيل المتلقي إلى التفكر والتدبر والتأمل الذي يسلم بالضرورة إلى الإقرار والإذعان.

ومنها أيضا توالي الأسئلة في خطاب إبراهيم الذي وجهه لقومه وقد حاجوه في الله فأنكر أقوالهم وأفعالهم وجسم إنكاره في هذه الأسئلة الإنكارية المتوالية التي تضعهم في وضع مقارنة؛ إذ وضع ضدين على الإنسان أن يختار بينهما في بنية الأسئلة الإنكارية التي تحول إلى تقرير يحمل المتلقي حملا على اختيار طريق الهداية الذي يسير عليه المتكلم: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ: أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا؟! وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟! وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا؟! فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟! ﴾ [الأنعام:٨٠-٨١].

كما توالت الأسئلة الإنكارية على لسان الكافرين في عدد من المشاهد الحوارية مجسمة سخريتهم وتكذيبهم، منها: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ؟! ﴾ [الواقعة:٤٧-٤٨] فقد توالت أداة السؤال فاصلة بين أجزاء الجملة، ولعل في هذا تجسيم حي لكيفية نطقهم، وقد لجوا في السخرية والضحك، فحال هذا دون قدرتهم على التلفظ بعبارتهم تلفظا متواصلا دون انقطاع، فكانوا يكررون أداة السؤال وكأنها همزة وصل تربط أجزاء الكلام. وقد يكون لهذا التكرار دور في إبراز الجزء الذي يلي أداة السؤال بتنغيم السخرية والإنكار الذي يوحي به السؤال.

وتوالت الأسئلة أيضاً على لسان الملائكة في عدد من الحوارات التي دارت بينهم وبين المعذبين في نار جهنم، فبرزت كأنها رد مماثل على الكافرين بأسلوبهم الساخر: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ: أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ؟! هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ؟! ﴾ [الشعراء:٩٢-٩٣].

هذه هي أهم الانحرافات الأسلوبية القارة في بنية السؤال الحواري في القرآن الكريم وقد تضافرت مع البعد الانفعالي الكامن في السؤال جاعلة منه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات، ليبلغ التأثير والإقناع مبلغهما في نفس المخاطب. كما وتؤكد هذه الانحرافات الخارجية في بنية السؤال انحرافاً ذا عمق جوهري يتمثل في التجدد الدائم لدلالات السؤال في سياقاته المختلفة.

أسلوبية الجواب:

أثارت الأسئلة في عدد من المشاهد الحوارية ردة فعل كلامية عند الطرف المخاطب، وألجمت في مواضع أخرى لسانه فقبع صامتا لا ينبس برد [1].

وجاءت الإجابات على لسان المخاطب في جل هذه المواطن، وخرجت عن الأصل في مواطن أخرى فذكرت بلسان السائل نفسه في الحوار التلقيني خاصة، حيث لقن الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، السؤال ولقنه الإجابة أيضاً: ﴿ قُل: لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ؟

قُل: لِّلَّهِ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢].

وقد يلقنه السؤال ويلقنه إجابة المخاطب المحددة التي لا يملك منها فراراً، فيكون صلى الله عليه وسلم على علم مسبق بتلك الإجابة، وقد طلب منه أن يرد عليها بسؤال:

﴿ قُل: لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟! ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٥].

إنها إجابة واحدة تتكرر مع كل سؤال، تدل على استسلام المسؤول، ويقينه التام مبرزة التناقض العجيب بين الإقرار الكامن فيها والتصرف الفعلي للمجيب الذي يعاكس إجابته،ولذا أمر الله رسوله أن يرد على هذه الإجابة بسؤال إنكاري يبرز التناقض السابق، ليثير تأمل المجيب، ويحثه على التصالح مع إجابته. وقد ينقل الله مضمون السؤال لرسوله (ص) دون أن يحاكي قول السائل، ويلقنه الإجابة الواضحة المحدِّدة المبيّنة، لكونها أسئلة تشريعية تطلب إجابة لا لبس فيها: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ. قُلْ: فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ

١- اتبعت الأسئلة بإجابات في مائة وخمسة وسبعين موضعاً من أصل أربعمائة وأربعة عشر موضعاً.

وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ ﴾ [البقرة:٢١٩].

وقد تمتزج الإجابة مع السؤال في بوتقة واحدة، ومن ذلك قوله تعالى على لسان رسوله (ص) في الحوار التلقيني الذي سيواجه به الكافرين: ﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ؟! ﴾ [يونس:٣٢]، وقوله: ﴿ قُلۡ: هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ؟! ﴾ [التوبة:٥٢].

وقد يتولى السائل مهمة الإجابة عن تساؤله ليؤكد ما فيه من إنكار مجرداً بهذه التركيبية خصمه من مجادلته مغلقاً في وجهه باب الحوار، فهو يطرح سؤالاً إنكارياً محملاً إياه بدلالات الرفض والاستهجان، ويتبعه بإجابة يستهلها بأداة الإضراب (بل)، وكأني به يرفض أية إجابة محتملة، مركزاً يقينه القاطع على الإجابة الواقعة بعد (بل). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ: أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ؟! بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ -إِن شَآءَ- وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٤٠-٤١]. وقوله على لسان قوم صالح: ﴿ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ؟! إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا؟! بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾ [القمر:٢٤-٢٥].

وقوله على لسان المستكبرين، الذين حق عليه القول، للمستضعفين في نار جهنم: ﴿ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ؟! بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴾ [سبأ:٣٢] فما كان من المستضعفين إلا أن نقضوا إجابة المستكبرين مؤكدين أنهم السبب في ضلالهم: ﴿ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ﴾ [سبأ:٣٣].

لقد شكلت الإجابات السابقة تأكيداً لدلالات الأسئلة السابقة لها، كما تممّت معناها، وتضافرت معها في تفريغ انفعالات المتكلم والوصول بها إلى نقطة

استقرار لما في الإجابة من مواجهة مباشرة حاسمة.

وتراوحت أطوال الإجابة التي ولدها السؤال بين الكلمة والجملة، وذلك وفق الإثارة التي كونها السؤال في نفس المسؤول، أو الغاية التي يريد المجيب أن يوصل إليها سائله؛ فتبلورت الإجابة في كلمة واحدة موحية بالإقرار والاستسلام واليقين التام الذي لا يحتاج جدلا أو توضيحا في مواطن، وطالت مستوعبة التوضيح والتفصيل في مواطن أخرى. وظهر هذا اللون الأول من الإجابة في سياقين؛ الأول: في الحوار التلقيني الذي أمر الله رسوله أن يوجه فيه مجموعة من الأسئلة التقريرية المتعلقة بصفات الله وقدراته المتفردة، التي لا يستطيعها أحد إلى الكافرين آمرا إياه بالإجابة عنها في مواطن، ومخبرا إياه بإجابة الكافرين وقد اقتصرت هذه الإجابة على كلمة واحدة هي (الله) أو (لله) ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ: مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ؟ قُلِ: ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

إنه أسلوب المواجهة الأمثل الذي اختاره الله ولقنه لرسوله، ففيه تقولبت الحقائق في سؤال وجواب يجذب كلاهما المتلقي لجزء من الحقيقة ويجابهه بها. ويتولى الرسول (ص) مهمة الإجابة عن تساؤله موقفا المتلقي عليها واضعا إياه في بؤرة الحقيقة التي تهرب منها وتجاهلها. ولعل تكفله، ﷺ، بالإجابة أمر من الله بمواجهتم بالحقيقة دون فتح باب الحوار معهم أو السماح لهم بالإجابة التي قد تفضي إلى جدل عقيم، ولذا أمر الله رسوله أن يقول ما أمره به ثم يتركهم في خوضهم يلعبون.

وقد يطلب من الرسول أن يستنطق خصومه بالإجابة ليقيم عليهم الحجة ويبرز لهم التناقض الرهيب بين إجابتهم وأفعالهم: ﴿ قُلْ: مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ؟!

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ

قُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟! ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧].

ولنا أن نتخيل تنغيم الكافرين وقد نطقوا بهذه الإجابة، لا شك أن الدهشة والاستسلام والخجل وغيرها من مشاعر الإفحام التي خيمت عليهم خففت أصواتهم وطأطأت رؤوسهم. وظهر هذا النمط من الإجابة على لسان المعذبين في نار جهنم موحية باليأس والإفحام والاستسلام والألم وغيرها من المشاعر التي تلجم اللسان وتحول دون القدرة على إتمام الكلام أو الإطالة فيه، ومن ذلك إجابتهم الواردة في الحوار الآتي: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ: أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا؟! فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟!

قَالُواْ: نَعَمْ ﴾ [الأعراف:٤٤].

أي نعم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. لقد استخدم المعذبون حرف الجواب (نعم) التي سدت مسد الجواب. ومثلها إجابتهم بـ (بلى) رداً على السؤال الوارد في الحوار الآتي:

﴿ قَالُوٓاْ: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ؟!

قَالُواْ: بَلَىٰ.

قَالُواْ: فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝ ﴾ [غافر:٥٠].

لقد أغنت (بلى) عن جملة الجواب (أتتنا رسل ربنا بالبينات) وأفادت إثبات ما جاء منفياً في السؤال. ويتجاوز المجيب في عدد من المشاهد حدود الكلمة الواحدة، فيذكر مع حروف الجواب السابقة الجملة التي كان يمكن أن تغني عنها كما جاء في الحوار الآتي:

﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟!

قَالُواْ: بَلَىٰ، قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك:٨-٩].

أفاد ذكر جملة (قد جاءنا نذير)، التي يصح حذفها لدلالة (بلى) عليها، زيادة تأكيد واعتراف وإذعان ليبنى عليها ما بعدها (فكذّبنا وقلنا)، فقد تلبسهم الإحساس بالندم والشعور بالخسارة، فأخذوا يستذكرون الفرصة التي أتيحت لهم وكيف أضاعوها، وكأنهم بهذا يقرعون أنفسهم ويجلدون ذواتهم.

وقد يتلو حرف الجواب القسم، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ: أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ؟! قَالُوا۟: بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ، قَالَ: فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنعام:٣٠]. إنهم يريدون إظهار يقينهم التام بحقيقة ما رأوه، لعل هذا ينقذهم من عذاب جهنم، ولكن يجعل الله من إجابتهم سبباً لوقوع العذاب عليهم، لأنها جاءت بعد فوات الوقت. ولنلاحظ كيف ربطت الفاء بين إجابتهم وبين وقوع العذاب (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون). ويرجعنا الحوار السابق إلى قوله تعالى:

﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ: أَحَقٌّ هُوَ؟!

قُلْ: إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يونس:٥٣].

وهذا يعلل سبب استنطاقهم بالإجابة، ويوضح الانقلاب الجذري في موقف أولئك الكافرين. فقد كانوا يستخبرون رسول الله عن العذاب استخبار المستهزىء الساخر المنكر، ولذا أمر الله رسوله أن يؤكد لهم وقوع هذا العذاب ملقناً إياه الإجابة المفعمة بالتأكيد؛ فقد تلا حرف الجواب (إي) القسم (وربي) وأداة التوكيد (إن) ولام التوكيد.

وفي عدد من الإجابات ارتبطت حروف الجواب بجمل حالية تؤكد وقوع ما جاء في السؤال ببيان حالة السائل وقت الوقوع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟: إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟! أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ؟ قُلْ: نَعَمْ، وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [الصافات:١٦- ١٨].

أي: نعم تبعثون وأنتم داخرون (**خاضعون ذلاً وصغاراً**) وكأنها مواجهة بالمثل، فالسخرية أو التسخيف التي يعج بها السؤال قابلتها الإجابة بما حوته من حال

تجسم انقلاب أوضاعهم يوم القيامة؛ فاستكبارهم وسخريتهم سيغدوان ذلا وخضوعا يجعلانهم عرضة للسخرية.

وقوله تعالى على لسان فرعون وقد سأله السحرة: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ؟ ﴾ [الشعراء:٤١] فقال لهم: ﴿ نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٢] أي: (نعم لكم أجر إن كنتم الغالبين، وإنكم إذا لمن المقربين)، وفي هذه الإضافة تشجيع للسحرة وتحفيز لهم، ففرعون يؤكد الأجر ويزيد عليه وصف حالهم عنده المتمثلة بنيل شرف الخطوة والتقريب من شخصه.

وقد تذكر في الجواب الجملة التي اشتمل عليها السؤال وقد كان يغني عن ذكرها حرف من حروف الجواب تمكينا وتأكيدا، ومن ذلك ما جاء في الحوار الآتي: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ: لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ. قَالَ: ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى؟

قَالُوٓاْ: أَقْرَرْنَا.

قَالَ: فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝ ﴾ [آل عمران:٨١].

فقد ذكر النبيون جملة (أقررنا) التي حواها السؤال، وقد كان يغني عن ذكرها حرف الجواب (نعم) تمكينا لإقرارهم وتأكيدا، وهذا يناسب لغة المواثيق والعهود التي تمتاز بوضوح كل لفظة وصراحتها ليكون كل طرف مسؤولا عما اتفق عليه، ولذا ربط الله شهادتهم بالإجابة التي تفوهوا بها مقيما الحجة عليهم وذلك بفاء السببية(فاشهدوا). ومنه أيضا الإجابة التي قابل بها يوسف سؤال اخوته في الحوار الآتي: ﴿ قَالُوٓاْ: أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ؟ قَالَ: أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٩٠]. فيوسف، عليه السلام، لم يقل (نعم) ليناسب تصريحه لحظة الكشف، وليؤكد اليقين الكامن في سؤال اخوته، ويظهر شخصه

الذي غيبوه من حياتهم بحقدهم وغيرتهم، شخصه الذي أخفاه تحت لقب العزيز؛ إنه بوح مظلوم انتصر يطوق إلى تكشيف الحقائق، حتى إنه تجاوز في إجابته حدود سؤالهم، فقد ذكر أخاه (وهذا أخي) مقروناً باسمه دون سؤال منهم. ومنها إجابة قوم إبراهيم عن سؤاله في الحوار الآتي:

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ، إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ: مَا تَعۡبُدُونَ؟ قَالُواْ: نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الشعراء:٦٩-٧١].

لقد سألهم إبراهيم عن معبودهم فحسب، فكان القياس أن يقولوا: أصناماً، ولكنهم جاؤوا بقصة أمرهم كاملة، يدفعهم إلى هذا الابتهاج والافتخار بولائهم لأصنامهم، ورغبتهم في إظهار ذلك الولاء. وإجابة الحواريين عن سؤال عيسى، عليه السلام، في الحوار الآتي: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ: مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ؟ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ: نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ، رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

فالحواريون لم يكتفوا بقولهم (نحن) أو (نحن أنصار الله) وإنما زادوا جوابهم تأكيداً وتفصيلاً بذكر إيمانهم وإشهادهم عيسى على ذلك تطميناً له. وتذكرنا إجابتهم بإجابة أبناء يعقوب حين سألهم: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي؟ قَالُواْ: نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة:١٣٣].

لقد عمم يعقوب، عليه السلام، سؤاله باستخدام (ما)، ولو قال (من تعبدون) لم يعمم، وكأنه يختبر اختيار أبنائه، فلو قال: (من تعبدون؟) لحدد اختيارهم وفرض عليهم ماهية المعبود .وكأن أبناءه أدركوا خوف والدهم عليهم الضلال من بعده، كما أدركوا رغبته الشديدة في معرفة مقدار تمسكهم بشريعة الله التي جاهد هو وآباؤه من قبل في نشرها وتطبيقها، ولهذا لم يكتفوا بقولهم: نعبد الله أو نعبد إلهك، وإنما أخذوا يخصصون ويحصرون عبادتهم بالإله الواحد

الأحد الذي دعا إلى عبادته يعقوب وآباؤه الذين ذكروا أسماءهم مبينين لأبيهم بهذا التسجيل المفصل معرفتهم لدينهم وتذكرهم الدائم له وحرصهم على صيانة تلك الأمانة، بالإضافة إلى التفصيل السابق نجد بنية إجابتهم محملة بتأكيدات أخرى، فقد أكدوا إدراكهم لوحدانية الله وتخصيصه وحده بالعبادة بقولهم: (إلها واحدا) التي جاءت بدلا من إله آبائك، وبتقديم شبه الجملة (له) التي ترجع الهاء فيها إلى الله عز وجل على خبر المبتدأ (مسلمون) هذا بالإضافة إلى أنهم ينصون نصا صريحا على أنهم مسلمون بجملة الحال المؤكدة المبينة: (ونحن له مسلمون) أي مخلصون التوحيد ومذعنون.

وهكذا فقد حملت بنية الإجابة من التأكيدات والتفصيلات ما حملت لتطمين المتلقي، والبوح بالقضية التي تشغل باله وكأنها دستور محفوظ بكل تفصيلاته.

وكما يكون الجواب صريحا يكون متخفيا بجملة تتضمنه، ومثاله الجواب الذي قابل به موسى، عليه السلام، سؤال قومه الإنكاري في الحوار الآتي:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ: إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً.

قَالُوٓا۟: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟!

قَالَ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧].

فقد تضمنت مقولة موسى، عليه السلام، ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الجواب الصريح هو (لا أهزأ بكم) مضفية عليه دلالات ما كنت لتمتزج به لو جاء صريحا مباشرا؛ فقد أوحت بحلم موسى، عليه السلام، وصبره على سفاهة قومه، وأسلوبه في ردهم إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق برفق، وعن طريق التعريض والتلميح .ولذا استهل إجابته بالاستعاذة بالله من هذا الاتهام مبينا لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه.

ومثاله أيضا الجواب الذي قابل به فرعون سؤال حاشيته الإنكاري في الحوار الآتي: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ: أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟

فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ؟أقَالَ: سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٧] فقد تضمن رده جوابه الصريح وهو (لن أذر موسى وقومه) مبينا الكيفية التي سيكون بها عدم ترك موسى وقومه إبرازا لقدرته على التنكيل بهم، وكأني بفرعون، وقد أجاب بما أجاب، قد انتقض لقدرته التي شكك فيها سؤال الملأ بطرف خفي.

وقد يتخير المجيب جزءا من السؤال ليعلق عليه أولا ثم يتخير جزءا آخر دون أن يكترث بترتيب السائل لتلك الأجزاء في سؤاله، ويعكس هذا أهمية ذلك الجزء بالنسبة للمجيب، فما قدم باللسان كان مقدما في الجنان، ومثاله رد موسى على سؤال فرعون في الحوار الآتي: ﴿ قَالَ: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ؟! قَالَ: فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ، فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ؟! ﴾ [الشعراء:١٨-٢١].

لقد استهل موسى إجابته بالرد على الجزء الثاني من سؤال فرعون مقدما ما أخره ومؤخرا ما قدمه، لأن حادثة قتله للقبطي كان لها الأثر الأكبر على مجرى حياته كلها، فقد هرب من فرعون وقومه خشية على حياته، فقسم الله له الخير، ووهب له الحكمة، وجعله من المرسلين.

كما عكس هذا التقديم حضور تلك الحادثة الدائم في ذاكرة موسى، واستشعاره قبحها وإحساسه بالذنب والألم على اقترافها .كما وجسم الكر على فرعون بتلك الإجابة التحول الجذري الطارئ على شخص موسى بعد أن نزلت عليه الرسالة؛ إنه يبادر بالإقرار والاعتراف دون خوف أو وجل؛ فالله معه يسمعه ويراه، وقد طمأنه بأنه محفوظ بحفظه [1].

١- (قال: رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون. قال: سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بأياتنا، انتما ومن اتبعكما الغالبون)، (القصص/٣٣-٣٥).

وبدا التداخل واضحا بين سؤال فرعون (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) وإجابة موسى: (فعلتها إذا وأنا من الضالين..) فموسى، عليه السلام، يتخذ من سؤال فرعون ركيزة يستهل بها دعوته واصلا كلامه بكلامه بـ (إذن) التي تفيد الجواب والجزاء، إنه يسلم لقوله مستبدلا كلمة (الكافرين بـ الضالين)، مبرئا ساحته من هذه الصفة التي لا تليق بخصال الأنبياء قبل الرسالة، علما بأن كلمة (كافرين) في عبارة فرعون تعني الجحود بالنعمة ورفض عبادة آلهة فرعون،[1] ولكنها اكتسبت دلالة جديدة في قاموس نبي الله، عليه السلام، بعد أن أصبح رسولا، ولهذا دفع تلك الصفة عن نفسه مبينا أنه كان من الضالين أي الجاهلين السفهاء.

وقد يتبع السؤال جواب مصدر بكلمة (كذلك) التي تغني عن ذكر عناصر جملة السؤال:

﴿ قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ؟!

قَالَ:كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ، وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

[طه:١٢٥-١٢٧].

فكلمة (كذلك) تعني مثل ذلك أي كنت مثل الحالة التي ذكرتها بسؤالك؛ كنت بصيرا ولكنك لم تنظر إلى آيات الله الواضحة بعين المعتبر، ولم تتبصر، فكذلك اليوم نتركك على عماك .وتغني (كذلك) الثالثة عن ذكر عقوبتي المعرض عن آيات الله؛ الأولى: المعيشة الضنك في الحياة، والثانية: حشره يوم القيامة أعمى (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)[2]. وهذا ما أدته كلمة (كذلك) في الحوارين الآتيين أيضا:

الأول: حوار زكريا مع الرسل الذين بشروه بالغلام:

﴿ قَالَ: رَبِّ، أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ، وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا، وَقَدْ بَلَغْتُ

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٢٩٧.

٢- طه: ١٢٤.

مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا؟!
قَالَ: كَذَٰلِكَ. قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٨-٩].

وفيه يشار بـ (كذلك) إلى قول زكريا دون السؤال؛ أي الأمر كما قلت؛ فالولد سيكون منك ومن زوجك وأنتما بتلك الحالة التي ذكرتها في كلامك، ثم واصل كلامه حاكياً ما قاله عز وجل.

والثاني: حوار مريم مع الرسول الذي تمثل لها بشراً سوياً وبشرها بأنها ستلد غلاماً:

﴿ قَالَتْ: أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ؟!
قَالَ: كَذَٰلِكِ. قَالَ رَبُّكِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم:٢٠-٢١].

وفيه يشار بـ(كذلك) إلى قول مريم دون السؤال: يكون لي غلام ولم يمسسني بشر. وهكذا فقد أدت كلمة (كذلك) دور الرابط الإشاري الذي يدمج الإجابة في السؤال مجسماً الاحتكاك اللغوي المباشر في تلك الحوارات.

وقد يبتعد المسؤول بإجابته عن الإجابة التي يطلبها السائل أو يتوقعها، كقول إبراهيم، عليه السلام، وقد سأله قومه: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ؟ قَالَ: بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦١-٦٣]، فهو لم يجب بنعم ولا بلا، وإنما نسب الفعل الذي قام به إلى كبير الأصنام، ولهذه الإجابة دلالات وأبعاد؛ ففيها محاولة لإثناء السائلين عن أن يحلوا به عقاباً على تحطيمه لأصنامهم، فمع أن إبراهيم، عليه السلام، كان من الجرأة والشجاعة والثقة واليقين بحيث فعل ما فعل، إلا أنه لم يقر بالفعل إقراراً صريحاً، وهذا أمر طبيعي لا يحتاج إلى كبير تأويل وتبرير، فإبراهيم، عليه السلام، بشر يوحى إليه، ينتابه ما ينتاب البشر من مشاعر ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار حين نتأمل كلامه ونفسر تصرفاته؛ لقد وقف فرداً أمام جمع غفير،

يسأله لا ليمهله أو يتركه، وإنما ليحل به أقصى عقاب ممكن، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك. ولو أجاب عليه السلام بلا لكانت إجابته مناقضة للحقيقة وهذا لا يليق بأخلاق الأنبياء.

لقد أراد بإجابته أن يحقق غاية مزدوجة؛ الأولى: إثناؤهم عن عقابه، والثانية: دفعهم إلى التأمل والتدبر والتفكر؛ لإقامة الحجة عليهم وتبكيتهم مواجها إياهم بحقيقة غابت عنهم. ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم؛ فإن من حق من يعبد أن يقدر على هذا وأشد منه. ومنه تجاهل موسى، عليه السلام، الدلالات التي حوتها أسئلة فرعون، وذلك بربط إجابته بالدلالة السطحية للأسئلة لا بالدلالة العميقة:

﴿ قَالَ: فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ؟!

قَالَ: رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ.

قَالَ: فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ؟!

قَالَ: عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى. ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ، كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ، مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ. وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ.

قَالَ: أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ؟! ﴾ [طه:٤٩-٥٧].

لم تكن الغاية من السؤال الأول الذي طرحه فرعون على موسى وهارون طلب المعرفة أو تحديد ماهية الإله الذي يعبدانه، وإنما كان تساؤلا ينكر جرأة موسى وهارون وتصريحهما بعبادة إله غيره، وهذه جريمة في نظر فرعون؛ لأنه كان يدعي الألوهية ويرغم أتباعه على عبادته. كما امتزج إنكاره بدلالة السخرية والتهكم من دعوة موسى وهارون والاستخفاف بها، ولكنه الخائف

الغاضب الذي يغطي خوفه بغطاء التهكم و السخرية. وفي توجيه الخطاب لموسى: (فمن ربكما يا موسى؟!) تأكيد لدلالة السخرية التي يحويها السؤال، ففرعون ينحّي هارون موجهاً سؤاله بما يحويه من دلالات إلى موسى؛ لعلمه أن هارون أفصح لساناً من أخيه موسى، وأقدر على ضبط انفعالاته والتحكم بمشاعره .ولذا فقد كان يتوقع إجابة خائفة مهزوزة، حروفها غير واضحة المخارج، تثير سخرية الملأ المستمع وتهكمه، إنه يريد بسؤاله أن يستقوي على الطرف الأضعف.

ولعل فرعون أراد بتخصيص موسى بالسؤال دون أخيه أن يذكره بطبيعة العلاقة التي ربطتهما في الماضي، فقد ربى فرعون موسى وهو طفل رضيع في قصره، وهذا يضيف إلى الدلالات السابقة التي حواها السؤال دلالة الامتنان الممزوجة بالعتاب والتقريع.

ويجيب موسى عن هذا التساؤل إجابة تتجاهل دلالاته العميقة عاداً إياه مفتاح بداية تتكشف فيها الحقائق أمام الناس؛ ليعرفوا حقيقة ربهم وصفاته: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) إنها إجابة إنسان واثق مطمئن النفس هادئ الأعصاب، يقدم في كلامه ويؤخر بمنطق يدرك أهمية كل لفظة وأثرها على نفس المخاطب؛ فلقد قدم الفاعل (ربنا) على فعله (أعطى) ليخص المتقدم بهذا الفعل، وليصارح المخاطب، دون خوف، بعبادته لهذا الإله بإضافة لفظ (رب) إلى ضمير المتكلمين .ويقدم المفعول به الثاني (كل شيء) على المفعول الأول (خلقه) لتأكيد نسبة ما وقع عليه الفعل (أعطى) إلى الله وتجريد فرعون من هذا الشيء، فالله أعطى خلقه كل شيء، وفرعون من خلقه فهو معطى وليس معطيا. وعطف الفعل (هدى) على الفعل (أعطى) موحياً بالتراخي وذلك باستخدام حرف العطف (ثم) لبيان أن فعل الهداية يأتي بعد فعل العطاء المادي.

تثير هذه الإجابة ذعر فرعون، وتهدم صرح ألوهيته، وتحبط توقعه، فيأخذ بالحيلولة دون أن يتم موسى إجابته خوفاً من تأثيره في قلوب أتباعه الذين تاقت نفوسهم لمعرفة صفات هذا الإله، فطرح تساؤلا يحول به مجرى الحديث إلى القرون الأولى: (فما بال القرون الأولى)؟!

ويدرك موسى سر هذا التساؤل، فيجيب عنه بحيادته تامة وباختصار: (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) ويأخذ بإكمال إجابته الأولى المتعلقة بصفات الله ونعمه على البشر .ويختفي صوته بعد جملة (وأنزل من السماء ماء) ويظهر صوت آخر ينسب الأفعال إلى ضمير المتكلم: (فأخرجنا به أزواجا من نبات...)، ويدل هذا الالتفات على تدخل الراوي العليم في نقل الحوار الدائر بين الشخوص، فمرة يحكي ما قالته الشخوص بلسانها، ومرة يوقف الحوار متنقلا إلى إنشاء خطاب يسند فيه الضمير إلى ذاته زيادة في تخصيص نسبة الأفعال إليه، عز وجل، فهو الذي يختص بالقدرة على هذه الأفعال التي لا تدخل تحت قدرة أحد.

وترتعد فرائص فرعون خوفا مما جاء به موسى؛ لعلمه أنه على حق، وأنه غالبه لا محالة، فيستخدم السؤال غطاء يستر به خوفه، فتظهر صرخة الخوف برداء الإنكار والتوبيخ والوعيد: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ؟! ﴾. يقول الزمخشري معلقا على قول فرعون: "وقوله: (بسحرك) تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر".[1]

وقد تتوالى الإجابات مشكلة مجموعة واحدة وهذا ما حدث في الحوار الذي دار بين موسى والخضر عليهما السلام، فالأسئلة الإنكارية التي وجهها موسى للخضر كانت تلاحق الأخير طالبة منه تفسيرا وتعليلا لتصرفاته العجيبة، ولكنه تجاهلها لائما موسى على طرحها لمخالفة هذا الطرح لشرط الإتباع، وقد واجه كل سؤال إنكاري بسؤال تقريري كما سبق أن وضحنا،[2] ثم أخذ يجيب عن كل هذه الأسئلة مرة واحدة مستحضرا أسئلة موسى ومراعيا ترتيبها،[3] وقد مهد لإجاباته بقوله لموسى: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٨]، ولنا وقفة تأملية في أسلوبية تلك الإجابات:

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٦٨.

٢- ينظر ص (١١٨- ١٢٣) من هذا الكتاب.

٣- تنظر هذه الإجابات في الكهف: ٧٩-٨٢.

لقد استهل إجاباته الثلاثة بحرف الشرط والإخبار والتوكيد (أمـــا)، وروس كل إجابة بالكلمة المحور التي وقع عليها فعله المنكر، ونسب ملكيتها لأشـــخاص معينين يمتازون بصفات معينة كانوا علة هذه الأفعال:

- (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر... وكان وراءهم ملك يأخذ كـــل سفينة غصبا).

- (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين...).

- (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمن في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا...).

كما راعى في ترتيب المعاني داخل بنية الإجابة ما يعجل توصيل مـــــبرر فعله وتوضيحه لموسى، ففي قـــول: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف:٨٢] قدم الإخبار بوجود كنز الغلامين لأنها العلة الأولى في بيان سبب بناء الجدار، فالجدار لـــم يبن إلا لأن تحته كنزا ينبغي الحفاظ عليه وحمايته من الآخرين، يـــأتي بعدهـــا سبب حماية هذا الكنز لهذين الغلامين وهو صلاح أبيهما (وكان أبوهما صالحا).

وقد يجاب عن السؤال بسؤال، وهذا ما حدث في أربعة عشر موضعـــا[1] سبعة منها جرت بين الأنبياء وأقوامهم، الأمر الذي يثبت فاعلية الســـؤال فـــي تجسيم انفعال أطراف الحوار واستيعابه للصراعات الكامنة بينها، فالسؤال يولـــد في نفس المسؤول آفاقا لا يستوعبه إلا السؤال.ومن ذلك:

- الحوار الذي جرى بين موسى وقومه في قوله تعالى على لسان الطرفين:

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ: أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ؟! قَالُوٓا۟: أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى

١-هي: البقرة:٢٤٦،٢٦٠، الأعراف:(٦٩-٧١)، يونس:(٧٧-٧٨)، هود:(٦٢-٦٣)، (٧٢-٧٣)، (٨٧-٨٨)، يوسف:(٨٩-٩٠)، الكهف:٦٦-٦٨)، (٧١-٧٢)،(٧٤-٧٥)، النمل:(٦٧-٦٩)، الشعراء:(١١١-١١٢)، ق:٣٠.

ٱلْأَرْضِ؟! وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٧٧-٧٨].

-والحوار الذي جرى بين صالح وقومه في قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ: يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ، أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا؟ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ.

قَالَ: يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ؟! فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود:٦٢-٦٣].

-والحوار الذي دار بين موسى والخضر في قوله تعالى:

﴿ قَالَ: أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا.

قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ؟!﴾ [الكهف:٧١-٧٢].

ويصعق سيدنا موسى بتصرف منكر آخر قام به الخضر، فيصوخ به متسائلا: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف:٧٤].

فيردد الخضر على سؤاله بسؤال ينكره قال:

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٢].

والملاحظ أن الإجابات المتبلورة في تركيب السؤال تختلف في دلالتها وانفعالات أصحابها باختلاف درجة تأثرهم بسؤال السائل، فتساؤل موسى الإنكاري ولد تساؤلا أكثر حدة وعنفا على لسان أتباعه. أما تساؤل صالح فقد حاول استيعاب الإنكار المتفجر من سؤال قومه والتخفيف من حدته. وقابل الخضر تساؤل موسى الإنكاري بتساؤل تقريري لا تتصاعد فيه الدلالة إلى درجة الإنكار.

الأمر

احتل الأمر مساحة واسعة في الحوارات القرآنية؛ فقد جاء في خمسمائة وأربعة وثلاثين موضعا، أي ما يعادل ٣٤% من مكونات الحوار، وهذا يتماشى مع طبيعة سير الحدث الحواري، فكثيرا ما ينشأ حوار بين طرفين لتوجه أحدهما بطلب تنفيذ فعل ما إلى الآخر.

والأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام[١]، ويقصد بالاستعلاء اختصاص الآمر بالعلو على المأمور. وهذا هو أصل المعنى الذي تنتجه بنية التركيب، ولكن كثيرا ما يكسر الوجود الفعلي للتركيب في النصوص قيد المعنى الأصلي منتجا دلالات لا حصر لها[٢]، تتفاوت بتفاوت العلاقة بين طرفي الحوار، ولذا سيكون استحضار البعد التداولي الأساس المعول عليه في بيان دلالة التركيب. بيد أن ثمة ملحظا آخر لأحد مظاهر الانحراف في أسلوبية الأمر حري بالتأمل يتمثل في التجاوز الدائب للتركيب في النصوص المختلفة، فليس كل أمر خرج عن دلالته الأصلية إلى دلالة الدعاء، مثلا، سواء. وحتى حين تلتزم بنية التركيب بدلالتها الأصلية فلا بد من تمثل أبعاد الموقف الحواري؛ لاستشفاف الدلالات التي قد تمتزج مع المعنى الأصلي للبنية، فالأمر الذي يوجهه الله لأحد الرسل، مثلا، ليؤدي مطلوبا ما قد يمتزج بالشفقة والإيناس، كقوله لنوح عليه السلام: ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ

١-العلوي، الطراز، ج٣، ص٢٨١.

٢- تحدث البلاغيون عن خروج بنية الأمر عن أصل المعنى. ينظر: أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص٢٢٩ وما بعدها. وسعد الدين التفتزاني، المطول على التلخيص، ص(٢٤٠-٢٤١). وبهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص، ج٢، ص٣٢٤.

مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ [هود:٤٨] بينما يمتزج بالغضب والسخط حين يوجه الأمر ذاته إلى الشيطان: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣].

بناء على ما سبق فإننا سنقف على تجاوزات التركيب في وجوده الفعلي في النص الحواري لقيد المعنى الأصلي، وذلك بطرح عدد من النصوص التي تفاوتت فيها دلالات بنية الأمر: ففي قوله، عز وجل، مخاطبا إبليس: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء:٦٤] تولد أفعال الأمر المتوالية دلالة التهديد الممزوجة بغضب المتكلم من المخاطب، وعدم رضائه عن المأمور به، فقوله تعالى يرتد في العمق إلى: (استفزز من استطعت منهم بصوتك وسترى نتيجة استفزازك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وسترى عاقبة إجلابك، وشاركهم في الأموال والأولاد وسترى نتيجة مشاركتك، وعدهم وسترى نتيجة وعدك) وتشير إلى هذا العمق التقديري قرائن الأحوال المصاحبة، فقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا فسجدوا إلا إبليس الذي قال: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:٦١]؛ إنه يرفض منكرا وقوع فعل السجود الذي أمره به الله، ويقف متحديا متوعدا ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٢] ويقابل هذا التحدي تحد أعنف، فقد أمره الله أن يفعل ما يريد وينتظر نتيجة أفعاله. وهذا يعني أن العلاقة الرابطة بين النتيجة والأمر علاقة (تضاد).

وفي قوله تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يوجه مقولة القول التي يحوي أمرا إلى الكافرين المكذبين، خرج الأمر إلى دلالة التعجيز والتحدي:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ

﴿ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود:١٣] لقد ادعى الكافرون أن الرسول افترى القرآن واختلقه من عند نفسه وليس من عند الله، فأمره الله أن يسايرهم واضعا إياهم في بؤرة التحدي، وذلك بأن يقول لهم: هبوا أني اختلقته من عند نفسي وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله، فأنتم عرب فصحاء لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام، وادعوا من استطعتم ليعينكم في تنفيذ هذا الأمر. وهذا يعني أن قوله تعالى يرتد في العمق إلى: (فأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن، وهو محال عليكم كما أنه محال علي) وما كانت تلك الإيحاءات لتتولد لو جاء رده، عليه السلام، مقتصرا على نفي التهمة عن نفسه بقوله: (لم أفتر القرآن)، لأن هذا الرد لا يعكس طبيعة الاحتكاك والصراع والتحدي المتأججة بين الفريقين كما يعكسها اختيار تركيب الأمر.

وهكذا فإن العلاقة التي تتيح (للأمر) إنتاج (التعجيز) هي التضاد ولكن مع مفارقة واضحة بين الأمر والتعجيز، وتتمثل في أن الأمر يتوجه إلى ما هو ممكن، وتوجه التعجيز إلى ما هو مستحيل.

وليس كل أمر خرج إلى دلالة التعجيز والتحدي سواء، فالتعجيز السابق وجه إلى خصم معاند لدعوة الرسول مكذب ومتهم لكلامه، ولذا جاء عنيفا فيه إفحام للخصم ورغبة في إحباطه. ولكن دلالة التعجيز التي ولدها الأمر في قوله تعالى للملائكة: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١] امتزجت بدلالة مغايرة؛ لاختلاف المخاطب، فالملائكة عباد الله المطيعون الذين يفعلون ما يؤمرون، وما سؤالهم إلا دهشة ممزوجة بتعجب لا يخلو من استنكار، واستنكار لا يخلو من استرشاد، وذلك كله يرجع إلى عدم المعرفة لا إلى التحدي أو الرفض أو الرغبة في الجدل العقيم:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ: إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً.

قَالُوٓاْ: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟!

قَالَ: إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠].

لقد كان بالإمكان أن يغلق الله باب الحوار مع الملائكة بتلك العبارة، ويحقق ما أراده أن يكون دون أن يعلل للملائكة سبب جعل الإنسان خليفة في الأرض، ولكنه، عز وجل، أراد أن يثبت للملائكة أحقية الإنسان في الخلافة وتميزه عن سائر مخلوقاته، وذلك باختبار يجريه على الملائكة وعلى آدم، يوجه فيه إليهما سؤالاً، ويأمرهما بالإجابة عنه، فيقف الملائكة عاجزين، ويجيب آدم فيتضح تميزه للملائكة، فيقرون راضين بخلافة بني آدم، لأنهم اقتنعوا بالتجربة والبرهان لا بالإكراه والإجبار:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ،

فَقَالَ: أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ.

قَالُوا۟: سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ.

قَالَ: يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ. قَالَ: أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

لقد أثبت الآمر العليم أن المأمور الأول (الملائكة) لن يستطيع تحقيق المأمور به، بينما يستطيع المأمور الثاني (آدم) تحقيقه. وهذا يعني أن الأمر الموجه للملائكة يحوي تعجيزاً لكونه يطلب المحال، أما الأمر الموجه لآدم فالتزم بمعناه الأصلي وانتظر تحقيقاً للمحال الذي صار ممكنا بإرادة الله.

وقد يمتزج التعجيز الذي خرج إليه معنى الأمر بدلالة التكذيب والسخرية كقول قوم نوح له: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود:٣٢] إنهم يستخفون بتحذيره، عليه السلام، مظهرين عدم المبالاة به، ولذا يطلبون منه تنفيذ وعيده، ليقينهم أن الفعل المأمور به لا يتحقق أصلاً .وهذا يعني أن كلامهم يرتد في العمق إلى: (فأتنا بما تعدنا إن كنت صادقاً، ولكنك لن تستطيع لأنك كاذب فما تتوعدنا به أمر محال). فما كان من نوح إلا أن أكد وقوع وعيده، ناسباً الفعل إلى من لا يعجزه شيء؛ إلى الله:

﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ، وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود:٣٣] إنه يوافقهم بكون إتيانه بالعذاب الأليم -الذي حذرهم منه - أمرا مستحيل الوقع إن كان هو الفاعل، لكنه أمر غير معجز لمن أمره إذا أراد شيئا فانه يقول له كن فيكون .وأظهر، عليه السلام، تأدبه مع الله، فحين نسب الفعل إليه -عز وجل- أتبعه بالجملة المعترضة (إن شاء) التي تفيد الاحتراس، فتحقيق الوعيد أمر مرتبط بمشيئة الله، فإن شاء حقق مطلبهم الذي عدوه محال التنفيذ، وإن شاء أخر التنفيذ إلى الوقت الذي يريد.

ومن الدلالات التي خرج إليها الأمر (التسوية) حيث يطرح الآمر أمرين فيتوهم المتلقي أن أحدهما أرجح من الآخر، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٥٣] الذي يرتد في العمق إلى: (أنفقوا طوعا أو كرها فهما سواء في عدم التقبل).

ويولد الأمر (التمني) حين يوجه الآمر إلى المخاطب طلبا لا سبيل إلى تحقيقه، ومع هذا فهو يتوق إلى تحقيقه ليتخلص من واقع أليم يعايشه. ومثاله قول الذين ظلموا لما رأوا العذاب يوم القيامة: ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم:٤٤]، إنهم يعلمون أن طلبهم لن يتحقق لأن الله قد حكم بين العباد، ولكنهم يحاولون جاهدين الخروج من نار جهنم قاطعين الوعود بأن يسيروا على طريق الهداية، ويمتزج التمني بالرجاء والإلحاح على المخاطب، لكنه، عز وجل، يرفض طلبهم متخذا منه سببا لتحسيرهم وزيادة تعذيبهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ؟! وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ؟!﴾ [إبراهيم:٤٤-٤٥].

ومنه أيضا ما جاء في خطاب أصحاب النار لأصحاب الجنة:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ: أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ. قَالُوٓاْ: إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٥٠]، إن

طلب أصحاب النار يناسب قدرة المأمور، فهم لم يطالبوا أهل الجنة بإخراجهم من جهنم، كما طلبوا من الله، ولكنهم تمنوا أن يفيضوا عليهم من ماء الجنة أو مما رزقهم الله من خيراتها.

ولعلكم لا تخالفونني الرأي في أن توقع تحقيق الأمنية في الحوار الثاني وصل إلى حد الممكن، لأنهم خاطبوا بشراً يمكن تحريك مشاعرهم أو تأجيج شفقتهم، بينما يحتضر توقعهم وهو يولد حين يتوجهون بطلبهم إلى الله؛ ليقينهم بأنه -عز وجل- قال كلمته التي لا تتغير أو تتحور، و مع هذا فقد كرروا طلبهم في مشاهد حوارية كثيرة، مظهرين قمة الخشوع و التذلل والاستسلام[1].

وخرج الأمر في كثير من المواطن إلى (الدعاء) [2] وفيه يوجه المتكلم الطلب على حال التضرع والخضوع حيث يكون المتلقي هو الأعلى مطلقاً، أو بالنسبة للمتكلم، واقتصر توجيه الدعاء في الحوارات القرآنية إلى الله -عز وجل- لأنه القوة المطلقة التي يتشبث بها فريق من أطراف الحوار، هو الفريق المؤمن بوجودها، والذي يستعين بها في مواجهة الفريق الآخر، أو في مواجهة هموم الحياة المختلفة.

وليس كل أمر خرج إلى دلالة الدعاء سواء؛ ففرق كبير بين دعاء سليمان عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل:١٩] وبين دعاء لوط عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٠].

فسليمان توجه إلى ربه بدعائه وهو مسرور ومرتاح من أية صراعات؛ إنه محاط بالنعمة والراحة والسلام. بينما توجه لوط إلى ربه بالدعاء حزيناً خائفاً من فحش قومه، ووقوفهم ضده وقفة رجل واحد مطالبينه بأن يخلي بينهم وبين ضيفه. إنه مشهد يتأجج صراعاً وعنفاً ومواجهة وتوتراً.

١- تنظر هذه المشاهد في: سورة المؤمنين:(١٠٦-١٠٩)، السجدة:(١٢-١٤)، فاطر:٣٧.

٢- يطلق ابن فارس على الدعاء لقب (المسألة). ينظر: ابن فارس، الصاحبي، ص٢٩٧.

وفرق كبير بين دعاء الكافرين في الدنيا: ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:١٦]، ودعائهم يوم القيامة: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ. رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٧]، لقد كانوا في دعائهم الأول ساخرين يدعون على سبيل الهزء مظهرين لا مبالاتهم واستهتارهم بالقوة المطلقة التي كان الرسول وأصحابه يتوجهون إليها طالبين المدد والرحمة والقوة. ولكن هذه النبرة التهكمية الساخرة تتحول إلى نبرة بكاء وندب وحسرة ورجاء يوم القيامة.

وقد يوجه أحد أطراف الحوار أمرا إلى طرف آخر يعلو عليه في المكانة، فيغطي وعيه لهذا الفارق نبرة الاستعلاء الملازمة لبنية الأمر، ويغلفها بالتواضع أو التذلل أو الرجاء أو غيرها من المشاعر التي تجسم استشعار الآمر بعلو مكانة[1] المأمور عليه ومن ذلك:

الأمر الذي وجهه أبناء يعقوب لأخيهم يوسف وقد ظنوه العزيز: ﴿ قَالُواْ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف:٨٨] إنهم يظهرون حاجتهم وضعفهم مظللين طلبهم بالبؤس والحرمان اللذين يدفعان إلى الإلحاح، وتؤكد هذه الدلالات العبارة التي ختموا بها طلبهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ فهي تحوي ترغيباً بتحقيق مطالبهم.

والأمر الذي وجهه الفتى الذي نجا من السجن، وكان بصحبة يوسف، إلى يوسف: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٦]،لقد مكث هذا الرجل مع يوسف في السجن مدة طويلة ذاق

١- ونقصد بالمكانة، ما يتفاوت به البشر من مال وعلم وسن ومركز وحكمة... الخ.

فيها أحواله، وتعرف صدقه وحكمته وعلمه وإدراكه لبواطن الأشياء في تأويله رؤياه ورؤيا صاحبه.

إنه يدرك تمام الإدراك تميز يوسف وعلو مكانته بصفاته على غيره، ولهذا كلمه بكلام المحترز؛ فالأمر الذي وجهه إليه (أفتنا) يمتزج بالرجاء والتذلل، يؤكد هذا قرائن الحال التي ذكرناها، وقرائن السياق اللفظية المتمثلة باستهلال خطابه بالنداء (يوسف) الذي أتبع بنداء آخر يحوي وصفا للمنادى (أيها الصديق) أي أيها البليغ في الصدق وبعد أن صرح بطلبه ختم خطابه بما يوحي بالحاجة الملحة التي تستدعي تنفيذ طلبه ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ إنه يتوق إلى العودة ومعه تأويل الرؤيا التي أرقت الناس وعجز الملأ عن تفسيرها. ربما كان قوله ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، وقد تكون جملة مستقلة تفيد معنى إضافيا فسره الزمخشري بوقوع الفعل (يعلمون) على مفعول به تقديره: (يعلمون) فضلك ومكانك في العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك[1].

كما توحي عبارته بما فيها من تكرار كلمة (لعل) التي تفيد الترجي برغبته الخاصة في معرفة تأويل الرؤيا، فهو يرغب في نيل الحظوة عند الملك بهذا التأويل الذي عجز الناس عنه، وكأني به يحرص على أن يسمع الملك التأويل من فمه هو لا من فم يوسف، يؤكد هذا عدم تصريحه بهوية الحالم، فهو لم يقل (لعلي أرجع إلى الملك) ، وإنما قال: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، كأنه يخشى من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن، ووقوفه أمام الملك مشترطا ذلك.

وقد نعزو هذا التذلل في الطلب والرجاء أيضا إلى إحساس الفتى بالذنب والحرج اتجاه يوسف، لأنه نسي طلبه بأن يذكره عند الملك ليخرجه من السجن

---

١ - الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص(٤٨٧-٤٥٨).

إلا بعد مدة طويلة[1]، فظن أن يوسف غاضب عليه، وقد يحول هذا الغضب دون تنفيذ طلبه.

وقول ابنة شعيب لأبيها: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦] إنها ترغب في أن ينفذ أبوها طلبها؛ بأن يستأجر موسى، عليه السلام، ولهذا أتبعت طلبها ببيان صفاته التي تبرر طلبها وتغري والدها بالتنفيذ .وقد أطل طلبها باستحياء وحشمة، فهي فتاة عذراء حيية، سبق أن وصفها الله، عز وجل، بأنه ﴿ تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ [القصص:٢٥] وطلبها يتعلق ببقاء رجل غريب، وهذا أمر تتحرج منه أمثالها، خاصة إذا كان المطلوب منه والدها، ولذا فإننا نؤكد صدور هذا الطلب بتحفظ يخفي من مشاعر الفتاة أكثر مما يبديه، وبحيادية الحكمة ﴿ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ التي تغلف إلحاح المتكلم ورغبته في أن ينفذ المخاطب طلبه.

وقد يوجه الطرف الأقل مكانة أمراً إلى الطرف الأعلى تغيب فيه دلالات الخضوع والتذلل والتواضع وغيرها من الدلالات الموجبة باستشعار الطرف الآمر لمكانة المأمور، وذلك لسمات في الشخصية يكشفها السياق. ومن ذلك:

الأمر الذي وجهه بنو إسرائيل لموسى في قولهم: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] لقد خاطبوا نبيهم بوقاحة العاجز، لأنه أمرهم بدخول أرض الميعاد وقتال الجبارين فيها، فتجرؤا عليه، وتوقحوا على دعوته التي تكلفهم ما لا يريدون، وأمروه بكل وقاحة وتنصل أن يقاتل هو والله ويذرهم وشأنهم. ويؤكد هذا التنصل عدم اكتفائهم بالضمير المستتر العائد إلى موسى -عليه السلام- في الفعل (اذهب) فقد أضافوا إلى بنية خطابهم اللغوية الضمير المنفصل (أنت)، ونسبوا كلمة (الرب) إلى كاف المخاطب التي تعود إلى موسى لا إلى (نا) المتكلمين، ليؤكدوا تنصلهم من الله وعقيدته إذا كان انضمامهم تحت هذا اللواء سيكلفهم القتال والمواجهة.

١- ينظر الحوار الموضح لما ذكرناه في سورة يوسف الآية (٤٢).

وهكذا فقد كشف السياق وما فيه من قرائن لفظية وحالية الدلالات المكتنزة في فعل الأمر (اذهب) التي لا تتناسب أبدا ومكانة المخاطب الذي وجهت إليه عاكسة أخلاق المتكلم السلبية التي دفعته دفعا إلى ذلك؛ لما في مراعاة مكانة المخاطب من التزامات وواجبات لا تروق للمتكلم.

وفي المقابل قد يعكس عدم اكتراث المتكلم بمكانة المخاطب التحول الإيجابي الذي طرأ عليه، ومثاله ما جاء في مقولة سحرة فرعون بعد إيمانهم بدعوة موسى لفرعون وقد هددهم بالقتل:

﴿ قَالُواْ: لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ. إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا، لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٢-٧٣] إنهم يتحولون في لحظة من الكفر إلى الإيمان ويرافق هذا التحول تحول في دلالات ألفاظهم التي أرسلوها صاعقة تحرق مكانة فرعون وتهد صرحه، فتتلاشى دلالات التعظيم والتوقير والإجلال والتقديس التي حالت في خطاب من خطاباتهم معه دون الجرأة على مطالبته بالأجر على سحرهم، فأخفوا هذا الطلب في ثوب السؤال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ: أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٤١]، وتحل محلها دلالات التحقير والإهانة والاستخفاف التي امتزجت بفعل الأمر (فاقض) مجسمة الإيمان الذي سكن قلوب السحرة الذين كانوا منذ لحظة يقدسون مكانة فرعون، ويعدون القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هم بعد لحظة، قوة تواجهه، تهزأ بمكانته، وترخص ملكه وجاهه وسلطانه.

ومن الدلالات التي خرج إليها فعل الأمر في الحوارات القرآنية أيضا دلالة النصح أو الإرشاد والتوجيه، وللآمر فيها معرفة أو علم وحكمة غير موجودة عند المخاطب، ومن ذلك: دلالة أفعال الأمر التي وجهها لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه قال: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ، وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧] ، إنه الوالد الحكيم الذي

يحرص على مصلحة ابنه وسعادته، فيوجه إليه أفعال أمر متوالية خرجت عن دلالتها الأصلية إلى دلالات الحث على فعلها دون إجبار، و تحبيب هذا الفعل إلى نفس المخاطب؛ لينفذه برغبة وحرص واعيا نتيجة التنفيذ.

ودلالة أفعال الأمر في معظم خطابات الرسل والصالحين لأقوامهم، حيث يقومون بتبليغهم أوامر الله وتعاليمه، بالقول اللين الذي يبتعد عن الاستعلاء أو الإكراه ممتزجا بحرص المتكلم على مصلحة المخاطب وهدايته، ومثالها دلالة أفعال الأمر الواردة في خطاب شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ، وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ [الأعراف:٨٥]. وتلك الواردة في قول هود لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا، وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ، وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود:٥٢].

وكثيراً ما ارتبطت دلالة النصح والإرشاد التي خرج معنى الأمر إليها بالتحذير، لتخويف المتلقي من عواقب عدم تنفيذ الأمر، كقول الرجل، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لسيدنا موسى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ، إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ، فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص:٢٠]، حيث امتزجت دلالة النصح التي يحويها فعل الأمر (فاخرج) بالتحذير والإلحاح على التنفيذ، والتخويف من البقاء. وانحصر الفعل بين جملتين تؤكدان تلك الدلالات، ففي قوله ﴿ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ ﴾ إفشاء لمكيدة دبرت في الخفاء، يستدعي العلم بها من المخاطب سرعة التحرك والهروب مخافة أن يقع فريسة لتلك المؤامرات. وفي قوله: ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ إبراز لحقيقة موقف المتكلم تجاه المخاطب، فهو حريص على سلامته، ناصح له، صادق فيما يقول.

وتتضاعف حدة التحذير والإلحاح على تنفيذ الأمر إلى درجة الرجاء في قول نوح لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [هود:٤٢] فمهما كان حرص الرجل الذي خاطب موسى في الخطاب السابق، كبيرا وصادقا، فانه لا يعادل جزءا بسيطا من الحرص واللهفة والخوف والإلحاح وغيرها من المشاعر الكافية في خطاب أب أدرك أن ابنه غارق لا محال إن لم ينفذ ما يأمره به، وهل هناك ما هو أكثر حرصا من حرص الآباء على نجاة أبنائهم وسلامتهم؟!

وهذا يؤكد أن العلاقة الرابطة بين طرفي الحوار هي المؤشر الحساس والأساس في بيان نوع الدلالة القارة في التركيب، ودرجة تشبع التركيب بها أو مقدار حدتها وماهية الدلالات الممتزجة بها.

وهكذا نكون قد توقفنا على جزء من الدلالات المتعددة التي أنتجها تركيب (الأمر) في عدد من النصوص الحوارية في القرآن الكريم مبينين فاعلية التركيب فيها، الناتجة عن التجاوز الدؤوب للتركيب في وجوده الفعلي في النص الحواري لقيد المعنى الأصلي، وحتى حين يلتزم بدلالته الأصلية فانه يتشرب دلالات أخرى يكشف عنها استحضار البعد التداولي المحيط بالآمر والمأمور مثبتاً أن كل (أمر) وجود قائم بذاته، قد يتشابه مع نظائره في نصوص أخرى، ولكنه لا يتطابق معها. ولنا الآن وقفة مع الكيفية التي تشكل بها تركيب (الأمر) في النص لتحقيق الدلالات القارة فيه وتجسيمها.

أسلوبية (الأمر) في الحوار القرآني:

شكل الأمر سمة أسلوبية مهيمنة في بنية عدد من النصوص الحوارية، فقد توالت أفعال الأمر خارجة من دلالاتها الأصلية إلى الدعاء والتضرع في جل خطابات الرسل، عليهم السلام، مع الله، دالة بهذا التوالي على شمول الدعاء، وتعلق أمل الداعي بالمدعو في تنفيذ طلباته، مؤكدة قدرة المدعوّ وطاقته على استيعاب كل هذه الطلبات وتنفيذها، ومنها: أفعال الأمر المتوالية في قول موسى، عليه السلام، مخاطباً الله: ﴿ رَبِّ، ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى، وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى، وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى؛ يَفْقَهُواْ قَوْلِى، وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى، هَٰرُونَ أَخِى، ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى، وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى، كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه:٢٥-٣٥].

لقد أظهر موسى بطلباته المتعددة المتوالية بتنظيم إيقاعي مكنونات نفسه بكل ما فيها من هواجس وضعف وخوف؛ لأنه يخاطب العليم بالخوافي، الذي يملك مخرج كل ضيق وهم، إنه يشرح ويفصل في دعائه، مبرزاً تعلقه بقدرة الله، ورغبته في مناجاته. بدت أفعال الأمر في خطابه فواصل قسمت الخطاب إلى مجموعة جمل متساوية، انتهى كل منها بالمفعول الذي وقع عليه فعل الأمر، وقد أضيفت ياء المتكلم إلى هذه المفاعيل مؤكدة خصوصية حاجته.

وتوالت أفعال الأمر في وصية لقمان الحكيم لابنه بتكثيف يجعلها شريعة يسهل على المتلقي حفظها وبالتالي تذكرها والعمل بها، وما كان هذا الهدف ليتحقق لو كانت الفجوة المكانية بين أفعال الأمر واسعة: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ، وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ، وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧]. كما توالت أفعال الأمر في خطاب الله الموجهة إلى إبليس حين رفض السجود لآدم، مشكلة سلسة من التحديات التي كثفت في جزء من الخطاب صافعة إبليس بما تحويه من تحد ووعيد، ملاحقة إياه كاسرة

كبـره وغروره: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ، وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ، وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ، وَعِدۡهُمۡۚ، وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء:٦٤].

لقد توالت أفعال الأمر في الخطابات السابقة بوتيرة الأمر الأول فيها، والنمط الذي تقولب فيها ووجهت إلى مخاطب بعينه، ووقعت على مفاعيل واحدة أو متقاربة تدور في إطار واحد، وهذا يخلق إيقاعاً خارجياً يعكس نبض المتكلم وانفعالاته وموقفه من المخاطب، فالحالة الانفعالية التي تلق الحدث الكلامي تسير على وتيرة واحدة.

وشكلت أفعال الأمر سمة بارزة في الخطاب الإلهي الموجه إلى أحد من الخلق، والتزمت بدلالتها الأصلية التي اختلطت بدلالات أخرى توضحها القراءة الارتدادية للنص الواردة فيه ومراعاة المخاطب. ورتبت هذه الأفعال بترتيب العليم، وهي تستوجب من المخاطب تنفيذاً يراعي الترتيب المذكور، ومن ذلك ما جاء في خطاب الله لإبراهيم في الحوار الآتي:

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ: رَبِّ، أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ.

قَالَ: أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ؟!

قَالَ: بَلَىٰ، وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ.

قَالَ: فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ، ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا، ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ، وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة:٢٦٠].

لقد رتب الله الأفعال ترتيباً دقيقاً موضحاً الفترة الزمنية التي على المخاطب الالتزام بها بين كل فعل والذي يليه، وذلك بحروف العطف الدالة؛ فالفترة الزمنية بين الفعل (خذ) والفعل (صرهن) قصيرة، إن لم تكن معدومة، ولكنها تمتد بين الفعل (صرهن) والفعل (اجعل)، وقد أوحت (ثم) بهذا الامتداد، لأن تقطيع الطير يحتاج وقتاً أكثر من جمعها. كما فصلت (ثم) بين الفعل (اجعل)

والفعل (ادعهن) وفي هذا زيادة إثبات للقدرة الإلهية وبيان، لأن تجميع أجزاء الطير وإحيائه بعد أن لبث مدة مجزءاً ومفرقاً أزيد للبصيرة واليقين بقدرة الله العزيز الحكيم.

وقد يتكرر فعل الأمر ذاته على لسان الآمر نفسه، أو على لسان أكثر من آمر، ولهذا التكرار دلالات يكشفها السياق، فمن الأول: تكرار الفعل (اذكروا) على لسان هود في خطابه للذين كذبوه من قومه: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٩].

إن تكرار الفعل اذكروا يجسم إلحاح هود وحثه لقومه على التذكر والتدبر. انه يلاحقهم بهذا التكرار مستفزاً تفكيرهم وتأملهم، ساعياً بهذه الاستثارة إلى تغيير موقفهم من الكفر إلى الإيمان. والملاحظ أن متعلقات الفعل الأول هي أيضاً متعلقات الفعل المكرر، لكنها جاءت مفصلة مع الأول، ومجملة بكلمة ﴿ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ مع الثاني. كما تكرر فعل الأمر في قوله تعالى للملائكة: ﴿ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال:١٢]. أفاد تكرار فعل الأمر (اضربوا) حث الملائكة على سرعة التنفيذ وشموله؛ ليحيط الضرب بالكافرين من كل جانب؛ فالدال الأول يقع على مقتل ﴿ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾، والدال المكرر يقع على غير مقتل ﴿ كُلَّ بَنَانٖ ﴾، وهذا يعني جمع النوعين معاً في مواجهة الكافرين.

وقد يتكرر الفعل حين يقاطع المتلقي كلام المرسل بتعليق أو تساؤل يدور حول تنفيذ الأمر، فيجيبه المرسل، ثم يرتد إلى الأمر الذي سبق أن طرحه، فيعيد ذكره، ليكون التكرار وصلة تستأنف بها بقية الخطاب. وهذا ما أفاده تكرار الدال في الحوار الذي دار بين الله، عز وجل، وموسى عليه السلام، فحين أمر الله موسى، عليه السلام، أن يذهب بآياته إلى فرعون الطاغية ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:٢٤] تفاجأ موسى بهذا الطلب، وتلبسه الخوف، لضعف قوته وحجته أمام قوة فرعون وبطشه. وقد دفعه هذا الخوف دفعاً إلى التوجه إلى الله بالدعاء طالباً النصر والقوة والمعين(١)، قبل أن يعرف الرسالة التي يريد الله أن يبلغها لفرعون. ويستجيب الله لدعائه: ﴿ قَالَ: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٣٦]، ولكنه، عز وجل، لا يذكر رسالته، وإنما يواصل تطمين موسى، وبث السكينة في نفسه، ليتلقى الرسالة بنفس هادئة، ويستوعبها بقوة وعزم يدفعان إلى التنفيذ، فيذكره بنعمه المتواصلة عليه، ورعايته له، وكيف ذلل أمامه كل العقبات التي واجهته، فكان دائماً في كنف الله ورعايته(٢)، وهذا يعني أن مواجهة فرعون ستكون تحت هذه الرعاية الإلهية الملازمة لموسى، وسيخرج منها منتصراً.

وبعد هذا الحوار الطويل الذي أثاره الأمر بالذهاب إلى فرعون، يكرر الله الطلب ليكمل خطابه الذي يريد من المتلقي إيصاله إلى فرعون، ولكن يحدث تغيير في بنية فعل الأمر تعكس استجابة الله لدعاء موسى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى، هَـٰرُونَ أَخِى، ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى، وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ [طه:٢٩-٣٢]، فالله، عز وجل، وجه أمره إلى موسى وهارون، وذلك بإضافة ألف الإثنين إلى فعل الأمر (اذهب) مبيناً موافقته على إشراك هارون في أمر الذهاب إلى فرعون: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى، ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٢-٤٤] ويدفع الخوف من جديد بموسى وهارون إلى أن يبوحا بخوفهما من هذا اللقاء، قبل أن يسمعا الرسالة التي كلفهما الله بحملها إلى فرعون: ﴿ قَالَا: رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ ﴾ [طه:٤٥] فيرد -عز وجل- مخاوفهما مؤكداً نصرته لهما ثم يعيد طلبه (فقولا) ويطرح رسالته التي تأخر طرحها بسبب

١- ينظر دعاء موسى لربه في سورة طه: (٢٥-٣٢).

٢- ينظر الخطاب الالهي لموسى في سورة طه: (٣٧-٤١).

مداخلات المتلقي: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ. ﴾ [طه:٤٧].

وهكذا فقد شكل تكرار فعل الأمر وصلة يرتد بها إلى الدال الأول، ويستأنف بعدها ما توقف من خطاب، فيبدو الحوار متماسكاً يدور في بؤرة واحدة.

وقد يدل صدور فعل الأمر ذاته على لسان عدة شخوص في سياقات متشابهة حد التطابق على وحدة الفكرة أو الدعوة التي جاء بها هؤلاء، وهذا ما برز في حوار الرسل، عليهم السلام، مع أقوامهم، فعقيدة التوحيد التي ينادي بها رسل الله واحدة، لم تتغير بتغير الزمان والأقوام. ففي سورة الأعراف جاءت جملة: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ التي تحوي فعل الأمر (اعبدوا) في خطاب نوح[1]، وهود[2]، وصالح[3]، وشعيب[4]، عليهم السلام، لأقوامهم، وهذا يثبت اجتماعهم على دعوة التوحيد، بعبادة الله وحده وإقراره -سبحانه- بالألوهية.

وقد يصدر فعل الأمر ذاته على لسان أحد أطراف الحوار مرتين؛ الأولى بالسلب، والثانية بالإيجاب. ومثاله قول يعقوب لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ، لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ، وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ [يوسف:٦٧]، فوقوع الدخول وارد وحتمي، ولكن المتكلم يوضح للمتلقي وجهة التنفيذ، لتحقيق غاية يراها في ذلك.

وقول إبليس للمعذبين في نار جهنم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ، وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ، إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم:٢٢] فقد تجاور الأمر بعدم القيام بالفعل مع نقيضه مبرزاً تنصل المتكلم من أتباعه، وذلك

١- الأعراف: ٥٩

٢- الأعراف: ٦٥

٣- الأعراف: ٧٣

٤ – الأعراف: ٨٥

بنهيهم عن إيقاع فعل اللوم عليه، وأمرهم بإيقاع هذا اللوم على أنفسهم.

وغالباً ما يلجأ الطرف الآمر إلى تعليل أمره وبيان سببه للطرف المأمور. وقد يسبق السبب الأمر، وقد يتقدم الأمر عليه لغايات يكشفها السياق وطبيعة العلاقة بين الآمر والمأمور. ومن ذلك:

تقدم السبب على فعل الأمر في قول أبناء يعقوب لأخيهم يوسف – وقد ظنوه العزيز-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف:٧٨] لأنهم أرادوا استعطافه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السن لن يقوى على فراق أخيهم هذا بالذات، وسبق استعطافهم مناداته متضرعين متوسلين قوته ومركزه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ ﴾، وأتبعوا طلبهم بالثناء على إحسانه إلحاحاً منهم عليه لتنفيذ طلبهم.

وقول الملائكة لمريم – عليها السلام- : ﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣] فقد بدءوا بتوضيح النعم التي اختصها الله دون غيرها من النساء لحثها على تنفيذ الأوامر المتوالية التي سيرشدونها إليها بعزم وقوة ومثابرة. كما تقدم السبب على فعل الأمر في دعاء نوح وقد كذبه قومه واتهموه الجنون: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ [القمر:١٠] ولعل هذا يعود إلى رغبة نوح في إظهار ضعفه ونفاذ حيلته مع قومه، الذين انتهروه بالشتم والضرب والوعيد، للمتلقي العليم بحاله، قبل أن يطلب منه الانتقام منهم ونصرته عليهم.

وقد يتقدم الأمر على السبب أو العلة لرغبة الآمر في أن ينفذ مخاطبه الأمر بسرعة دون تأجيل أو تسويف، وربما أراد بتأخير السبب بقاء علة الأمر في ذهن المتلقي تحاصره وتدفعه إلى التنفيذ. واختير هذا الترتيب في جل خطابات الرسل –عليهم السلام– مع أقوامهم. ومن ذلك: قول عيسى – عليه السلام– لبني إسرائيل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ

مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ، وَمَأْوَنهُ ٱلنَّارُ، وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢]. وقول موسى -عليه السلام- لقومه: ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ؛ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

وقوله تعالى لإبليس -وقد رفض السجود لآدم- ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣]. وقوله تعالى لموسى وهارون بعد أن أمرهم بالذهاب إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا؛ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤].

وقد تتعدد وجوه الخطاب بأسلوب الأمر، ومثاله قول الكافر وقد حضره الموت ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٩] ففيه يخطاب الله خطابه للجماعة، ويمكن تعليل هذا باستحضار مشهد الاحتضار، وقد جاءت الملائكة لقبض روحه بعنف وقسوة وسرعة راغبة بإيصاله إلى العذاب الذي طالما كذب وقوعه، فصرخ منادياً الله، وروحه تسحبها الملائكة، فتوجه إليهم بطلب الإرجاع (أرجعون)، وهذا الإرجاع لن يتم إلا بإرادة الله الذي ناداه.

وتنوعت الضمائر المتصلة بأفعال الأمر الواردة في قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٨٧].

وقد علل الزمخشري هذا التنوع في الخطاب بقوله: "فإن قلت: كيف نوع الخطاب، فثنى أولاً (تبوءا)، ثم جمع (واجعلوا، وأقيموا)، ثم وحد آخراً (بشّر). قلت: خوطب موسى وهارون -عليهما السلام- أن يتبوآ لقومهما بيوتاً، ويختارها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم

خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض، تعظيماً لها وللمبشّر بها"[1]. وبهذا نكون قد توقفنا على أهم تشكلات تركيب (الأمر) في الحوار القرآني ولنا الآن وقفة عند أسلوبية ردة فعل المأمور الكلامية في عدد من النصوص.

أسلوبية رد المأمور على أمر آمره:

تأرجحت جل ردود المأمور الكلامية بين ثنائية رفض التنفيذ وقبوله عاكسة طبيعة العلاقة بين الآمر والمأمور. فمن الطبيعي أن تسبب نظرة المأمور العدائية إلى آمره رفضاً لقبول الانصياع لأمره وتنفيذه، مهما حاول الآمر إقناعه، وهذا ما نلحظه في رد الكافرين أو العصاة على الأوامر التي وجهها رسل الله إليهم، ومن ذلك رد بني إسرائيل على موسى في الحوار الآتي:

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ، وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ. قَالُواْ: يَـٰمُوسَىٰٓ، إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا،فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[المائدة:٢١-٢٢].

فقد قابل بنو إسرائيل فعل الأمر (ادخلوا) الوارد في خطاب موسى بالرفض المتمثل بنفي الفعل نفسه بلفظه ومعناه (لن ندخلها). وقد يتجسم الرفض بالأداة (بل) التي تفيد إضراباً عن متعلق الأمر وإثباتاً لمتعلق آخر، ومنه ما جاء في الحوار الآتي:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ: ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ.

قَالُواْ: بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [البقرة:١٧٠].

لقد رفض الكافرون وقوع فعل الاتباع على ما حدده لهم رسل الله (ما أنزل الله)، وأكدوا وقوع هذا الفعل على ما ألفوا عليه آباءهم. وقد يجسم الطرف المأمور رفضه الانصياع لأمر الطرف الآخر بسؤال إنكاري، كما جاء في

١- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٣٥١.

الحوار الآتي بين رسل الله والكافرين:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ: ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ.

قَالُواْ: وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ؟! أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا؟! وَزَادَهُمۡ نُفُورًا ﴾ [الفرقان:٦٠].

إنهم ينكرون متعلق فعل الأمر (الرحمن) بسؤالين؛ الأول يتعلق بماهية الرحمن كاشفاً عن تجاهلهم وتسخيفهم واستهانتهم بالرحمن (مركز عناية الآمر وبؤرة اهتمامه). ويتعلق السؤال الثاني بإنكار أمر السجود وما يقع عليه (لما تأمرنا).

ويبدو القلب المكاني واضحاً في تساؤلهم، فما تأخر في خطاب الأنبياء تقدم في سؤالهم، وما تقدم عند الأنبياء تأخر عندهم.ومثاله أيضاً السؤال الإنكاري الذي وجهه الله للمعذبين في نار جهنم رافضاً طلبهم وذلك في الحوار الآتي:

﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا: رَبَّنَآ، أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ.

أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ، وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ؟! فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧] فسؤاله يلاحقهم بدلالة التوبيخ مفحماً إياهم بما فيه من استنطاق اعترافهم الذي لا يملكون منه فراراً، وفيه من الرفض ما يلجم لسان الطالب محبطاً أي أمل له في التنفيذ. وقد أتبع السؤال بأمر يؤكد ما فيه من دلالات، ويقابل أو يصد طلبهم. وقد تحوي جملة الرد خبراً مؤكداً توحي برفض ضمني، وهذا ما نجده في رد مالك على طلب أهل النار:

﴿ وَنَادَوۡاْ: يَٰمَٰلِكُ، لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ.

قَالَ: إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧]

فقد أكد مالك واقعاً سيلازمهم، وهو المكوث الخالد في نار جهنم، وهذا يعني رفض طلبهم، في أن يقضي الله عليهم. ونجده أيضاً في رد أصحاب الجنة على طلب أهل النار في الحوار الآتي:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ: أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ: إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٥٠] إن تأكيدهم تحريم الله لما في الجنة على الكافرين يعني رفض أصحاب الجنة تنفيذ طلب أصحاب النار وتيئيسهم.

كما يبدو الرفض واضحاً يعج بالإنكار والاستهجان والتوبيخ في رد موسى، عليه السلام، على طلب بني إسرائيل في الحوار الآتي:

﴿ قَالُواْ: يَٰمُوسَى، ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ.

قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٨]

وقد يصد المأمور أمر الآمر بأمر يكتنز رفضاً، ومثاله ما جاء في قوله تعالى رداً على طلب أهل النار في الحوار الآتي:

﴿ رَبَّنَآ، أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ.

قَالَ: ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ؛ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ: رَبَّنَآ ءَامَنَّا، فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ، فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى، وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٧-١١٠].

لقد قوبل طلبهم ﴿ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ بأمره -عز وجل- الذي يعد إنكاراً وتوبيخاً وغضباً ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا ﴾، وفي هذه المواجهة من العنف مالا تولده جملة منفية مثل: (لن تخرجوا)، ففي تركيب الأمر زجر للمتلقي يقطّع الأوصال بما يحويه من قطع وبت في التنفيذ، وقد أتبعه -عز وجل- بالنهي عن الكلام ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا يبرز غضبه من أهل النار، الذي يحول دون إتاحة الفرصة أمامهم لمحاورته، فكل توسلاتهم ووعودهم ستذهب سدى، ولن يتاح لها أي مجال للتنفيذ. وقد ينفي المأمور إمكانية تنفيذ الأمر بعبارة تدل على النفي وتمتزج بموقف المأمور، كعبارة ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ التي جاءت على لسان سيدنا يوسف مرتين؛ الأولى في رده على طلب امرأة العزيز في

الحوار الآتي:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ، وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَۚ.

قَالَ: مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ، إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف:٢٣].

فقولة يوسف هذه تعبير عن بغضه الشديد، ونفيه أن يأتي سلوكاً قبيحاً، وهي أقوى من (لا) ففيها استعصام بسلطان الله وذلك بإضافة كلمة (معاذ) إلى الله، وهذا يفيد التصاق العائذ بالمعوذ به محتمياً به من طلب امرأة العزيز، والذي يشكل إغراءً عظيماً تنهار أمامه إرادة أي شاب، إن اعتمد في صده على أرادته وحسب.

ويعلل يوسف رفضه واستهجانه تنفيذ أمر امرأة العزيز، بكون زوجها من أكرم مثواه ورباه، فكيف يزني مع زوجه؟! ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فالزنا فاحشة كبيرة فكيف إذ ارتبط بالخيانة. وكذلك قال يوسف العبارة نفسها لإخوته حين طلبوا منه مستعطفين أن يأخذ واحداً منهم بدل أخيهم (بنيامن): ﴿ قَالُواْ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ، إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ، إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ.

قَالَ: مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف:٧٨-٧٩] لقد أظهر يوسف لإخوته أن استبدال بنيامين بغيره فعل منكر؛ لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم. إنّ تنفيذ أمر أبناء يعقوب يعني ظلماً في الحكم، وهذا ما يرفضه يوسف ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أي إنا إن نفذنا ما تطلبونه منا نكن ظالمين. وقد يستجيب المأمور لأمر الآمر، ويوضح رده هذه الاستجابة، ومثاله رد إبراهيم، عليه السلام، على أمر الله في الحوار الآتي:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ: أَسْلِمْۖ.

قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١].

إنه الإذعان والخضوع المطلق لأمره -عز وجل-، وقد تمثل بالمطابقة اللفظية لفعل الأمر (أسلم ←— أسلمت)، مع اتباعه بتخصيص يفيد التأكيد والحصر. واستجابة قوم موسى لطلبه في الحوار الآتي:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ: يَـٰقَوْمِ، إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ، فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ.

فَقَالُواْ: عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [يونس:٨٤-٨٦] لقد نفذ قوم موسى مطلبه، بتأكيد التلفظ به، مثبتين له إسلامهم، وقد جسموا هذا التوكّل فعلياً بالتوجه إلى الله بالدعاء.

ورد إسماعيل على طلب أبيه إبراهيم في الحوار الآتي: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ: يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ، فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ؟! قَالَ: يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِىٓ -إِن شَآءَ ٱللَّهُ- مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢] إنها قمة الاستسلام لأمر الله الذي جاء لإبراهيم في المنام، فإسماعيل يؤكد لوالده الذي بدا حزيناً متألماً صبره وتقبله تنفيذ الأمر، آمراً إياه البدء بالتنفيذ ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾، إنه أمر يحوي دلالات العزم والحث، يواجه به الأمر الذي وجهه والده له وقد طل باستحياء وحرص؛ خوفاً على مشاعر ولده، وتهويناً لوقع الأمر على نفسه، فقد أمره أن يبدي رأيه فيما سمع، دون أن يأمره بأن يستسلم مباشرة لسكينه، فقد شاوره في أمر هو حتم من الله بالأمر الذي جاء في تركيب السؤال، ليأتي الأمر على لسان إسماعيل، فيكسب مثوبة الانقياد لأمر الله بإرادته، وهذا ما حدث بالفعل، فقد جاء الأمر الصريح على لسان إسماعيل.

ومنها استجابة السماء والأرض لأمر الله في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ: ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ: أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١] إن الأمر الذي وجهه الله إلى السماء والأرض منفذ لا

محال، منفذ شاء المخاطب أو أبى، ومنفذ أحب أو كره. وجاء الرد على هذا الأمر بإظهار التنفيذ، واختيار طريقة التنفيذ وموقف المأمور مما ينفذ، فقد لبت السماوات والأرض دعوة الله (ائتيا ←أتينا)، واختارتا تنفيذ هذا الأمر بطواعية ورغبة إرضاء للآمر وإظهاراً للاستسلام والإذعان.

ذكرنا في حديثنا عن رفض المأمور تنفيذ طلب الآمر، رفضه -عز وجل- تحقيق دعاء الكافرين يوم القيامة. ونذكر هنا استجابته -عز وجل- لدعاء عباده؛ إكراماً لهم أو تحدياً واختباراً. فمن الأول استجابته -عز وجل- لدعاء موسى ،عليه السلام، في الحوار الآتي:

﴿ قَالَ: رَبِّ، إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ، وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا؛ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ؛ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ.

قَالَ: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ، وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا، فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ، أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [القصص:٣٣-٣٥].

وقد يستجيب الله لدعاء من يدعوه، فيرد عليه بما يؤكد تحقيق طلبه دون أن يكرر ذكر الطلب، كما في قوله تعالى رداً على دعاء موسى وهارون في الحوار الآتي:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ: رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ، رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ.

قَالَ: قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا، فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٨٨-٨٩] فقوله تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ يعني: سأطمس على أموالهم وأشد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وقد يحقق الله طلب من يدعوه اختباراً وتحدياً للداعي أو لغيره، فمن الأول استجابته لطلب إبليس في قوله تعالى:

﴿ قَالَ: أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

قَالَ: إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤-١٥]

فإن قلت: لم حقق الله طلب إبليس وهو يعلم أنه استنظره ليفسد عباده ويغويهم؟! قلت: لما في ذلك من تحد لإبليس واستهانة بقدرته على إغواء عباد الله الصالحين. كما يكون التحدي والاختبار لأطرافٍ أخرى غير الداعي، كما في رده تعالى على دعاء عيسى في الحوار الآتي:

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ: ٱللَّهُمَّ، رَبَّنَآ، أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ، تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا، وَءَايَةً مِّنكَ، وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ.

قَالَ ٱللَّهُ: إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ، فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ، فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:١١٤-١١٥]

وقد يبتعد المأمور عن تنفيذ الطلب في إجابته ليحقق هدفاً ما ثم يرتد إلى طلب الآمر فينفذه، وهذا ما نلحظه في الحوار الذي دار بين يوسف -عليه السلام- وصاحبيه في السجن: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَآ: إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا. وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ: إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ. نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ، إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ. قَالَ: لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ، وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ. وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ؛ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ. ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ، ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ

ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ؟! مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ، أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا، وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ. قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف:٣٦-٤١]

فما أبعد ما طلبه صاحبا يوسف -عليه السلام- عن رده، لقد كان طلبهما مفتاح باب دعوته، الذي فتح أمامهم الرؤى التي أدرك غيابها عن أذهانهم ليثير فيهم التأمل الدافع إلى يقين يود أن يحملهم عليه وأن يقنعهم به. وبعد أن يصدمهما مدخلا إياهما في مواجهة مع ذاتهما، يحقق طلبهما ويفسر حلميهما.

النهي

وفيه يطلب أحد أطراف الحوار من الطرف الآخر أن يكف عن الفعل أو يمتنع عنه، وصيغته الوضعية (لا تفعل). والتعامل مع هذه البنية " يستدعي حضور حالة شعورية وذهنية تبدأ فاعليتها من منطقة (الإثبات)، لأن (الكف) فعل يحصل بشغل النفس بضد المنهي عنه، وهو ما يستدعي تقدم الشعور بالمكفوف عنه، لأننا لا نطالب أحداً بعدم الفعل -أي تركه- إلا وعنده عزم على هذا الفعل، أو على الأقل وعي بإمكانية وقوعه، إذ لا يعقل أن يكون هناك إنسان لا يعي شيئاً عن فعل ما، ولا يعتزم فعله، ثم آمره بتركه"[١].

جاء تركيب النهي في مائة وستة عشر موضعاً حوارياً، ورد جلها في خطابات الله ورسله وعباده الصالحين[٢] عاكسة موقف هذه الأطراف من الطرف المقابل، ويتمثل هذا الموقف في الكف عن فعل صدر أو يخشى صدوره لما يترتب على تنفيذه من سوء عاقبة تحيق بالفاعل. ولعل اختيار تركيب النهي في طلب الكف والأمر بالترك يحقق مواجهة وتفاعلاً مع الطرف الآخر لا يحققهما تركيب بديل، فالنهي عن ممارسة الفعل يستفز تأمل المنهي في حقيقة الفعل الذي كان سيؤديه أو يؤديه، وعاقبة هذا الفعل، فالنفس البشرية تستثيرها صيغة (لا تفعل)، وهل أدل على هذا من استغلال إبليس للنهي الذي وجهه الله لآدم وحواء في إغوائهما وإثارة فضولهما لمعرفة سبب هذا النهي: ﴿ وَقُلْنَا: يَـٰٓـَٔادَمُ، ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥].

١- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية (قراءة أخرى)، ص٢٩٧.

٢- ورد تركيب النهي في خطابات الكافرين والعصاة في أربعة مواطن فقط.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَ ٰتِهِمَا، وَقَالَ: مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ.

وَقَاسَمَهُمَآ: إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ ٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ. وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ، وَأَقُل لَّكُمَآ: إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢].

والانحراف عن دلالة النهي الأصلية (الاستعلاء)[1] خاصية تتجدد بتجدد الواقع الفعلي للبنية في النصوص.

ويحتاج استشفاف الدلالة إلى حضور طرفي الحوار بكل مكوناتهما الداخلية والخارجية؛ ففي قوله تعالى على لسان أولي الألباب: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:١٩٤] خرجت بنية النهي إلى الدعاء وما فيه من تضرع ورجاء يتوجه به الداعي إلى الله، وذلك لأن البنية توجهت من الطرف الأدنى إلى الطرف الأعلى.

وامتزج النهي بالرجاء والتلطف في قول إبراهيم لأبيه: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ؛ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم:٤٤].

وأفادت بنية النهي التهديد والتوبيخ والتحذير في قول موسى -عليه السلام- لفرعون وسحرته: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ، وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ [طه:٦١].

١- (النهي: طلب كفٍ عن فعلٍ على جهة الاستعلاء) ينظر : بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ج٢، ص٣٢٤.

وأفادت التحدي وقلة المبالاة بتهديد المتلقي في قول نوح لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ، فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ، فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ، ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً، ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس:٧١].

ويختلط التحدي بالتهديد والإنذار في بنية النهي الوارد في قول سليمان لملكة سبأ وقومها: ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل:٣١] فهو الأقوى الذي يأمر وينهي وعلى الجميع الاستسلام لأمره ونهيه.

وأفادت التحذير الممزوج بالحرص على المتلقي والخوف عليه والرحمة به في قول يعقوب لابنه يوسف: ﴿ يَٰبُنَيَّ، لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ، فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ، إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف:٥]. وقوله لأبنائه: ﴿ يَٰبَنِيَّ، لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ، وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ [يوسف:٦٧] وقوله لهم أيضاً: ﴿ يَٰبَنِيَّ، إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢]. وقول لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ، لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣] إنهم آباء ينصحون أبناءهم، يختلف تحذيرهم عن التحذير الذي يوجهه الأنبياء أو عباد الله الصالحين لأقوامهم، فالتحذير الكامن في بنى النهي الواردة في قول قوم موسى لقارون: ﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ. وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ، وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ، وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص:٧٦-٧٧] لا يمتزج بمشاعر الحب والشفقة التي امتزج بها في نهي الآباء لأبنائهم، بل لعله يمتزج بالغضب والكراهية من قارون الطاغية المتجبر.

كما اختلفت الدلالات التي حوتها النواهي الإلهية وتعددت باختلاف المخاطبين؛ ففرق كبير بين الدلالة القارة في بنية النهي الواردة في قوله تعالى لأصحاب جهنم: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨] وبين الدلالة التي أفادتها بينة النهي الواردة في قوله تعالى لنوح،عليه السلام،: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا، وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ، إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هـود:٣٧]؛ ففي الخطابين نهي عن ممارسة فعل الكلام، ولكنه نهي يمتزج بالتوبيخ والتقريع والإهانة التي تحملها نبرة أو تنغيم صاعد يبينها السياق الذي جاءت فيه، فالله غاضب من أهل جهنم، لا يريد سماع توبتهم التي جاءت بعد فوات الوقت، لكن غضبه في نهيه لنوح عن الكلام ليس موجهاً إليه، وإنما هو موجه إلى قومه الكافرين ولذا تلاشت الدلالات السابقة القارة في بنية النهي الأولى لاختلاف المخاطب، وجاءت في تنغيم جازم لكنه ليس صاعداً، وحوت دلالة التيئيس وإفحام أية محاولة شفاعة أو وساطة يقوم بها نوح، لا لأن شفاعته لا وزن لها عند الله، ولكن لتعلقها بالكافرين الذين وقع عليهم غضب الله وعذابه.

ولنا وقفة نتأمل فيها دلالة التركيب في عدد من الخطابات التي تكرر فيها التركيب مبينين دور هذا التكرار في ترسيخ الدلالة: ونبدأ بقول شعيب،عليه السلام، لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ، مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ، قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ، وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ، ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ. وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ. وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ، وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ، وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦].

تقوم بينة الخطاب السابق على مجموعة من الأوامر والنواهي التي انبثقت من قوله: ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ ﴾ أي معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما آمركم به، والانتهاء عما أنهاكم

عنه. إنه، عليه السلام، يلاحقهم بهذه الأوامر والنواهي، واضعاً إياهم في بؤرة الموقف، فهم المطالبون بالتنفيذ، وهم المطالبون بالكف عن ممارسة أفعال تبتعد عن الصراط المستقيم، أو هم المطالبون بتركها؛ فحقيقة النهي عن ممارسة الفعل تعني الأمر بتركه. ويخلق الأمر بترك الفعل صراعاً في نفس المتلقي قد يؤول إلى الرفض، ولذا أحاطه الناهي بحجج ونصائح تقنع المتلقي بضرورة الانتهاء، ترغبه حيناً: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وترهبه حيناً ﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٨٦]، وأدت أفعال الأمر في النص دور الإقناع محاصرة تراكيب النهي المتلاحقة مبرزة ما فيها من تحذير.

وأرى أن اختيار بنية النهي في المواجهة أسلوب حكيم، ففيه يضع الناهي المتلقي أمام حقيقة فعله القبيح وجها لوجه، ولكن دون أن يلصقه به، فلو اختار في مواجهتم تراكيباً خبرية كأن يقول لهم: (إنكم تبخسون الناس أشياءهم، وتفسدون في الأرض بعد إصلاحها، وتقعدون بكل صراط توعدون) لأثارهم ضده رافضين منكرين صدور هذه الأفعال عنهم. بينما تحوي بنية النهي التي وجهها شعيب إليهم معنيين، الأول ظاهري يصطبغ بحيادية الإخبار فقوله (لا تبخسوا الناس) يعني لا تفعلوا هذا الفعل وقع منكم أم لم يقع. أما المعنى العميق المضمر في نفس الناهي والمقصود إفهامه للمتلقي فيعني توقفوا عن إبخاس الناس أشياءهم، وتوقفوا عن إفساد الأرض بعد إصلاحها، وتوقفوا عن القعود بكل صراط موعدين وصادين عن سبيل الله.

ولا يخفى ما لتجميع النواهي في حيز ما في النص من مواجهة المتلقي وملاحقته بسوء أعماله وإظهارها له، علّه يستشعر كثرتها، فيستثير هذا الاستشعار إحساسه بالخجل فيرتدع ويتركها.

وتكررت بنية النهي في قول لوط لقومه وقد أمروه أن يخلي بينهم وبين ضيفه ليفحشوا بهم: ﴿ قَالَ: إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ [الحجر:٦٨-٦٩] وجسم تكرارها تكرار محاولة قوم لوط الاعتداء على ضيفه وتكرار صد لوط لهم والتعرض بينهم وبين ضيفه.

ويفيض تركيبا النهي (فلا تفضحون، ولا تخزون) رجاءً وخوفاً وخجلاً، فقد كان لوط يرجو قومه أن لا يفعلوا ما يشين، وكان خائفاً من تقهقر قوته أمام قوتهم الزاحفة المسعورة، كما كان يشعر بالخجل من أفعالهم راغباً في إخفائها عن أعين ضيفه.

وكما ذكرنا، فالنهي قد يتطلب التعليل وبيان الأسباب الدافعة إليه، ولذا فقد قدم لوط السبب على النهي في المرتين: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ لأن من أُسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ فتقوى الله تحول دون أن يسببوا له الخزي بإذلال ضيفه والاعتداء عليهم.

وتكررت بنية النهي في الخطاب الذي أوحاه الله إلى أم موسى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [القصص:٧]. وأفاد تكرار النهي تطمين أم موسى، وتهدئة هواجسها، وتخفيف صراعها. وبدأ بنهيها عن الخوف (وهو غم يلحق الإنسان لمتوقع)، وأتبعه بنهيها عن الحزن (وهو غم يلحقه لواقع يتمثل في فراق موسى والإخطار به). وقد تجاور التركيبان فلم يفصل بينهما إلا بواو العطف، لتحقيق هذه الغاية.

ومثله قول الملائكة للوط –عليه السلام– وقد ضاق بهم ذرعاً خوفاً عليهم من فحش قومه: ﴿ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾[العنكبوت:٣٣]. وتكررت بنية النهي في النصيحة التي وجهها لقمان إلى ابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾ [لقمان:١٨].

ولعل حصرها بين مجموعة تراكيب الأمر التي تشكلت فيها نصائح لقمان ووصاياه يثير تأمل المتلقي لما يمارسه من فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقع، فتنشأ جدلية حيوية حركية بين الناصح والمنصوح عبر هذا التغير المفاجئ للبنية المستخدمة؛ من طلب وإلحاح على تنفيذ أفعال معينة، إلى نهي

وأمر بترك أفعال أخرى، وعودة إلى طلب تنفيذ أفعال جديدة[١]. ويثير هذا التنوع المتأرجح بين ثنائية الطلب والنهي فاعلية المتلقي فيحقق أقصى درجات التماشج بين الطرفين.

ويؤدي توالي التركيبين إلى رسوخ دلالة التحذير والتقبيح في ذهن المتلقي، ويتبعهما تعليل يضع المتلقي أمام الحافز الرئيس الذي يدفعه إلى تجنب هذين الفعلين سواء أوقعا منه أو لم يقعا، فالله ﴿ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾، وفي هذا زيادة في الردع والتحذير.

وقد يتكرر النهي بلفظه ومعناه لا ببنيته فحسب، ومنه قول قوم نوح متناصحين محذرين بعضهم بعضاً: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣] إنهم يلحّون بهذا التكرار على التمسك بأصنامهم، فيذكرونها مرة ذكراً عاماً (آلهتكم)، ويعددونها أخرى مفصلين ذاكرين أسماءها.

ردود المتلقي على نهي الناهي:

حين يتوجه أحد الأطراف إلى الطرف الآخر ناهياً إياه عن ممارسة فعل ما، فإنه يستفز ردوده التي تختلف باختلاف الفعل المطلوب تركه، وموقف المنهي من الناهي، وتفاعله مع الدلالات المكتنزة في بنية النهي.

وتراوحت هذه الردود بين صمت مطبق يوحي بموافقة المتلقي وإقراره بما ينهى عن فعله، وقبول تجسمه ألفاظ أو عبارات معينة، ورفض وتمرد على الانتهاء والكف المطلوب. فمن الأول غياب ردود ابن لقمان وأبناء يعقوب الكلامية على نواهي لقمان ويعقوب[٢]، ومن الثاني رد نوح -عليه السلام- على نهي الله، عز وجل، الذي وجهه إليه في الحوار الآتي:

١- تنظر وصية لقمان في سورة لقمان:١٣، (١٦-١٩).

٢- ينظر المشهد الحواري الأول في سورة لقمان: (١٣، ١٥-١٩) .وينظر المشهد الحواري الثاني في سورة البقرة:١٣٢.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ: رَبِّ، إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ. قَالَ: يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ، فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ، إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ.

قَالَ: رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود:٤٥-٤٧].

تدل جملة ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ ﴾ على نفي ضمني، فنوح -عليه السلام- ينفي أن يسأل الله ما ليس له به علم، معبراً عن بغضه وتبريء ذاته من هذا الفعل الذي نهاه الله عنه، إنه يرتقي بأسلوبه بالاستعاذة مظهراً استسلامه المطلق لما بلغه من أوامر الله ونواهيه لكي يعصمه من الجهل الذي يقوده إلى الخسران. وقد يرفض المتلقي الاستجابة لطلب الكف، وتمثل هذا الرفض في ردود الكافرين على النواهي الإلهية التي وجهت إليهم بواسطة الرسل:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ.

قَالُوٓاْ: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١]

حيث تمثل إجابة الكافرين إضراباً ورفضاً لوقوع فعل الإفساد الذي طلب منهم الرسل الكف عن ممارسته، فقد استهلت بـ (إنما) التي توسطت بين كلامين متغايرين نفياً وإيجابا، مبطلة ما قبلها (الإفساد في الأرض) مؤكدة ما بعدها ﴿ نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾.

النداء

النداء هو طلب الإقبال حساً أو معنى بحرف (مولد) من الفعل (أدعو)، سواء أكان الحرف ملفوظاً على مستوى السطح، أو مضمراً على مستوى العمق. وتتأتى أدبية النداء عند انحرافه عن (أصل المعنى) ليولد إنتاجية بديلة لا تتنصل من الدلالة الأصلية في سياقات كثيرة.

وبنية النداء بنية مهيمنة في الحوارات القرآنية، فقد جاءت في مائتين وثمانين موضعاً[1]، حملت أحوال المنادي وانفعالاته المختلفة إلى المنادى مجسمة سعيه الدؤوب للتواصل مع الآخر، ومحاولته لفت انتباهه، وإثارة اهتمامه لمضمون الرسالة التي يريد إيصالها. فقد شكل النداء في كثير من المشاهد الحوارية ركيزة البدء التي استهل بها كل طرف حديثه مع الطرف الآخر، نذكر من ذلك ما جاء في الحوار الآتي بين يوسف ويعقوب عليهما السلام:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ.

قَالَ: يَٰبُنَىَّ، لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا، إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف:٤-٥].

فكلا الطرفين يستهل خطابه بنداء الطرف الآخر مبرزاً العلاقة الرابطة بينهما وما تومئ به من مشاعر؛ فنداء يوسف الصبي الصغير لأبيه وقد أعجبه حلم رآه في منامه فوقف مزهواً سعيداً يخبره بما رآه، يختلف عن نداء أبيه الذي

١- أكثر أدوات النداء استخداماً في لغة الحوار القرآني هي الـ (يا)، فقد جاءت في (١٣٨) موضعاً. وحذفت أداة النداء في (٨٨) موضعاً .وحذفت بنية ا لنداء في ثمانية مواضع.

أدرك معنى حلمه فخشي عليه من كيد اخوته. وهذا يعني امتلاء صوت يوسف الذي حمل لفظة (أبتِ) دهشة وسعادة، بينما يمتلئ صوت الأب يعقوب فرحة مشوبة بخوف وقلق وحرص فيظهر خافتاً مرتجفاً.

كما شكل النداء بنية الاستهلال في الحوار الآتي الذي دار بين نوح - عليه السلام- والله:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ : رَبِّ، إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى، وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ

قَالَ : يَٰنُوحُ، إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ، فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ،إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ.

قَالَ: رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ،وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود:٤٥-٤٧].

وتكشف القراءة الارتدادية والبعدية للأحداث المحيطة بالنص الحواري السابق الدلالات المكتنزة في بنى النداء؛ ففي قول نوح (رب) التي استهل بها خطابه مع الله يمتزج الرجاء بالحيرة والألم والإلحاح الخجول، فقد كان متلهفاً على ولده الذي رفض أن يركب السفينة فأصبح من المغرقين. وكان مهموماً محتاراً، فقد وعده الله أن ينجي أهله، فما بال ولده؟!

ويبين الله لنوح -عليه السلام- السبب الذي جعل ابنه من المغرقين مستهلاً خطابه بمناداته (يا نوح) التي امتلأت عتاباً وتحذيراً نستشفهما من مضمون الخطاب الذي جاء بعدها، وقد دار حول نفي العلاقة الرابطة بين نوح وابنه بسبب كفر الأخير وعصيانه، واستخدم ضمير الغائب في الحديث عن ابن نوح مبالغة في نبذه وتجاهله، وكأن الله يحث نوحاً بهذا التغييب لشخص ابنه والتركيز على صفته أن ينساه ولا يألم لغرقه. وأعقب هذا تحذيراً حملته بنيتا النهي ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ ﴾ و ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ ﴾ أي (لا تكن). فما كان من نوح إلا أن قابل الدلالات المكتنزة في ندائه -عز وجل- ببنية نداء مطابقة

لندائه الأول (رب) لكنها تخالفه دلالة، فقد حوت اعتذاراً وخوفاً ورغبه في أن يسامحه المنادى على ما في ندائه الأول من دلالات.

وأدى استشعار المنادي لقرب المنادى المعنوي أو المادي إلى تغيب أداة النداء في عدد من التراكيب، انحصر جلها في مناداة الخلق للخالق، لما فيها من استشعار المنادي حضوره -عز وجل- وسماعه لدعائه دون أي وساطة ومن ذلك ما جاء في دعاء زكريا عليه السلام:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا، قَالَ: رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ، وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا، وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا. وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى، وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم:٣-٦].

إنه ينادي ربه نداءً خفياً هامساً كي لا يسمعه أحد مستشعراً قرب الله منه، وسماعه لدعائه الخفي الذي فيه ما فيه من البوح الحزين المغلف بالضعف والشعور بالقلق والخوف. وقد تغيبت إزاء هذا القرب أداة النداء، وأُضيفت ياء المتكلم إلى المنادى موحية بالتعلق والرجاء وقمة الاستسلام والخضوع.

وتكرر ظهور البنية ،بما فيها من حذف، في جسم الخطاب دالة على ذلك الإحساس المتعمق في نفس المنادى، ورغبته في التواصل مع المنادي؛ فالمعنى الإيصالي المباشر في قوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ قد كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (ولم أكن بدعائك شقيا)، ولكن المنادى يظهر بهذه الزيادة أدبه وتذلله في خطابه مع الله، لأن في النداء تخفيفاً وتلطيفاً من حدة توجيه الخطاب بضمير المخاطب. ومثله توسيطه لبنية النداء بين المفعول الأول لفعل الأمر(اجعل) ومفعوله الثاني رضيا في قوله: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ إظهاراً للخضوع والرجاء واحتراساً من ظهور آية همسة استعلاء قد يومئ بها تركيب الأمر.

ومن المواطن التي غيب المنادي فيها أداة النداء ما جاء في قول العزيز ليوسف،عليه السلام، وقد ظهرت براءته من التهمة التي ألصقتها زوج العزيز

به: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ ﴾ [يوسف:٢٩] وفي هذا الحذف تجسيم لموقف العزيز من يوسف، فقد اقترب منه ملاطفاً هامساً له خوفاً من شيوع هذه الفضيحة التي تمس عرضه وشرفه، وطلب منه الإعراض عن هذا الأمر وكتمانه وعدم التحدث به.

وقد يأتي النداء جملة معترضة تتوسط صلب الخطاب وتحقق غايات بكشفها استحضار العلاقة بين المنادي والمنادى، ومن ذلك ما ذكرناه في الحديث عن توسط قوله (رب) ،الواردة في دعاء زكريا، بين كان وخبرها (ولم اكن بدعائك ،رب، شقيا) وبين المفعول به الأول والثاني في قوله (واجعله ،رب، رضيا) حيث أفادت تجسيم استشعار المخاطب قرب من يخاطبه وحبه لاستحضاره ومناجاته موحية بالبعد الانفعالي والعاطفي الذي يعج به الخطاب. كما دل هذا الاعتراض بالنداء على تأدب زكريا في خطابه مع الله. منه أيضاً ما جاء على لسان أهل مدين في خطابهم مع شعيب عليه السلام: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ -يَٰشُعَيْبُ- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف:٨٨]. وما جاء في قول قوم لوط له مهددين متوعدين: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ - يَٰلُوطُ - لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٧]. وقول قوم نوح: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء:١١٦].

حيث جاءت الخطابات الثلاثة السابقة على لسان الكافرين في مواجهتهم لرسل الله وتحديهم، وأفادت بنى النداء التي حملت أسماء أنبياء الله، وجاءت على شكل جمل معترضة لتنبيه المنادى وتهديده بعد تخصيصه دون غيره بالكلام، فهو مثار اهتمام المنادي لكونه صاحب الدعوة المعترض عليها.

وقابل سيدنا موسى هذا الأسلوب وما يحويه من دلالات بالمثل في الحوار الذي دار بينه وبين فرعون:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ: إِنِّى لَأَظُنُّكَ -يَٰمُوسَىٰ- مَسْحُورًا.

قَالَ: لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ -يَٰفِرْعَوْنُ- مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١-١٠٢]، إنه يتحداه بطريقته؛ بالشكل ذاته وبالدلالات ذاتها، فقول فرعون (يا موسى) الذي يكتنز سخرية واستخفافاً، يقابله قول موسى (يا فرعون) بما فيه من دلالات مماثلة.

وصاحب النداء بنى الطلب الأخرى وتضافر معها لتحقيق أقصى درجات التفاعل بين أطراف الحوار، وتقدم عليها في مواطن وتقدمت عليه في أخرى. فقد لازم بنية الأمر في مائة موضع، وتقدم عليها في جل هذه المواضع مقتضياً تلبية فعلية أو شعورية من المنادى، نذكر من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ: يَٰٓأَرْضُ، ٱبْلَعِى مَآءَكِ. وَيَٰسَمَآءُ، أَقْلِعِى ﴾ [هود:٤٤] وقوله على لسان ملك مصر في حواره مع الملأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ، أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف:٤٣]. وقول ابنة شعيب في حوارها مع أبيها: ﴿ يَٰٓأَبَتِ، ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦]. وقول شعيب لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ، ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ، وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ، وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٦].

أفاد تقديم المنادى على تركيب الأمر في الخطابات السابقة تنبيه المخاطب وتوجيه اهتمامه للفعل المراد تنفيذه، وحصر هذا التنفيذ به دون غيره. كما لا يخفى ما لاستهلال بنية الأمر بالنداء من أثر في تخفيف حدة دلالة الاستعلاء الملازمة لها، والتي قد تسبب استفزازاً للطرف المأمور، لا لكونها متعلقة بتنفيذ فعل ما، ولكن لكونها أمراً فحسب. يؤكد هذا استهلال أفعال الأمر الواردة في الخطابات الموجهة من الخلق إلى الخالق بندائه -عز وجل - وما يحويه هذا النداء من تذلل وخضوع ورجاء: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ: رَبِّ، ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٢٦]

وقد يتقدم الأمر على النداء حين يكون هدف المتكلم تنفيذ الفعل دون أن يؤرقه مقام المنفذ أومكانته، كقول فرعون لهامان ساعده الأيمن

ومعاونه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ، مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي، فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨] فقد كان هم فرعون منصباً على تحدي موسى والسخرية منه، ولذا توجه إلى مساعده هامان بأمر فيه من التحدي وإبراز القدرة ما فيه، وما نداؤه لهامان إلا إسناد ينسب فيه مهمة التنفيذ إليه، دون أن يضع الأخير في بؤرة تفكيره أو اهتمامه.

كما لازم النداء بنية السؤال في ستة وأربعين موضعاً، منها: قول زكريا،عليه السلام، لمريم وقد وجد عندها رزقاً: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ، أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا؟!﴾ [آل عمران:٣٧] وقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلۡ: يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ، لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ؟! قُلۡ: يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ، لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ؟! وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [آل عمران:٩٨-٩٩].

وقول أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿ يَٰٓأَبَانَا، مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ، وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ [يوسف:١١] وقول يوسف، عليه السلام، لصاحبيه في السجن: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ، ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ؟! ﴾ [يوسف:٣٩]. ولا يخفى أثر استهلال السؤال بالنداء، ففيه زيادة لإثارة المتلقي، وأيقاظ اهتمامه، لتخصيصه هو دون غيره بالسؤال وما يحويه من دلالات.

وقد يتقدم النداء على السؤال، كما في الخطابات السابقة، وقد يتأخر حين يكون السؤال هدف المرسل وغايته، ومثاله قوله تعالى على لسان موسى – عليه السلام– في حواره مع السامري: ﴿ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ؟! ﴾ [طه:٩٥] فقد كان همه –عليه السلام– معرفة السبب الذي جعل السامري يعبّد بني إسرائيل العجل، وليس مناداته؛ فما النداء هنا إلا زيادة تخصيص وتوجيه للسؤال وما يحويه من دلالات تقريع وإنكار إلى المتلقي.

ومنه قوله تعالى لموسى، عليه السلام، وقد تقدم على قومه شوقاً للقاء ربه، ففتنهم السامري وعبدهم العجل: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ؟! ﴾ [طه:٨٣] فقدم الله السؤال على النداء، لأهمية الرسالة القارة فيه والتي يريد إيصالها للمتلقي، ولأن بنية السؤال ذاتها تحوي ضميراً يتوجه فيه الخطاب إلى المتلقي دون حاجة إلى مناداته، فالمعنى التوصيلي المباشر كان من الممكن ان يكتفي بقوله: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ؟ ﴾ ، ولكن إتباع هذا السؤال بتركيب النداء فيه زيادة شحن وتأجيج للدلالات القارة في السؤال.

وقول قوم إبراهيم له: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ؟! ﴾ [الأنبياء:٦٢]،إنه خطاب رتبت عناصره ترتيباً يحاصر المتلقي ليستل منه الاعتراف، والنداء أحد هذه العناصر، وفيه بوح بهوية المخاطب، التي سبق أن غلفت بضمير منفصل (أنت) وضمير متصل (فعلت)، إنهم يحاصرون إبراهيم بكل ما يمكن أن يعود إليه، متوجين هذا الحصار بندائه، الذي يعج تهديداً واتهاماً. وبهذا يتضح أن استهلال السؤال ببنية النداء فيه توجيه لاهتمام المنادى وتأمله إلى السؤال، بينما يلاحق السؤال المنادى حين يتقدم عليه.

وتتكرر بنية النداء في دعاء الأنبياء وعباد الله الصالحين مقتصرة على مناداة الله،عز وجل، ويوحي هذا التكرار بتعلق رجاء المنادي بالمنادى، واستشعاره لقربه، ورغبته في تكرار ذكره حباً وأملاً وإلحاحاً، ومن ذلك ما جاء في دعاء إبراهيم ،عليه السلام:

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ: رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ. رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ، وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ. رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ، وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ. رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ. رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٤١].

لقد كرر إبراهيم ،عليه السلام، في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب تركيب النداء (رب) أو (ربنا)، وكأنها همزة وصل يسعى أن يحملها خطابه مستشعراً لذة مناجاته لله، عز وجل، مظهراً رغبته في التواصل المستمر الذي لا يعرف الانقطاع. إنه يكرر نداءه قبل أن ينهي عبارته، فهو يضع تركيب النداء بين الطلب ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ وعلته ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾. كما يضعه في قلب جملته الخبرية قبل أن يصرح بطلبه ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

ويعلل سيد قطب سبب اختيار سيدنا إبراهيم صفة الربوبية في دعائه فيقول: "إنه لا يذكر الله -سبحانه- بصفة الألوهية، إنما يذكره بصفة الربوبية. فالألوهية قلما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات، وبخاصة في الجاهلية العربية، إنما الذي كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية، فهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الانسان، وهي مفرق الطريق بين التوحيد والشك في أرض الواقع، فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم، وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم، والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم، والتركيز فيه على قضية الربوبية، كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء"[1].

كما تكررت بنية النداء في عدد من الخطابات التي وجهها الأنبياء إلى أقوامهم، وتمثلت في قوله (يا قوم) التي تؤكد العلاقة الرابطة بين الرسل وبين من يخاطبونهم بكل ما توحي به من حرص وصدق وولاء، ومن ذلك ما جاء

١- سيد قطب، في ظلال القران، ج٤، ص٢١١١.

في خطاب هود لقومه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ: يَـٰقَوْمِ، ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. يَـٰقَوْمِ، لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! وَيَـٰقَوْمِ، ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود:٥٠-٥٢]. إنه يلاحقهم بتكرار مناداتهم ليدفعهم إلى تأمل خطابه وتنفيذ ما فيه، مظهراً بهذا التكرار رغبته في هدايتهم وخوفه عليهم من السير قدماً في طريق الضلال.

وقد تتجاور بنى النداء فلا يفصل بينهما فاصل، ويوحي هذا التجاور بزيادة رجاء وتعلق بالمنادى. وجاء هذا الأسلوب في موطنين:

الأول: في دعاء عيسى،عليه السلام: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ، أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ، وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة:١١٤]. إنه، عليه السلام، يتأدب في عرض مسألته أدب العبد الخاضع الراجي مع ربه، فيناديه بما يظهر يقينه: (يا الله، يا ربنا) وكأني به يتعجل في إظهار اعترافه واقراره خجلاً من الله ووجلاً لما في طلبه -الذي حمله الحواريون ثقله- من تشكيك خفي لا ينبغي أن يكون بعدما رأوا من معجزاته، عليه السلام، ما رأوا، وأسلموا له. وتكرر هذا الأسلوب في حوار رئيس السقاة مع يوسف عليه السلام: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ، أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ [يوسف:٤٦] إنه يستهل خطابه بمناداته باسمه (يوسف)، وتكشف القراءة الارتدادية لحوار سابق دار بين المنادي والمنادى في السجن[1] الدلالات القارة في بنية النداء؛ ففي ندائه يمتزج الخجل بالرجاء وطلب الصفح، لأنه نسي طلب يوسف إليه أن يذكره عند الملك. وكأني به يقترب من يوسف ممسكاً بيديه طالباً منه السماح وقبول العذر، ولذا غابت أداة النداء، غيّبها القرب المادي والمعنوي الذي حققه المنادي.

١- ينظر هذا الحوار في سورة يوسف: (٣٦-٤٢).

وأُتبع لفظ (العلم) بلفظ اللقب تأدباً معه،عليه السلام، واحترماً له، وكأنه استثقل أن يناديه باسمه فقط وقد خبر علوّ فضله وسعة علمه وصدق كلامه، فأتبع اسمه بلقب يظهر استشعاره بمكانة يوسف وتميزه (أيها الصديق) مستخدما صيغة المبالغة في وسمه بهذه الصفة. ولعل رئيس السقاة يباغت يوسف بهذا الاستهلال الذي اختاره لخطابه وقد ذكر فيه اسمه ولقبه؛ لينبه يوسف،عليه السلام، إلى صحبته له سابقاً، ومعرفته به وبحاله، وليلفت ذاكرته إلى الوراء؛ إلى تأويله لرؤياه، وصدقه فيه، فقد مضى على فراقهما زمن طويل تغيرت فيه الملامح وخيّم على أحداثه النسيان.

كما عكس هذا الأسلوب المركز في النداء لهفة المنادي، وحرصه على من يناديه، وتعلقه به، فقد كان رئيس السقاة حريصاً على تأويل رؤيا الملك التي أعجزت الناس، وهو على يقين بأن يوسف ،عليه السلام، الوحيد القادر على هذا التأويل، فقد سبق أن فسر له ولصديقه حلميهما، وتحقق ما قاله على أرض الواقع. ولذا نراه يتحدى الملأ بأنه سيأتي لهم بالتأويل اليقين: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴾ [يوسف:٤٥] فما كان منه إلا أن أسرع إلى يوسف بلهفة وأمل ورجاء جسمها الأسلوب الذي قولب فيه نداءه.

وتنوعت دلالات الكلمات التي وقع عليها فعل النداء، فقد ينادي أحد الأطراف الطرف الآخر باسمه، ومن ذلك: مناداة الله –عز وجل– الأنبياء بأسمائهم باستثناء محمد – ﷺ– فقد ناداه بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [الأنفال:٧٠] ولم يناديه باسمه قط، وفي هذا اعتراف من الله بنبوته وإكرام له أمام معاصريه الذين يتابعون معه نزول الوحي، وإرشاد وتوجيه لهم بكيفية مخاطبته –عليه السلام– فقد نهاهم الله أن ينادوه باسمه مجرداً كما ينادون بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ [النور:٦٣].

ومن دعاء الله الأنبياء بأسمائهم ما جاء في قوله مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ؟ ﴾ [طه:١٧] وقوله: ﴿ أَلۡقِهَا

يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٩]، وقوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٣٦] إنه –عز وجل– ينادي موسى في الخطاب ذاته بعد أن يطرح عليه السؤال، ويناديه بعد أن يأمره بتنفيذ فعل ما، ويناديه بعد أن يبشره بقبول دعائه. وكأنه بهذا النداء يبث الأمن والطمأنينة في نفس موسى ويؤنسه، فقد كان –عليه السلام– خائفاً مضطرباً من هذا الحوار المفاجئ مع الله عز وجل.

ومنه قوله تعالى مخاطباً آدم مستهلاً خطابه بمناداته باسمه الذي اختاره له، مبرزاً الدور الذي سيؤديه هذا المخلوق الجديد: ﴿ قَالَ: يَـٰٓـَٔادَمُ، أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة:٣٣]، وأفادت مناداة المخاطب باسمه تخصيصه وتمييزه عن غيره. ومثاله مناداة الملائكة لمريم –عليها السلام– وتكرار هذا النداء: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ: يَـٰمَرْيَمُ، إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ. يَـٰمَرْيَمُ، ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣].

وقد يغيب المنادي اسم مخاطبه داعياً إياه بلفظة تدل على طبيعة العلاقة الرابطة بينهما، ومن ذلك: استهلال هارون خطابه مع موسى بقوله (ابن أمَّ)[1] وذلك أدعى إلى العطف والرقة وإثارة الشفقة في نفس موسى ،عليه السلام، الذي تملكه الغضب والأسف فأخذ يجر أخيه بعنف كما ظهر في المشهد الآتي: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ. أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟! وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ، قَالَ: ٱبْنَ أُمَّ، إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى، فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ، وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٠].

١- (ابن أم) قرئ بالفتح، وبالكسر على طرح ياء الاضافة. وابن أمي (بالياء) .وابن أمِ (بكسر الميم) .(ينظر الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١٥٥).

ودعوة نوح لابنه بقوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [هود:٤٢] إنه، عليه السلام، لا ينادي ابنه باسمه، وإنما يناديه بنسبه، تحفزه عاطفة الأبوة إلى هذا الاختيار؛ فكلمة (بني) توحي بالعطف والحرص والشفقة والحب التي يكنها المنادي للمنادى.

وتشابه إيحاءات كلمة (قوم) التي جاءت في خطابات الأنبياء مع أقوامهم الإيحاءات السابقة، فاختيارها وتكرار هذا الاختيار يوحي بحرص الأنبياء على التحبب لأقوامهم وملاطفتهم، وتذكيرهم بطبيعة العلاقة الرابطة بينهم، فهم ينتمون اليهم، ويعيشون معهم، وهذا يعني أنهم حريصون على مصلحتهم ويريدون خيرهم، لعل هذا يدفع أقوامهم إلى تصديق دعوتهم والإيمان بها. نمثل على ذلك بما جاء في خطاب نوح لقومه: ﴿ قَالَ: يَٰقَوۡمِ، أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ، فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ، أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ؟! وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ، إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ، وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ، وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ. وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟! ﴾ [هود:٢٨-٣٠].

كما خاطب يوسف -عليه السلام- الفتيين السجينين بقوله: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ؟! ﴾ [يوسف:٣٩] إنه لم ينادهما باسميهما، وإنما يناديهما بما يشف عن ارتباطه بهما واحترامه وتنزله لهما، إيناسا لنفسيهما، وتمهيدا لوعظهما ودعوتهما. فقد خاطبهما بأنهما رفيقاه في السجن، أي عشيراه في المحنة والهم.

وقد ينادي أحد الأطراف الطرف الآخر واسما إياه بصفة ما توحي بموقفه تجاهه، كقوله تعالى مخاطبا الكافرين يوم القيامة: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يس:٥٩] فقد وسمهم بالمجرمين توبيخا لهم على كفرهم وضلالتهم وتقريعا وتعذيبا.

ودعوة قوم فرعون لموسى بـ (أيها الساحر) في قولهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ؟! ﴾ [الزخرف:٤٩]؛ وتبرز تناقضهم وإصرارهم على تكذيبه، فكيف تتفق تسميته بالساحر مع قولهم: ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ إنه وعد منوي إخلافه، وعهد معزوم على نكثه [1].

وقول الكافرين للرسول - ﷺ -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦] انهم يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، ويبرز هذا التناقض الواضح في الدلالات التي يحويها الخطاب استهزاءهم وتهكمهم من الرسول وما جاء به.

وقد يحاصر المنادي متلقيه باسمه وبصفته كما جاء في قول قوم مريم - عليها السلام- حين أتتهم تحمل طفلاً بين ذراعيها: ﴿ قَالُواْ: يَـٰمَرْيَمُ، لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا. يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٧-٢٨] حيث جسم تكرار النداء صراخهم المتعالي على مريم وما فيه من توبيخ واستهجان، فقد حمل التركيب الأول ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ﴾ مشاعرهم المتأججة إليها لصفعها بها، ولحقه تركيب آخر يحيلها إلى علاقتها مع أمثال بني إسرائيل والتي تستوجب منها ألا تلطخ شرفها، فقولهم: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ يبرز التضاد الشنيع بين ما يتوقع أن يكون من مريم وما وقع منها.

وجسم النداء في عدد من الخطابات انفعالات المتكلم وأحوال نفسه وعواطفها من حب وبغض وحسرة وأسف ولذة إلى آخر ما يتصرف فيه اللسان في هذا الباب، دون أن يوجهها إلى أي طرف، فيخرج النداء عن معناه في استنطاق التلبية إلى دلالات يكشفها البعد الانفعالي المخيم على الشخصية، الذي نستشفه من السياق. ومن ذلك:

١- الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٢٥٠.

قول الرجل الذي التقط يوسف -عليه السلام- من البئر: ﴿ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾ [يوسف:١٩] إنه ينادي البشرى، كأنه يقول لها: تعالى، فهذا وقتك، وفيه تعبير عن فرحته الغامرة الممتزجة بالتعجب الناتج من عثوره على غلام جميل بهي الطلعة بحبل الدلو. وهذا يعني رزقا سيناله من بيع الغلام الذي حصل عليه دون مشقة.

ومقابل صيحة الفرح هذه تقف صيحة تتعلق بالغلام نفسه؛ صيحة أب حزين لفقدان ابنه، فها هو يعقوب -عليه السلام- ينفث تنهيدة ألم ولوعة يقولبها في تركيب النداء: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ: يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ [يوسف:٨٤] انه ينادي الأسف، وهو أشد الحزن والحسرة، مضيفا إياه إلى نفسه؛ فالألف بدل من ياء الإضافة.

ويشير الزمخشري إلى التجانس المطبوع بين كلمتي (يوسف) و (الأسف) فيقول: "والتجانس بين لفظتي (الأسف) و(يوسف) مما يقع مطبوعا غير متعمد فيملح ويبدع" [1].

وهكذا فقد أدى تركيب النداء في بنية الحوار القرآني دورين رئيسين:

الأول: دور لفت انتباه السامع وتأمله إلى الرسالة الكلامية التي يريد إيصالها اليه، ويتم هذا اللفت بمناداته باسمه أو بصفته أو بلقبه.

ويتمثل الدور **الثاني**: في قولبة أحوال النفس وعواطفها ومشاعرها المتأججة لما في النداء من مد صوتي يستوعب صيحات الانفعال التي يطلقها المتكلم.

١- الكشاف،ج٢، ص٤٧٧.

الفصل الثالث

التقديم والتأخير

(ترتيب ودلالات)

* من المباحث الهامة التي حظيت بعناية النحاة والبلاغيين والمفسرين وعلماء الأسلوب القرآني قديما وحديثا. إن النظـرة المتتبعـة للتقـديم والتأخير نحوياً وبلاغياً تظهر أن سيبويه هو أول من لفت الأنظار إلى معنى التقديم والتأخير وسره البلاغي حين تكلم عن الاهتمام والعنايـة في المفعول والفاعل [الكتاب ٣٤/١] .ونص الأخفش والفراء في تفسيريهما للقران على مواضع التقديم والتأخير فيه [الفراء، معاني القـران، ٩٢/١،١٨٤،١٩٥،٢٣٨ وغيرها، والأخفش، معاني القران، ٢٤٦/١، ٢٤٩،٢٦١، ٤٥٠ وغيرها] .ثم جاء المبرد فوضع قواعد التقـديم والتأخير معتمداً على المعنى دون الالتفات إلى الناحية البلاغية غالباً (المقتضـب، ٩٥/٣، ٩٦، ٢٠٢،٢٠٣ .٨٧/٤،٨٨،٨٩، وغيرهـا) وبحث ابن جني التقديم والتأخير ما يجوز منه وما لا يجوز، وما يقبله القياس موافقاً لمنهج النحاة في كتابه الخصائص (٣٨٢/٢-٣٩٠) لكننـا نراه ينهج نهج البلاغي الذي يهمه المعنى، ويغيبه التقديم وبلاغته في كتابه (المحتسب) (٦٥/١،٦٦،١٣ وغيرها) .وبزّ الجرجاني من سـبقه ولحقه في معالجة ظاهرة التقديم والتأخير، فقد فصل حالات التقديم والتأخير في الاستفهام والنفي والاثبات، وقد اخذ على العلماء اكتفـاءهم بتفسير المقدم للأهمية والاعتناء مبيناً ضرورة تفسير هذه الأهمية وبيان سببها وذلك في كتابه (دلائل الأعجاز) وعمم الزمخشري في تفسـيره لحالات التقديم والتأخير في القرآن غرض الاختصاص.وناقش السكاكي هذه الظاهرة معتمداً على هدف المتكلم وحالته النفسـية ومـدى جمال هذا التركيب لدى المستمع. ولكنه عارض الزمخشري في عرض الاختصاص مرجحاً غرض الاهتمام والعنايـة .وظـهرت العلاقـات المنطقية في دراسة ابن الأثير للتقديم والتأخير كتقديم الكثرة على القلة، والعلاقة بين السبب والمسبب. وتوج أبو حيـان هـذه الجـهود في تفسيره (البحر المحيط) فقد حلل وجوه التقديم والتأخير، وأكد التقديم للأهمية .ولم يقتصر البحث في هذا الموضوع على النحاة والبلاغيـين بل تناوله المفسرون والمهتمون بعلوم القرآن، فالزركشي عقد فصلاً لأسباب التقديم والتأخير وفصلاً آخر لبيان أنواعه (البرهـان في علـوم القرآن، ٢٣٣/٣-٢٨٣) وقد اعتمد على السباق في معرفة سبب التقديم والتأخير، في حين لم يعتمد علماء البلاغة على السـياق اعتمـاداً واضحاً ولا يكاد يستثنى من ذلك الا عبد القاهر الذي أبدع في تحليل الأساليب البلاغية. كما تعرض عدد من الدارسين المحدثـين لقضيـة التقديم والتأخير مؤيدين آراء القدماء شارحينها ومصنفينها حيناً كما فعل محمود السيد في كتابه (أسرار التقديم والتأخير في لغـة القـرآن الكريم) وحميد أحمد العامري في كتابه (التقديم والتأخير في القرآن الكريم)، ومنهم من رفض أن يكون لهذه المسألة اثر في المعنى حيناً آخـر كما فعل إبراهيم أنيس في كتابه (من أسرار اللغة) فقد حمل على سيبويه والجرجاني رافضاً أن يكون للتقديم اثـر في المعـنى، فـاللجوء الى التقديم في النثر ليس من الأساليب الصحيحه عنه، وما جاء في القرن انما هو رعاية للفاصلة .ومن الدارسين من تعرض لدارسـة الأسـس النفسية لأسلوب التقديم والتأخير كما فعل محمد ناجي في كتابه(الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص ١١٢-١١٧) ومنـهم مـن حاول دراسة هذا الأسلوب ضمن حلة جديدة كما فعل خليل عمايره في كتابه (في نحو اللغة وتراكيبها، ص٥٤-٦٠) حيث حاول تفسـير هذه الظاهرة بأدوات المدرسة التوليدية التحويلية.

التقديم والتأخير سمة بارزة في الحوار القرآني، فظروف المقام التي سيق فيها التخاطب قد تقتضي عدول الألفاظ عن مواقعها ومراتبها الأصلية، فيقدم المتكلم ما حق تأخيره ويؤخر ما حقه التقديم.

يقوم التقديم والتأخير على أصل مفترض قد يتقدم الكلام عليه وقد يتأخر ويخضع ذلك الأصل لطابع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة، كتقدم المبتدأ على الخبر والفعل على الفاعل والعمدة على الفضلة. ويتم العدول عن هذا الترتيب الأصل لغايات معينة ووفق اعتبارات محددة، فالمواضع التي يجوز فيها العكس تستند إلى ضوابط نحوية بحيث لا يستعمل العكس إلا في المواطن التي يؤمن فيها اللبس.

وتتضح أهمية التقديم والتأخير في لغة الحوار القرآني من حيث أن كل تقديم وتأخير فيه حكمة بالغة وفطنة أسلوبية جاذبة، فكأن المعنى يقتضي ما تقدم أو تأخر اقتضاءً طبيعياً للتأثير على المخاطب، يقول عبد القاهر الجرجاني: "اعلم أنه إذا كان بينا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه، حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب إلى فكر وروية فلا مزية، ويجب الفصل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسناً، وقبولاً تعدهما، إذا أنت تركته إلى الثاني... ، والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة، ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير"(1).

لقد نبه الجرجاني على ارتباط التقديم والتأخير بالمزية التي تحدث نتيجة وعي المنشيء وإدراكه، كما أنه كشف كيفية حصول المزية في التقديم والتأخير بتحريك بعض الألفاظ عن أماكنها الأصلية إلى أماكن أخرى أضفت على الدلالة بعداً جمالياً نفتقده إذا عدنا باللفظة إلى رتبتها الأولى. فخير وسيلة أو سبيل لمعرفة قيمة التقديم والتأخير أن نعيد كتابة الجملة بالطريقة المعهودة. كما نجد الجرجاني يميز بين العكس الاختياري والعكس الإجباري، فبينما يتيح الأول مجالاً واسعاً لشتى التأثيرات الأسلوبية، نجد الأخير(2) لا مزية فيه

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص286.

2- ينظر التقديم الواجب في الأصول لابن السراج، ج2، ص238.

وبالتالي لا يعني دارس الأسلوب، لأنه جاء على الأصل، والذي يجيء على الأصل لا يسأل عن علته المعنوية؛ لأنه يراد به الإخبار لا غير، دون التركيز على أي جزء من أجزاء الجملة، فغالبه لا أثر له في المعنى؛ لأن التركيب لا يسمح للمتكلم بأن يغير في مواضع الكلم وفقاً للمعنى الذي يريد إبانته.

فالتقديم الواجب لا يعنينا إلا بمقدار، وذلك حين نلمس أثراً لهذا التقديم في المعنى مستأنسين بما قدمه علماء المعاني في هذا المجال، وما بينوا من أثر دلالي في الجملة. أما التقديم الجائز فهو حر الرتبة، فالمتكلم يقدم ويؤخر ليظهر معنى ما كان له أن يظهره إذا جاء بالتركيب على الأصل، ومن هنا فإن موضع اهتمامنا التقديم الجائر لما له من أثر في المعنى.

يتضمن أسلوب التقديم والتأخير أبعاداً نفسية ونكتاً ولطائف بلاغية تنبع من طبيعة التجربة الشعورية المحيطة بالمتحاورين، والمعنى المراد نقله، والانفعال الذي يراد إحداثه في نفس المخاطب. وهذا يعني أن ترتيب الكلمات في لغة الحوار لا يرد اعتباطاً، إنه ترتيب يعكس ترتيب المعاني في النفس، فالمعنى إذا كان مقدماً في النفس تقدم في الجملة، يقول الجرجاني: "فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق"[١]، فالتقديم في اللسان تابع للتقديم في الجنان.[٢]

ويرى تمام حسان أن التقديم والتأخير يبرز الفرق بين اللغة العاطفية واللغة العقلية[٣]، ففي اللغة العقلية تأخذ الكلمات هذه المواقع بينما تغادر الكلمات مواقعها الأصلية إلى مواقع جديدة مغيرة بذلك نمط الجملة، ناقلة معناها إلى معنى جديد يعكس انفعال المتكلم وحالته النفسية وموقفه من السامع.

تقوم مسألة التقديم والتأخير في علم النحو العربي وقوانين البلاغة العربية على مبدأ أساسي هو الاهتمام بموضوع القول الرئيس، ففي كل جملة يدور المعنى حول فكرة محددة أو شخص معين أو غرض مقصود يتوجه إليه الكلام ويسبق إليه الاهتمام.

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص٤٣.

٢- ابن الزملكاني، التبيان في علم البيان، ص١٤٧.

٣- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص٥٩.

سنحاول الوقوف عند أبرز حالات هذا التكنيك اللغوي في الحوارات القرآنية مبينين دور النسق التركيبي في تقديم المعنى، فقد استطاع التقديم والتأخير أن يكون مؤشراً حساساً سجّل في مواقف عديدة المنحنى الوجداني والانفعالي لدى أطراف الحوار راسماً صورة لغوية لها، مبرزاً أغراضها.

ينقسم البحث في ظواهر التقديم والتأخير في لغة الحوار القرآني إلى أربعة أقسام[١]:

أولا: ما قُدّم والمعنى عليه

ثانياً: ما قُدّم والنية به التأخير

ثالثاً: ما قُدّم في آية وأُخّرَ في أخرى

رابعاً: ما قُدّم وأُخّرَ في آية واحدة

أولاً: ما قدم والمعنى عليه:

هذا النوع من التقديم والتأخير مقدم في الأصل، فهو في موضعه الذي جاء عليه، فالكلمة لم تغادر موقعها الأصل في التركيب إلى موقع جديد مغيرة بذلك نمط الجملة ناقلة معناها إلى معنى جديد. ولكن حتى في الموقع الأصل نفسه توجد منازل ودرجات تتبوأها الكلمات، فقد تسبق كلمةٌ كلمةً أخرى إلى حيز الوجود الكلامي لغايات ترتبط بالسياق.

ذكر الزركشي أسباب هذا النوع من التقديم، جامعاً إياها في خمسة وعشرين غرضاً منها[٢]: السبق، العلة والسببية، المرتبة، الداعية، التعظيم، الشرف، الغلبة، مراعاة اشتقاق اللفظ، الاهتمام عند المخاطب، الترقي، التخدير، التنقل.... الخ.

١- جهد علماء الإعجاز القرآني في حصر التقدم والتأخير في القرآن الكريم تحت أنواع رئيسة تتشعب إلى فروع كثيرة .وقد أخذنا بهذه التقسيمات في رصدنا أشكال التقدم والتأخير في الحوار القرآني .تنظر هذه الأنواع في (الزركشي، البرهان، ج٣، ص (٢٣٨-٢٨٩).

٢- تنظر هذه الأغراض في البرهان، (ج٣، ص٢٣٨).

وقد رصدنا في الحوارات القرآنية كثيراً من الأمثلة على هذا اللون من التقديم، وحاولنا حصرها تحت أغراض تنوعت بتنوع أطراف الحوار، وغايات الحدث الحواري والمقامات التي جاء فيها نذكر منها:

البدء بتقديم الذات على الآخر لإلزام النفس قبل إلزام الغير، إظهاراً لإنصاف الخصم وتوخياً للموضوعية. وتكرر هذا في حوارات الأنبياء مع أقوامهم أتباعاً كانوا أم معارضين رافضين، ومن ذلك: قول المسيح لبني إسرائيل: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ ﴾ [المائدة:٧٢]، و قول هود عليه السلام لقومه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ ﴾ [هود:٥٦]. وقوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس:٤١].

في الأمثلة السابقة تقدمت الكلمات المضافة إلى ضمير المتكلم العائد إلى الرسول على الكلمات نفسها المضافة إلى ضمير المخاطب؛ وذلك لكون الرسل قدوة، عليهم أن يبادروا هم بفعل الشيء الذي يأمرون الناس بفعله. إلا في المثال الأخير فقد بدأ كالأمثلة السابقة له بتقديم (لي) على (لكم)، ولكن قلب التركيب في نهاية العبارة فقدم (أنتم بريئون) على (أنا بريئ) حرصاً على إظهار تخلصهم من تبعية أعماله.

وقد تقدم الذات على الآخر طمعاً في أجر أو مغفرة، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي ﴾ [الأعراف:١٥١]. وفي مواقف الخوف والرهبة يقدم الآخر وتؤخر الذات، ومثاله: قول موسى، عليه السلام، مخاطباً ربه: ﴿ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ ﴾ [الأعراف:١٥٥]. فهو لم يقل: أهلكتني من قبل وإياهم، رهبة وخوفاً وإبعاداً لهلاك الذات وعقابها. وظهر تقديم الذات في حوارات غير الأنبياء أيضاً، ومثاله قول زوج فرعون له: ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ ﴾ [القصص:٩] ففي تقديم (لي) على (لك) دلالة على تعلق قلب زوج فرعون بالطفل موسى ورغبتها في بقائه، وتحرزها من نسبه

الحاجة العاطفية إلى فرعون أولاً، فهو طاغية عظيم السلطان لا يعبأ بأحد[1].

وقد تترتب الكلمات ترتيباً زمنياً، ومنه قول أبناء يعقوب: ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣]. فقد بدؤوا بالجد إبراهيم وتدرجوا وصولاً إلى أبيهم يعقوب.

وقد ترتب الكلمات وفق الأولوية، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾[البقرة:٢١٥]، إن ترتيب الكلمات يعكس ترتيب الفئات التي تستحق النفقة حسب سلم الأولوية، حيث يتبوء الوالدان قمة هذا السلم ثم يتدرج نزولاً إلى الأقربين فاليتامى فالمساكين فابن السبيل.

وقوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ [الصف:٦] في الجملة نعتان للرسول المبشر به هما: ﴿ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ﴾ و ﴿ ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾، وقد قدّم الوصف بالجملة الفعلية للأسبقية، فصفة (يأتي من بعدي) أسبق بالوجود من (اسمه أحمد). وجاءت كل صفة بصيغة تناسب وصفهما، فالإتيان يدل على الحركة فجاء الفعل (يأتي). والاسم يدل على الذات، فجاءت الجملة الاسمية (اسمه أحمد). والعلاقة بين الصفتين علاقة الكل بالجزء، جيء بالكل أولاً (يأتي من بعدي)، والجزء ثانياً (اسمه أحمد).

وتتنازع الكلمات الدالة على مضمون معنوي المواطن مع تلك الدالة على مضمون مادي، دالة على احتياجات أطراف الحوار واهتماماتها. ومن الأمثلة على ذلك:قول النبي يوشع لبني إسرائيل مخبراً إياهم بصفات طالوت: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٤٧] لقد قدم

١- يقال إنها أتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما أنا فلا حاجة لي فيه. (الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٣٨١).

صفة العلم على القوة الجسدية، وذلك لأهمية اتصاف القائد بصفة العلم، لأن الجاهل غير منتفع به، وإن كان جسمياً يملأ العين جهارة.

أما ابنة شعيب، عليه السلام، فتقدم القوة الجسمية وتردفها بالقوة المعنوية في قولها لأبيها: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦] إن تقديم (القوي) على (الأمين) دليل على ضعفهم وحاجتهم للقوة، وما قدم في الجنان قدم على اللسان، فالأب رجل مسن خارت قواه، فخرجت ابنتاه لتسقيا أغنامهم، وهذا عمل شاق لا يقوى عليه سوى الرجال، وكانتا تكرهان المزاحمة على الماء خشية الاختلاط المباشر مع الرجال. ولهذا حين قدم موسى لهما يد العون وكفاهما أمر السقي بقوة ساعده، رأت فيه الفتاة القوى التي تفقدانها وتحتاجانها. كما يعكس هذا الترتيب لصفات موسى عليه السلام واقعين حياتيين، انبثق عن الأول صفة القوة، وانبثق عن الثاني صفة الأمانة[١]، أي أن الموقف الذي برزت فيه صفة القوة سبق الموقف الذي برزت فيه صفة الأمانة.

كما دل هذا الترتيب على أن الخصلتين اللتين ينبغي أن تجتمعا في القائم بأمور الضعفاء خاصة القوة أولاً والأمانة ثانياً.

وفي خطاب إبراهيم ربه داعياً قدم طلب الأمن على الرزق، لأنه الأهم، فلو فاضت الأرض بالخيرات وانعدم الأمن وساد الخوف لما تنعم الناس بهذه الخيرات. فالأمن هو البيئة التي يزهر فيها الخير والبركة: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٢٦].

وتتغلب الحاجة للطعام على الحاجة للطمأنينة في تعليل الحواريين طلبهم إنزال مائدة من السماء: ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ [المائدة:١١٣] ولعل هذا التقديم قد يوحي بتعطشهم الدائم للأدلة المادية الملموسة التي تثبت صدق الرسول وما جاء به.

١- عرفت إحدى الفتاتين أمانة موسى حين أخبرته أن أباها يدعوه ليجزيه أجر ما سقى لهم، فمشى أمامها طالباً منها أن تدله على الطريق، حتى لا تلزق الريح ثوبها بجسدها فتصفه .(ينظر الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٣٨٩).

وقدم الأمر بالأكل والشرب على الأمر بالرضا ورفض الهم والغم في قوله تعالى على لسان من نادى مريم عليها السلام من تحتها: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم:٢٦] وذلك مراعاة لحاجة المخاطب، فمريم عليها السلام نفساء، فقدت كثيراً من قوتها أثناء الولادة فكان تقديم أمرها بالأكل يناسب حالها، فالأكل والشرب ضروريان لاستعادة قوتها وتحقيق الأمر الثالث (قري عينا).

ويعكس ترتيب الكلمات في عدد من السياقات تنامى الصراع وتصاعد شحنة الغضب في نفس المتكلم. ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم وقد أفحمهم وسخف آلهتهم وحطّمها: ﴿ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت:٢٤] فقد بدؤوا باقتراح القتل رغبة بالتخلص السريع من إبراهيم، ثم تنامي حقدهم عليه فأرادوا أن يلحقوا به عذاباً أشد فأتبعوا الأمر الأول (اقتلوه) بأمر ثان (حرقوه)، وذلك لأن التحريق فيه قتل تدريجي للمعذب وبالتالي ألم أشد، في حين يُقضى عليه سريعاً بالقتل.

وقوله تعالى على لسان سليمان وقد غضب لغياب الهدهد: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:٢١]. فقد بدأ سليمان تهديده بالتأكيد على تعذيب الهدهد، والتعذيب: هو التأديب بما يحتمله حال المعذب دون قتله. وتتصاعد نغمة هذا التهديد فتزداد درجة العقوبة فالتذبيح يعني تقطيعه وقتله. وفي هذا تحذير غير مباشر لغيره من الطيور وتأديب. ولكن غضب سليمان لا يتصاعد أبعد من ذلك، لأنه غضب محدد يهدف إلى تحقيق غاية محددة فيها مصلحة ومنفعة. لذا نجده ينفي وقوع العذاب والتذبيح إذا جاءه الهدهد بحجة واضحة أو عذر: ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقوله تعالى على لسان زليخة امرأة العزيز ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٥] حيث قدمت امرأة العزيز عقوبة السجن، ثم تنامى الصراع في داخلها فأرادت إظهار غضبها أمام زوجها، وجب التهمة عن نفسها، وتخويف يوسف، فأردفت اقتراح السجن باقتراح أكثر عنفاً

هو تعريضه للعذاب الأليم. كما نستشف من الترتيب السابق لأنواع العقوبة المقترحة حب امرأة العزيز ليوسف، وشغفها به وحرصها على سلامته وبقائه، فهي لم تبدأ باقتراح العقوبة القاسية، فقد قدمت عقوبة السجن، ثم حين خافت افتضاح مشاعرها اقترحت عقوبة العذاب الأليم. ولعل ترتيب العناصر في مقولة امرأة العزيز أثبت التهمة عليها، فلو كانت هي المعتدى عليها لدفعها غضبها لكرامتها وشرفها بتقديم أقسى ألوان العقوبة الذي قد يصل إلى الأمر بالقتل، لا بمجرد تصعيد العقوبة من السجن إلى العذاب الأليم.

وفي مقام الدعاء قد يبدأ الداعي بذكر الأسباب ويؤخر طلب النتيجة لبيان أو لتعليل استحقاقهم إياها. ومنه قول أهل النار لله عز وجل: ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:١٢] فهم لم يستهلوا دعاءهم بطلب الرجوع للدنيا، وإنما أخروا طلبهم بتقديم أسبابه ليؤكدوا لله عز وجل أنهم أبصروا صدق وعده ووعيده، وسمعوا منه تصديق رسله، أو أنهم كانوا عمياً وصماً فأبصروا واسمعوا. وقوله تعالى على لسان المؤمنين من بني إسرائيل الذين برزوا لجالوت وجنوده: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٠] فقد تأخر طلب النصر، وتقدم طلب أسباب النصر (أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا)، للدلالة على رغبتهم في القتال، وعدم النكوص عنه، إبرازاً للفرق بينهم وبين المتقاعسين من بني إسرائيل. وقد يكون في ترتيب الكلمات دلالة على أدب المتكلم مع المخاطب، كقول سحرة فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴾ [طه:٦٥] فقد خيّروه أحد الأمرين، أن يبدأ هو بإلقاء ما عنده من السحر، أو أن يكونوا هم أول من يلقي. وفي بدء التخيير بتقديمه عليهم دلالة على استعمال أدب حسن معه، وتواضع له، وتنبيه على إعطاء النصفة من أنفسهم، ولعل الله ألهمهم حسن الخطاب مع موسى.

وقول سليمان عليه السلام للهدهد وقد أخبره عن ملك بلقيس: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل:٢٧] فقد بدأ باحتمال الصدق

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [النمل:٢٧] فقد بدأ باحتمال الصدق مؤخراً احتمال الكذب. وقال في موضع آخر: ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل:٤١] بتقديم احتمال هدايتها وتأخير احتمال عدم الهداية، لرغبته في حدوث الاحتمال الأول.

تقدم التركيب الاستفهامي على التركيب الندائي في عدد من الحوارات القرآنية منها: قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ؟ ﴾ [طه:٤٩] لقد بدأ بسؤال موسى وهارون ووجه النداء إلى موسى وحده ربما لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره أو تابعه. ويحتمل أن يحمله مكره وسخريته على استدعاء كلام موسى دون أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى[1]، أو لكون موسى محط إنكار فرعون واستهجانه لأنه تربى في قصره. وقد استهل فرعون خطابه لموسى وهارون بالسؤال لأن المسؤول عنه مثار إنكاره وسخريته وغيظه لادعائه الألوهية. ويتكرر هذا التقديم في قوله لموسى: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٥٧] دالاً على خوف فرعون مما جاء به موسى عليه السلام، وفاضحاً ما يؤرقه فإنه غالبه على ملكه لا محالة.

وفي تأخير المنادى في المثالين إبراز لكونه آخر ما يسمعه المخاطب، لقد كان من الممكن أن يكتفي فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى دون أن يناديه، لكونهما يتبادلان الحوار وجهاً لوجه. لكنه أردف سؤاله بنداء موسى لتوجيه اللوم والعتاب والإنكار والتوبيخ إليه، أي أن النداء غاية بذاته لا مجرد وسيلة.

وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ؟ ﴾ [طه:٩٥] فقد تقدم التركيب الاستفهامي (ما خطبك) على التركيب الندائي (يا سامريّ) لكون السؤال مثار اهتمام موسى، عليه السلام، وإنكاره وغضبه، فالسامريّ صنع عجلاً وأمر بني إسرائيل بعبادته ففعلوا. فتوجه موسى إليه بالسؤال الإنكاري والتوبيخي: ما خطبك؟.

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٦٥.

وقوله تعالى مخاطبا موسى: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٨٣] حيث تقدم التركيب الاستفهامي (ما أعجلك عن قومك) على التركيب الندائي (يا موسى) لتنبيه موسى، عليه السلام، على ما في السؤال من دلالات وأبعاد عميقة، فقد أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة أن يعلم موسى أدبا من آداب السفر، وهو وجوب تأخر القائد عن قومه في المسير ليكون نظره محيطا بطائفته، وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم. ومثله قوله تعالى مخاطبا موسى: ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٧] فقد تقدم الاستفهام لإثارة المخاطب وتنبيهه للعصا التي يحملها بيمينه، لما سيكون لا من شأن عظيم في مواجهة فرعون وقومه. وبهذا يتضافر التقديم والسؤال في إثارة انتباه المتلقي وتأمله إلى شيء لم يتنبه إليه من قبل، وقد أضحى غاية في ذاته لا مجرد وسيلة.

وتقدم الأمر على النداء في عدد من المشاهد الحوارية لأهمية تنفيذ الفعل والتعجيل في إنجازه ومن ذلك ما جاء في: قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يس:٥٩] حيث تقدم فعل الأمر (امتازوا)على التركيب الندائي ﴿ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ لتنفيذ الفعل بسرعة تحقيرا وتقريعا.

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا ﴾ [القصص:٣٨] فقد تقدم فعل الأمر (أوقد) على التركيب الندائي (يا هامان) عاكسا طريقة كلام الجبابرة والمتسلطين على الحكم، فهم غالبا ما يستهلون كلامهم بإلقاء الأوامر على أتباعهم للإسراع في تنفيذها. كما يدل هذا التقديم على السخرية والاستخفاف بموسى ودعوته والرقة في تحديه، والتدليل على سهولة تنفيذ أي شيء يريده فرعون، وذلك لإحساسه بالعظمة والجبروت.

وتقدم الأمر على النهي لغايات متنوعة ترتبط بأطراف الحوار، ومن الأمثلة على هذا الأسلوب: قوله تعالى مخاطبا آدم وزجه: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٩] فقد تقدم فعل الأمر (اسكن، فكلا) على النهي (لا تقربا) تكريما لهما، فالنفس تنفر من استهلال مخاطبتها بالنهي. لقد استهل الله خطابه بنداء آدم، عليه السلام، ممهدا لنقل خطابه، الذي يحوي أمرين، الأول: (أسكن)، والثاني: (فكلا) وفي الأمرين مصلحة لآدم وزوجه وتكريما لهما. وأنهى خطابه بنهيهما عن الاقتراب من شجرة معينة. وهذا يوحي بسعة كرمه، عز وجل، الذي يعطي بلا حدود، ويأمر الناس بأخذ هذا العطاء والاستفادة منه، جاعلا النهي عن الأخذ من عطائه في زاوية متنحية متأخرة في الخطاب.

وقوله تعالى على لسان نوح، عليه السلام، وهو ينادي ابنه من فوق السفينة: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود:٤٢] حيث تقدم الأمر بالركوب (اركب) على النهي (لا تكن مع الكافرين) لحرص نوح على إنقاذ ابنه ونجاته من الغرق. ولنا أن نتخيل المشهد المحيط بالحوار، لقد بدأ الطوفان يغمر ما حوله بسرعة وعنف لا يسمحان بحوار طويل، فالحوار لا بد أن يكون موجزا ترتب فيه الكلمات ترتيبا ينقل الرسالة بدءا بأهم أجزائها، وأهم ما يريده نوح ركوب ابنه السفينة، ولذا قدم الأمر (اركب) وتلاه بالنهي حين سمح الوقت المتبقي بهذه الإضافة.

وقوله تعالى على لسان شعيب: ﴿ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ. وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ. وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٣] لقد بدأ شعيب، عليه السلام، خطابه بتقديم الأمر بالواجب، وتأخير النهي عن المحرم، لكون تنفيذ الواجب مطلب النبي، فهو يحرص على أن يقوم قومه بتنفيذ الأمر لاحتوائه على النهي عن المحرم.

وقد يتقدم النهي على الأمر تحذيرا وتحويفا، منه قوله تعالى على لسان سليمان، عليه السلام، في خطابه لملكة سبأ وقومها: ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣١] ففي تقديم النهي (لاتعلوا علي) دلالة على قوة سليمان التي

تقهر كل قوة أمامهما، ولهذا بدأ خطابه الموجز بنهيهم عن التكبر ومجاوزة الحد معه ممهداً للأمر﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ليقوموا بتنفيذه بسرعة ودون تردد.

وقول الذين كفروا لبعضهم البعض متناصحين: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦] في تقديم النهي ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ ﴾ على الأمر ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ دليل على خوفهم من تأثير القرآن على سامعه، فالنهي عن سماع القرآن أهم من اللغّو فيه، لأن الابتعاد عن المؤثر يسبق التفكير بتدميره، خاصة إذا كان التأثير قوياً لا يمكن تجنبه.

وقد يتقدم النهي على الأمر لإفادة التطمين والتسرية عن قلب المخاطب، كقول الملائكة للمؤمنين حين تحضرهم الوفاة: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:٣٠] فقد تقدم النهي عن الخوف والحزن على الأمر بالبشرى تطميناً وتطهيراً للنفوس.

ولنا أن نتساءل لمَ لم يقدم النهي عن الحزن على النهي عن الخوف؟! لعل في الترتيب السابق دلالة على مراعاة الملائكة لما يختلج نفوس المؤمنين من مشاعر متباينة الاتجاه، بعضها يرتبط بما هو آت، بينما يرتبط الآخر بما قد مضى؛ فالملائكة تستهل مقولتها بالنهي عن الإحساس بالخوف ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ ﴾ لكونه الإحساس المسيطر على هؤلاء المؤمنين أولا، فالإنسان حين ينتقل من المكان الذي ألفه إلى مكان آخر مجهول لا بد أن ينتابه شعور بالخوف، والخوف: غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه، وعندها سيدفعه الخوف إلى الحنين إلى المكان الذي ألفه فيشعر بالحزن على فراقه وفراق ما خلفه فيه.

وتقدم النهي عن الخوف على الجملة الخبرية للتطمين في قول شعيب لموسى عليه السلام: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٢٥] ويعلل سر التقديم باستحضار الحالة المسيطرة على موسى عليه السلام حين قابل شعيبا لقد كان خائفا مضطربا يترقب لأنه قتل نفسا من قوم فرعون وافتضح أمره، فلحقه جنود فرعون لقتله. وبعد أن اخبر شعيبا قصته، أراد شعيب أن

يخفف من خوف موسى فبدأ عبارته بـ (لا تخف) قبل أن يخبره أو يعلل له طلبه بعدم الخوف، لسيطرة الخوف على موسى وشفقة شعيب عليه ورحمته بحالة.

وتقدم الأمر على السبب للدلالة على سرعة تنفيذ الطلب. وظهر هذا في خطاب الله عز وجل، مع موسى، عليه السلام، في موقفين، الأول حين أمره بالذهاب إلى فرعون لهدايته ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات:١٧] حيث قدم فعل الأمر (اذهب) على السبب (إنه طغى)، فقد كان من الممكن أن يتقدم السبب على الفعل: (إن فرعون قد طغى فاذهب إليه)، ولكن أراد الله من موسى أن يسرع بتنفيذ الطلب الذي ما كان يجرؤ على فعله من قبل، وفي هذا دليل على ما طرأ على شخصية موسى من تحول، فقد أضحى رسولا يسير بهدي الله ورعايته وحفظه، يستطيع أن يقدم على أفعال لم يكن يستطيعها، وهكذا يتحول هروب موسى من فرعون وجنوده إلى هجوم لا يعرف الفر.

وكل هذه الدلالات ما كانت لتبرز لو تقدمت جملة ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ على ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ لأن طغيان فرعون وجبروته أمر معروف عند المتلقي، لا يثيره ولا يخيفه، أما الذهاب إليه فهو الذي سيخلق الصراع في ذات موسى ليجعله يوقن بالتغيير الطارئ على شخصه.

والموقف الثاني الذي تقدم فيه الأمر علي بيان السبب جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء:٥٢] فقد تقدم الأمر بالإسراء ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ ﴾ على بيان السبب ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ للإسراع في تنفيذ الطلب إنقاذا لموسى واتباعه، وإهلاكا لفرعون وجنوده.

وتتقدم الجملة الخبرية على التركيب الندائي للإسراع في توصيل الخبر للمنادى، مثاله ما جاء في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٣٦] وذلك لتعجيل إيصال المسرة لموسى بعد أن توجه لله داعيا، فجاء تقديم الإخبار باستجابة دعوته دالة على سرعة الاستجابة، ومبرزة نعم الله التي أغدقها على موسى.

وتقديم النعت بالمفرد على النعت بالجملة في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفۡرَآءُ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ [البقرة:٦٩] فقد تقدم النعت بالمفرد (صفراء) على النعت بالجملة ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾، لأن صفة اللون الأصفر الفاقع صفة غريبة، وهي المسببة للسرور.

وفي الآية تقديم علانية التأخير في قوله: ﴿ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا ﴾ فقد قدم الخبر (فاقع) على المبتدأ (لونها) لإبراز صفاتها الغريبة تعجيزا وتحديا لبني إسرائيل الذين أكثروا من الأسئلة عن ماهية البقرة وحالها وصفاتها، فأعنتهم الله بصفات غريبة نادرة خارجة عما عليه البقر.

ثانياً: ما قُدِّم والنية به التأخير:

كان النوع الأول من التقديم والتأخير مقدما في الأصل، فهو في موضعه الذي جاء عليه، أما النوع الثاني فهو مقدم على نية التأخير، أي أن التقديم ليس أصلا فيه وإنما أصله التأخير، فهو خارج عن موضعه لتأدية أغراض معنية قصدها المتكلم. ويتعلق هذا النوع بالمسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل (الظروف، والجار والمجرور، والمفعولات، والحال، والتمييز، والاستثناء).

ومن أنماط هذا النوع:

أ- التقديم والتأخير في الجملة الفعلية:

١- تقديم الفاعل على الفعل:

اقتضت الظروف المحيطة بعدد من الحوارات القرآنية أن يقدم أحد الأطراف المتحاورة الفاعل في كلامه ليؤكد نسبة الفعل إلى فاعله ويحصره فيه دون أن يشكك في هذه النسبة منكرا صدور الفعل من فاعل بعينه. وكما يؤكد هذا التقديم الفاعل ويبرزه فانه يثير تطلع الطرف الآخر (السامع) لمعرفة

ماذا جرى له أو حدث منه أو ما هو الحكم الذي يريد المتكلم أن يثبته للفاعل.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذا البعد الدلالي الذي يخلقه تقديم الفاعل قال: "إنه لا يؤتي الاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوي إسناده إليه، فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت بذلك أنك قد أردت الحديث عنه. فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا: قام، أو قلت: خرج، أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيئ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق. وجملة الأمر: أنه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والأحكام"[1].

وتقدم الفاعل على فعله في الحوار القرآني في اثنين وعشرين موضعا[2]، تقدم لفظ الجلالة (الله) على الفعل في تسعة مواضع[3]. وجاء هذا التقديم على لسان الأنبياء والرسل في حواراتهم مع المعاندين والمشركين، لإبراز قدرة الله وسيطرته. فتقديم لفظ الجلالة على الأفعال يؤكد إسنادها للفاعل وقصرها عليه دون غيره، فهذه الأفعال مخصصة بالفاعل وحده لا شريك له، بحيث لا يستطيع أن يقوم بها فاعل سواه. ومثاله تقديم لفظ الجلالة على الفعل في قول إبراهيم، عليه السلام، لقومه منكرا عليهم عبادة الأصنام: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦] وأفاد هذا التقديم تأكيد إسناد الخلق إلى الله، فهو الذي خلقهم وخلق ما يعبدون ولهذا فهو من يستحق العبادة وحده. ولعل إبراهيم عليه السلام بهذا التقديم أراد أن يصفع قومه بالحقيقة الواضحة

١- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص(١٠١-١٠٢).

٢- هذه المواضع هي: البقرة:٢٤٧، آل عمران:٤٧، هود:٨٧، سبأ:٣٢، الجن:١٠، الأنعام:٦٤، يونس:٣٤،٣٥،٥٩، الفرقان: ٥،١٧، يوسف:٢٦،٣٠، المائدة:١١٦، الأنبياء:٦٢، الصافات:٩٦، الحجرات:١٧، الأعراف:١٥٦، النمل:٣٦،٣٩،٤٠.

٣- هذه المواضع هي: البقرة:٢٤٧، آل عمران:٤٧، الأنعام:٦٤، يونس:(٣٤،٣٥،٥٩)، الصافات:٩٦، الحجرات:(١٦،١٧).

التي طمست في نفوسهم بتراب كفرهم وتعنتهم، فكان التقديم بمثابة القوة التي تعمل على إزاحة تراب الكفر الذي غطى فطرتهم السليمة.

كما يكشف لنا هذا الانزياح في التركيب عن ملمح من ملامح شخصية إبراهيم عليه السلام؛ إنه إنسان مؤمن، لا يخشى في الله لومة لائم، يواجه قومه دون خوف من بطشهم، فجاءت عبارته دليلاً على ذلك، لأن في التقديم تصريحاً وإبراز، فالفاعل يتقدم واضحاً دون أن يتستر هذا الوضوح بغطاء الفعل.

ويتكرر تقديم لفظ الجلالة "الله" في الخطاب الذي لقنه الله لرسوله محمد (ص) ليتحدى به المشركين في ستة مواضع[1] منه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ: هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ؟ قُلِ: ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس:٣٥] فقد لقن الله رسوله السؤال التقريري الذي يفيد تأكيد نفي وجود الفاعل (الهادي إلى الحق). ويعقب هذا السؤال الجواب الذي يبرز فيه الفاعل ويؤكد تقديمه اختصاصه وحده بالفعل (الله يهدي إلى الحق)، وهذه وسيلة من وسائل إقامة الحجة ودحض الخصم.

وتقدم الفاعل (لفظ الجلالة) في الإجابة عن الأسئلة الإنكارية المتعلقة بكيفية حدوث فعل خارق لحدود القدرة البشرية، وذلك لبيان إن هذه الأفعال لا شأن للبشر فيها، فهي أفعال لا تصدر إلا من الله وحده. وذلك في ردين: **الأول:** رد الروح، الذي تمثل لمريم بشراً سوياً، على سؤالها الإنكاري: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟! قَالَ: كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٤٧]، فخلق غلام دون أب أو رجل أمر خارق لا يكون إلا بقدرة فاعل يقول للشيء كن فيكون.

والرد الثاني: جاء على لسان نبي لبني إسرائيل حين سألوه منكرين أن يكون الملك لطالوت الذي لم يؤت سعة من المال، فأجابهم: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي

١- هذه المواضع هي: الأنعام:٦٤، يونس:(٣٤،٣٥،٥٩)، الحجرات:(١٦،١٧).

مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٤٧] فالملك بيد الله وحده يؤتيه من يشاء.

كما يفيد تقديم الفاعل التوكيد في الوعد والضمان، يقول الجرجاني: " ومما يحسن ذلك فيه ويكثر الوعد والضمان، كقول الرجل: أنا أعطيك، أنا أكفيك أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد، وفي الوفاء به فهو من أحوج شيء إلى التأكيد"[1]، ومنه: قول عفريت من الجن لسليمان عليه السلام: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل:٣٩]، وقول الذي عنده علم من الكتاب لسليمان: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل:٤٠] وذلك في إجابتهم عن سؤال سليمان: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣٨]، إن هذين المخلوقين اللذين سخرهما الله لخدمة سليمان يعد كل واحد منهما سليمان بأنه هو من سيأتيه بعرش ملكة سبأ، فجاء تقديم الفاعل "أنا" لتوكيد الوعد والضمان، وإبراز القدرة الخارقة التي يتصف كل واحد منهما بها. كما يدل هذا التقديم على الاعتداد بالنفس فتقديم الذات الفاعلة دليل على القدرة والاعتزاز والرغبة في خدمة سليمان والتسابق في تقديمها.

ويفيد تقديم الفاعل توكيد نسبة الفعل إلى الفاعل المقدم لتوكيد نفي صدور الفعل من المتكلم. ومن ذلك قول يوسف عليه السلام وقد اتهمته امرأة العزيز بأنه هم باغتصابها: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾، فتكذيب المدعي يحتاج إلى توكيد، فقدم المتهم الفاعل (هي) الذي يعود على امرأة العزيز ليؤكد نسبة فعل المراودة إليها ونفيه عن نفسه.

ويتقدم الفاعل على فعله في كلام من يريد إثارة انتباه السامع واهتمامه ليستهجن وينكر صدور هذا الفعل من هذا الفاعل، مثاله قول نسوة في المدينة: ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف:٣٠] يدل على أن الفعل (تراود) واقع لا جدل فيه، ولكن الجدل في الفاعل الذي أسند إليه الفعل، ولذا قدم

١- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٣.

الفاعل لتوكيده، ولتوكيد وقوع الفعل منه، فلوا تأخر الفاعل: (تراود امرأة العزيز فتاها)، لكان هناك نوع من الشك في نسبة الفعل إليها، أو لدل على أنها تراوده بطريق غير مباشر، بمساعدة وصيفة من وصيفاتها مثلا. فعندما تقدم الفاعل دل هذا على أن امرأة العزيز هي التي تراود هذا الفتى وليس أحد غيرها.

إن إطلاق لقب امرأة العزيز يثير رغبة المستمع إلى معرفة ماذا حدث منها أو لها، لأن أخبار الطبقة الحاكمة ومن حولها مثار اهتمام الشعب، فإذا صدر فعل غير لائق من أحد أفراد هذه الطبقة تبارت الألسنة في توكيد نسبة هذا الفعل إلى فاعله، أي أن تقديم الفاعل واقع لغوي يحاكي الواقع الحياتي ويعكسه.

ومن أغراض تقديم الفاعل في لغة الحوار القرآني ضمان سرعة وصول المعنى إلى ذهن السامع لتعجيل إنذاره وتخويفه حينا، وتطمينه وتبشيره حينا آخر، ومن ذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

ويتقدم الفاعل على فعله في الاستفهام إذا كان الشك متعلقا بالفاعل الذي قام بالفعل لحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف، ومن ذلك قول قوم إبراهيم وقد كسرت أصنامهم ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ؟﴾ [الأنبياء:٦٢] إن تحطيم الأصنام قد حدث بالفعل، ولكن وقع الاستفهام عن النسبة، أكان هذا الفعل الواقع صادرا عن المخاطب (إبراهيم) أم لا.

وقوله تعالى لعيسى،عليه السلام: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ: ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ [المائدة:١١٦] إن اتخاذ عيسى وأمه إلهين قد حدث في الدنيا، ولكن وقع الاستفهام عن نسبة هذا القول لعيسى، مع علمه -عز وجل بأن هذا الفعل لم يصدر عن عيسى عليه السلام وإنما صدر عن المشركين، فكأن تقديم الفاعل المنزه عن الفعل تقريعا لفاعل آخر صدر عنه هذا القول، ولهذا كانت إجابة عيسى عن سؤال ربه ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ ﴾ [المائدة:١١٦].

ويتقدم الفاعل في الاستفهام للتهكم والسخرية من المخاطب، ومنه قول قوم شعيب: ﴿ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود:٨٧] حيث قدم الفاعل (صلاتك) في هذا السؤال الإنكاري الساخر للتهكم من تعاليم شعيب وما ينادي به ويأمر به اتباعه.

ويتقدم الفاعل في الاستفهام لإنكار إسناد الفعل اليه، ومنه قول الذين استكبروا للذين استضعفوا: ﴿ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴾ [سبأ:٣٢] فقد تقدم الفاعل (نحن) على الفعل (صددناكم) لتبريء الفاعل المقدم من الفعل فالصد وقع من المستضعفين ﴿ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴾. وتبع إنكار إسناد الفعل للفاعل المقدم في أول العبارة تأكيد نسبته لفاعل آخر هو (المخاطب). ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾ [يونس:٥٩]، وقوله: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ: ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان:١٧].

يقول الزمخشري في تفسيره للآية الأخيرة: "فإن قلت: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل: أضللتم عبادي هؤلاء، أم ضلوا عن السبيل؟ قلت: ليس السؤال عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام، حتى يعلم أنه المسؤول عنه"[١].

إن تقديم الفاعل في هذا السؤال طريقة غير مباشرة لنفي إسناد الفعل إلى الفاعل المقدم وتوكيد نسبته إلى فاعل آخر يشهد الحوار دون أن يتوجه إليه الخطاب فيشارك فيه، وذلك لتبكيته وتحقيره. وتكون الإجابة بالإنكار وتوجيه الاتهام بإسناد الفعل للفاعل الحقيقي: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ [الفرقان:١٨].

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٢٦١.

وقد يتقدم نائب الفاعل على الفعل في الاستفهام. من ذلك قول الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن:١٠] أصل الجملة قبل التقديم : (أأريد شر بمن في الأرض)، ويعكس تقديم نائب الفاعل "شر" على الفعل المبني للمجهول "أريد" حيرة الجن إزاء مصير البشر، وترتبط الحيرة بهواجس الترقب وتوقع الشر والعذاب أكثر من توقع الخير، ولهذا تقدم الشر لأنه الهاجس المسيطر على الجن. وجاء الفعل بصيغة المبني للمجهول تأدباً من الجن في عدم نسبة الشر إلى الله، في حين نسبوا الرشد إلى الله.

٢- تقديم المفعول به:

المفعول به اسم وقع عليه فعل الفاعل، يأتي بعد تمام الإسناد. فالأصل فيه أن يتأخر عن الفعل والفاعل، ولكنه قد يتقدم على الفاعل، وعلى الفعل والفاعل معاً. ويفيد تقديم المفعول به دلالات عدة منها تأكيد وقوع الفعل عليه دون غيره: ﴿ قُلِ: ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [الزمر:١٤] فتقدم المعبود (الله) على فعل العبادة (أعبد) يدل على اختصاص فعل العبادة بالمتقدم.

ويدل هذا التقديم على القصر، وهذا لا يخرج عن التوكيد، فالقصر ليس إلا تأكيداً للحكم على تأكيد[1]، مثاله قوله تعالى: ﴿ قَالَ: فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٤-٨٥]، فقد تقدم المفعول به (الحق) على الفعل والفاعل (أقول)، وهذا يعني: لا أقول إلا الحق.وفي الجملة توكيدان: الأول توكيد بالقسم (والحق) والثاني توكيد بتكرار اللفظ نفسه وتقديمه على الفعل، والتقديم نوع من التوكيد. وفي هذا تهديد وتخويف من الله للشيطان وأتباعه، وتأكيد بتحقق هذا الوعيد. ومن دلالات تقديم المفعول به على الفعل نفي وقوع الفعل على المفعول لسوء هذا الفعل ومحاولة المتكلم تبريء ذاته من وقوع هذا الفعل عليه، ومن ذلك قول الشياطين أو أئمة الكفر يوم القيامة متبرئين من أتباعهم: ﴿ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص:٦٣]

١- السكاكي، مفتاح العلوم، ص٢١٩.

ولم يقولوا ما كانوا يعبدوننا، لرغبتهم الشديدة في التخلص من هذه التبعة لعل ذلك يخفف جزءا من عذابهم.

ويتقدم المفعول به على الفاعل حين يكون مثار اهتمام المتكلم ومنه قول الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩] حيث تقدم المفعول به (هذه) على فاعله (الله) لكونه مثار حيرة هذا الرجل واهتمامه، فالصفة التي يتصف بها المفعول ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾، جعلت الرجل[1] يتعجب من قدرة الفاعل وإمكانيته في إحياء هذه القرية، فقوله: (أنى يحي) اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي.

وقد يوحي تقديم المفعول به على تحقيره: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال:٤٩] فقد تقدم المفعول به (هؤلاء) على الفاعل (دينهم) لحصر التغرير بهؤلاء دون غيرهم تحقيرا وسخرية من القائل. وأصل الجملة قبل التقديم: غر الدين هؤلاء. كما يدل هذا التقديم على كون المفعول محور اهتمام القائل؛ فالمؤمنون هم الهاجس الذي يؤرق المنافقين ويقض مضاجعهم، ويسيطر على تفكيرهم فينعكس في كلامهم، فما قدم في الجنان قدم على اللسان، ونقصد بذلك كل المشاعر التي تتأجج في الصدر حبا كانت أم بغضا.

ويتقدم المفعول على الفعل والفاعل في الاستفهام الإنكاري، فيأتي المفعول به عقب همزة الاستفهام، ويتوجه الإنكار إلى المفعول به المقدم، ويلزم من إنكاره إنكار الفعل. ومن ذلك: قول موسى لأتباعه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم

١- قيل أن هذا المار كان مؤمنا وهو العزيز أو الخضر، وأراد أن يعاين الإحياء كما طلبه إبراهيم .وقيل كان كافرا بالبعث لانتظامه مع النمرود في سلك (ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج١، ص (٣٠٢-٣٠٣) وقد رجحت الرأي الأول .أما الاستدلال على كفره باقتران قصته مع قصة نمرود فليس أولى من الاستدلال على إيمانه باقترانها أيضا مع قصة إبراهيم. والله أعلم.

أصناما يعبدونها: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٠] فقد قدم المفعول به (غير الله) لإنكاره، فموسى عليه السلام ينكر أن يكون غير الله إلها لهم، وفي هذا إنكار للفعل (أبغي) أيضا. ولو تقدم الفعل لما أفاد هذا المعنى، لأن التالي للهمزة هو محط الإنكار.

ومنه أيضا قول قوم ثمود منكرين إتباع صالح عليه السلام لأنه بشر مثلهم: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ ﴾ [القمر:٢٤] حيث قدم المفعول به (بشرا) لأنه محط الإنكار؛ فهم ينكرون أن يكون الرسول بشرا مثلهم، فالإنكار موجه إلى بشريته.

وقد تتقدم بعض المفعولات على بعضها كأن يتقدم المفعول به الثاني على الأول، أو على الفعل والفاعل والمفعول الأول وفقا للمعنى الذي في نفس المتكلم. ومن ذلك قول موسى لفرعون وقد سأله: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ؟ ﴾ [طه:٤٩] فأجابه: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠] فقد تقدم المفعول الثاني (كل شيء) على الأول (خلقه) إقرارا من المتكلم بنعم الله على عباده، فقد سخر لهم كل شيء في الكون[1]، وتعجيلا بإظهارها اعترافا وشكرا لله ومكايدة لفرعون وتحديا إياه.

وقدم المفعول به الثاني على الفعل والفاعل والمفعول الأول في قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة:٣٠-٣١]، ولهذا التقديم دلالات منها:

- الإبراز والحصر أي لا تصلوه إلا الجحيم.
- التعذيب المعنوي لذلك الكافر بتعجيل ذكر مكان العذاب.
- قطع أي بريق أمل له في النجاة؛ لأن في تقديم الجحيم دلالة على النتيجة الحتمية التي سيؤول إليها. فلو قال: ثم صلوه الجحيم، لكان في تأخير التصريح بالمكان فرصة لتوقع مكان آخر، ولكن الله يحرم الكافر من لذة هذا التوقع إمعانا في تعذيبه.

١- أرجح حذف الصفة في قوله تعالى: (كل شيء) اكتفاء بالتلوين الصوتي، وتقديرها: حسن أو سوي أو مفيد. ومثله قوله تعالى: (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) (النمل:٢٣).

٣- تقديم المفعول لأجله:

الأصل في المفعول لأجله أن يتأخر عن فعله، ولكنه قد يتقدم للتركيز على الغاية أو سبب حدوث الفعل. كما ورد في قول إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات:٨٦] فقد تقدم فيها المفعول له (إفكا) على فعله (تريدون) لإنكار سبب حصول الفعل، كما تقدم المفعول به (آلهة) على الفعل، فأصل الجملة قبل التقديم: أتريدون آلهة دون الله افكا؟! وقد أفاد تقديم المفعول له والمفعول به إنكار لسبب عبادة الإصنام ولعبادتها.

٤- تقديم الجار والمجرور والظرف:

يدل تقديم الجار والمجرور على الاختصاص والتفصيل والتوضيح وإزالة الإبهام، فهو قيد مخصص أو محدد أو مبين للحدث. ويشير تقديم الظرف إلى التركيز والاهتمام بزمان الحدث أو مكانه.

ويلفت النظر في ظاهرة تقديم الجار والمجرور الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها في كلام الأطراف المحاورة، وليونتها وسهولة تنقلها بين عناصر الجملة.

ومن صور تقديم الجار والمجرور والظرف:

١- تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل[١]:

برزت هذه الظاهرة في كلام الرسل وأتباعهم[٢]. واقتصر الاسم المجرور فيها على لفظ الجلالة ظاهرا أو مضمرا، لإبرازه وجعله موضع الاهتمام والعناية وذلك لمواجهة فئتين من المخاطبين؛ الأولى: فئة المخالفين والمتقاعسين من أتباع الرسل، والثانية: فئة الكفار الساخرين المهددين. فيكون في هذا التقديم تذكيرا وتحذيرا للفئة الأولى وتحد ومواجهة للفئة الثانية. ومن الأمثلة على هذا اللون من التقديم:

١- جاءت هذه الظاهرة في خمسة عشر موضعا هي: التوبة:٥١، المؤمنون: ١١٥، يونس:٥٩،٧١،٨٤، هود: ٨٨، المائدة:٢٣، الأنعام: ٩٣، الأعراف: ٢٥، يوسف: ٤٣، النمل: ٣٦، الملك: ٢٩، الحاقة: ٣٢.

٢- تنظر هذه المواطن في: التوبة: ٥١، يونس: ٥٩،٧١،٨٤، المائدة: ٢٣، الملك: ٢٩.

قول رجلين مؤمنين من قوم موسى يحاولان إقناع بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومحاربة الجبارين: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣]، ففي الآية تقديمان يبرزان المعنى المراد إيصاله للمخاطبين المتقاعسين، الأول: تقديم شبه الجملة (على الله) على الفعل (توكلوا) لإفادة القصر وحصر التوكل على الله، والثاني: تقديم جملة جواب الشرط (على الله فتوكلوا) على جملة الشرط ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ للتأكيد والحرص على تحقيق النتيجة لما لها من أهمية في تشجيع المخاطب وحثه على الفعل ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾.

وقول شعيب عليه السلام لقومه وقد سخروا منه وهددوه: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨] حيث تقدم الجار والمجرور (عليه) على الفعل (توكلت)، والجار والمجرور (إليه) على الفعل (أنيب) لتوكيد حصر فعلي التوكل والإنابة بالله عز وجل، وهذا يدل على ما رسخ في يقين شعيب من كون القوة بيد الله، ولذا يرجع إليه، ويصرح بما يعتقد ليثبت نفسه ويتحدى خصمه، فالنفس تعنى بتقديم ما تعلقت به وما كان التفات الخاطر إليه في ازدياد.

وقد لا يكون الطرف المخاطب عاصيا أو كافرا معاندا، فيكون التقديم للتذكير والتثبيت، ومنه قول موسى عليه السلام لأتباعه الذين آمنوا به على خوف من فرعون: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤] فموسى عليه السلام يأمر أتباعه أن يكون توكلهم على الله وحده. ويستجيب اتباع موسى الصالحين لأمره، وتتمثل هذه الاستجابة بإعادة عبارته وما فيها من تقديم: ﴿ فَقَالُوا۟: عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [يونس:٨٥].

وتقدم الجار والمجرور على الفعل وفاعله في قوله تعالى لملائكة العذاب: ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة:٣٢] لإبراز أداة العذاب وتخصيصها إمعانا في تخويف الكافر، وإظهارا لغضب الله منه، فالله

يعجل إظهار أداة العذاب قبل الفعل أو تأكيدا لوقوعه. وتكرر تقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله تعالى لإبليس وآدم وزوجه حين أمرهم بالهبوط على الأرض: ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف:٢٥] لتخصيص المكان وتحديده، وأكد التكرار وحدة هذا المكان، فالأفعال (تحيون، تموتون، تخرجون) كلها ترتبط بهذا المكان دون غيره. وهذا التأكيد لا يتأتى لو قال: فيها تحيون وتموتون وتبعثون. ويعود هذا الاهتمام بالمكان لكونه محور الحدث، فالانتقال إليه كان نتيجة لصراع الإطراف المخاطبة في المكان الأول (الجنة).

وقد يدل التقديم على احتقار ما قدم وتسخيفه، ومن ذلك قول سليمان عليه السلام في حواره مع رسل ملكة سبأ وقد جاؤوه بهديتها: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل:٣٦] فقد تقدم الجار والمجرور (بهديتكم) على الفعل (تفرحون) لتخصيص الفعل، وربطه بما قدم استهزاء وتحقيرا.

٢- تقديم الظرف على الفعل والفاعل[1]:

وقد اقتصر ذلك على ظرف الزمان. مثاله قول ملائكة العذاب للظالمين يوم القيامة: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام:٩٣] فقد تقدم ظرف الزمان (اليوم)، على الفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل (تجزون) للتركيز على زمن حدوث الفعل، وذلك لكون هذا اليوم مدار تكذيب الظالمين في الدنيا، وها هو واقع ملموس يتعذبون فيه لإنكارهم إياه. كما تقدم الجار والمجرور (عن اياته) على الفعل (تستكبرون) تخصيصا وتأكيدا لتعظيم هذا الفعل وانكاره. وسبق هذا التقديم تقديم الجار والمجرور (على الله) على المفعول به (غير الحق). فالعبارة تعج بأسلوب التقديم والتاخير الذي يعكس انفعال الملائكة وغضبها وشماتتها بالمخاطبين فتقدم ما أنكره المخاطبون في

١- جاء هذا في ثلاثة مواضع: العنكبوت: ٢٥، البقرة: ٧١، الأنعام: ٩٣.

الدنيا لتحسيرهم. ومنه قول إبراهيم لقومه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت:٢٥]، فقد تقدم الظرف (يوم القيامة) على جملة: ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ دالا على يقين المتكلم من حدوث المتقدم، فإبراهيم، عليه السلام، متيقن من حدوث يوم القيامة الذي ينكره قومه، ولذا يقدمه مواجها ومتحديا ومؤكدا. هذا بالإضافة إلى التركيز على زمن الحدث وتحديده وتخصيصه، ففيه ستتغير علاقة هؤلاء الكفرة من المودة والولاء إلى الكفر والخصام واللعن.

وقد يعكس تقديم الظروف صفة من صفات المتكلم وطباعه، ففي تقديم ظرف الزمان (الآن) في قول بني إسرائيل لموسى بعد أن أجاب عن كل أسئلتهم: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٧١] دليل على طبيعة بني إسرائيل، فهم يكثرون الجدل ومخاصمة الأنبياء، فنفوسهم لا تتقبل الحق إلا بعد لجاج طويل. لقد ربطوا مجيئه بالحق بزمانهم الحاضر، أي أن هذا الفعل قد حدث فقط في ذلك الوقت (الآن)، وما قبل ذلك كان مثار شك يدفع إلى السؤال.

٣- تقديم الجار والمجرور على الفاعل[1]:

ويفيد هذا التقديم التأكيد والتحديد والتفصيل ويدل على أن الاهتمام والتركيز ينصبان على من يخصه فعل الفاعل. واتصل حرف الجر في جل مواطن هذا النوع من التقديم بضمائر تعود على المتكلم أو المخاطب أو الغائب وهذا يناسب طبيعة الحوار حيث ينسب المتكلم الفعل إلى نفسه أو إلى مخاطبة أو يشير إلى طرف غائب. ومن ذلك تقدم الجار والمجرور على لفظ الجلالة (ربي أو ربنا) للدلالة على هبة أو مغفرة يمن بها الله على المتكلم ويختصه بها دون غيره، كما جاء في قول موسى، عليه السلام، لفرعون: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ

١- تقدم الجار والمجرور على الفاعل في المواطن الآتية: الجن: ١٠،٢٥، الشعراء: ٢١،٥١، هود: ٨١، الحجر: ٦٥، يوسف: ١٨، الأعراف: ٧١، النمل: ٢٤،٤٠، العنكبوت: ٢٨، الصافات: ٣١، القلم: ٢٤، الحاقة: ٢٨-٢٩، طه: ٦٤،٩٤.

﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:٢١]. وقول السحرة لفرعون وقد هددهم بالصلب: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٥١].

وقد يتقدم الجار والمجرور الذي هو جزء من الفاعل المؤخر أو بعضه للتحذير أو التخصيص، ومنه قول الرسل الموكلين بعذاب قوم لوط له: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ [هود:٨١].

أو يكون المجرور هو الكل والفاعل المؤخر جزءاً منه، كما جاء في قول يعقوب، عليه السلام، لبنيه وقد أخبروه بأن الذئب أكل أخاهم يوسف: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف:٨٣] فالنفس جزء من الإنسان، وقد فصلت في المثال السابق وتأخرت لبيان تأثيرها على المتقدم، فكأنه بهذا الفصل ينأى بأبنائه عن هذا الفعل الشنيع ويلصقه بأنفسهم الأمارة بالسوء.

وظهر هذا اللون من التقديم في سياق العذاب يوم القيامة للتخصيص والتأكيد، مثاله خطاب المتبوعين لاتباعهم في النار: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ [الصافات:٣٠-٣١] ففي تقديم الجار والمجرور (علينا) على الفاعل (قول ربنا) دلالة على تخصيص المتقدم بالعذاب وتأكيده، وإقرار المتكلم ويقينه بوقوع فعل الفاعل عليه.

وقول من أوتي كتابه بشماله: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩] وفيه تقدّم الاسم المجرور العائد إلى المتكلم على الفاعل مناسباً الدلالة على ندب الذات التي ستعذب قريباً، كما أن تأخر الفاعل في الموضعين (ماليه، سلطانيه) يلائم التعبير عن غياب المال والسلطان، ووقوف هذا الإنسان متجرداً منها لا يدفع عنه العذاب شيء. ربما شابه هذا الإحساس ببعد الفاعل أو تخلّيه قول بني إسرائيل لهارون:

﴿ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:٩١] فقد ابتعد بنو إسرائيل عن تعاليم موسى في غيابه، وعبدوا العجل، وعكفوا عليه ناسين موسى وما جاء به من الهدى، وقد أظهر تأخير الفاعل (موسى) هذا البعد والنسيان.

وقد يتعدد الجار والمجرور للتأكيد والتحديد والتفصيل كما في قول هود – عليه السلام– لقومه: ﴿ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ ﴾ [الأعراف:٧١]، فتقديم (عليكم) أفاد تخصيصهم بوقوع الرجس والغضب عليهم، وتبين شبه الجملة (من ربكم) مصدر هذا العذاب.

٤– تقديم المفعول به والظرف والجار والمجرور على الفاعل:

كما في قول أصحاب الجنة (البستان): ﴿ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴾ [القلم:٢٤] إن الفصل بين الفعل والفاعل يلائم الدلالة على منع المساكين من دخول الجنة، هذا بالإضافة إلى تقديم المفعول به(الهاء في يدخلنّها) لأهمية الجنة وحرص أصحابها عليها، وتقديم ظرف الزمان (اليوم) لما سيجري فيه من تغيير في التعامل مع المساكين. وتقديم الجار والمجرور (عليكم) للتخصيص والتأكيد.

٥– تقديم الظرف على الفاعل:

كما في قول ملأ فرعون: ﴿ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ [طه:٦٤] لأهمية الزمان (اليوم) ففيه ستحسم القضية بالقضاء على موسى وأتباعه.

٦– تقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل:

للتخصيص والتأكيد، كما في قول اخوة يوسف لأبيهم: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾ [يوسف:٦٣] فالمنع خاص بهم دون غيرهم. وقوله على لسان رسوله – ﷺ–: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [الأنعام:١٩] للتأكيد والتخصيص.

٧– تقديم الجار والمجرور على مفعول اسم الفاعل:

للتحديد والتفصيل والتخصيص وجاء هذا الأسلوب في ثلاثة مشاهد حوارية

فصل الجار والمجرور في اثنين منها بين اسم الفاعل (جاعل) والمفعول به وذلك في: قوله تعالى للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]. وقوله تعالى لإبراهيم، عليه السلام: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة:١٢٤].

يجمع المقولتين السابقتين مجموعة من الملامح المشتركة، فالقائل هو الله عز وجل، وسبق اسم الفاعل (جاعل) بـ (إنيّ) الدال على التوكيد، وانتمى المفعول في المقولتين إلى حقل دلالي واحد (خليفة، إمام)، وفصل بين اسم الفاعل والمفعول بالجار والمجرور للدلالة على التخصيص والتحديد.

٨- تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

ويلفت النظر في ظاهرة تقديم الجار والمجرور على المفعول به الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها في لغة الحوار القرآني، فقد جاءت في سبعة وخمسين موضعاً[١]. وتنوع الاسم المجرور فجاء ضميراً وجاء اسماً ظاهراً. ودل هذا التقديم على التوكيد والاختصاص والتحديد والاهتمام وغيرها من الدلالات الخاصة المرتبطة بالسياق.

واللافت ارتباط جل المشاهد الحوارية التي جاء فيها الاسم المجرور ضمير متكلم بسياقات الطلب أو ما يدل عليه. فالمفعول به المتأخر هو المطلوب، وقد تقدم الجار والمجرور عليه لتخصيص هذا المطلوب بالضمير المتصل بحرف الجر. ومثاله ما جاء في قول إبراهيم عليه السلام داعياً الله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء:٨٣-٨٤] ودعاء يوسف ربه: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف:٣٣]، وقول عيسى -عليه السلام- داعياً: ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً

١- هي: الكهف: ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٣، مريم: ٥، ٢٥، ٢٦، ٤٧، النساء: ١١٨، نوح: ١٣، ٢٦، ص: ٤٤، الأعراف: ٧٢، ٨٩، ١٨٨، يوسف: ٤، ٢٥، ٣٣، ٦٣، الشعراء: ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٤٩، ١٨٧، البقرة: ١٣٢، ١٧٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٠، آل عمران: ٣٨، ٦٤، ٨١، ١٦٨، المائدة: ١٧، ٢٣، ٢٨، ١١٤، الأنعام: ١٢، يونس: ٨٧، إبراهيم: ٣٩، الإسراء: ٩٠، ٩٣، النمل: ٤١، القصص: ٣٥، العنكبوت: ١٧، ٢٥، ٣٠، الأحزاب: ١٧، الحجرات: ١٧، ق: ٢٤.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [المائدة:١١٤] فالمتكلم في هذه المشاهد يقدم ذاته على المطلوب رجاء أن يخصه الله بهذا المطلوب.

ولكن قد يكون المتكلم خصم من يخاطبه فيقدم الضمير الذي يعود عليه ليخصه المخاطب بهذا الطلب تحديا وتعجيزا، ومن ذلك قول قوم شعيب له متحدين ساخرين: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الشعراء:١٨٧] وقول مشركي قريش لمحمد ﷺ: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء:٩٠].

وقد يدل هذا التقديم على أدب المتكلم في حواره، ومراعاته للطرف الآخر، مثاله قول الخضر، عليه السلام، لموسى وقد طلب منه أن يصاحبه: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٦٧] فتقديم (معي) على المفعول (صبرا) يخصص المفعول ويربطه بحالة وجود موسى مع الخضر، أي أن صبر موسى سينفذ إذا رافقه، فلو قال: إنك لن تستطيع صبرا معي، لتبادر إلى ذهن المخاطب انتفاء الصبر والقدرة عليه في كل الأحوال. وفي هذا ما قد يزعجه، ولكن الخضر كان حريصا في كلامه، فربط عدم القدرة على الصبر بوجود المخاطب معه فقط. وجاء رد موسى عليه بتقديم مماثل يدل على الاختصاص وتأكيد امتثاله للأوامر مظهرا استسلامه وحسن اتباعه ليغري الخضر بالموافقة على طلبه: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف:٦٩].

وقد يكون الضمير المتصل بحرف الجر ضمير مخاطب قدم على المفعول به لتذكير المخاطب باختصاصه هو دون غيره بالمفعول، أي أن الاهتمام ينصب على النسبة، ومنه قول نوح لقومه مذكرا: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح:١٢]. وقول يعقوب لبنيه موصيا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢]. وقول إبراهيم لأبيه مخصا إياه بالاستغفار رحمة وشفقة: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾ [مريم:٤٧]؛ فالجنات والأنهار جعلها الله لقوم نوح دون غيرهم، وكذلك جعل الدين واصطفاه لأبناء

يعقوب، وخص والده بالاستغفار حباً وحرصاً عليه أملا في إيمانه.

وجاء الاسم المجرور اسماً ظاهراً في عدد من المشاهد الحوارية التي يحتاج الأمر فيها إلى تصريح وتوضيح. ومن ذلك قول صالح لقوم ثمود: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء:١٤٩] فقد تقدم الجار والمجرور (من الجبال) على المفعول به (بيوتاً) لتخصيص المادة التي بنيت منها هذه البيوت تذكيراً بنعم ا لله عليهم، وتسخيرها في الأرض لخدمتهم حتى الجبال وهي دليل على الشموخ والتدين وفي تقديمها تعظيم وبيان لجبروت قوم ثمود وقوتهم ومهارتهم.

ومنه قول شعيب لقومه وقد طلبوا منه أن يعود في ملتهم: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم ﴾ [الأعراف:٨٩] تقدم الجار والمجرور (علي الله) على المفعول (كذباً) للاستهجان والاستعظام من أن يكون الكذب مرتبطاً بعلاقتهم مع الله. وجاء هذا التقديم في أحضان تقديم آخر هو تقديم جواب الشرط ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ على جملة الشرط ﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم ﴾ وفيه زيادة تأكيد للاستهجان والرفض والإنكار.

وقول الصوت الذي نادى مريم بعد أن ولدت عيسى، عليه السلام: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ: إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٦] أفاد تقديم الجار والمجرور (من البشر) و(للرحمن) على المفعولين (أحداً، صوماً) التخصيص والربط، فقد ربط المفعول (أحداً) بالجنس البشري فأفاد بيان النوع. ونسب الصوم وخصص بأنه للرحمن، وحصر تقديم ظرف الزمان (اليوم) الفعل (لن أكلم) بالمفعول (إنسياً) أي أن وقوع عدم التكليم على البشر محصور بزمان. فالأهمية في هذا الخطاب منصبة على ما قدم: النوع، والغاية التي من أجلها يتمثل لهذا الأمر، والمدة الزمنية، وفي ذلك تحديد واضح وتخصيص يلتزم به المتلقي، لكونه نذراً ينبغي على مريم الالتزام به حرفياً.

وقد تضاف الضمائر إلى الاسم المجرور المتقدم على المفعول به، وتتعدد تبعاً لهذا المضاف غايات المتكلم وأهدافه. ففي قول امرأة العزيز لزوجها وقد رآها تلحق بيوسف بهيئة مريبة فأرادت أن تبرئ ساحتها عند زوجها مثيرة غيرته على عرضه: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾ [يوسف:٢٥]، تقدم الجار والمجرور المضاف إلى ضمير المخاطب العائد إلى العزيز (بأهلك)على المفعول به (سوءاً) دالاً على مكر امرأة العزيز، فقد قدمت ما يحرص الرجل على صيانته و حمايته هو العرض لإثارته على يوسف وتبرئة ذاتها من هذه الشبهة.

وفي قول إبليس لله عز وجل متحدياً: ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء:١١٨] أفاد تقديم (من عبادك) على المفعول (نصيباً) تخصيص هذا النصيب وانتخاب عناصره ودقة الاختيار فالذين سيتخذهم إبليس نصيباً مفروضاً هم من عباد الله الذي يؤرقون إبليس ويثيرون غيرته، فيوجه مكره لهم توجيهاً خاصاً.

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور المضاف إلى ضمير المخاطب في قول لوط -عليه السلام- لقومه موبخاً: ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت:٢٩] استهجان المتقدم أكثر من المنكر نفسه، فالمستقبح المجاهرة بالفاحشة اكثر من الفاحشة ذاتها.

٩- تقدم الجار والمجرور ووقوعه بين المفعول به الأول والثاني:

ومثاله قول قوم شعيب له ساخرين محتقرين: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود:٩١] أي إنا لنراك ضعيفاً فينا. فقدم الجار والمجرور وفصل بين المفعول الأول (كاف الخطاب في نراك) و المفعول الثاني (ضعيفاً) لإفادة الحصر والتخصيص من باب الفخر بالذات عن طريق ذم الاخر، فأنت ضعيف في حالة وجودك فينا لظهور قوتنا وتميزنا.

وها هو صالح،عليه السلام، يقدم الجار والمجرور تخصيصاً وتأكيداً وإقراراً بالفضل فيقول لقومه: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى

﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ [هود:٦٣] فقد فصل الجار والمجرور (منه) بين المفعول به الأول (ياء المتكلم) في (آتاني) والمفعول به الثاني (رحمة)، لأهمية المتقدم، فصالح، عليه السلام، يريد أن يبين لقومه أن مصدر هذه الرحمة من الله، آتاه إياها دون غيره.

وقول يوسف لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] حيث قدم (لي) على المفعول الثاني (ساجدين) لإفادة اختصاص هذا السجود ليوسف وحده، فالذي يثير هذا الصبي ليس السجود المجرد وإنما كون هذا السجود له.

وقد يتعدد الجار والمجرور الذي يتقدم على المفعول به للتوضيح والتحديد والتفصيل وغيرها من الدلالات المرتبطة بظروف الحدث الحواري، ومن ذلك: قول إبراهيم، عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، فتعدد الجار والمجرور الذي يفصل بين الفعل (وهب) والمفعول به (إسماعيل) له دلالة تخصيص الحالة التي وقع بها فعل الفاعل على المفعول فالله وهب إسماعيل وإسحاق لإبراهيم وهذه الهبة قد يمنها الله على كثيرين، ولكن هبته لإبراهيم،عليه السلام، كانت خاصة تكريماً له وقد حمد إبراهيم الله على هذه الهبة الخاصة مقدماً أسباب خصوصيتها، فهي هبة منه لإبراهيم خصه بها، وقد جاءت في كبره حين ينقطع الأمل بالإنجاب، فكان التقديم لإظهاره هذه الخصوصية.

وقد يوحي هذا التقديم بالتفصيل والتوضيح ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً إبراهيم،عليه السلام، وقد سأله عن كيفية إحياء الموتى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:٢٦٠] ليريه أنه قادر على جمعها من هذه الأماكن المتباعدة المتفرقة.

وتقديم الظرف على المفعول به لأهمية الدلالة والتركيز على البعد الزماني أو المكاني اللازم لإيقاع فعل الفاعل على مفعوله، ومثاله قول الصوت الذي

نادى مريم: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم:٢٤] حيث تقدّم ظرف المكان (تحتك) على المفعول (سريا) تكريماً لسيدتنا مريم وتطميناً لها وتسرية، بالإضافة إلى التركيز على البعد المكاني. وقول الصوت نفسه لمريم بعد ذلك أن تقول: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٦] حيث قدم ظرف الزمان (اليوم) على المفعول به (إنسياً) تركيزاً عليه، فالوفاء بالنذر يرتبط بأوقات محددة.

ب- التقديم والتأخير في الجملتين الاسمية والشرطية:

أولاً : التقديم والتأخير في الجملة الاسمية:

١- تقديم خبر المبتدأ عليه:

الأصل أن يتقدم المبتدأ على الخبر، ولكن قد يتأخر المبتدأ عن خبره في سياقات يهتم فيها المتكلم بما يحمله الخبر من معان فيقدمه للتنبيه، أو التعجيب أو التعظيم أو استعجال الأمر وغيرها من الدلالات.وتقدم الخبر على المبتدأ في الحوارات القرآنية في ثمانية مواضع[١]، منها قول والد سيدنا إبراهيم له موبخاً: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [مريم:٤٦] فقد قدم الخبر (راغب) على المبتدأ (أنت) لان الرغبة عن الآلهة كانت مثار إنكاره، لا كون إبراهيم هو الراغب، لان آلهته لا ينبغي إن يرغب عنها. ولو تقدم المبتدأ : (أأنت راغب، لكان الإنكار موجهاً إلى إبراهيم) [٢]. وقول ملائكة العذاب للكفار المنكرين: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور:١٥] بتقديم الخبر (سحر) على المبتدأ (هذا) لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ، فقد كان الكفار قد ادعوا بأن الوحي سحر، فقدمت مقولتهم وقولبت في قالب السؤال تذكيراً بها، فزعمهم بأن الوحي سحر أورثهم هذا العذاب. ومنه أيضاً قول

١- هي: الأعراف:(١٣١-١٣٩)، يونس:٧٧، الجن:٢٥، غافر:٢٨، مريم:٤٦، البقرة:١٤٢.

٢- ينظر في تفسير الآية وشرح ما فيها من دلالة التقديم الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥١١.

موسى لأتباعه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم أصناماً: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٩] حيث قدم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لـ(إن) وهو (متبر)، كما تقدّم خبر ما (باطل) ليخوف موسى أتباعه ويحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا. فتقديم خبر المبتدأ (متبر) وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار، وهو لهم ضربة لازب. وتقديم خبر ما (باطل) إبراز لقبح عملهم وسوء عاقبته.

وتقدم الجار والمجرور على خبر المبتدأ، في قوله تعالى: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم:٩ - ٢١] الذي تكرر في مشهدين حواريين على لسان الرسل من الملائكة ينقلون خطاب الله إلى اثنين من آل عمران؛ الأول: زكريا عليه السلام، والثاني: مريم عليها السلام. وكان مضمون الخطاب يدور حول إنجاب الغلام كما كانت استجابة الطرفين المخاطبين واحدة؛ فقد قال زكريا: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم:٨] وقالت مريم: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٠]. وجاء الرد على تساؤلهما:

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم:٩] (الخطاب موجه لزكريا)

﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم:٢١] (الخطاب موجه لمريم).

وفيهما تقدم الجار والمجرور (عليّ) على خبر المبتدأ (هيّن) للدلالة على اختصاص هذا الأمر الخارق للعادة بالله وحده دون غيره، فهو وحده القادر على جعل العقيم والمسن ينجبان، وهو القادر على جعل الفتاة التي لم يمسسها بشر بزواج أو زناً تنجب أيضاً. وتقدمت شبه الجملة (له) على خبر المبتدأ في كلام أتباع الرسل للدلالة على الاختصاص ومن ذلك قول أبناء يعقوب لأبيهم وقد حضرته الوفاة: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣] إنّ الموقف الذي يحيط بالحوار السابق يستدعي الاستعجال في تقديم ما يهم المخاطب ويحرص عليه، فيعقوب،

عليه السلام، يحتضر، وهو قلق على إيمان أبنائه بعد وفاته، يريد منهم تأكيد ثباتهم على ما جاء به هو وآباؤه من قبل. ويدرك أبناء يعقوب هذه الرغبة فيؤكدون لأبيهم ثباتهم والتزامهم مفصلين معددين، فيقدمون شبه الجملة (له) التي يعود فيها الضمير إلى الله عز وجل، لتعجيل تطمين والدهم باختصاص إسلامهم بالله وحده وتوكيد هذا الاختصاص.

٢- الترتيب في جملة كان وأخواتها:

تقدم خبر كان وأخواتها على اسمها في عدد من المواطن الحوارية[1]، لكون الخبر مركز الأهمية ومحط الفائدة في تلك السياقات. وجاء جل هذه التقديمات في مقامات التحدي والصراع، من ذلك قول بني إسرائيل لنبيهم حين أخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً: فأجابوه منكرين رافضين: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ ﴾ [البقرة:٢٤٧] تقدم الخبر (له) على اسم يكون (الملك) لأنه الخبر هو محط الإنكار والتعجب، فالتركيز على اختصاص الملك بطالوت لا على الملك نفسه. كما يدل هذا التقديم على احتقار المتقدم والتقليل من شأنه، والغيرة منه.

وتتكشف هذه الدلالة في قول الملأ من قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٧٨] فقد تقدم خبر تكون (لكما) على اسمها (الكبرياء)، لان اختصاص موسى وهارون بالرسالة أثار غيرتهم ورفضهم، والنفس تقدم ما يؤرقها ويقض مضجعها.

وتأكدت هذه المشاعر بتكرار التقديم: ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد تكررت شبه الجملة العائدة على موسى وهارون، وتقدمت على الخبر (بمؤمنين).

١- عدد هذه المواطن ستة هي: البقرة: ٢٤٧، الأعراف: ٣٩، يونس: ٧٨، الزخرف: ٥١، الكهف: ٨٢، الحاقة:٣٥.

ويقابل الطرف الآخر هذا التقديم بتقديم مماثل تحديا وتوكيدا، فقد جاء في رد موسى على تكذيب آل فرعون له وسخريتهم منه قال: ﴿ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٣٧] فقد تقدم خبر تكون (له) على اسمها (عاقبة الدار) لأنه محط الترقب والاهتمام، وفي هذا التقديم وعد ووعيد؛ وعد للصالحين من أتباع موسى بأن تكون عاقبة الدار لهم، ووعيد لفرعون وأتباعه بسوء العاقبة التي ستحل بهم.

ويتأجج الصراع بين أهل النار يوم القيامة، ويجسم تقديم الخبر هذا الصراع وما يحمله من مواجهات عنيفة: ﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٣٩].

وأصل الجملة قبل التقديم: (فما كان من فضل لكم علينا) فقدم الخبر (لكم) لتأكيد نفي الفضل عنهم، والشماتة بهم فهم متساوون في استحقاق العذاب.

وقد يدل تأخر اسم كان وأخواتها على ابتعاده فعليا أو غيابه وعدم وجوده، يقول الله عز وجل عن الكافر الذي استحق دخول جهنم: ﴿ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴾ [الحاقة:٣٥] حيث فصلت العناصر التالية بين ليس واسمها (حميم) بـ: الخبر (له)، وظرف الزمان (اليوم)، وحرف التنبيه (ها)، واسم الإشارة للمكان (هنا)؛ وذلك لكون الحميم مفقودا وغائبا، وتأخيره بتعدي العناصر السابقة؛ عليه يلائم التعبير عن تنحيه وغيابه.

هذا بالإضافة إلى التركيز على العناصر المتقدمة: فتقديم (له) يدل على تخصيص الكافر بهذا الحرمان من القريب المعين، وتقديم (اليوم) يدل على تخصيص هذا الحرمان والعذاب بزمان محدد هو يوم القيامة، وتقديم (هاهنا) لتخصيص المكان وهو جهنم.

ويعكس تقديم خبر ليس (لي) في سؤال فرعون قومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الزخرف:٥١].

ملمحين من ملامح شخصية فرعون؛ الأول راسخ فيه يتجسم بالغرور والشعور الطاغي بعظمة الذات وعظم ما يملك (مصر وأنهارها)، والثاني طارئ تلبسه بعد جهر موسى بدعوته، يتمثل بالخوف والقلق والشك من ولاء اتباعه وثباتهم معه في مواجهة موسى وأتباعه، لكثرة الآيات المعجزات التي جاء بها موسى، إنه يجس نبض ولاء أتباعه ويقينهم بملكيته وسيطرته على مصر وما فيها بسؤاله التقريري مقدما الخبر (لي)؛ لأن ثبات ملكية مصر له هو ما يؤرقه ويهمه؛ فالمالك لا يلجأ إلى السؤال عن نسبة ما يملك إليه إلا إذا اعتراه شك في نية من يخاطبه.

وتقدم اسم كان عليها في إجابة الخضر، عليه السلام، عن الأسئلة الإنكارية التي وجهها له موسى والمتعلقة بالسفينة التي خرقها، والغلام الذي قتله، والجدار الذي أقامه، فأجابه:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ...... ﴾ [الكهف:٧٩]

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ...... ﴾ [الكهف:٨٠]

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ [الكهف:٨٢]

كان من الممكن أن تكون إجابته على النحو الآتي: (لقد كانت السفينة لمساكين ..)، (وكان الغلام ابنا لأبوين مؤمنين..)، (وكان الجدار لغلامين يتيمن ...) لكنه المعلم العليم الذي وصفه الله بقوله: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٥] فالخضر يعلم مقدار العنت والمشتقة التي سببتها أفعاله الغريبة المجهولة الحوافز في نفس سيدنا موسى – عليه السلام– فأراد أن يرفع ثقل هذا العناء، فقدم ما يشغل نفس موسى (السفينة، والغلام، والجدار)، لانعقاد قلبه بها، وتطلعه إلى سر ما حدث لها (خرق السفينة، قتل الغلام، بناء الجدار). فعجل لنفس موسى عليه السلام ما تريد معرفته شفقة عليه ورحمة فيه.

وتقدم الجار والمجرور على خبر كان وأخواتها في اثني عشر موضعاً[1]، منها جاء في: قول قوم مريم لها وقد أشارت إلى عيسى طالبة منهم تكليمه: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم:٢٩] فقدموا الجار والمجرور (في المهد) على خبر كان (صبياً) تخصصياً وتأكيداً لاستحالة تكليمه، فارتباط الصبي بالمهد يؤكد صغره وعدم إدراكه للكلام.

وقول إبراهيم، عليه السلام، لأبيه ناصحاً محذراً: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا. يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٤-٤٥] تقدمت شبه الجملة (للرحمن) على خبر كان (عصياً) للدلالة على الاستهجان واستقباح عصيان الشيطان، فهو عصيان للرحمن وهذا أدعى للحذر منه والابتعاد عن طاعته، وتقدم الجار والمجرور (للشيطان) على خبر كان (ولياً) للدلالة على قبح هذه الولاية فهي ولاية الشيطان، وفي التقديمين دلالة على التحذير والنصح، فالمحذر يقدم ما يخشاه على المتلقي مركزاً على ما يمكن أن يثيره.

وينهي إبراهيم حواره مع والده قائلاً: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم:٤٧] حيث قدم شبه الجملة (بي) على خبر كان (حفياً) لإقناع أبيه بترك ما يعبد والإيمان بالله وحده، إنه يبين بهذا التقديم مكانته عند ربه وثقته بدعوته قائلاً: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ ليخصص نفسه بهذه الحفاوة ويؤكدها.

٣- الترتيب في جملة إن وأخواتها:

تقدم خبر إن على اسمها في قوله تعالى مخاطباً إبليس: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر:٣٥] لإفادة اختصاص إبليس بهذه اللعنة المطلقة. وفي قول موسى لأصحابه محاولاً التخفيف من روعهم حين لحق بهم فرعون

١- هي: مريم: (٤،٢٩،٤٤،٥٤،٤٧)، طه: (٩١-٩٧)، الفرقان: ٢٩، يوسف: ٨١، الشعراء: ٧١، هود: ٦٢، الجن: ١٥.

وأتباعه: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] تقدم الخبر (معي) على اسم إنّ (ربي) لإفادة تعجيل تطمين النفوس المضطربة الخائفة بتأكيد المعية الموحية بالسند والقوة. كما دل قوله (معي) لا (معنا) على إدراك موسى عدم استشعار أتباعه لهذه المعية، والدليل على ذلك قولهم لما تراءى الجمعان: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦١] فأراد، عليه السلام، أن يطمئنهم بوجود شيء معه وحده سينقذهم، مثيراً بهذا التقديم شوقهم وتعلقهم بالمتأخر.

وقد يتقدم الجار والمجرور أو الظرف أو كلاهما على خبر إن وأخواتها لإفادة التخصيص والتفصيل والتأكيد، من ذلك قول كفار مكة عن الحق لما جاءهم: ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف:٣٠]. وقول الله لأهل النار: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف:٧٨]. وقول الملك ليوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف:٥٤].

ثانياً: التقديم والتأخير في الجملة الشرطية:

تقديم جملة جواب الشرط على جملة الشرط ظاهرة قارة في لغة الحوار القرآني فقد جاءت في تسعة وأربعين موضعاً[1]. وارتبط جلها بسياقات التحدي التي ظللت حوارات الأنبياء وأقوامهم. وتكاد تنحصر جملة الشرط في هذه السياقات بعبارة واحدة هي(إن كنتم صادقين)، لأن كل طرف من أطراف الحوار يطلب من الطرف الآخر دليلاً واضحاً أو معجزة خارقة تثبت صدق كلامه.

وتُقدَّم جملة جواب الشرط لأنها محط الاهتمام و موطن التحدي، فالمتكلم يعنى بالنتيجة فيجعلها مدار التركيب. فقد تقدمت جملة جواب الشرط في خطاب المعاندين من الكفار لأنبيائهم ودلّ تقدمها على الاستهتار بما تحويه من

١- البقرة: (٣١،٩١،١١١،١٨٦)، آل عمران: (٤٩،١٦٨)، المائدة: (١٧،٢٣،١١٢)، الأعراف: (٧٠،٧٧،٨٩،١٠٦)، الأنفال: ١، يوسف: (١٠،٤٣،٧٤)، الحجر: ٧١، الأنبياء: (٣٨،٦٣،٦٨)، الشعراء: (٢٤،٢٨،٣١،٤١،١٥٤،١٨٧)،النمل: ٧١، العنكبوت: ٢٩، السجدة: ٢٨، سبأ: ٢٩، الدخان: ٣٦، الجاثية:٢٥، الأحقاف: (٤،٢٢)، الحجرات: ١٧، الملك: ٢٥، القلم: ٢٢، الأحزاب: (١٦،١٧)، الأنعام: ١٥، فصلت: ٥.

طلب العذاب الاستهتار بتهديد الأنبياء، ومن ذلك: قول قوم لوط له ساخرين منكرين: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٩]. وقول أصحاب الأيكة لشعيب:﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٨٧] وقول قوم ثمود لصالح بعد أن عقروا الناقة: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٧٧].

وقد يقدم طلب آية أو دليل خارق للعادة تحديا وتعجيزا للنبي، ومنه قول قوم ثمود لصالح: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٤].

وكثر تقديم جملة جواب الشرط التي تحوي سؤالهم عن يوم القيامة أو يوم عذابهم، وفي هذا التقديم دلالة على استعجالهم بتحقيق هذا العذاب تكذيبا واستخفافا بتحذير النبي: ﴿ وَيَقُولُونَ: مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سبأ:٢٩].

وتقدمت جملة جواب الشرط في رد الأنبياء على تحدي أقوامهم وتهديدهم. ومن ذلك: جواب إبراهيم لقومه وقد سألوه: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٢] فقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣]، إن في تقديم جواب الشرط (اسألوهم) دليل على المواجهة بشيء يعلمونه لكنهم يخفونه مكابرة وعنادا. وهذا يناسب مواقف إفحام الخصم ودحض حجته ففيهما يقدم المخاصم نقاط ضعف خصمه ويبرزها ويعريها. وبرز هذا التقديم في الخطاب الذي يلقنه الله لرسوله، محمد صلى الله عليه وسلم، ليجابه به خصومه ويفحمهم، ومنه ما جاء في قوله تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ: فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٨] ردا على المنافقين الذين قالوا: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٦٨]. وقوله: ﴿ قُلْ: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩١] ردا

على المعاندين المنكرين من بني إسرائيل الذين قيل لهم: ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٩١] فقالوا: ﴿ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ [البقرة:٩١] حسدا وبغيا وحرصا على تميزهم. فقدم جواب الشرط لاستحضار هذا الأمر الفظيع وكشف سوء عملهم، ومواجهتهم به.

ويقدم الأنبياء في الرد على طلبات المعاندين ما يدل على خوفهم من الله لتحذيرهم، ولتوضيح غايتهم وهي الحرص على إرضاء الله وتجنب معصيته، ومثاله: قول شعيب للملأ الذين استكبروا من قومه وقد خيروه بين الخروج من القرية أو العودة في ملتهم، فقال: ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ ﴾ [الأعراف:٨٩] فقد قدم جواب الشرط لاستعظامه واستهجانه، ونستشف من هذا التقديم جرأة شعيب وتصريحه بسوء العاقبة إن عاد في ملتهم، فهو لا يجامل ولا يهادن على حساب عقيدته.

ومثله ما جاء في قول نوح، عليه السلام، لقومه وقد سألوه أن يطرد الضعفاء الذين آمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على السواء: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود:٣٠] إنه يقدم ما يهمه ويحذره.

وتقدمت جملة جواب الشرط المتضمنة رأيا يرجو أحد أطراف الحوار تحقيقه وتنفيذه، ومن ذلك:

قول أصحاب الجنة لبعضهم البعض ﴿ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴾ [القلم:٢٢]، ففي تقديم جملة جواب الشرط ﴿ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ ﴾ دلالة على الحرص والعجلة في قطع الثمار قبل مجيء المساكين لأخذ نصيبهم من الثمار إنهم يقدمون ما انعقد في قلوبهم من حب خيرات الأرض والحرص على جمعها وحمايتها من أي زائر أو غريب. وقول قوم إبراهيم: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٦٨] الذي قدمت فيه جملة جواب الشرط ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾ مجسمة رغبتهم بتعجيل إيقاع

العقوبة بإبراهيم تخلصا منه بعد أن أفحمهم وحطم أصنامهم.

وقول أحد أبناء يعقوب لاخوتــه: ﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف:١٠] دل تقديم جملة جواب الشرط على خوف اعترى نفس المتكلم، فأسرع إلى تقديم طريقة للتخلص من يوسف، وبدأ بنهيهم عن قتله خشية من الله ورحمة بوالدهم فالشر في نفوس الصالحين لا يتصاعد. ويبدو أن هذا القرار الذي توصل إليه خلصه من صراع داخلي اعتراه واعترى اخوته، بدليل سرعة تنفيذه.

ولإدراك أهمية التقديم السابق دعونا نعيد الجملة إلى ترتيبها الأصلي: (إن كنتم فاعلين ما أقوله لكم فلا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب..) ستضحي جملة عادية صادرة عن متكلم حيادي الغايات، يطرح رأيه دون أن يعنيه أو يؤرقه تنفيذ الطرف الآخر، أما وقد يرغب بتنفيذ رأيه فانه يبدأ بعرضه مؤخرا جملة الشرط ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

وتقدمت جملة جواب الشرط لتأكد المتكلم من تحققها، ومن ذلك قول السحرة لفرعون: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٣] وفيه تقدمت جملة جواب الشرط: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على جملة الشرط ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ لإفادة ثبوت الأجر وإيجابه وعظمته على تقدير الغلبة التي هم واثقون منها. فلو قالوا: (إن كنا نحن الغالبين فإن لنا لأجرا)، لدل هذا على عدم يقينهم أو ثقتهم بالغلبة على موسى وهارون. ولكن تقديم جواب الشرط دل على ثقتهم بأن النصر حليفهم لذا فإن النتيجة لا تؤرقهم، وإنما يؤرقهم الأجر على هذه النتيجة الحتمية ولهذا قدموه في خطابهم.

ثالثا: ما قدم في آية وأخر في أخرى:

ويبدو أثر السياق واضحا في هذا النوع؛ إذ أن السياق وحده اقتضى التقديم في موضع، والتأخير في موضع آخر، وذلك في محاورة الشخصية لغيرها حين تتكرر هذه المحاورة في أكثر من سورة. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

[الأعراف:١٢١-١٢٢]، وقوله: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠]. نلاحظ تقديم موسى على هارون في الآية الأولى، وتقديم هارون على موسى في الآية الثانية، وربما يعود تقديم هارون على موسى في آية سورة طه إلى سؤال موسى ربه أن يجعل أخاه هارون شريكه في أداء الرسالة، يعنيه ويشد عضده، لأنه أكبر منه سنا وأفصح لسانا: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى، هَـٰرُونَ أَخِى، ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى، وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى، كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه:٢٩-٣٥] فجاء تقديم هارون على موسى ملائما لهذا التركيز على شخص هارون وهذا لا نجده في سورتي الأعراف والشعراء[١].

كما أن في تقديم هارون في سورة طه أيضا إبرازا لدوره، وتركيزا على مشاركته في الأحداث، ثم جاء بعده موسى على سبيل الترقي، من البدء بالأفضل، فالأفضل، بخلاف ذكره بعد موسى في مثل سياقاته، فإنه يوحي بتبعيته، ويبدو في دور المساند لا المشارك[٢].

قوله تعالى على لسان زكريا، عليه السلام: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم:٨]، وقوله: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران:٤٠]، بتقديم حالة زوجته على حالته في سورة مريم، وتقديم حالته على حالة زوجته في آية سورة عمران.

١- تقدم (موسى) على (هارون) في آية سورة الشعراء أيضا: (قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون) الشعراء/٤٧-٤٨.

٢- ينظر: د. محمد الأمين الخضري، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، ص١٩، وذكر عبد الكريم الخطيب أن من غير الطبيعي أن يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون، عليهما السلام وانه إذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة، فإن بعضا من القوم ينظر إلى هارون النظرة نفسها، إذ كان صاحب فصاحة وبيان أكثر من موسى، أو أن هذا التقديم لهارون إنما كان من الذين قدموه إقرار قويا بالتسليم لهارون فضلا عن موسى (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٢٧٠).

ويمكن استشفاف سبب تقديم حالة زوجته في آية سورة مريم ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ من المضمون الرئيس الذي تحويه السورة؛ إنها تدور حول قصة مريم عليها السلام التي أنجبت بقدرة الله عز وجل غلاماً دون أن يمسها رجل، وهذا أمر خارق لكنه على الله هين. وزوجة زكريا عاقر لم تنجب في شبابها، فكيف ستنجب في كبرها؟ هذا سيكون أيضاً بقدرة الله وحده. وبهذا اندرج إنجاب العاقر تحت إنجاب الفتاة دون أن يمسها رجل. ويدل تكرار زكريا عبارة ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ في خطابه مع الله التركيز على حالة زوجته[١].

سبب آخر يمكن أن نُرجع إليه سر هذا التقديم في آية سورة مريم يتمثل استهلال زكريا دعاءه بذكر حالته، وإنهاء هذا الدعاء بذكر حالة زوجته[٢]. وحين فوجئ باستجابة دعوته وتبشيره بغلام منه ومن زوجته، تعجب من كيفية إنجابه وبدأ بذكر حالة زوجته التي أنهى بها دعاءه.

سبب ثالث نستشفه من المخاطب الذي يوجه زكريا إليه سؤاله؛ والكيفية التي وصلته البشرى. ففي سورة آل عمران، نادته الملائكة مبشرة إياه بالغلام[٣]، فتوجه بالسؤال مقدماً حالته لوجود واسطة في خطابه مع الله هي الملائكة ثم ذكر حالة زوجته مراعاة لها، وكأنه يبدأ بنسبة المشكلة إلى نفسه قبل أن يعزوها لزوجته تأدباً منه وتقديراً لها. ولكن يختفي هذا الوسيط في سورة مريم، فيبدو الخطاب مباشراً بين زكريا وربه[٤]، وتتكشف الأمور، لأن الله يعلم ما في الصدور، فيقدم زكريا ذكر حالة الزوجه، لأنها السبب الرئيس في عدم الإنجاب. وبعبارة أخرى فإننا يمكن أن نعد الخطاب السابق ترجمة لحوار داخلي أو مناجاة دارت في نفس زكريا عليه السلام، لأنه كان على يقين من استجابة الله لدعائه، ولكنه كان يقف عاجزاً أمام الكيفية التي سيرزقه الله بها هذا الغلام، فدار

١- مريم: (٤-٦).

٢- آل عمران: (٣٩-٤٠).

٣- مريم: ٧.

٤- مريم: ٧.

الغلام، فدار في داخله حوار قدم فيه ما أخره في الحوار الصريح مراعاة لزوجته وتقديرا لها. والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. قُل: لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ [الأعراف:١٨٧-١٨٨] وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ. قُل: لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٤٨-٤٩]، تقدم (النفع) على (الضر) في آية سورة الأعراف، وتقدم (الضر) على (النفع) في آية سورة يونس.

يقول الخطيب الإسكافي معللا سر هذا التقدم والتأخير: "والجواب أن يقال أن الأولى بعد قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ [الأعراف:١٨٧]. وبعده: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. فكان معنى قوله: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الأعراف:١٨٨] لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب لها إلا ما ملكنيه الله ... ولو علمت الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني الفقر.

وأما الآية في سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى، وقبلها ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٤٦] ويقول الكفار:﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ؟ ﴾ قل. لا أملك لنفسي ما وعدكم الله من هذا العذاب ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب، كما لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله أن يملكنيه منهما..."[1] فتقديم النفع جاء في السؤال عن الغيب، ومن يعرف الغيب سيستكثر من الخيرات ويتجنب الشرور بكل أنواعها.

١- الخطيب الاسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، ص (١٨٠-١٨٢).

وتقديم الضر جاء في السؤال عن موعد العذاب. وهذا يعني تركيز الإجابة على طبيعة العنصر المذكور في السؤال.

قوله تعالى على لسان الكفار من أهل مكة: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل:٦٨]. وقوله: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٨٣]. ففي آية سورة (المؤمنون) جاء المفعول الثاني (هذا) في موضعه بعد المرفوع وما تبعه (نحن وآباؤنا). أما في آية سورة النمل فقد قدم المفعول الثاني (هذا) على (نحن وآباؤنا). ويمكن تعليل هذا بكون البعث مركز العناية ومحط الإنكار في آية سورة النمل، بدليل الآية التي سبقتها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ [النمل:٦٧] فالجهة المنظور إليها هاهنا هي كون أنفسهم وكون آبائهم ترابا، والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام.

وتوجه الإنكار في آية سورة (المؤمنون) إلى المبعوث؛ أي إنكار كون أنفسهم وآبائهم ترابا، بدليل الآية التي سبقتها: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٢].

وقد يتفق لفظ محاورة أحد الأنبياء لقومه مع ألفاظ محاورة نبي آخر لقومه باستثناء تغيير بسيط في ترتيب الكلمات؛ حيث تقدم كلمة في محاورة وتؤخر الكلمة ذاتها في محاورة مماثلة، مثاله قوله تعالى في محاورة نوح، عليه السلام، لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [هود:٢٨]، وقوله في محاورة صالح، عليه السلام، لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ [هود:٦٣] بتقديم (رحمة) على (من عنده) في الأولى، وتقديم (منه) على (رحمة) في الثانية. علل الغرناطي هذا التقديم بقوله:" والجواب عن ذلك: إن قوم صالح، عليه السلام، بالغوا في إساءة الجواب حيث قالوا: (قد كنت فينا مرجواً قبل هذا)

أي: قد كنت مرجوا أن تسود فينا حتى نقطع عن رأيك ونرجع إليك من أمورنا، فرموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم، ولما بالغوا في قبح الجواب بالغ، عليه السلام، في رد مقامهم، فقدم المجرور للتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى. فقال: ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ لما يحرز تقديمه من التأكيد ويعطيه بمفهومه من أن الرحمة منه سبحانه لا يشرك فيها غيره، وهو مخصوص لا يحصل مع تأخيره.

ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب، لان أقصى المفهوم من قولهم: (ما نراك إلا بشراً مثلنا) إلحاقه بهم ومماثلته إياهم، وكأنهم يقولون: لو كنت رسولاً لكنت من الملائكة ولم تكن لتماثلنا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قوم صالح، فجرى جوابه،عليه السلام، على نسبة ذلك فقال: ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ فأتى بالمجرور مؤخراً في محله على ما يجب، حيث لا يقصد من إحراز المفهوم ما قصد في الآية الأخرى، فورد كل على ما يلائم، والله أعلم"[١].

وقال الخطيب الإسكافي: "والجواب أن يقال: إن المعنيين واحد في الموضعين، وقولاهما سواء للأُمتين، وإنما اختلفا باختيار الله في موضع خبراً قدم فيه المفعول الثاني على الجار والمجرور؛ لإجراء هذا الفعل ومفعوليته على ما جرى عليه الفعل الذي قبله وهو: (ما نراك إلا بشراً مثلنا) فـ(بشرا) مفعول ثانٍ من نراك، وقوله: (ما نراك اتبعك) في موضع المفعول الثاني من نراك، ثم بعده: بل نظنكم كاذبين. فلما تقدمت أفعال ثلاثة كل واحد منها يتعدى إلى مفعولين والمفعول الثاني منها لا يحجزه عن الأول مفعول فيه، كان إجراء هذا الفعل الذي هو ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ مجرى تلك الأفعال التي وقعت (آتاني) في جوابها، وجاءت من كلام نوح، عليه السلام، في مقابلتها أولى.

وأما في قصة صالح، عليه السلام، فإنه بإزاء قول قومه له: ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ [هود:٦٢] فوقع خبر كان، الذي هو كالمفعول

١- الغرناطي، ملاك التأويل، ج٢، ص٦٥٢-٦٥٤.

لكان، وقد تقدمه الجار والمجرور، فجرى جواب صالح، عليه السلام، فيما صار عبارة عنه من العربية مجرى الابتداء في قوله: ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ على المفعول الثاني، كما ترجح هناك تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور، وكل جائز، إلا أن كلامنا في الترجيح في الموضعين"[1].

والتأويلان السابقان فيهما من الأدلة المنطقية المقنعة الشيء الكثير. اعتمد التأويل الأول المقام وما يتصل به من غايات المتكلم وأهدافه، وكيف انعكس هذا في ترتيب الكلمات. أما الثاني فقد نظر إلى ترتيب الكلمات في البنى التركيبية السابقة ليعلل ترتيب الكلمات في الجمل اللاحقة (محور البحث) مبيناً اتساق وتتابع هذا النمط من الترتيب. وبهذا يتضافر تفسيران؛ تفسير مضموني، وتفسير شكلي.

رابعاً: ما قدم وأخر في آية واحدة:

وسبب هذا النوع من التقديم الاعتناء بشأن المقدَّم والمؤخَّر على السواء. ويندرج هذا النوع من التقديم والتأخير ضمن النوع الأول (ما قدم والمعنى عليه)، إلا أنه يمتاز عن الأخير بأن التقديم والتأخير يحدثان في آية واحدة؛ فالكلمة تقدم في أول الآية وتأخر في نهايتها أو العكس.

ولم أجد في الحوارات القرآنية سوى مثالا واحدا هو قوله تعالى على لسان ابن آدم المؤمن التقي لأخيه وقد أراد أخوه قتله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٨]. فحين نسب فعل القتل إلى أخيه قدم الجار والمجرور (إلي) على المفعول به (يدك)، وحين نسب الفعل إلى نفسه قدم المفعول به (يدي) على الجار والمجرور (إليك).

ويفيد تقديم الجار والمجرور على المفعول تخصيص وقوع القتل بالمتكلم وما في ذلك من شناعة الحدث لطبيعة العلاقة التي تربط بين القاتل والمقتول، فلأخ المؤمن يريد بهذا التقديم تذكير أخيه الهائج بالأخوة التي تربط بينهما.

١- الخطيب الاسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، ص١٢٠.

وفي تقديم المفعول به (يدي) على الجار والمجرور (إليك) دلالة على النفي المطلق لصدور هذا الفعل من المتكلم، فهو بتقديم (اليد) يركز على أداة القتل التي لن يستخدمها لقتل أخيه؛ ففي تقديم الجار والمجرور (إلي) تقريب من الفعل (بسطت)، أي تقريب الضمير الذي سيقع عليه فعل القتل من الفعل الذي يدل على الشروع في القتل. وفي تأخير (إليك) ابتعاد الضمير الذي سيقع عليه الفعل عن اسم الفاعل الذي يوحي بالفعل (باسط).

ويمكن أن نستشف من هذا التقديم والتأخير قوة المتكلم الجسمية، ففي تقديم (إلي) على (يدك) دليل على أن ما يؤرقه العلاقة التي تربطهما لا أداة القتل (القوة). بينما يقدم القوة (يدي) على (إليك) لينفي استخدامه قوته في قتل أخيه لسبب واحد هو الخوف من الله، أي أنه بهذا التقديم يبرز قوته لا لتهديد أخيه بها، وإنما لتأكيد وجودها ورفض استخدامها ضده. والله أعلم.

وبعد، فهذا غيض من فيض، فالتقديم والتأخير "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة"[1]. وتتنوع دلالاته وأبعاده بما يتطلب الموقف أو السياق من أهداف ترتبط بأطراف الحوار.

١- الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص١٠٧.

التكرار

(دلالة التواجد المهيمن)

التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني ظاهرة أسلوبية قارة لا يمكن تجاوزها أو تحاشيها، فقد تحدت ببناها المتماثلة عقول الدارسين على اختلاف مشاربهم ونوازعهم. وانقسموا في تناولها إلى فريقين، فريق رأى في هذا التكرار إعجازا وبلاغة في التعبير، وتأكيدا في الكلام، وجمالا في الأداء، فأنبرى يتدبر أسراره وأهدافه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، كابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، والخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، والزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، والكرماني في كتابه (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، والخطيب الإسكافي في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل)، وكتاب (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل)، للغرناطي، وغيرهم من المتقدمين ومن سار على دربهم من المتأخرين، الذين تحدثوا عن التكرار في القرآن عامة أو في قصصه خاصة [1].

وفريق من أعداء الدين لم يتجاوز نظرهم البنى السطحية للكلمات، فاستعصى عليهم السر المكنون في أعماق هذه الأبنية التكرارية، فرأوا في

١- نذكر منهم: عبد القادر عطا، (أسرار التكرار في القرآن الكريم)، محمد حسين أبو الفتوح: (أسلوب التوكيد في القرآن الكريم)، محمد محمود قاسم: (التكرار في القرآن الكريم - دراسة بلاغية) ، فضل عباس: (القصص القرآني - ايحاؤه ونفحاته)، عبد الكريم الخطيب: (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه) ، التهامي نقرة: (سيكولوجية القصة في القرآن)، عبد الحليم حفني : (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم)، خالد قاسم بني دومي: (التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني: دراسة لغوية أسلوبية).

التكرار شبهة ينالون بها من بلاغة القرآن وإعجازه.

والتكرار لغة من الكر وهو: الرجوع على الشيء ، "فكرر الشيء وكركره: أعاده مرة بعد أخرى. والكرة: المرة، والجمع: الكرات، يقال: كررت عليه الحديث وكركرته إذا رددته عليه "[1].

والتكرار اللفظي في اصطلاح علماء البلاغة: إعادة الكلمة بلفظها ومعناها في القول مرتين فصاعدا لنكتة[2]. وبتعبير اللسانيات النصية: هو إعادة العنصر المعجمي نفسه. [3]

وللتكرار اللفظي وظائف حرص البلاغيون على رصدها، حيث إذا لم تكن له وظيفة فهو، عندهم، عيب، أو((الخذلان بعينه)) على حد تعبير ابن رشيق[4]، الذي رصد للتكرار اللفظي تسع وظائف هي: التوكيد، وزيادة التنبيه، والوعيد والتهديد، والتوجع، والهجاء، والتهكم، والتفخيم والتعظيم، والتشويق والتلذذ بذكر المكرر،والتوبيخ[5].

ويجمع البلاغيون والأدباء والنقاد وعلماء التفسير وعلوم القرآن على أهمية الدور الوظيفي لأسلوب التكرار. وتنبه إلى هذه الأهمية علماء النفس فرأوا "أنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكري وعاطفي تيلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات هو العدوى، إذ لا يكفي لتحول الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه. فالتكرار هو السبيل الوحيدة لربط الانفعال به، وتركزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة"[6]. وهذا يعني أن تكرار القول لا يقل تأثيرا في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعل، بل إن تكرار القول حافز هام

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (كرر).

٢- ابن الأثير، المثل السائر، (٢/١٤٦). وابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، ص ٣٤٥. والسلجماني، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص (٤٧٦-٤٧٧).

٣- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ٨٤.

٤- ابن رشيق، العمده، ج٢، ص٧٣.

٥- ابن رشيق، العمدة، ج٢، ص (٧٤-٧٦).

٦- مصطفى فهمي، الدوافع النفسية ، ص ١٠١.

لحدوث الفعل.

كما تحدث علماء النفس عن التكرار اللاشعوري في القول الذي يعكس نفسية المتكلم ومشاعره الكثيفة.

ويقدم محمد مفتاح فرضية تعتمد على أنه "كلما تشابهت البنية اللغوية فإنها تمثل نية نفسية متشابهة منسجمة، تهدف إلى تبليغ الرسالة عن طريق التكرار والإعادة. ويكون هذا التكرار متجاورا وقد يكون متباعدا"[١].

ويؤكد ما سبق أن التكرار آلية أسلوبية ينفذ بها المضمون، وهذا يعني ضرورة الكشف عن الموضوعات أوالمضامين الحوارية التي تشكلت فيها الأبنية التكرارية، لبيان ملائمة أسلوب التكرار للموضوعات التي عولجت من خلاله، وما أنتجه من دلالات وظيفية.

ولهذا الملمح الأسلوبي في لغة الحوار القرآني عمق دلالي لا يترك السياق على سطحيته الإيقاعية فحسب بل ينفذ إلى الإيقاع الداخلي العميق في الصياغة القرآنية تاركا أثره العميق في نفس المتلقي.

يقول أ. ف تشيتشرن: إن الرؤية العميقة والغوص إلى ما تحت البناء التركيبي للغة هو الأساس في استخراج الدلالات المطلوبة، ولعل للتكرار القوة التعبيرية الخاصة من بين الأساليب التي تعتمد على التوتر الإيقاعي والشكل الداخلي العميق لبناء الكلمة داخل سياقها، فيشدنا التحليل من شكل الكلمة إلى البناء الداخلي ثم إلى الإنتاج الشعري برمته[٢].

ومن هنا كان التكرار في لغة الحوار القرآني موجها لتحقيق غايات وأغراض، وتأكيدها بتكرير ذكرها في صور متنوعة لترسيخها في الأذهان وتقريرها، وتتكشف هذه الغايات بالغوص في البنية العميقة، وتأمل اللطائف الدقيقة التي أضفاها التكرار على المعنى.

وبعد رصد مواطن التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني رأينا إمكانية دراستها ضمن ثلاثة أنماط هي:

١- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ٣٩.

٢- أ.ف. تشيتشرن، الأفكار والأسلوب، ص(٥٠-٥٦).

النمط الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في الجملة أو النص وفق توزيعات مكانية متنوعة الأبعاد بين الدال الأول والدال المكرر في السورة الواحدة.

ونتناول هنا البناء التكراري المتشكل على المستويين الأفقي والعامودي، فإعادة الدال مرتين أو مرة بعد أخرى تؤدي دلالات وظيفية تتلاءم مع التنظيم النسقي للتركيب.

ويتشكل التكرار على المستوى الأفقي بانزياح الدال (العنصر المعجمي ذاته) من نقطة مكانية إلى نقطة أخرى أفقيا. ويتم التشكيل على المستوى العامودي بتكرير الدال وفق تناسق مكاني يأخذ ترتبيه داخل النص أو الفقرة كأن تتكرر بداية الفقرة مثلا.

وجاء هذا النمط من التكرار في أسلوبين هما:

١-تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار.

٢- تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار.

١- تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار:

وهذا من طبيعة الحوار المباشر، فقد يطرح أحد أطراف الحوار جملة ما متسائلا أو مخبرا أو آمرا أو ناهيا، فيثير اهتمام الطرف الآخر الذي يقوم بإعادة تلك الجملة ساخرا أو منكرا أو مؤكدا أو مجيبا أو غيرها من التعبيرات التي يوضحها السياق.

وهذا يعني تنوع التراكيب التي يرد فيها الدال المكرر بما يناسب غرض الطرف المحاور، وعكس الدال المكرر ردة فعله الكلامية على استثارة الطرف الآخر، ومنه: تكرار جملة (لبثت) في الحوار الذي دار بين الله عز وجل والرجل الذي مر على قرية خاوية على عروشها فقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩] فأماته الله مائة عام ثم بعثه ودار بينهما الحوار التالي. ﴿ قَالَ: كَمْ لَبِثْتَ؟ ﴾ [البقرة:٢٥٩] تركيب استفهامي

﴿ قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ تركيب خبري

﴿ قَالَ: بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾ تركيب خبري ينقض الخبر الأول

جاءت جملة (لبثت) في سؤال السائل العليم الذي يستنطق مخاطبه ليجيب بما أجابه: ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، فينقض السائل الإجابة السابقة بأداة الإضراب (بل)، ويجيب بعدها محددا مدة اللبث (مائة عام) وهي إجابة يقف المخاطب أمامها مستسلما مبهورا لا يملك سوى الإقرار بها: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩]. فالتكرار في هذا المثال قد تشكل من خلال الترجيع في المحاورة بين السؤال والجواب.

تكرار كلمة (يوسف) الواردة في سؤال أبناء يعقوب في إجابة يوسف على سؤالهم: ﴿ قَالُوٓا: أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ. ﴾ تركيب استفهامي

﴿ قَالَ: أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ﴾ [يوسف:٩٠] تركيب خبري

ويفيد تكرار التصريح بالعلم (يوسف) توكيدا من المخاطب المسؤول وتقوية وإثباتا ، فقد كان من الممكن أن تكون إجابة يوسف، عليه السلام، عن سؤالهم: أنا هو، أو: نعم، لكنه أعاد التلفظ بعبارة من جنس لفظتهم واصلا بظنهم إلى درجة اليقين، ففي سؤالهم ظن وشك في نسبة (أنت) إلى خبره (يوسف)، فجاءت عبارته (أنا يوسف) مثبتة ومؤكدة نسبة الضمير إلى الخبر ذاته.

وتكرار كلمة (الرحمن) الواردة على لسان الطرف المؤمن في سؤال الطرف الكافر: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ: ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ. ﴾ تركيب أمر

﴿ قَالُواْ: وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ ﴾ [الفرقان:٦٠] تركيب استفهام

أعاد الطرف الكافر التلفظ بالكلمة الأخيرة في جملة من خاطبهم آمرا ساخرين منكرين الكلمة التي انصب عليها تركيز الطرف الأول ونصحه؛ أي أن الكلمة ذاتها وردت على لسان الطرفين المتحاورين، وقولبها كل طرف في تركيب يعكس وجهته واعتقاده. وقد يأتي الدال الأول والدال المكرر في تراكيب متماثلة، وبرز هذا الأسلوب في سياق الخصومة والجدل بين الأطراف المتحاورة حيث يرد المخاطب المستثار على رسالة مخاطبه بالمثل، ومنه:

تكرار عبارة (لا مرحبا) على لسان فريق من أهل جهنم في ردهم على فريق آخر استثارهم بالعبارة ذاتها، فجاء التكرار كأنه معارضة وسجال:

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ.

: لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ.

قَالُواْ:بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [ص:٥٩-٦٠]

ومقارعة ظن فرعون بظن موسى في الحوار الذي دار بينهما:

﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ: إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا.

قَالَ: لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١-١٠٢].

كأنه قال: إن ظننتني مسحورا فأنا أظنك هالكا. إنها المماحكة ومحاولة طعن الخصم بأداته التعبيرية وفق مبدأ العين بالعين.

وأحيانا لا يقوم الخصم بمقابلة خصمه بالمثل مكتفيا بنفي تهمة ألصقها به، فيدل الدال الأول على التهمة، ويأتي الدال المكرر لنفي التهمة ذاتها. ومثاله تكرار كلمة (سفاهة) في حوار قوم عاد مع نبيهم هود:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ: إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ.

قَالَ:يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف:٦٦-٦٧]

لقد أعاد هود اللفظة ذاتها في سياق النفي (ليس بي) تاركا المقابلة بالمثل فهو لم ينسب اللفظة السابقة إلى قومه، ولكنه اكتفى بنفيها عن نفسه، وفي هذا دليل على حلمه وحسن خلقه.

وقد يكرر أحد أطراف الحوار جملة الطرف الآخر مع تبديل عنصر لفظي بآخر، ومنه: تكرار الملائكة جملة (هذا يوم) الواردة في مقولة الكفرة،

واستبداله كلمة (الدين) بكلمة (الفصل):

﴿ وَقَالُوا: يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ.

: هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات:٢٠-٢١]

إن الملائكة يكررون جملة من مقولة الكافرين لمفاجئتهم بسماعهم هذا الحوار الدائر بينهم ودب الرعب في قلوبهم، مستبدلين كلمة (الدين) بكلمة (الفصل) زيادة في تقريعهم وتخويفهم، لان في كلمة (الفصل) دلالة على الفرق بين فرق الهدى والضلالة. كما ان في تكرار جملة (هذا يوم) إبرازا لهذا الموعد الذي طالما أنكره المخاطب وتحقيقا لوقوعه. ومنه تكرار جملة (كانوا يعبدون) الواردة في سؤال الله، عز وجل، على لسان الملائكة الذين وجه إليهم السؤال مع استبدال المفعول به:

﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ: أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ.

قَالُواْ: سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]

أفادت (بل) السابقة للجملة المكررة براءة الملائكة من الرضا بعبادتهم لهم، ونفي وقوع فعل العبادة عليهم باستبدال المفعول به الواردة في السؤال التقريري (إياكم) بالمفعول به الحقيقي (الجن). ودل تكرار (كانوا يعبدون) على ثبات عبادة هؤلاء لغير الله.

وقد يكرر أحد أطراف الحوار كلمة قالها الطرف الآخر مع تغيير شكلها مكسبا إياها دلالة إضافية، ومثاله: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ: سَلَٰمٗاۖ. قَالَ: سَلَٰمٞۖ ﴾ [هود:٦٩].

لقد رد إبراهيم –عليه السلام– تحيتهم بأحسن منها، وإن كانت من جنس تحيتهم؛ ففي قول الرسل: (سلاما) مصدر سد مسد فعله، وأصله: نسلم عليك

سلاماً. وأما قوله: (سلام) فمعدول به إلى الرفع على الابتداء، وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، وفي هذا دلالة على ثبات السلام وتمكنه ورسوخه، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بأدب الله تعالى، وإكراماً لهم[1].

ويعد هذا الأسلوب من التكرار ظاهرة أسلوبية قارة في الحوار التلقيني الذي يوجهه الله لرسوله محمد – ﷺ – لقيامه على ثنائية السؤال والجواب، فمعظم الدوال الموجودة في السؤال تكرر في الجواب ترسيخاً وتثبيتاً لما تحويه من مضامين في ذهن المتلقي. ومن ذلك :

﴿ قُلْ: هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ.

قُلِ: ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ.

قُلْ: هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ؟!

قُلِ: ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ. أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس:٣٤-٣٥]

إن الله عز وجل يلقن رسوله السؤال الذي سيوجهه لمن يتحداه من المشركين، ويلقنه الجواب عن هذا السؤال نيابة عنهم مكرراً الجمل المحور التي ينصب عليها تركيز المتكلم لكونها بؤرة التحدي والمواجهة التعجيزية، فيأتي الدال الأول في التركيب الاستفهامي لإثارة انتباه المخاطب لهوية الفاعل الذي تنسب إليه هذه الأفعال الخارقة: ﴿ مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ فتكون الإجابة بالتصريح عن الفاعل وكشف نسبة الأفعال إليه: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾. وقد يكرر السؤال والرد في المحاورة ويسمى هذا ترجيعاً، وأشار إلى هذا المستوى من التكرار العلوي في تعريفاته[2]، ومثاله الترجيع في المحاورة التي دارت بين بني إسرائيل وموسى –عليه السلام– حين أمرهم أن يذبحوا بقرة:

١- الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص: (٣٩١-٣٩٢).

٢- العلوي، الطراز، ج٣، ص٩١.

﴿ قَالُواْ: ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ.

قَالَ: إِنَّهُۥ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ.

قَالُواْ: ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ.

قَالَ: إِنَّهُۥ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ.

قَالُواْ: ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ، إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا، وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ.

قَالَ: إِنَّهُۥ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ﴾ [البقرة:٦٨-٧١]

فقد تكررت صيغة الرد المقابلة (إنه يقول إنها) فكأنما تكرر سؤالهم ترجيعا لما سبق وتعليقا عليه. وتعلق سؤالهم في كل مرة بتخصيص معين لماهية البقرة، إلا أن أسئلتهم تتحد في المستوى العميق، لان النية المشتملة على المساءلة واحدة، والفئة الموجهة للسؤال واحدة، وإن كان السؤال في كل مرة قد تعلق بغرض مختلف عن سابقه. فإصرارهم على تكرار السؤال يعكس طبيعتهم الجدلية التي تميل إلى تعقيد الأمور وتكبيرها، لا رغبة في الوصول إلى الحقيقية، وإنما رغبة في النقاش والجدل، فالله أمرهم بذبح (بقرة) أي بقرة كانت، دل على هذا التعميم صيغة التنكير، إلا أنهم أصروا على المساءلة العقيمة، فأخذ الله يضيق عليهم مقيدا اختيارهم. ونجد هذه المراجعة في الحوار التلقيني التالي:

﴿ قُل: لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ؟

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِۚ.

قُلۡ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟

قُلۡ: مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ؟

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِۚ

قُلۡ: فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ؟! ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]

إن الإصرار على تكرار مثل هذا الأسلوب في البنية السطحية يؤدي إلى متابعة المتلقي لهذا التلاحق بين السؤال والجواب، خالقا توقعا وترقبا للبنى الحوارية التي جاءت على الترتيب التالي:

قل: سؤال تقريري   سيقولون: لله   قل: سؤال إنكاري.

ويؤدي هذا التكرار إلى تعمق في المستوى الدلالي أيضا، لان مواجهة الكفار بأسئلة متلاحقة وإجابتهم المتكررة عنها دون تردد أو تلون أو تنوع تأكيد على ثبات نسبة ملكية الأشياء المسؤول عنها إلى الله، وإقرارهم بهذه الملكية وكأنها أمر مسلم به لا يقبل النقاش، وهنا تبرز المفارقة بين هذا الإقرار المتكرر وبين التصرف الفعلي المتمثل بكفرهم وجحودهم وتكذيبهم لأنبياء الله، ولهذا أعقب إجابتهم في كل مرة سؤال إنكاري عن سبب هذا التناقض: أفلا تذكرون. أفلا تتقون؟ فأنى تسحرون؟

٢- تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار:

ويتضمن التكرار المتشكل على المستوى الأفقي من خلال إعادة الدال مرة بعد أخرى، وانزياحه من نقطة مكانية إلى أخرى في كلام أحد أطراف الحوار، مشكلا ظاهرة لغوية ذات نتاج دلالي مميز. وذلك من خلال مستويين هما:

١- مستوى التكرار.

٢- مستوى الترداد الذي يندرج في إطار المستوى الأول؛ فهو نمط من أنماطه، والفرق بين المصطلحين يتمقل في أن التكرار يعني اعادة الكلمة ذاتها بلفظها ومعناها في الجملة أو النص. أما الترداد فهو: أن يأتي المتكلم بكلمة ثم يكررها

بعينها ويعلقها بمعنى آخر[1]، أي أن الدال والدال المكرر يحافظان على توافقهما الشكلي ثم يحافظان على توافقهما العميق، لكن تأتي إضافة لها أهميتها في إنتاج المعنى، تتمثل في اختلاف المنطقة التي يسلط كل دال فاعليته عليها، وهي إضافة لا تنتقص من التوافق بين الدالين، وإنما تنمي فاعليتهما مشكلة اتساعاً في مساحة المعنى الدلالي. [2] وهذا يعني أن الألفاظ المكررة تتحد في المبنى والمعنى حالة التكرار، وتختلف الألفاظ في بعض الدلالة حالة الترديد، فكل ترديد تكرار وليس كل تكرار ترديداً. ولاءم أسلوب التكرار الموضوعات التي عولجت من خلاله مشكلاً عمقاً دلالياً في السياقات التي يرد فيها. وتنوعت المسافة الفاصلة بين الدال والدال المكرر، ونسبة تكرار الدال الواحد في السياق. ومن صور تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار:

تكرار المنادى

شكل تكرار المنادى في رؤوس الجمل ظاهرة لافتة في الوصايا والنصائح لاستدراج المخاطب والتلطف في استمالته، فيناديه المتكلم نداء المشفق المتودد مكرراً نداءه باسمه أو بصفته مبيناً تخصيصه بمحتوى الرسالة دون غيره، ومثاله: تصدير كل نصيحة من النصائح التي وجهها إبراهيم -عليه السلام- لأبيه بقوله: (يا أبت) توسلاً إليه واستعطافاً: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ: يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا، يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا، يَـٰٓأَبَتِ لَا

١- عرف ابن رشيق الترديد بقوله: (هو أن يأتي الشاعر بلفظه متعلقة بمعنى، ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسم منه). ينظر: ابن رشيق، العمدة، ج٢، ص٢.

٢- عز الدين علي، التكرير بين المثير والتأثير، ص٢٤٥. ومحمد عبد المطلب، البلاغة العربية-قراءة أخرى، ص٣٦٥.

تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا، يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم:٤١-٤٥]

لقد أظهرت مقولة إبراهيم حرصه على هداية أبيه ونجاته من العذاب الذي ينتظره إن بقي على كفره وعناده، فأخذ يرجوه مكررا مناداته للإلحاح عليه.

ويجسم هذا التكرار المشهد الحواري الذي دار بين إبراهيم وأبيه، فيصور الأب معرضا عن ابنه، ساخرا من كلامه، يشيح بوجهه عن إبراهيم الذي يلاحقه مناديا ليسمع كلامه ونصحه. وهذا يعني وجود طرف معرض يرفض استقبال رسالة الطرف الآخر، فيلجأ الأخير إلى استخدام منبه تعبيري يتمثل في تكرار مناداة الطرف المعرض لإيصال رسالته إليه.

وتكرار مناداة الملائكة لمريم مصرحين باسمها تنبيها لها وتذكيرا وإشادة وتخصيصا لها دون غيرها من النساء: ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ: يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ، يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣].

تعلق النداء في الجملة الأولى بذكر نعم الله على مريم واختصاصها بها، وتعلق الدال المكرر بالأعمال المترتبة على مريم نتيجة هذا الاختصاص والتميز.

وترددت جملة (اصطفاك) تأكيدا وتدرجا في سلم الاصطفاء، فقد (اصطفاك) أولا حين تقبلك من أمك وأنبتك يا مريم نباتا طيبا، و(اصطفاك) ثانيا على نساء العالمين بأن خصك بهبات لم تكن ولن تكون لأحد من النساء. وربما كان في هذا التأكيد تمهيد لإبلاغها بان الله سيهب لها غلاما من غير أب.

وارتبط الدال الأول بجملة خبرية تحوي النعم التي أنعمها الله على مريم، وارتبط الدال المكرر بالأعمال التي على مريم أن تقوم بها، أي أن تكرار الدال مهد لانتقال في نمط العبارة الموجهة للمخاطب وربط أجزاء الخطاب بعضها ببعض.

وكرر يوسف ،عليه السلام، نداءه للفتيين اللذين صاحباه في السجن، معلقا كل طرف من أطراف التكرار بغرض مختلف، رابطا بهذا التكرار بين أجزاء الخطاب. ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ. قَالَ أَحَدُهُمَآ: إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ: إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٣٦] فالفتيان يطلبان من يوسف أن يؤول لهما الرؤى التي رآها كل واحد منهما في منامه. ينتقل الحوار بعد هذا الطلب إلى الطرف الآخر (يوسف) الذي يتوقع منه أن يبادر إلى تفسير الرؤى، لكنه اتخذ من وصفهما إياه بالإحسان ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فرصة واصل بها وصف نفسه، وجعل ذلك تخلصا إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان. [١]

ويعلق الزمخشري على هذه الطريقة في الدعوة بأنها: "طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولا، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه ان العالم اذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده –وغرضه ان يقتبس منه وينتفع به في الدين – لم يكن ما باب التزكية"[٢].

وبعدها يناديهما منبها مشاعرهما ليكملا تلقي رسالته: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ؟! مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

١- ينظر هذا الوصف وتلك الدعوة إلى الإيمان في الآيتين (٣٧،٣٨) من سورة يوسف.

٢- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص(٤٥١-٤٥٢).

ويكرر نداءه مؤولا ما طلب منه تأويله في بداية الحوار: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف:٤١].

وفي هذا التكرار لنداء المخاطب ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾ تجسيد لغوي لعنصر الاستمرارية في الخطاب، فقد تغير المضمون الذي علق به كل طرف من أطراف الحوار، وظلت الاستمرارية قائمة في جسد الخطاب. وتحقق السبك بين الفقرة التي ورد فيها الدال الأول والفقرة التي ورد فيها الدال المكرر، لان تأويله للرؤى، وتأكده من تحقق التأويل على أرض الواقع جاء نتيجة لإيمانه بالله الواحد الذي يدعوهم لعبادته، إنه (عز وجل) من علمه تأويل الأمور الغيبية.

وتكرر توجيه النداء إلى لفظة (قوم) المضافة إلى ياء المتكلم المختزلة إلى كسرة تخففا في النطق، وذلك في عدد من المشاهد الحوارية التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم لتنبيههم واستمالتهم بتمكين الصلة التي تربطه بهم وتثبيتها. ومن ذلك: قوله تعالى على لسان موسى،عليه السلام، في حواره مع بني إسرائيل: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ، يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢٠-٢١] تعلق النداء في الجملة الأولى بذكر نعمة الله على بني إسرائيل، وتعلق الدال المكرر في الجملة الثانية بالطلب العملي ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ الذي يلي الطلب الأول ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾، فما علق بالدال المكرر يحيل إلى ما علق بالدال الأول.

وفي حوار مؤمن آل فرعون مع فرعون وقومه تكرر توجيه النداء إلى لفظة (قوم) ست مرات[1]، لتنبيههم وتحذيرهم، لأن فرعون كان يقاطعه متجاهلا

١- غافر: ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٤١.

كلامه ومسكتا صوته كي لا يؤثر في قومه، فكان الرجل المؤمن يكـــرر نـــداءه لقومه ليعيد انتباههم لكلامه كلما انقطع تواصله بهم بتدخـــل فرعـــون الكلامي: ﴿ يَٰقَوۡمِ ، لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ.

قَالَ فِرۡعَوۡنُ: مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ، وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ: يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ، مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ، وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ، يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ [غافر:٢٩-٣٣]

ويواصل الرجل المؤمن حواره مع قومه دون أن يناديهم لعدم وجود قـــاطع كلامي يحول اهتمام المتلقي[1]. ويثير حواره فرعون من جديد، فيقاطع خطابـــه بقولـــه ســـــاخرا: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ، أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] ويـــدرك الرجل المؤمن اقتراب نهايته لجرأته وصراحته، فيدفعه ضيق الوقت المتاح له أن يكثف المنبه التعبيري(يا قوم) في خطابه لعله يجـــد اذانـــاً صاغيـــة: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ، يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ [غافر:٣٨-٣٩] إلى أن يقول: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر:٤١].

وبعد استعراض المواطن التي استهلت بـــ (يا قوم) في حوار الرجل المؤمن مع قومه، رأينا أن كل دال مكرر تعلق بجملة فيها درجة من التصريح بإيمـــان المتكلم تفـــوق تلك الموجـــودة في الجملـــة التي سبقتهـــا، فالتصريـــح يتنـــامى

١- تنظر الآيات المتضمنه حوار الرجل المؤمن وقد خلت من التركيب الندائي (يا قوم) في سورة غافر: (٣٤-٣٥).

تصاعدياً في كل جملة.

وشكل تكرار نداء الله عز وجل بغير أداة ظاهرة لافتة في دعاء الأنبياء والصالحين من عباده رجاء وتعلقاً بالقدرة الإلهية، ومنه: تكرار الدال (ربنا) خمس مرات في دعاء أولي الألباب الذاكرين الله المتفكرين في خلقه: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:١٩١-١٩٤].

جسم تكرار الدال (ربنا) حالة ذكر الله الدائمة على لسان الذاكرين المتفكرين وترنمهم بتكرار ذكره، كما يوحي بتأدبهم في خطاب الله وخشيتهم التي تمنعهم من توجيه طلباتهم إليه توجيهاً مباشراً، ولذا نجدهم يمهدون لكل عبارة بنداء الله (ربنا) مجردين نداءهم من أداة النداء لشعورهم بالقرب من مخاطبهم، وفي هذا التمهيد تخفيف من حدة الطلب المتمثل في أفعال الأمر(فقنا، فاغفر، وكفر، وتوفنا، واتنا).

ولبيان أهمية الدور الدلالي الذي أوجده هذا التكرار دعونا نجرد الجمل الواردة في النص السابق من الدال المكرر (ربنا)، سنلاحظ ان الخطاب اكتسى شيئاً من الحدة لا تلائم المقام، كما سنلاحظ فارقا في السبك أو الترابط بين مفردات النص وجمله، فتكرار الدال يشد أواصر العلاقة الترابطية بين أجزاء النص.

تكرار الأدوات المخصوصة:

يشكل تكرار الأدوات بأبعاد متقاربة عمقاً دلالياً يكشفه السياق المقالي. ومنه تكرار مجموعة من الأدوات في عدد من سياقات التحدي والمكابرة

والإنكار، ومثاله: تكرار همزة السؤال في كلام منكري البعث: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٢]، فقد دل تكرار همزة السؤال في هذا السياق على التعجب والإنكار، ولا يخفى ما تدل عليه الأسئلة المتوالية من سخرية واستبعاد.

وتكرار (أو) خمس مرات في حوار كفار مكة مع رسول الله: ﴿ وَقَالُواْ: لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ. قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ؟!﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

يجسد تكرار (أو) في هذا الحوار مقدار تعنت المتكلم ورغبته في تعجيز الخصم، فهو يتفنن في عرض طلباته التعجيزية، فقد تعلق بكل (أو) طلب من طلباتهم الخارقة، وكأن صوتهم الجمعي توزع أصواتاً متفرقة مع كل (أو)؛ فهذا يطلب من الرسول أن يفجر ينبوعاً، وذاك يطلب أن تكون له جنة تتفجر خلالها الأنهار، وآخر يطلب أن يسقط عليهم السماء كسفاً وهكذا.

وتتكرر (بل) في حوار الكفار مع بعضهم دالة على اضطرابهم وتحيرهم من كلام الرسول ورسالته:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ: أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء:٥]؛ انهم يقولون القول ثم يضربون عنه، فقد أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى كونه كلاماً مفترى من عنده، ثم إلى وسمه بقول شاعر.

يقول الزمخشري: "وهكذا الباطل لجلج، والمبطل متحير رجّاع غير ثابت على قول واحد. ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد؛

وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني، وكذلك الرابع من الثالث"[1]. وهذا ما عكسه تكرار (بل) معمقاً دلالة الإضراب والحيرة والتردد.

وتكررت **(ما النافية)** في المواجهة الحوارية بين الكافرين ورسل الله دالة على إصرارهم على رفض قبول دعوتهم وذلك في عدد من المشاهد الحوارية التي دارت بين الرسل وأقوامهم، نذكر منها: قوله تعالى على لسان قوم عاد في حوارهم مع هود: ﴿ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:٥٣] فقد وردت (ما) في كلامهم ثلاث مرات، تعلقت في كل مرة بمبرر واهٍ لعدم إيمانهم بدعوة هود، وفي تكرار النفي دلالة على انهم قوم جفاة، لا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد. كما دلت على رغبتهم في تيئيس هود من الإجابة.

ومثله ما حكاه الله على لسان قوم نوح في محاورتهم مع نوح: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧].

إنهم يلاحقون بهذا التكرار نوح عليه السلام، برفضهم واستكبارهم، وقد أدت سلسلة النفي المتمثلة بـ (ما نراك) إلى إبراز تأكيدهم الوارد في نهاية مقولتهم ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾.

وتكررت ما النافية في سياق آخر يختلف عن السياقات السابقة، وذلك على لسان رجل من أهل الجنة، أثارت رؤيته لقرنيه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين. فأحب أن يؤكدها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها، فقال لمن حوله: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ، إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصافات:٥٨-٦٠] إنه يكرر ما النافية وضمير المتكلمين (نحن) لتأكيد نفي إيقاع العذاب والموت بهم هم دون غيرهم. كما تكررت ما النافية في عدد من المشاهد

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص١٠.

الحوارية التي حاول فيها أحد الأطراف تأكيد نفي تهمة الصقها بـه الطرف الآخر، ومنه: قول أبناء يعقوب، عليه السلام، حين اتهموا بسرقة صواع الملك: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ [يوسف:٧٣].

وتكررت **(لا الناهية)** في عدد من السياقات التي يجمعها مبدأ التناصح والحث على نهي ارتكاب أفعال معينة، ومن ذلك: قوله تعالى في حواره التلقيني لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ: تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٢].

وقوله تعالى على لسان شعيب في حواره مع قومه: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود:٨٥]. وقوله تعالى على لسان لقمان الحكيم في حواره مع ابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان:١٨].

إن تكرار لا الناهية في هذه النصوص أضفى عليها تنظيماً سطحياً خاصاً راجعاً إلى تحقيق توافقات أو تشابهات خاصة مع الغرض الكلي؛ ففي الحوار الأول، تعلقت بكل (لا) قضية جزئية خاصة، ارتبطت مع القضايا الجزئية الأخرى مجسدة المعنى الكلي المتمثل في قوله: ﴿ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾، وكذلك الأمر في المثالين الآخرين.

وتكررت **(لا النافية)** مؤكدة نفي نسبة صفات أو أفعال مخصوصة يجمعها حقل دلالي واحد إلى من يدور حوله محور الخطاب، ومن ذلك: قوله تعالى على لسان إبراهيم ،عليه السلام، في حواره مع أبيه: ﴿ يَا أَبَتِ، لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم:٤٢] فقد تعلق بكل (لا) فعل من

الأفعال المنسوبة إلى الأحياء، ليؤكد تكرار النفي صفة واحدة هي جمود معبوداتهم وفقدانها عنصر الحياة. فالتكرار يجزئ الصفة العامة إلى صفات جزئية ويعيد ربطها وتوحيدها في الوقت ذاته.

واستخدم إبراهيم الأسلوب ذاته في حواره مع قومه: ﴿ قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء:٦٦] حيث جمع تكرار لا النافية بين فعلين متقابلين (ينفعكم، يضركم) في بيان صفة واحدة، فتساوى الشيء وضده.

وتكررت **(لام التأكيد أو القسم)** في عدد من السياقات مجسمة درجة توتر الطرف المحاور، الذي دفعه حقده أو غضبه على الطرف الآخر أن يؤكد تهديداته التي سيوقعها بخصمه بتكرار لام التأكيد مع كل تهديد، فها هو إبليس يعقد العزم على إهلاك بني آدم بالوساوس التي سترديهم في نار جهنم: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ: لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١١٨-١١٩]. إن من يقرأ هذا النص يشعر بثقل وتشديد خانقين نتيجة توالي التوكيد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، ويستشعر مقدار حقد المتكلم وغيرته وتأكيده لما سيقوم به من أفعال شريرة.

وشبيه بهذا قول فرعون للسحرة وقد أعلنوا إيمانهم أمام الملأ: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:٧١]، إنه الغضب الذي يسيطر على مشاعر المتكلم، والإهانة التي يحسها اعترته من الطرف الآخر، فيلجأ إلى عرض قوته التي سيحطم بها خصمه محملاً لغته أثقالاً من هذه القوة.

٣- تكرار الدال وترديده مع متعلقات تختلف في كل مرة مشكلة اتساعاً في مساحة المعنى الدلالي العميق، ومنه:

التكرار المتوازي الذي خدم دلالة المقابلة خدمة خاصة، كقوله تعالى على

لسان ذي القرنين: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا، وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الكهف:٨٧-٨٨]، فقد جاء التوازي بين العبارتين للمقابلة المتحصلة من الفعل (ظلم) الذي يقابله في العبارة الثانية الفعل (آمن)، وهذا يخلق تعاكساً في الدلالة العميقة لجملة الـــدال الأول وجملة الدال المكرر. وقوله على لسان موسى عليه الســلام: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ [الأعراف:١٥٥] فقد تعلق الـــدال الأول (من تشاء) بالفعل (تضل)، وتعلق الدال المكرر بالفعل (تهدي) الذي يقابل الفعل الأول. وقوله في حواره التلقيني لرســوله ﷺ: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٨] لقد سبك التكرار في هذه العبارة بيـــن طرفين متناقضين، يحيل فيهما الطـــرف الثـــاني ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ إلـــى الطرف الأول (إن أرادني بضر) لتأكيد معنى التســـليم المطلـــق فـــي حـــالتي الرحمـــة والضر.

وقد يعلق بالفعل الواحد نفي الطلب واثباته، ومثالـــه قـــول يعقوب لبنيـــه: ﴿ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ [يوســـف:٦٧] فالأمر بعدم الدخول يتعلق بكون الدخول من باب واحد، أما أمر الدخول فـيرتبط بأبواب متفرقة. وقول الشيطان لأتباعه يوم القيامـــة: ﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ [إبراهيم:٢٢].

فقد نهى عن إيقاع لومهم عليه، وطلب وقوع اللوم على أنفســـهم، وتغـير الدال ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ ليكون الخطاب من المتكلم إلى المخـــاطب لتتـــم عملية المحادثة بهذه التغيرات في الضمائر، وفصلت الواو بين الداليـــن لتجمـــع بينهما دالة على المساواة بين طرفين.

ومن صور تكرار الدوال القائمة على النفي قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١٨٩] فقد جاء الدال الأول منفياً (ليس البر) والدال المكرر مثبتاً. ويرتبط هذا الأسلوب بالسياقات التوضيحية التعليمية، فالله عز وجل يطلب من رسوله أن يوضح مفهوم البر للمسلمين، فينفيه أولاً منزلاً إياه منزلة المعدوم، وبعدها يكرر الدال مثبتاً مفهومه السليم.

ويتردد الفعل في الجملة الواحدة، وتتغير علاقاته التركيبية مع غيره من العناصر، فتتكون للدال الواحد صور مطابقة لكنها مقولبة في أطر تركيبية منوعة مما يعطي عمقاً دلالياً، كما في قوله تعالى على لسان رجل من شيعة موسى لموسى لما أرد أن يبطش بالذي هو عدو لهما: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص:١٩] فقد تكرر الفعل (تريد) في تركيبات ثلاثة؛ تركيب استفهامي (أتريد)، وتركيب خبري فيه معنى التأكيد (إن تريد)، وتركيب نفي (وما تريد). ويؤكد تكرار الفعل في التركيبين الآخرين معنى الدال في التركيب الأول، فإرادة قتله تعني إرادة أن يكون جباراً وعدم إرادته للإصلاح.

وقد يكرر الدال ذاته بقالبه التركيبي وترديده مع متعلقات مختلفة في كل مرة، مشكلاً اتساعاً في العمق الدلالي، كقوله تعالى للملائكة: ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:١٢] حيث أفاد ترداد الفعل (اضربوا) تفصيل موقع الضرب فهو إما واقع على مقتل ﴿ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾، أو واقع على غير مقتل (البنان: الأصابع ويريد الأطراف)، فالله يأمر ملائكته بأن يجمعوا على الكافرين النوعين معاً، وفي هذا دليل على الشمول والإحاطة. وقوله تعالى للرجل الذي أماته مائة عام ثم بعثه: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ

وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة:٢٥٩] وفيه تشكل التكرار بترديد الفعل (انظر):

انظر ← إلى طعامك وشرابك.

انظر ← إلى حمارك.

انظر ← إلى العظام.

وقد خلق الترداد تقسيما أدى إلى بروز القضية التي تحويها كل جملة، لتثير تأمل المخاطب وتجيب عن تساؤله: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، لتشكل بمجملها قضية البعث والنشور.

وقوله تعالى على لسان رجل مؤمن في حواره مع قومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ، ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس:٢٠-٢١].

لقد تم هنا ارتباط طرفي الترديد من خلال علاقة التكرار. وارتبط كل طرف من هذين الطرفين بما تعلق به (المرسلين/من لا يسألكم أجرا) من خلال الإسناد، وهي علاقة تعني التلازم بين طرفيها؛ فدخول أحدهما (اتبعوا) في ارتباط بطرف آخر (اتبعوا)، يتبعه دخول الثاني (المرسلين) في ارتباط مع متعلق الطرف الآخر ﴿ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ كما أن الاستبدال في هذا الارتباط دل على التكافؤ بينهما، فالمرسلون هم من لا يسأل أجرا، ومن لا يسأل الناس أجرا هم المرسلون. وقد لجأ المتكلم إلى إجراء هذا التكافؤ لإبراز طرفيه للمخاطبين. ومثله قوله تعالى على لسان هود عليه السلام في حواره مع قومه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٣] فقد تعلق طرف التكرار الأول (فاتقوا) بـ(الله)، وتعلق الدال المكرر بـ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾، والعلاقة الرابطة بين متعلق الدال الأول ومتعلق الدال المكرر علاقة توضيح ووصف، أي أن الحديث عن متعلق الطرف الأول استمر واتسع معناه وتعمق مع الدال المكرر.

كما تكررت الجملة (أمدكم) مشكلة الطرف الأول من أطراف عملية تكرارية متولدة من التكرار الأول دون أن تنفصل عنه. وتعلقت بالطرف الأول جملة (بما تعلمون) التي فصلت وكشفت عن مضمونها بمتعلق الدال المكرر (بأنعام وبنين) أي أن مقولة (بما تعلمون) تعادل وتكافئ مقولة (بأنعام وبنين).

وهكذا فقد شكل التكرار في العبارة السابقة رابطاً يدمج عناصرها لتكوينية مجسماً علاقة الأصل بما تفرع عنه، فالدال الأول يعد الجملة الأم التي تمهد لميلاد جملة أخرى ترتبط معها بمشيمة التكرار، ويحيل متعلق الدال المكرر إلى متعلق الدال الأول، ومن ثم يحصل السبك بينهما.

ويقودنا هذا المثال إلى الحديث عن التكرار التفصيلي، ومثاله: قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون في حواره مع فرعون وقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ، تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ [غافر:٤١-٤٢] إنه يبدأ بالسؤال الإنكاري الذي يلخص المعنى الإجمالي لطبيعة موقفه معهم وطبيعة موقفهم معه، ثم يفصل ما أجمله مكرراً الدالين (أدعوكم،تدعونني) ومعلقاً بهما جملاً تفصل المتعلقات السابقة وتحيل إليها مجسدة المعنى ومفسرة المقصود. فالدال الأول: ﴿ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ ﴾، يقابل ويكافئ الدال المكرر: ﴿ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾. والدال: ﴿ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، يقابل ويكافئ الدال المكرر: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾.

وقد ذكرنا أن التكرار ضرب من ضروب الإحالة إلى السابق، فمتعلق الدال المكرر يحيل إلى متعلق الدال الأول، والعلاقة بين المتعلقين علاقة سبب بنتيجة؛ فما تعلق بالدالين المكررين هو السبب، وما تعلق بالدالين الأولين كان النتيجة. فالدعوة للكفر والشرك تؤدي إلى دخول النار، والدعوة إلى الإيمان بالعزيز الغفار تؤدي إلى النجاة من العذاب. وهكذا يتم السبك، وتتجسد الاستمرارية.

ويتجاور الدالان في عدد من السياقات ويفصل بينهما فاصل، ومن الأمثلة على هذه الصورة: قوله تعالى على لسان العزيز في حواره مع زوجته وقد ثبتت تهمة مراودتها ليوسف: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾ [يوسف:٢٨] حيث فصلت أداة التوكيد (إن) بين الدالين المتجاورين، مشكلة ركيزة ينتقل بواسطتها إلى التعليق على ما سبق بيان حكمه. وقوله على لسان مريم في حوارها مع زكريا وقد سألها عن مصدر الرزق الذي عندها فأجابته: ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧].

وقد تتجاور الدوال المكررة ويتلاحق العطف بينهما مؤدياً دور الفاصل الجامع بين الأقسام المتساوية كقوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ: تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران:٦١] إنّ هذه الجزئيات دوال مكررة مع تغيير الضمائر بما يناسب عملية المحاورة بين المتكلم والمخاطب، يربطها إطار مكون من ثلاثة أفعال (تعالوا ندع/ثم نبتهل/فنجعل) وقسمت الدوال بين الأبناء والنساء والأنفس ثم يطلب منهم الابتهال. وبدأ بالدعوة إلى ضم الأبناء فالنساء فالأنفس إلى نفسه إظهارا للموضوعية وإنصافا للخصم.

يقول الزمخشري في تعليله لهذا الترتيب: "وذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه ولم يقتصر على تعريض نفسه له، ودل على ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل نفسه وحارب دونهم حتى يقتل"[1]. ومثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان بني إسرائيل في حواره مع موسى عليه السلام: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن

١- الزمخشري، الكشاف، (١/٣٦٢-٣٦٣).

﴿ نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة:٢٢] حيث فصلت إن الشرطية بين الدالين المتجاورين (يخرجوا منها)، وجاء الدال الأول شرطاً إن تحقق دخولهم، فالدخول متعلق بخروج القوم الجبارين.

وتأكد هذا الشرط في العبارة التي ورد فيها الدال المكرر مع عكس وتبديل الموقع الذي حل فيه، أو لنقل أنها عملية توقف مؤقتة عدلت فيها الصياغة خط سيرها لتجعله خطاً مزدوجاً يعتمد على التقديم والتأخير الذي تتبادله الدوال المتماثلة. وقد تسلطت بنية العكس على المنطقة المحور في الخطاب لتأكيد مضمونها بهذه الحركة التقدمية على المستوى الأفقي التي جاورت بين الدالين فتركز المعنى المراد.

وقد تتسع المساحة المكانية الفاصلة بين الدال الأول والدال المكرر فينتج هذا التباعد ترابطاً يشد عناصر الجملة أو العبارة من أولها إلى آخرها، أي أن التكرار يغدو آلية من آليات التذكر، ومثاله: قوله تعالى على لسان الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة: ﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴾ [المؤمنون:٣٥] حيث أحال الدال المكرر (أنكم) إلى (أنكم) الأولى، خشية تناسيه لطول العهد به في القول على حد تعبير السجلماسي؛[1] حيث جاءت (أنكم) وبعدها جملة ليس فيها خبر (أن)، ثم جملة ثالثة ليس فيها خبر (أن)، وحين أريد إدراج هذا الخبر في الجملة الثالثة، كان قد طال العهد بين (أن) واسمها من جهة، وخبرها من جهة أخرى، مما يخشى معه تناسي وجود أن واسمها، فأعيدت (أنكم) مرة ثانية، لتربط أجزاء الكلام بعضها ببعض.

ومثاله قوله تعالى لسان يوسف، عليه السلام، في حوراه مع أبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف:٤] فقد تكررت الجملة الفعلية (رأيت) لوصل أول الكلام بآخره،

١- أشار السجلماسي إلى هذا الضرب من التكرار بعد أن اصطلح على تسميته بـ (البناء)، فقال في تعريفه: (البناء: هو إعادة اللفظ بالعدد وعلى الإطلاق، المتحد المعنى كذلك مرتين فصاعداً؛ خشية تناسي الأول لطول العهد به) ينظر: السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص(٤٧٧-٤٧٨).

مع تبديل في هيئة المفعول به، فما صرح به مع الدال الأول ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أُضمر مع الدال المكرر (هم) في (رأيتهم).

كما يعكس هذا التكرار أسلوب الأداء اللغوي عند الطفل يوسف وهو يقص رؤياه على أبيه متعجباً مسروراً بما رآه، إنه يريد تأكيد رؤيته لهذه الأشياء فيعيد (رأيت) ويعلق بها الضمير (هم) الذي يعود على الأشياء المذكورة مع الدال الأول لتأكيد.

ويكرر الدال الواحد مع نهاية كل جملة تامة في كلام المرسل محافظاً على توزيعه المكاني، ليوقف المخاطب عند هذا الدال وقوفاً إجبارياً قبل أن يواصل نقل رسالته، وذلك تأكيداً لمضمون الدال المكرر. ومنه قوله تعالى في حواره مع عيسى عليه السلام مذكراً إياه بنعمه عليه: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ، بِإِذْنِى، فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا، بِإِذْنِى، وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ، بِإِذْنِى، وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ، بِإِذْنِى.... ﴾ [المائدة:١١٠].

فقد تكرر الدال (بإذني) عقب كل معجزة خارقة لا يقدر عليها؛ للتأكيد على أنها تحققت على يد عيسى بتسهيل من الله وإذن منه، وليرسّخ بهذا التكرار بشرية عيسى، عليه السلام، لمواجهة من ادعى ألوهيته، ودحض هذه الافتراءات.

وتكرر هذا الدال على لسان عيسى -عليه السلام- إقراراً واعترافاً منه بكون المعجزات التي جرت على يديه أموراً سيرها الله على يديه، فقال في حواره مع بني إسرائيل: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ: أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ، فَأَنفُخُ فِيهِ، فَيَكُونُ طَيْرًۢا، بِإِذْنِ ٱللَّهِ، وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ، بِإِذْنِ ٱللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:٤٩]. فقد جاء الدالان في نهاية العبارة التي تحوي مضموناً خاصاً يتعلق بالخلق والنفخ والإحياء، وهي أفعال خاصة بالقدرة الإلهية، لذا نجد

المتكلم يحترس في نسبه هذه الأفعال إلى نفسه خوفا من أن يؤلهه أتباعه، وإقرارا واعترافا بفضل الله عليه. وواضح ما يؤديه التكرار من تجديد الدلالة ومواجهة المتلقي بهذا التكرار لمنع تشكل فكرة أو اعتقاد خاطئ في ذهنه.

وهكذا نكون قد تناولنا صورا من هذا اللون من التكرار، محاولين الربط بين الأبنية التكرارية والمضامين الحوارية المتشكلة فيها، وذلك في إطارين:

الإطار الأول: ما تكرر من الدوال الواردة في مقولة أحد أطراف الحوار في عبارة الطرف الآخر.

الإطار الثاني: ما تكرر من الدوال في مقولة طرف واحد.

- **النمط الثاني: تكرار جمل من حوار الشخصية ذاتها في غير سورة تكرارا لفظيا تاما أو تكرارا لفظيا منقوصا تعتوره تغيرات يتطلبها المقام:**

تكررت المحاورات في مواضع متعددة من سور القرآن الكريم، فالمحاورة الواحدة للشخصية المحاورة ذاتها تعاد أحيانا بلفظها التام، وتنصب عناصرها أحيانا في قوالب منوعة فيتقدم عنصر في محاورة، ويتأخر في المحاورة ذاتها في موضع غير الموضع الأول، أو يزداد عنصر في المحاورة المعادة أو ينقص، أو يبدل عنصر بآخر، لتقرير معنى واحد.

وهذا التغيير في البنية اللغوية للمحاورة الواحدة لا يخرجها من إطار التكرار اللفظي، فالمعنى الواحد الذي تدور حوله المحاورة يتحقق ويترسخ بطرق أداء متنوعة اقتضاها المقام، مع مراعاة الفروق الدلالية الدقيقة المترتبة على أي تغيير في النظام التركيبي للجملة. فالتكرار لا يأتي إلا ويقدم زيادة في المحاورة لم تكن قد وردت من قبل[1].

يقول ابن الأثير: "فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئا منه تكرر، من حيث الظاهر، فأنعم نظرك فيه، وانظر إلى سوابقه ولواحقه لتنكشف لك الفائدة منه"[2].

١- أشار إلى هذا المعنى الزركشي في برهانه حين قال: (إن التكرار لا يأتي إلا ويقدم زيادة في القصة لم تكن قد وردت من قبل). ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٤، ص٣٧.

٢- ابن الأثير، المثل السائر، ج٣،ص٨.

ففي تكرار الحوار الواحد إبراز للجوانب التي لا يمكن أداؤها على وجه من واحد وجوه التعبير، فالعبارة تعاد أكثر من مرة مبرزة في كل مرة وجهاً من وجوه الزاوية المحيطة بالحدث الحواري فيخرج المتلقي بتصور كامل للمشهد الحواري الواحد، هذا بالإضافة إلى تأكيد مضمون الحوار وتثبيته في نفس السامع لتكرار وروده في سياقات متنوعة تبرزه ويبرزها، فالكلام كلما تكرر تقرر.[1]

ويأتي هذا النمط في عدة أساليب منها:

أ- *التكرار اللفظي التام:*

ويتضمن جملاً من حوار الشخصية لغيرها تكررت بلفظها ومعناها في غير سورة. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

١- التكرار اللفظي التام في حوار الأنبياء مع أقوامهم. ومثاله ما جاء في: قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام في حواره مع قومه: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ ﴾، فقد تكررت هذه الجملة بلفظها التام في سورتي الأعراف وهود.[2] ففي السورتين الكريمتين عرضت حوارات عدد من الأنبياء وأقوامهم، وقد دارت حول تذكير الأنبياء لأقوامهم بنعم الله عليهم وآياته، وتحذيرهم من عاقبة كفرهم وجحودهم بها، ولذا تكررت الجملة المحور في كلام صالح مندرجة تحت حوارات غيره من الأنبياء لأنها تحوي تذكيراً بآية خارقة من آيات الله، وتحذيراً من عقرها، وهكذا أفاد تكرار هذه الجملة تكرار التذكير والتحذير.

١- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٣، ص١٩٩.

٢- الأعراف: ٧٣،هود: ٦٤.

ونجد هذا النمط من التكرار في السورتين السابقتين وسورة الشعراء للغاية ذاتها في قوله تعالى على لسان شعيب، عليه السلام، في حواره مع قومه: ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ في سورتي هود والشعراء[1].

وقوله تعالى على لسان عيسى ،عليه السلام، في حواره مع بني إسرائيل: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ في سورتي آل عمران والزخرف[2]. وقوله: ﴿ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ في ثلاث سور هي: آل عمران، مريم، الزخرف[3].

إن في تكرار الجملتين السابقتين دليل على التزام عيسى، عليه السلام، بدعوة بني إسرائيل إلى تقوى الله وطاعته وتركيز على أمر عيسى قومه بعبادة الله وحده فهو ربه وربهم، ففي هذا التكرار تنزيه لعيسى من أن يكون قد دعا بني إسرائيل لعبادته، ورد على من قال إن عيسى ابن الله.

وقوله تعالى على لسان هود، عليه السلام، في حواره مع قومه: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. فقد تكررت هذه الجملة بلفظها التام في سورتي الشعراء والأحقاف[4]، دالة على حرص هود على قومه، وتكرار تحذيرهم مرات عديدة.

كما تكررت هذه العبارة في حوار نوح، عليه السلام، مع قومه: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ ﴾ في سورتي الأعراف وهود[5] للغاية ذاتها. وقوله تعالى على لسان نوح، عليه السلام، في حواره لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ

١- هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣.

٢- آل عمران: ٥٠، الزخرف: ٦٣.

٣- آل عمران: ٥١، مريم: ٣٦، الزخرف: ٦٤.

٤- الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١.

٥- الأعراف: ٥٩، هود ٢٦.

﴿ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ في سورتي الأعراف والمؤمنين[1]. وقوله على لسان هود: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ في سورتي الأعراف وهود[2]، وتكرار جملـــه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ في سورتي الأعراف والمؤمنين[3] على لسانه أيضا. وقوله على لسان صـــالح، عليه الســـلام: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾. فـــي ســـورتي الأعراف وهود[4]. وتتكرر الجملة السابقة بلفظهما مرتين على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ في السورتين الســـابقتين أيضاً[5].

نلاحظ أن الجمل السابقة تكررت علي لسان كل رســـول مرتيـــن ، فـــالتكرار مزدوج ، تكرار على لسان المتكلم الواحد مرتين، وتكرار الجملـــة ذاتهـــا علي لسان أكثر من متكلم. وفي هذا دليل على وحده الرسالة التي جاء بها رســـل الله، وتأكيد دعوتهم لأقوامهم بتكرارها مرات عديدة ملتزمين بما فيـــها ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ وجاءت هذه موزعة في سور ثلاث هـــي الأعـــراف، هود، المؤمنون.

٢ - **التكرار اللفظي التام في ردود المعاندين لرسل الله وأتباعهم** : مثالـــه مـــا جاء في قوله تعالى على لسان فرعون في حواره مـــع موســـى ﴿ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فقد تكررت الجملة بلفظها التام في ســـورتي الأعـــراف والشعراء[6]، مع إبدال الضمير المتصل بحرف الجر ليلائم جنـــس الكلمـــة التي

١- الأعراف: ٥٩، المؤمنون: ٢٣.

٢- الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠.

٣- الأعراف: ٦٥، المؤمنون: ٣٢.

٤- الأعراف: ٧٣، هود: ٦١.

٥- الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤.

٦- الأعراف: ١٠٦، الشعراء: ٣١.

ذكرها موسى، فقد قال في آية سوره الأعراف ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ ﴾ فجاء رد فرعون: ﴿ فَأْتِ بِهَآ ﴾. وفي آية سورة الشعراء قال موسى لفرعون: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾، فقال فرعون: ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ ﴾.

وتكررت الجملة السابقة بلفظها لأهمّيتها في تغيير مجري الأحداث وتسارعها نحو النهاية؛ ففيها يطلب فرعون من موسى متحديا ساخرا أن يأتي بالآية المعجزة، فيأتي موسى بها ويؤمن السحرة بدعوة موسى، وتتوالى الصراع بين الجانبين منتهيا بغرق فرعون . فالجملة السابقة هي المفتاح الذي فتح باب الصراع بين فرعون وموسى على مصراعيه، ولذا تكررت بلفظها في موضعين.

وتكرّرت جمل بألفاظها في قوله تعالى على لسان فرعون في حواره مع السحرة بعد إيمانهم: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ في سورتي طه والشعراء[١]، وجاء الجزء الأخير من العبارة بلفظه التام ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ في سورة الأعراف[٢].ومثلها تكرار مقولة: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾[٣]، ومقولته: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾[٤] ، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾[٥]، التي تكررت في المواضع المذكورة بأعيانها، وطرأت عليها تحويرات دقيقة في مواضع أخرى سنذكرها عند الحديث عن التكرار غير التام وفي هذا تنوع في طريقة الأداء يقرر المعنى ويبرزه من جوانب متعددة، وفيه توضيح للعقوبة بتكرير ذكرها ليكون في ذلك توجيها للمتلقي بالصبر على العقوبة مهما عظمت اقتداءً بصبر السحرة على عقوبة فرعون طمعاً بالأجر العظيم يوم القيامة.

١- طه: ٧١، الشعراء: ٤٩.

٢- الأعراف: ١٢٣.

٣- طه: ٧١، الشعراء: ٤٩.

٤- الأعراف: ١٢٤، الشعراء: ٤٩.

٥- طه: ٧١، الشعراء٤٩.

٣- التكرار اللفظي التام في حوار أحد الأطراف مع اللّه عزّ وجل أو العكس ومنه: قوله على لسان إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾، فقد جاءت هذه الجملة بلفظها التام في سورتي الأعراف و ص[١]، للدلالة على استكبار إبليس واحتقاره لآدم وعصيانه لأمر الله، ففي تكرير هذه الجملة إبراز لها لتحذير بني آدم من إبليس. وهي جملة محور أنهت وجود إبليس في الجنة فبدأ انتقامه من عدوه آدم. وجاءت الجملة في السورتين في سياق الحديث عن مصير أتباع إبليس ومصير أعدائه.

ولتأكيد اللعنة التي لحقت بإبليس نتيجة استكباره وعصيانه لأمر الله جاء قوله تعالى: ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مكرراً بلفظه التام في سورتي الحجر وص[٢].

ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير:

وذلك بأن تعاد الجمل في محاورة الشخصية لغيرها في غير سورة ويطرأ على ترتيب ألفاظها تغيير، فيتقدم في جملة لفظ تأخر في الجملة ذاتها في سورة أخرى، أو يتأخر لفظ في جملة كان متقدماً في سياق آخر.

ويحدث التقديم والتأخير تغيراً في الدلالة ذاتها بينما لا يختلف المعنى العام، وهذا يعني قيام الصياغة في سياقات التقديم والتأخير على عنصرين هما: الثابت والمتغير[٣]، فالمعنى هو العنصر الثابت الذي لا يختلف بتقديم أو تأخير، والدلالة هي العنصر المتغير الخالق للإبداع. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب ما جاء في: قوله تعالى على لسان سحرة فرعون ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، وقوله:﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠].

١- الأعراف: ١٢،ص: ٧٦.

٢- الحجر: ٣٤، ص: ٧٧.

٣- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص٢٥٢.

نلاحظ تقديم "موسى" على "هارون" في الآية الأولى، وتأخره عنه في الآية الثانية.

وقوله تعالى على لسان زكريا: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران:٤٠]. وقوله: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم:٨] بتقديم حالة زوجته على حالته في آية سورة مريم، وتقديم حالته على حالة زوجته في آية سورة آل عمران. وقوله تعالى ملقناً سيدنا محمد: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٤٩] بتقديم النفع على الضرّ في آية سورة الأعراف ، وتقديم الضرّ على النفع في آية سورة يونس.

قوله تعالى على لسان كفار مكة: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل:٦٨]. وقوله: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٨٣] بتقديم المفعول به الثاني "هذا" على "نحن وآباؤنا" في آية سورة النمل.

ج – *التكرار اللفظي مع الإبدال:*

وذلك بأن تعاد الجملة في موقعين أو أكثر، ويطرأ عليها في موقع إبدال حرف بحرف آخر، أو إبدال الكلمة بكلمة أخرى، أو إبدال الكلمة بضمير، أو إبدال الضمير بضمير آخر، أو إبدال المتكلم بمتكلم آخر أو غير ذلك.

أ- أنماط التكرار اللفظي مع الإبدال:

أولاً: إبدال الحرف بحرف آخر ومنه: قوله تعالى على لسان فرعون في حواره للسحرة بعد إيمانهم: ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٤]، وقوله في موضع

آخر: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ [1]، فقد جاء التعبير بـ " ثم" في الأولى، وبـ "الواو" في الثانية، مع إن الجملة صدرت في موقع واحد، ومن متكلم واحد، وفي ظرف انفعالي واحد.

علل الخطيب الإسكافي هذا بقوله: "والجواب أن يقال إن السورتين اللتين جاءت الواو فيهما بهذا اللفظ منهما هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر والبسط الأوسع، والواو أشبه بهذا المعنى لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقاً لما قبلها كالتعقيب الذي يفاد بالفاء، ويجوز أن يكون متراخيا عنه كالمهلة التي تفاد بثم، لا بل يجوز أن يكون بعدها مقدما على ما قبلها ومجامعا لها إذ هي موضوعة للجمع ولا ترتيب فيها، فكانت الواو أشبه بهذين المكانين، وثم تختص بأحد المواضع التي يصلح الواو لجمعها، فلما كانت مقتصرا بها على بعض ما وضعت له الواو استعملت حيث اختصرت الحال فاقترن بكل من المكانين ما كان أليق بالمقصود فيه، فلذلك خصت (ثم) في سورة الأعراف. (الواو) في السورتين الأخريين. والله أعلم"[2].

وقال الكرماني: "قوله: (ثم لأصلبنكم)، وفي السورتين: (ولأصلبنكم) لأن (ثم) تدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع، وإذا دلّ في الأولى، علم في غيرها، لأن موضع (الواو) تصلح له (ثم)" [3].

وأقول: تميزت آية سورة الأعراف عن آيتي سورة طه وسورة الشعراء بالتصريح بالقائل "قال فرعون"، وبعبارة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ التي قابلتها عبارة ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ في آية سورة طه وآية سورة الشعراء. وباستخدام (ثم) قبل الفعل (لأصلبنكم). ففي آية سورة الأعراف بسط وتوضيح لا نجده في الآيتين الأخريين، ونعلل هذا بالنظر إلى ترتيب السور الثلاثة وفق نزولها، فسورة الأعراف نزلت قبل طه والشعراء، فصرح بالقائل فيها ولم يصرح بالقائل في

١- طه: ٧١، الشعراء: ٤٩.

٢- الخطيب الاسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص١٧٩.

٣- الكرماني، البرهان، ص٩١.

الآيتين الأخريين اعتمادا على ذكره في آية الأعراف، وجيء بـ "ثم" للدلالة على أن الصلب يقع بعد التقطيع من غير قصد مهلة زمنية، بل ليعرف ترتيب وموقع ما يعطف بها. ولما عرف هذا استبدلت (ثم) بالواو في آيتي طه والشعراء موجبة بالجمع بين القتل والصلب مع الترتيب أيضاً.

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٣]، وقوله: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه : ٧١ ، الشعراء: ٤٩].

وللسائل أن يسأل عن سبب قوله: (آمنتم به) في الموضع الأول، وقوله: (آمنتم له) في الموضعين الآخرين.

أجاب الإسكافي عن هذا التساؤل بقوله: "الجواب هو أن الهاء في (آمنتم به) غير الهاء في (آمنتم له)، وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى. فالتي في (آمنتم به) تعود لرب العالمين، لأنه تعالى حكى عنهم (قالوا: آمنا برب العالمين)، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام.

وأما الهاء في (آمنتم له) فلموسى عليه السلام، والدليل على ذلك أنها جاءت في السورتين، ويعدها في كل واحدة منها: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾، فالهاء في (انه) هي التي في (آمنتم له)، ولا خلاف إن هذه لموسى عليه السلام. والذي جاء بعد قوله: (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) أي إظهار كم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد.

ويجوز أن يكون الهاء في (آمنتم به) ضمير موسى عليه السلام، لأنه يجوز أن يقال: (آمن بالرسول)، أي أظهرتم تصديقه وأقدمتم على خلافي قبل أن آذن لكم فيه، وهذا مكر مكرتموه وسرُ أسررتموه لتقلبوا الناس عليه، فاقتضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به. فأما الإيمان له في الموضعين الآخرين، فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله ومن أجل ما آتى به من الآيات، فكأنه قال: آمنتم برب العالمين لأجل ما ظهر لكم على يدي موسى عليه السلام، من آياته. والموضع الذي ذكر فيه من اجله وعبر عنه باللام هو الموضع الذي قصد فيه إلى الإخبار بأنه كبيركم الذي علكم السحر، فلذلك خص باللام

والأول خص بالباء. وقد تدل اللام على الاتباع فيكون المعنى اتبعتموه لأنه كبيركم في عمل السحر. وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه ولا يتبع الداعي إليه"[1]. وهذا تفسير كاف شاف يعلل الإبدال بإرجاع العبارة للسياق الذي جاءت فيه وعلاقتها بما قبلها منَ العبارات وما بعدها.

ثانيا: إبدال الكلمة بكلمة أخرى. ومنه: قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام في حواره مع قومه: ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الأعراف:٨٥] وقوله في موطن آخر: ﴿ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [هود:٨٥]، فاختلف في الآيتين قوله: {الكيل} وقوله: {المكيال}. وقد وقف على هذا الاختلاف صاحب الكشّاف فقال: "فان قلت: كيف قيل (الكيل والميزان) وهلاّ قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال. أو سمي ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر"[2]. و أعلل هذا التبديل بتكرار حوار شعيب مع قومه ناهيا إياهم عن النقصان وآمراً الإيفاء، فالمعنى المقصود من حواره واحد، والألفاظ تتبادل على المستوى العمودي من الجملة، فتحل كلمة مكان أخرى في العبارة ذاتها مضيفة زيادة في المعنى أو تخصيصاً، فالكيل أداة يكال بها، وقد يطلق على عملية الكيل ذاتها، وهذا يعني أن شعيباً أمر قومه بالإيفاء مشيراً إلى الأداة مرة والى العملية أخرى.

وقد يكون الكيل هو المكيال، وجاء الكيل على الأصل، وقيس في آية سورة هود على وزن "مفعال" ليلائم كلمة "ميزان" على المستوى الأفقي، فالكلمة الواحدة قد تتقولب في بنى صرفية متنوعة. وقد تكررت كلمة "الكيل" في سورة يوسف[3] دون كلمة (مكيال) وفي هذا دليل على أن "مكيال" شكل طارئ للكلمة.

١- الخطيب الاسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، ص(١٧٦-١٧٧).

٢- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١٢٣.

٣- الآيات التي جاءت فيها كلمة (كيل) في سورة يوسف هي: ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٥.

وقوله تعالى لإبليس: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:١٣] وقولـه في موضعين ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ [الحجر:٣٤، ص:٧٧] يرى الإسكافي أن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء "لأنه إذا أمره بالخروج من الجنة أو من السماء فقد أمره بالهبوط إلى الأرض".(١)

وأرى أن في كلمة "اهبط" إشارة إلى قيمة معنوية تستشف من الفعل "اخرج"، فالخروج من الجنة فيه هبوط وتدنٍ في المكانة والمنزلة حتى وإن لم يكن هذا الهبوط إلى الأرض، ففي استبدال كلمة "اهبط" بـ "اخرج" إبراز تدريجي لإيحاءات الفعل، ففي الأمر بالهبوط دلالة على الخروج من منزلة إلى منزلة، وفي الأمر بالخروج من الجنة دلالة على هبوط منزلة المخاطب.

ومثله قوله تعالى لإبليس: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر:٣٥]، وقوله ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص:٧٨]، ففي قوله: (وإن عليك اللعنة) دلالة على لعنة عامة تحوي لعنة خاصة (لعنتي)، وفي قوله (وإن عليك لعنتي) تخصيص للعنة يؤول إلى تعميمها، فمن يلعنه الله تلعنه الملائكة والناس.

وقوله تعالى على لسان مريم: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ [آل عمران:٤٧]، وقوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٠]. اختلف اللفظ في الآيتين، فكان في الأولى: "ولد" وفي الثانية "غلام"، فما هو سبب التعبير بهما كل في موقعه؟ يمكننا معرفة السبب بالنظر إلى المخاطب الذي توجه إليه مريم سؤالها، فعدول العبارة في سؤالها عن الغلام إلى الولد مقصود؛ لأن مريم وجهت سؤالها في سورة آل عمران إلى الله ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ ﴾، إنها تتساءل عن كيفية أن تلد ولداً ولادة طبيعية كباقي الأولاد دون أن يكون له أب، فلقد تقدم في وعد الله لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب، وذلك لما نسبه إليها: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران:٤٥].

١- الخطيب الاسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، ص١٤٢.

ونستشف من هذه الكلمة ردا على من ألّهوا عيسى، فهو ولد، فكيف يكون إلهاً وقد ولد ولادة؟! وهذا ما دارت حوله الآيات في سورة آل عمران، فقد تحدثت عن الآيات التي جاء بها عيسى إلى بني إسرائيل، وعن رسالته وعن رفعه إلى السماء، وختمت حديثها عن عيسى عليه السلام بالتركيز على بشريته: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩].

أما في آية سورة مريم فقد توجه السؤال إلى الملك الذي تمثل لمريم رجلاً سوياً، واقتحم خلوتها وأخبرها بأنه رسول من الله سيهبها غلاماً: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم:١٩]، فأجابته منكرة كلامه غاضبة:﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٠] لقد جاء في كلام الرسول لفظ "غلام"، فجاء رد مريم متضمناً اللفظة ذاتها، فهو حوار ساخن يعيد الطرف المتلقي كلام الطرف المرسل منكراً: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ إنها تنكر إنجاب الغلام فهي فتاة عذراء لم تتزوج ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾، وهي الشريفة الطاهرة المنزهة عن الزنا: ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾، إنها هنا مستنكرة إنجاب الطفل وحالها كذلك، أما في سورة آل عمران فإنها تدرك بأنها ستلد ولداً ينسب إليها ولكنها تتساءل عن كيفية وجوده دون أب فللغلام دلالة عامة وللولد دلالة خاصة نستشفها من السياق.

ثالثاً: إبدال الكلمة بضمير، ومنه: قوله تعالى على لسان قوم لوط: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل:٥٦] وقوله: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٨٢] فقد صرح بالمفعول به "آل لوط" في آية سورة النمل، وأُضمر في آية سورة الأعراف "أخرجوهم"، وفي هذا تنوع في الأداء يحويه الصوت الجمعي في كلمة "قالوا"، فمنهم من صرح ومنهم من أضمر معتمدا على فهم المخاطب لنسبة المضمر إلى قوم لوط، ففي الحوار المباشر يكثر أن تحل الضمائر محل الأسماء الصريحة

اختصاراً وتقليلا للجهد الكلامي واعتمادا على السياق الذي يدور فيه الحدث الحواري مفككا لغز أي رمز يرد في جمل الحوار.

رابعاً: إبدال الجملة بجملة أخرى ومنه: قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام، في حواره مع قومه وأبيه:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء:٧٠]

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات:٨٥]

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٢]

يفسر الخطيب الإسكافي زيادة (إذا) في قوله في سورة الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء (ما) في الشعراء منها فيقول: "والجواب أن يقال: إن قوله (ما تعبدون) معناه أي شيء تعبدون، وقوله: (ماذا) في كلام العرب على وجهين: أحدهما أن تكون (ما) وحدها اسماً و(إذا) بمعنى الذي، والمعنى ما الذي تعبدون، و(تعبدون) صلة لها. والآخر أن تكون (ما) مع (إذا) اسماً واحداً بمعنى أي شيء، وهو في الحالين ابلغ من ما وحدها إذا قيل ما المستفهم فأجابوه وقالوا: (نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين)، فنبه ثانياً بقوله: (هل يسمعونكم إذ تدعون). وأما (ماذا تعبدون) في سورة الصافات فإنها تقريع، وهو حال بعد التنبيه، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوا كإجابتهم في الأول.

ثم أضاف تبكيتاً إلى تبكيت ولم يتدعي منه جوابا فقال: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ. ﴾ [الصافات:٨٦-٨٧] فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية، ولما بالغ وقرع استعمل اللفظ الأبلغ وهو "ماذا" التي جعل "ذا" منها بمعنى الذي، فهو ابلغ من (ما) وحدها"[1].

واستبدلت جملة (تعبدون) بـ ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ في آية سورة الأنبياء، لكونهم أجابوه عن سؤاله في آية الشعراء: ﴿ قَالُواْ: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ [الشعراء:٧١]، فأعاد إبراهيم

١- الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص٣٣١.

عبارتهم الخبرية في قالب استفهامي ساخرا متجاهلا محقرا آلهتهم مصغرا شأنها مع علمه بإجلالهم لها. سبب آخر نرجع إليه هذا التبديل نعزوه إلى ترتيب السورة وفق نزولها، فسورة الأنبياء التي جاء فيها التبديل تأخر نزولها عن سورتي الصافات والشعراء اللتين حوتا حواراً تمهيدياً مهد للحوار في سورة الأنبياء وعلل مجيء جملة ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ على لسان إبراهيم عليه السلام، في موقع جملة (تعبدون).

خامساً: إبدال الصيغة الصرفية للكلمة بصيغة صرفية أخرى ومنه:

قوله تعالى على لسان الملأ من قوم فرعون في حوارهم مع فرعون:﴿ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ، يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٣٦-٣٧]، وقوله على لسان العامة من قوم فرعون في حوارهم مع الملأ (الخاصة من قوم فرعون أو حاشيته): ﴿ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف:١١١-١١٢] فلم قيل (سحار) في الأولى و (ساحر) في الثانية؟

وقد تتساءلون عن سبب إدراج المثال السابق ضمن أمثلة التكرار اللفظي في الجمل الصادرة عن متكلم واحد، لاختلاف المتكلم في العبارتين، فالقائل في آية سورة الشعراء هم الملأ من قوم فرعون، والقائل في آية سورة الأعراف هم العامة من قومه. أقول: إن العبارة في المشهدين صادرة عن متكلم واحد هو العامة من قوم فرعون، إما الملأ من قوم فرعون فهم المتكلم الوسيط الذي نقل عبارة المتكلم إلى فرعون مع تحوير بسيط في العبارة يناسب المقام الذي قيلت فيه، ويتمثل هذا التحوير في نقطتين:

الأولى: تبديل كلمة (أرسل) بـ (ابعث).

الثانية: تبديل كلمة (ساحر) بـ (سحّار).

وقد سبق أن حوّر هذا المتكلم الوسيط عبارة فرعون حين نقلها إلى الطرف الآخر، وتمثل هذا التحوير بحذف كلمة (بسحرة) التي جاءت في كلام فرعون: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ

﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥] فالعبارة التي نقلها الملأ من قومه إلى العامة تخلو من هذه الكلمة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠] وخلّو عبارة المتكلم الوسيط من لفظه (بسحره) يعزز ويكشف أهمية وجود هذه اللفظة في عبارة فرعون، فقد بلغ الخوف والقلق مبلغهما في نفس فرعون من قدرة موسى وقومه التي وسمها بأنها سحر، في حين لم يشكل موسى تهديداً مماثلاً للملأ، فخوف فرعون من موسى كان أشد من خوف الملأ.

والآن لنناقش التحوير في العبارة المنقولة بواسطة الملأ من العامة إلى فرعون. ولنبدأ بمناقشة السبب الذي جعل الملأ يستبدلون كلمة (أرسل) بـ (ابعث). يقول الخطيب الإسكافي: "اللفظتان نظيرتان تستعمل إحداهما مكان الأخرى، وقد جاء بعث الرسول وإرساله معاً، إلا أن (أرسل) تختص بما لا تختص به (بعث)، لان البعث لا يتضمن ترتيبا، والإرسال أصله تنفيذ من فوق إلى اسفل. و(أرسل) في سورة الأعراف حكاية قول العامة للملأ المؤدين كلام فرعون اليهم، فلما تعالى عليهم ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما أستأمرهم فيه، واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب، فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم عما فخم ملأه أن يؤدوا كلامه إلى من دونهم. ولما تناولت الحكاية في سورة الشعراء ما تولاه فرعون بنفسه من مخاطبته قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه، وتسوية قدرهم بقدره، لقوله: (قال للملأ حوله)، وكان هذا الموضع مخالفاً للموضع الأول في مقتضى الحال من التفخيم، فخص باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم وهو قوله: (ابعث)" [١].

وهذا يعني أن الملأ اختاروا لفظة توحي بتأدبهم وتحرزهم في خطابهم مع فرعون، فهم ينتقون مفرداتهم حرصاً على رضاه وتجنباً لسخطه، فلبلاط الملك معجمه الخاص. أما العامة فحوارهم مع فرعون حوار غير مباشر أي حوار من وراء حجاب، ولذا لا نجد هذا التحرز في اختيار المفردة والتفنن في انتقائها،

١- الخطيب الإسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، ص(١٧٠-١٧١).

فالحرص على رضاه لا يجدي نفعاً مادياً ولا معنوياً كذلك الذي تجنيه حاشيته المقربة.

وتأكد هذا الحرص وذاك التحرز في تحويرهم كلمة (ساحر) الواردة في كلام العامة إلى (سحّار) ولا يخفى ما في صيغة (فعّال) من مبالغة وتعظيم حرص الملأ على إيصاله لفرعون ليسكنوا بعض قلقه الذي لا حظوه لحوارهم معه وجهاً لوجه، ومشاهدة ما يعتريه من اضطراب وقلق وتوتر، فأرادوا أن يخفوا من هذه المشاعر بتأكيد مهارة السحرة وبراعتهم في السحر وهذا ما تعكسه كلمة (سحّار) وتفقده كلمة (ساحر).

سادساً: إبدال ضمير بضمير آخر ومنه: ما جاء في قوله تعالى في موضعين: ﴿ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة:٣٦،الأعراف:٢٤] وقوله في سورة طه: ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه:١٢٣] فلم خاطب الله آدم وحواء والشيطان بضمير الجمع مرة وبضمير الاثنين مرة؟

يجوز أن يقال إن الله خاطبهم مخاطبة الجمع جاعلا إياهم في بوتقة واحدة دون تصنيف، أما حين خاطبهم مخاطبة الاثنين فقد جعلهما في طائفتين، طائفة آدم وحواء وذريتهما، وطائفة ليست من جنس طائفة الأولى هي طائفة إبليس وذريته.

والتركيز في الفعل "اهبطوا" كان منصباً على عملية الهبوط ذاتها التي تتوحد فيها الطائفتان، إما في قوله "اهبطا" فهناك تصنيف وتوضيح للجماعة التي ستهبط بأنها تتكون من فريقين سيشكلان طرفي الصراع في منطقة الهبوط.

(د) التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان، ومنه:

قوله تعالى على لسان مريم ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ وقوله على لسانها في موقع آخر ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٠] فزاد جملة (لم أك بغيا) في الآية الثانية، فما الواجب للزيادة؟ تعلل هذه الزيادة بالنظر إلى المخاطب الذي وجه إليه الكلام، فهو في سورة آل عمران الله عز وجل:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾، وهو في سورة مريم الملك الذي تمثل لها رجلا سويا، وبشرها بأنه سيهب لها غلاماً، فسألته منكرة مستهجنة عن كيفية إنجاب الغلام وهي الفتاة العذراء التي لم تتزوج، وبما أنه رجل غريب يجهل أخلاقها أضافت "ولم أك بغيا" منزهة ذاتها عن الزنا والبغي. فطبيعة المخاطب تقتضي من المتكلم التوضيح والتفصيل والبسط. أما وقد توجهت مريم بالسؤال إلى المخاطب العليم بحالها وصفاتها وأخلاقها فإنها لا تلجأ إلى تنزيه الذات من الزنا، وإنما اكتفت بالسؤال عن كيفية الإنجاب دون أن يمسها رجل.

وقوله تعالى على لسان الخضر، عليه السلام، في حواره مع موسى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٢]، وقوله في موضع آخر من السورة: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٥]. وللسائل أن يسأل عن زيادة "لك" في الثانية وإخلاء الأولى منها.

يقول الخطيب الإسكافي: "والجواب أن يقال إنه في الأولى لما قرر موسى وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أن الصبر على ما يشاهده منه يثقل عليه فقال: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾. وهذا معناه في غالب ظني انك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبادر إلى الإنكار. فلما رأى قتل الغلام وعاد إلى الإنكار أكد التقرير الثاني بقوله: "لك"، كما يقول القائل: لك أقول، وإياك أعني، فيقدم لك وإياك. ولو قال: أقول لك وأعنيك بكلامي لاستويا في المعنى إلا في تأكيد الخطاب بالتقديم. فكأنه قال: ألم يكن خطابي لك دون سواك، وهذا وجب في الثاني لا في الأول الذي لم تتأكد حجة الخضر فيه عليه السلام كتأكدها في الثانية"[1].

ويقول الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى زيادة "لك"؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية"[2]. وبعد، فقد تناولنا التكرار اللفظي في الجمل الحوارية للمتكلم ذاته، محاولين الوقوف على

١- الخطيب الاسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، (٢٨٤-٢٨٥).

٢- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٧٠٧.

الفروق الدقيقة بين الجمل المتشابهات المتفرقة في مواطن متعددة، فهذه البنى السطحية المتماثلة تحوي فروقا واختلافات يتوصل إليها بالملاحظة الدقيقة، وتعلل بالنظر إلى السياق الذي جاءت فيه.

ونختم حديثنا عن هذا النمط من التكرار بتعليل كاف شاف للغرناطي يبين فيه سر هذه الفروق اللغوية التي نلحظها في المحكي المتكّرر فيً غير سورة يقول: "وقد تقدم البيان، أنّ اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم، إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد، ولا لقوم مخصوصين، بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى، وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعي نبيهم ذلك في دعائهم، فقد يخاطب ملأهم الأعظم في موطن، والفئة القليلة منهم في موطن آخر.

وربما أطال في موطن، وأوجز في موطن، وذلك بحسب ما يرونه، عليهم السلام، أجدى وأرجى، فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم، ولاختلاف مجاوبة أممهم لهم. فهذا مما لا يحتاج إلى سؤال عنه"[1].

تكامل المحاورة الواحدة بعد جمع أجزائها المتفرقة في السور المختلفة (تفوق أجزاء المحاورة وتكامل التفاصيل):

يلاحظ المتأمل للحوارات المتكررة في القرآن الكريم تجزء كل محاورة في أكثر من سورة، بحيث لا تعرض المحاورة كاملة في موطن واحد ثم تعاد بعينها في موطن آخرٍ، وإنما يعرض في كل سورة تواجدت فيها جزء، فتتوزع المحاورة أجزاءً متفرقة، فإذا جمعت هذه الأجزاء بدت أمامنا محاورة كاملة المواقف. إنه أسلوب نقل المحاورة على دفعات ولقطات، بحيث يمكن أن تستقل كل لقطة فيها بذاتها مؤدية دورها في السورة التي وردت فيها متناغمة مع مضامينها. وينطوي هذا الأسلوب ضمن نسيج القرآن الذي نزل منجماً ومجزءاً لعلل متعددة أهمها إعانة النفوس على استيعابه وتثبيته جزءاً جزءاً. والمحاورات التي كررها القرآن هي ذات الحقيقة الكلية الهامة، كالمحاورات في العقيدة وكل ما يرتبط بها، وذلك لأن ترسيخ العقيدة في النفوس

١- الغرناطي، ملاك التأويل، ج١، ص٥٤٥.

يحتاج إلى تكرار وعرض لجوهر الموضوع أو الفكرة في أكثر من موطن وفي قوالب متعددة[1].

ولهذا تكررت محاورة إبراهيم لقومه وأبيه، ولم تكرر محاورته لابنه إسماعيل. وتكررت محاورة موسى مع فرعون، ولم تتكرر محاورته مع الخضر عليه السلام أو مع ابنتي شعيب لكون الأولى في صلب العقيدة، أمّا الأخريان ففي محيط السلوك والأخلاق، ومثلهما محاورة داود مع الخصمين، ومحاورة لقمان لابنه. وتركّزت محاورات يوسف في سورة واحدة لكونها تعالج جوانب اجتماعية وخلقية واقتصادية، ويرد ذكر عقيدة التوحيد فيها عرضاً، لمّا فسر يوسف أحلام صاحبيه في السجن. ويعلل الدكتور عبد الحليم حفني عدم ورود محاورات كل نبي في سورة واحدة بحيث تكون مجتمعة الأجزاء، متكاملة التفاصيل، فلا تحتاج إلى تكرار بأمرين:

الأول: مراعاة الحوارات القرآنية للجانب التاريخي، بمعنى أنها منقولة عن أشخاص وأقوام سابقين، جاء أكثرها على لسان الأنبياء، ولا يتصور أن يحاور النبي قومه مرة واحدة، ولا في مناسبة واحدة، فمحاورته معهم لا تأخذ صورة واحدة، ولا ألفاظاً محددة يعيدها عليهم كما هي في كل مرة، فالجوهر ثابت إلا أن طريقة عرضها غير ثابتة، وتفاصيلها غير ثابتة، وهي تشتمل على تجديد وتغيرات وإضافات. كما أن القرآن نقل محاورات الرسل بصورة تشير إلى ما كانت عليه فعلاً في الشكل من حيث التجزئة والتفرق الزمني.

الثاني: مراعاة القرآن لنفوس متلقيه، واستخدامه أنسب الوسائل في تبليغ الدعوة، لما في التكرار من تثبيت للفكرة وترسيخ لها[2]. ولهذا الأسلوب نظام مقرر يتضح حين تستعرض الأجزاء بحسب ترتيب نزول السورة التي جاءت فيها[3].

١- عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القران الكريم، ص٥٦.

٢- عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص(٦١-٦٣).

٣- سيد قطب، التصوير الفني في القران، ص (١٢٩). وفضل عباس، القصص القرآني، ص(٢٦).

وسأضرب مثلا على تكامل المحاورة في القصة القرآنية **بمحاورة هود عليه السلام** بعد تجميع أجزائها المتفرقة في السور المختلفة مراعية في ترتيب هذه الأجزاء نزول السورة. ورد الحوار في قصة هود في خمس سور هي: الأعراف، والشعراء، وهود، والأحقاف، والمؤمنون. سنقف على مضامين الحوار فيها، وما اختصت به كل سورة وصولا إلى محاورة متكاملة بعد جمع أجزائها المتفرقة في هذه السور.

أولا: محاورة هود في سورة الأعراف: وفيها أول حوار لهود، عليه السلام، مع قومه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ: يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟! قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ:إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ. قَالَ: يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى، وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُوٓاْ: أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا؟! فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ. قَالَ: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ، فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ. فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢].

بدأ هود، عليه السلام، حوار بالدعوة التي اجتمع عليها رسل الله جميعا ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ فاتهمه الملأ الكافر بالسفاهة والكذب. وجاء رده عليهم عاكسا رزانة عقله وحلمه فقد خاطبهم بهدوء وتلطف ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إنه

يتجاهل شتائم محاوريه مبيناً لهم أنه صاحب دعوة فأوامره تهديهم إلى النجاة والخير، لكونها لم تصدر من متسلط أو متحكم، وإنما من ناصح مشفق ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾. ثم يكشف لهم سر رفضهم لدعوته مقولباً مقولته بسؤال يوحي تنغيمه بالاستهجان والإنكار والتعجب دون مواجهة مباشرة قد تؤدي إلى نفورهم من كلامه، فالسؤال يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة يتولى هو إكمالها ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ؟!﴾ إنه سبب غير مقبول. ثم يذكرهم بنعمة من نعم الله عليهم وهي الخلافة ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وفي ذكره لقوم نوح تحذير خفي من عاقبة تصيبهم مثل عاقبة قوم نوح.

وأتبعها بنعمة أخرى هي بسطة الجسم وقوة البدن ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ ويعرض قومه منكرين عبادة الله وحده وترك ما كان يعبد آباؤهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾، ويأمرونه مستخفين به وبتحذيره بأن ينزل عليهم عذاب الله ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. ويدرك هود بأن لا أمل في إيمانهم؛ فالكبر والعناد بلغا مبلغاً عظيماً فيقول: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾. وتكون نتيجة المحاورة نجاة هود ومن معه، وقطع دابر الكافرين.

ثانياً:محاورة هود في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ: أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ؛ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ؛ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ

رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ؟! وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ؟! وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ؟ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ؛ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٣٥]. استهلت هذه المحاورة بما استهلت به محاورات الأنبياء القارة معها في سورة الشعراء ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ لبيان وحدة كلمة أنبياء الله في كل زمان ومكان.

وتحوي هذه المقولة أجزاء إضافية لم ترد في المحاورة الأولى هي ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وفيها يركز على تقوى الله وطاعته لأنه رسول الله (ألا تتقون، فاتقوا الله وأطيعون) بينما دعا في محاورته الأولى إلى عبادة الله. وتكرر حثه على التقوى في المحاورتين، لأنها من أسس العقيدة التي عليه أن يرسخها في النفوس. وأظهرت هذه المحاورة فتنة قوم هود وأبرزتها، كما هو الحال في المحاورات القارة معها في نفس السورة؛ حيث بينت محاورة كل نبي مع قومه المعصية أو الفتنة الشائعة التي اختصوا بها ومارسوها ممارسة جماعية. فقد رأى هود قومه غارقين في دنياهم ومتاعها، معرضين عن الآخرة، مشركين بالله، انصرفت هممهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو، فاستهجن هذا منهم واستنكره موبخاً إياهم بأسئلة متوالية: أتبنون بكل ريع آية تعبثون؟! وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون؟! وإذا بطشتم بطشتم جبارين؟!) وهذه إضافات جديدة لم تظهر في سورة الشعراء، وقد عكس التشكل الأدائي لمقولته، عليه السلام، والمفردات التي استخدمها(تعبثون، بطشتم، جبارين) نهجاً جديداً في مخاطبة هود لقومه، فقد بدا عصبي المزاج، حاد الطبع، غاضباً منكراً أفعال قومه، ويمكن أن يعلل هذا التحول الطارئ على

الشخصية بتكرار دعوة هود لقومه وثبات موقفهم على الباطل. فأين هذه العبارات الغاضبة المتلاحقة من قوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ ﴾ لقد كان في بداية دعوته التي مثلتها محاورته الأولى متأملاً أن يؤمن قومه بدعوته، فاستخدم معهم الترغيب والترهيب، لكنه، وقد أصروا على كفرهم، بدا غاضباً يائساً يوبخ وينكر أكثر مما يحبب ويرغب.

وعدد في هذه المحاورة نعماً أخرى أغدقها الله عليهم تختلف عن النعم التي ذكرهم بها في سورة الشعراء ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ، وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴾. وتظهر هذه المحاورة مشاعر هود تجاه قومه، فهو يخاف عليهم من عذاب الله ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ وترد عليه فئة من قومه مستبعدة وقوع العذاب كما كان ردهم في المحاورة السابقة ولكن بقولبة وصياغة مختلفة ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ، إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فهذه مقولة ثانية من المقولات التي كانت توجه إليه فمنهم من كان ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:٧٠]، ومنهم من استبعد فكرة العذاب نافياً وقوعه عليهم ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾. وتأتي النتيجة التي عقب بها الله على المحاورة مقتصرة على ذكر هلاك قوم هود، بينما وضحت في سورة الأعراف عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، ويعلل هذا بالنظر إلى النتيجة التي أنهى بها الله محاورات الأنبياء مع أقوامهم في سورة الشعراء، فقد اقتصر جلها على ذكر عاقبة المكذبين تخويفاً وترهيباً.

ثالثاً: محاورة هود في سورة هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ: يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ، إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ، يَٰقَوۡمِ،

لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ. قَالُواْ: يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ. قَالَ:إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ، إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٠-٥٧].

إنها محاورة تختلف عن المحاورتين السابقتين، ففيهما إبراز لمقولات جديدة جاءت على لسان قوم عاد ونبيهم هود، واقتصر التشابه على الدعوة إلى التوحيد ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ لأنها المحور والأساس الذي أرسل هود من أجله، وعلى نفي الأجر، فهو لا يسألهم أجراً، لأن أجره على الذي فطره. ولعل تكراره لهذا الأمر يرجع إلى معرفته بطبيعة قومه المادية، فأكد لهم تجرده من أي هدف مادي أو مطمع دنيوي. وقد برز هذا الاختلاف حتى في المفردات التي بكتهم بها (مفترون، أفلا تعقلون).

ثم يأمرهم بالاستغفار مبيناً عواقبه المادية عليهم مخاطباً إياهم بما يستهويهم ترغيباً وإغراءً. ويأتي ردهم مختلفاً عما جاء في سورة الأعراف وسورة الشعراء، وبدا أقسى وأشد، ربما لأنهم ضاقوا بدعوته فأرادوا تيئيسه فقالوا أولاً: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ وقالوا ثانياً: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا ﴾ وقالوا ثالثاً: (وما نحن لكم بمؤمنين) إن توالي النفي يؤكد إصرارهم على الرفض. وزادوا على ذلك أن اتهموه بأن آلهتهم قد مسته بسوء (أن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وأمام هذا الإصرار يعلن هود براءته من شركهم،

مبيناً أنه قد بلغ الرسالة، وأن الله سيستخلف قوماً غيرهم. ويأتي التعقيب على هذه المحاورة مبرزاً عاقبة هود والذين آمنوا معه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود:٥٨]؛ لكون آخر مقولة في المحاورة كانت لهود فجاء التعقيب كأنه نتيجة وتصديقاً لكلامه. بينما أبرز التعقيب في سورة الشعراء عاقبة عاد لكون آخر مقولة في المحاورة كانت لهم، فجاء التعقيب رداً بين سوء عاقبة كلامهم.

رابعاً: محاورة هود في سورة (الأحقاف): ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوٓاْ: أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ. قَالَ: إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ، وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ: هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا. بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ؛ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف:٢١-٢٥].

ونجد فيها أموراً اختصت بها هذه المحاورة منها ما يتعلق بالمضمون وهي فرحتهم بالسحاب المستقبل أوديتهم ظناً أنه يحمل المطر الذي يعمهم بالخير ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾، فيأتي صوت يوضح لهم نوع هذا السحاب، إنها ريح ليس فيها مطر خير، وإنما فيها عذاب أليم. قد يكون هذا صوت هود، وقد يكون تعليقاً من الله على مقولتهم.

كما اختصت هذه المحاورة بمفردة جديدة هي الإفك في قولهم (لتأفكنا) وتعني تحويل شخص عن رأيه بالإكراه والكذب والخداع.

خامساً: محاورة هود في سورة (المؤمنون): ولم تحدد هذه المحاورة طرفيها، فلم يذكر فيها هود – عليه السلام–، كما لم يذكر فيها اسم عاد، وإنما ذكرت عقب قصة نوح، عليه السلام، وقد اطرد في القرآن ذكر قصة هود عقب

قصة نوح، ولهذا نرجح تنازع هذه المحاورة بين هود وقومه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ، أَفَلَا تَتَّقُونَ؟! وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا: مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ، وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ، أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ؟! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ؛ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ. قَالَ: رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ. قَالَ: عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون:٣١-٤١]. تبدو هذه المحاورة متلائمة مع الموضوع الرئيس لسورة (المؤمنون) فهي تدور في فلك قضية البعث، وهو ما يعتقده المؤمنون دون غيرهم.

وبهذا نكون قد وقفنا على الحوارات التي دارت بين هود -عليه السلام- وقومه في السورة التي جاءت فيها مرتبين إياها حسب نزولها، فوجدنا في كل محاورة زيادة جديدة، بحيث لو جمعنا هذه الأجزاء المتفرقة لوجدنا محاورة كاملة المواقف والوجوه والتجليات على نحو بالغ الوضوح والاكتمال. وهذا أمر منطقي فالأنبياء حاوروا أقوامهم مرات ومرات، وقد دارت كل هذه المحاورات في فلك الدعوة إلى عباد الله، ولكن هذا لا يعني المطابقة والتماثل بينهما، فمحاوراتهم ليست صورة واحدة، ولا ألفاظاً محددة تعاد عليهم كما هي في كل مرة، إنها تعرض كل مرة بقالب جديد، ويطرأ عليها تحوير وتبديل يتناسب مع نمو الموقف، فطريقة عرض المحاورة غير ثابتة، وتفاصيلها متجددة، وتوزيع عناصرها متفاوت من سورة إلى أخرى يتناسب مع المضامين التي تحملها هذه العناصر، كما أن محاورة الطرف المقابل غير ثابتة أيضاً.

وتكون النتيجة أن ما نقلته السور المختلفة من الجزئيات والتفاصيل يمثل مجموع ما حكاه هود، عليه السلام، لقومه، ومجموع ما أجابوه به خلال المدة التي قضاها معهم.

النمط الثالث : تكرار المحاورة وتعدد المرسل (تكرار ما اتفق لفظه ومعناه واختلف قائله) وذلك في سورة واحدة أو في غير سورة:

ويتضمن الجمل التي وردت في حوار إحدى الشخصيات مع غيرها، واتفق لفظهما مع ألفاظ محاورة شخصية أخرى. وهذه ظاهرة قارة في حوار الأنبياء مع أقوامهم، فالجملة التي يقولها أحد الأنبياء لقومه قد تتفق بلفظها التام أو بأكثر عناصرها مع جملة لنبي آخر في حواره مع قومه، وهذا دليل على وحدة الرسالة التي جاء بها الأنبياء. ويأتي هذا النمط من التكرار في السورة الواحدة بشكل تتكرر فيه الكلمات وفق تناسق مكاني يأخذ ترتيبه داخل النص، كما يأتي في غير سورة. بعد تتبع مواطن هذا النمط من التكرار وجدناه متبلوراً في **أربعة أساليب رئيسة هي:**

أ- التكرار اللفظي التام:

إن تكرار الجملة ذاتها على لسان متكلم واحد في أكثر من موضع قد تكون ظاهرة مألوفة، ولكن تكرار الجملة بلفظها التام على لسان أكثر من متكلم تفصلهم حدود زمنية ومكانية أمر يستدعي الانتباه ويفضي إلى التساؤل عن المضمون الذي يحويه هذا البناء اللغوي المتكرر.

وعند تتبع هذا النمط من التكرار وجدنا أمثلته تدور حول موضوع العقيدة وما فيه من دعوة إلى الإيمان بالله وحده، وهذا يدل على وحدة الأديان في أصل العقيدة، ووحدة الدعوة إليها من الرسل، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ويقتضي تقرير هذه الحقيقة أن نعرض طائفة من الأمثلة التي التزم فيها بصيغة واحدة قصد فيها هذا التكرار في اللفظ والمعنى لبيان وحدة المصدر

ووحدة الغايــة. منها: تكـــرار عبــارة: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[1] على لسان نوح وهود وصالح وشعيب، عليهم السلام، فـــي ســورة الأعراف. وفي هذا التكرار إبراز للعقيدة التي جاء بها جميـــع الأنبيــاء وهـــي الإيمان بالله وحده لا شريك له. وقد تكررت العبارة ذاتها في مواطـــن أخـرى مؤكدة مضمون العقيدة[2].

ومنه أيضا التكرار المكثف لعبــارة: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [3] في سورة الشعراء على لسان نوح، هود، صالح، لوط، شـــعيب، عليهم السلام في حوارهم مع أقوامهم.

وأكد هذا التكرار مجيء رسل الله بكلمة واحدة لا تتغـــير فـــي جوهرهـــا بتغيـــر الأقوام والزمان والمكان والأحوال، وقد استهل الأنبياء حوارهـــم مـــع أقوامهم بالأمر بالتقوى "ألا تتقون"، والتأكيد على أنهم رسل لهم خاصة وذلـــك بتقديم الجار والمجرور "لكم" على خبر (إن)، وإعادة الأمر بالتقوى مع التصريح بالمتقي "اتقوا الله"، وقدموا الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة، لأن تقوى الله سبب لطاعة الرسل. ونفي سؤال الأجر المادي الدنيوي، لبيان تنزيه دعوتهم عن المطامع الدنيوية، وتعليل ذلك بكون أجرهم على الله، وقد اجتمع على هـــذا المسلك أنبياء الله جميعهم.

وتقدمت النتيجة في المواطن الخمس على مجريات الحـــوار الدائـــر بيـــن الأنبياء وأقوامهم:

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ، إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ .... ﴾

﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ، إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ... ﴾

١- الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥.

٢- المؤمنون:٢٣، هود:٥٠، ٦١، ٨٤.

٣- الشعراء:(١٠٥-١٠٩)، (١٢٣-١٢٧)، (١٤١-١٤٥)، (١٦٠-١٦٤)، (١٧٦-١٨٠).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ...﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ... ﴾

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ....﴾

وفي تكرير فعل التكذيب تأكيد على أن كل الأقوام قد كذبت رسلها، ولم تتفاعل مع محاولاتهم المستمرة لتوصيل دعوة التوحيد إليهم. وتأكدت وحدة الدعوة التي جاء بها الأنبياء بتكرير لفظة "المرسلين"، فمع أن كل جماعة كذبت رسولها فقط، إلا أن تكذيب رسول واحد يعني تكذيب رسل الله جميعهم.

ويقيم تكرير العبارة بلفظها التام ومعناها الحجة على بني البشر، ويبرز تكذيبهم رسل اللّه المتأصل فيهم على اختلاف زمانهم ومكانهم وأحوالهم. فلو لم تتكرر العبارة السابقة بكل عناصرها لفتح باب توقع إيمان قوم دون قوم بسبب تحوير بسيط في العبارة جعلها مؤثرة طيبة النتائج، ولهذا وحّدت العبارة لتحقيق العدالة و المساواة بين الجميع، فالأمر بالتقوى والطاعة ونفي سؤال الأجر قاعدة مشتركة استهل بها الأنبياء حواراتهم مع أقوامهم تنبيها ونصيحة وتطمينا لهم بالنص ذاته كي لا يقول قائل:لو ذكر هود ما ذكره صالح لآمن قومه مثلاً.

وكما تكررت عبارات الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم مجتمعة في موطن أو متفرقة في مواطن، تكررت بعض ردود أقوامهم تكراراً تاماً، بحيث يرد قوم صالح عليه رداً مطابقاً بلفظه ومعناه لرد قوم شعيب عليه مثلاً. وقد يأتي هذا التكرار مجتمعاً في سورة واحدة أو مفرقاً في سورة. ومنه:

تكرار جملة ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٣] في رد قوم صالح عليه، و في رد قوم شعيب عليه[١] في سورة الشعراء.

وقوله: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤] على لسان قوم نوح، وعلى لسان قوم هود أيضاً في سورة المؤمنين[٢].

١- الشعراء: ١٨٥.

٢- المؤمنون: (٢٤،٣٣).

وقوله: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:٧٠] على لسان قوم نوح في سورة هود،[1] وفي رد قوم هود على نبيهم في سورة الأعراف[2].

ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير:

ويتضمن الجمل الواردة في حوار شخصي مع غيرها وقد تكررت بلفظها التـــام ومعناها في حوار شخصية أخرى مع تغيير في الترتيب بتقديم عنصر أخر فـــي جمله، أو تأخير عنصر قدّم في جمله. ومنه ما جاء في:

قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام، في حواره مـــع قومـــه: ﴿ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَـٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [هـــــــود:٢٨].
وقوله على لسان صالح عليه السلام، في حواره مع قومـــه: ﴿ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَـٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ [هود:٦٣]. بتقديم (رحمة) علـــى (من عنده) في مقولة نوح، وتقديم (منه) على (رحمة) في مقولة صالح.

وقد حاولنا الوقوف على سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريمتيـــن فـــي حديثنا عن النوع الثالث من أنواع التقديم والتأخير وهو ما قدّم في آيه وآخر في أخرى[3].

ج. التكرار اللفظي مع الإبدال:

ويتضمن الجمل التي وردت في حوار شخصية واتفقت لفظاً ومعنـــى مـــع جمل وردت في محاورة شخصية أخرى مع تغيير بسيط يتمثل في إبدال كلمـــة

١- هود: ٣٢.

٢- الأعراف: ٧٠.

٣- ينظر ص(٢٨٢-٢٨٣) من هذه الكتاب حيث تعرضنا لأمثلة التقدم والتأخير، ولذا نكتفي هنا بذكرهافقط.

بكلمه أو جمله بجمله أو حرف بحرف وفق ما يتطلب السياق. ومنه ما جاء في: قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام، في رده على قومه: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٦١]. وقوله على لسان هود عليه السلام، في رده على قومه: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٦٧].

لقد تكررت الجملة تكراراً لفظياً تاماً باستثناء موقع جرى فيه تبديل كلمه (ضلالة) الواردة على لسان نوح، بكلمة (سفاهة) على لسان هود وذلك لملائمة الرد على الاتهام، فقد قال قوم نوح له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف:٦٠] فجاء رده:﴿ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ فهو ينفي صفة الضلالة التي أثبتها عليه قومه، "والضلالة أدنى من الضلال وأقل، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه. وأما الضلال فيطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال"[1].

أما هود عليه السلام، فقد قيل له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف:٦٦] فرد عليهم: ﴿ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾ فكان في رد الرسولين عليهما السلام، نفي للصفة التي ألصقت به.

ويبين الخطيب الإسكافي الفرق بين (الضلال) و (السفاهة) في إجابته عن الفرق بين قول نوح: ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف:٦٢] وقول هود: ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف:٦٨]. يقول: "وللسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله: (وأنصح لكم) وبين قوله (أنا ناصحٌ أمين)، وما الذي اقتضى الاسم في الآخر والفعل في الأول، وهل كان يصح أحدهما مكان الآخر؟

الجواب عن ذلك من وجهين؛ **أحدهما** أن يقال: إن معنى كلام نوح، عليه السلام، ما نطق به القرآن، ومعنى كلا م هود، عليه السلام، ما ذكره الله تعالى

١- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١٠٩.

حاكيا عنه. وليس لقائل أن يقول، إذا كان القولان صحيحين في موضعهما، فهلا قال أحدهما قول الآخر.

والوجه **الثاني** أن يقال: إن قول نوح عليه السلام، جواب من ضلل بأن قيل له ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وهود عليه السلام، قيل له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾. والضلال من صفات الفعل، تقول: ضل فهو ضالّ. والسفاهة من صفات النفس، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة. فكان جواب من عيب بفعل مذموم نفيه بفعل محمود، لا بل بأفعال تنفي ما ادعوه عليه، وهي أن قال: لست ضالا ولكني رسول من رب العالمين، أؤدي إليكم ما تحملت من أوامره، وأدعوكم بإخلاص إلى صلاح أمركم، وأعلم من سوء عاقبة ما أنتم عليه ما لا تعلمون، فنفي الضلال بهذه الأفعال.

وهود عليه السلام، لما رمي بالسفاهة، وهي من الخصال المذمومة البطيئة، وليس من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مرات كثيرة، فكان نفيها بصفات ثابتة تبطلها أولى، كما كان في الفعل المذموم بالفعل المحمود أولى. فقوله: ناصح، أي ثابت لكم على النصح صفة في النفس لا تنتقل لكم عن النصح إلى الغش ولا تتبدل خيانة بالأمانة. وكان جواب كل من الكلامين ما لاق به واقتضاه"[1].

وأرى أن تكرار العبارة على لسان الرسولين مقصود بذاته، لإبراز حسن الإجابة على الاتهام، فطريقة الأنبياء في حوار أقوامهم مسلك يحتذى به، وفي تكريرها ترسيخ لها في نفوس المتلقين.

يقول الزمخشري: "وفي إجابة الأنبياء، عليهم السلام، من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء،

١- الخطيب الاسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص(١٥٢-١٥٣).

وكيف يغضون عنهم"[1].

ومنه ما جاء في قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام، في حواره مع قومه:﴿ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ ﴾ [الأعراف:٧٩] وقوله على لسان شعيب عليه السلام، في حواره مع قومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ ﴾ [الأعراف:٧٩، ٩٣] بإفراد الرسالة في حوار صالح وجمعها في حوار شعيب.

وللسائل أن يسأل عن سبب إفراد الكلمة في موطن وجمعها في موطن آخر، وعن الفائدة المخصصة لكل واحد من اللفظتين بمكانها.

أجاب عن ذلك الخطيب الإسكافي قال: "إن الذي نطق به القرآن من تحذير صالح عليه السلام قومه بعد أن أمرهم باتقاء الله تعالى وطاعته، هو أمر الناقة والمنع من التعرض لها، فجعل الرسالة جملة لما لم يفصل ما أتى به شعيب حين نهاهم عن عبادة الأوثان بدلالة قوله: ﴿ قَالُواْ: يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ؟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] ثم قال: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء:١٧٨-١٧٩] ثم قال: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ، وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ، وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٣] وقال: ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف:٨٦] فهذه التي أمر شعيب بها قومه أشياء كثيرة، ليس ما أمر به صالح قومه مثلها كثرة، فلهذا جمع الرسالة في قصة شعيب فقال: " رسالات ربي " وأفردها في قصة صالح فقال: " رسالة ربي". وجواب ثان وهو ما يروى أن أصحاب الأيكة غير مدين وأن شعيبا بعث إلى أمتين، فجمع لاختلاف قومه وتخصيص كل منهم برسالة من الله"[2].

١- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١٢.

٢- الخطيب الاسكافي، درة التتريل وغرة التأويل، (١٥٩-١٦٠).

د. التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان:

وفيه تتفق الجمل الواردة في محاورة شخصية مع ألفاظ جمل جاءت في محاورة شخصه أخرى مع ذكر عناصر في أحد الموضعين لم تذكر في الموضع الآخر، أو حذف عنصر من أحد الموضعين وبقائه في موضع. ومنه ما جاء في قوله تعالى على لسان قوم صالح في حوارهم معه: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ، مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[الشعراء:١٥٣-١٥٤] وقوله على لسان شعيب: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ، وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[الشعراء:١٨٥-١٨٦]. فما سبب زيادة الواو في مقولة قوم شعيب (وما أنت)، وعدم ذكرها في مقولة قوم صالح (ما أنت) ؟

قال الزمخشري في معرض تفسيره للآية التي قيلت على لسان قوم شعيب: "فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود ؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا، ولا يجوز أن يكون بشرا. وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم".(١)

وقال ابن عاشور: "والإتيان بواو العطف في قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يجعل كونه بشرا إبطالا ثانيا لرسالته. وترك العطف في قصة هود يجعل كونه بشرا حجة على أن ما يصدر منه ليس وحيا من الله، بل هو من تأثير كونه مسحورا، فمآل معنيي الآيتين متحد، ولكن طريق إفادته مختلف وذلك على حسب أسلوب الحكايتين" (٢).

١- الزمخشري، الكشاف، (ج٣، ص٣٢٢).

٢- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١٨، ص١٦٨.

الحذف

(بتر ودلالات)

الحذف لغة هو القطع والبتر، يقال: حذف الشيء يحذفه حذفاً قطعه من طرفه[1]. والحذف في الاصطلاح: إسقاط جزء من الكلام أو كله لدليل[2]؛ فقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[3].

ويتمثل الدليل في القرائن المصاحبة للنص، وهي نوعان؛ قرائن حالية أو ما يسمى بمناسبات النص، وتشمل: الكلام المنطوق، وشخصية طرفي الاتصال وتكوينهما بأبعاده النفسية والجسدية، وشخصيات من يشهد الحدث الكلامي ،إن وجدت، وهل تشارك في الحدث أم يقتصر دورها على التلقي، بالإضافة إلى أثر الكلام وأبعاده الانفعالية، والعوامل والظواهر ذات العلاقة بالسلوك اللغوي إلى أشباه ذلك من أمور تلابس النص دافعة بالمتكلم إلى حذف عنصر أو أكثر من عناصر البنية اللغوية لرسالته الكلامية دون أن يجد السامع غضاضة في تقبل هذا الكلام المبتور[4].

والنوع الثاني من القرائن يتمثل في اشتمال سياق الكلام على سابق أو لاحق يدل على العناصر المحذوفة، وتسمى هذه القرائن بالقرائن اللفظية أو المقالية ففي

١- ابن منظور، اللسان، مادة (حذف).

٢- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص١٠٢.

٣- ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٣٦٠.

٤- محمود السعران، علم اللغة، ص (٣٣٧-٣٤١)؛ وكمال بشر، دراسات في علم اللغة، ق٢، ص(١٧٢-١٧٨).

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ: مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ؟ قَالُواْ: خَيۡرًاۗ ﴾ [النحل:٣٠] يقدر المتلقي المحذوف في الجواب تلقائيا معتمدا في تقديره على العناصر المذكورة في السؤال، فـ ﴿ قَالُواْ: خَيۡرًاۗ ﴾ تعني (قالوا: أنزل ربنا خيرا).

وقد يدل اللاحق المذكور على السابق المحذوف، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ: أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥] فمضمون السؤال محذوف، ولكن عناصره مذكورة في الجواب المفصل، فقوله: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ إجابة عن سؤال تقديره: (لم كنتم تستهزئون بالله وآياته ورسوله؟!).

ويدرج التلوين الصوتي أو التنغيم تحت لواء القرائن اللفظية، وهو دليل خاص باللغة المنطوقة، حيث يستشف السامع من طريقة نطق المتكلم أو أدائه الصوتي للعبارة العنصر الغائب، وإلى ذلك أشار ابن جني في حديثه عن حذف الصفة مع إرادتها وذكر الموصوف حيث قال: "وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلا، فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها؛ أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما..."[1].

ويستشف التنغيم في اللغة المكتوبة باستحضار القرائن المحيطة بالنص وتمثلها وهذا يدب الروح في جسد النص المكتوب، فيخرج صورة حية ناطقة بتنغيمات متنوعة الدرجات، تفتح الباب أمام قراءات متعددة تحاول أن تملأ شواغر النص.

وقضية الحذف من القضايا الهامة التي تناولتها أقلام النحاة والبلاغيين، مع اختلاف المنظور بين الفريقين؛ فالنحاة يبحثون الحذف من منطق يجوز أولا يجوز، وقد دفعهم هذا إلى تقدير أنواع من المحذوفات في بعض العبارات لا يحتاج إدراك المعنى إلى تقديرها، حيث تكون العناصر المذكورة كافية لفهمه.

١- ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٣٧١.

فلا شك في سلامة تقدير (لا) محذوفة في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف:٨٥] مثلا، ولكن كثرة استعمال الفعل (تفتأ) منفيا، فضلا عن السياق، أكثر دلالة على النفي المحذوف لدى عامة أهل اللغة من الأدلة المتصلة بالصناعة والتي لا يدركها إلا المتخصصون الذين يرون أن تقدير (لا) قبل الفعل (تفتأ) يرجع إلى وجوب دخول اللام على الفعل وتأكيده بالنون وجوبا في حال كون الجواب مثبتا[١].

أما البلاغيون فقد كانوا على وعي بتأثير الحذف وقيمته في التركيب، فحددوا ماهيته وكيفيته وعلة اللجوء اليه، فهو " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[٢]. إنه خرق وانحراف عن مستوى التعبير العادي ومن هنا كانت قيمته الفاعلة.

وللحذف أهداف مقصودة وعلل خفية تتجاوز مبدأ توفير الطاقة المتمثل في الإيجاز والاقتصاد إلى قيم ودلالات تستشف من مطالب السياق الكلامي الاستعمالي، منها: التفخيم والتعظيم لما فيه من الإبهام، تحقير المحذوف، الجهل بالمحذوف أو التجاهل عنه، صيانة المحذوف عن الذكر تشريفا له، العلم الواضح بالمحذوف الذي يغني عن ذكره، الخوف من المحذوف أو الخوف عليه، الإشعار باللهفة أو أن الزمن يتقاصر عن ذكر المحذوف.... الخ من الأغراض التي تكشفها دلائل الحال.

الحذف في الحوارات القرآنية:

كثر الحذف في الحوارات القرآنية مشكلا سمة أسلوبية واضحة المعالم متنوعة الأبعاد، وذلك لاعتماد الحوار على المباشرة والمشافهة التي تفرض على طرفي الاتصال التخلي عن كثير من أجزاء الكلام، مجسما الفارق بين مقررات

١- طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص١٢٦.

٢- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص١٤٦.

النظام اللغوي ومطالب السياق الكلامي في واقعه الفعلي.

فما أهمية هذا العارض في الحوار القرآني؟ وما قيمته في التركيب؟ وكيف خدم مطالب السياق؟ وما هي القرائن الحالية واللفظية التي تعيننا على فهم المحذوفات؟ وما هي التراكيب التي لازمها الحذف أو كثر فيها؟ وما أنواع هذا الحذف؟

هذه الأسئلة وغيرها ستضافر في تحليل نماذج ممثلة لهذه الظاهرة في الحوار القرآني التي تفتح للقارئ فضاءات من التأويل والتخيل لاحد لها متأرجحة بين حدي الغياب والحضور.

أسلوبية الحذف في الحوارات القرآنية

١- الحذف في بنية السؤال:

تجلى الحذف بصوره في بنى السؤال خاصة التي اجترأ عليها المتحاورون وتفننوا في تناولها بفنون الحذف المختلفة، فمقام السؤال من أكثر المقامات مناسبة للإيجاز والاختصار، سواء أكان التساؤل حقيقيا تطلب به المعرفة أو أريد به الإنكار أو التعجب أو التوبيخ أو غيرها من الدلالات والأبعاد الانفعالية القارة فيه؛ لأنه في الحالة الأولى يعج بلهفة السائل التائق إلى كشف المجهول ومعرفة الحقائق، وهو في الحالة الثانية صادر عن انفعال ثائر سريع، يطوي من جوانب الكلام مالا يحتاج إليه السائل أو المنفعل، أو ما يبطئ عن بلوغ غايته في المعرفة والإبانة والتأثير. ومن صور الحذف في بنية السؤال:

أ- حذف أداة السؤال:

تختص الهمزة من بين سائر أدوات السؤال بجواز حذفها اعتمادا على القرائن المرافقة للحدث الكلامي، ويكون حذفها في اللغة المنطوقة مستوعبا من قبل المتلقي؛ لاعتماد الناطق على التنغيم الذي تغني الأداة عن ذكره.

أما في اللغة المكتوبة فإن غياب التنغيم قد يجعل من التركيب لغزا متأرجحا بين حافتي الخبر والسؤال، فمن القراء من يحاول استشفاف التنغيم المخبوء في النص المكتوب اعتمادا على ما يتوافر من قرائن حالية مرافقة، فيرجح كون التركيب سؤالا حذفت أداته، ومنهم من ينظر إلى النص من زاوية أخرى فيقرأ التركيب قراءة مغايرة ترجح كونه خبرا، ويدعم رأيه بأدلة يستقيها من النص ذاته أو مما يحيط به من قرائن.

والحوار القرآني نص مكتوب ينبض حياة وحركة وحيوية تجسم الكلمات صورا مسموعة ومرئية، جعلتنا في عدد من المواطن نرجح كون التراكيب فيها أسئلة حذفت أداتها اعتمادا على ما توحي به القرائن من تنغيم. ومن هذه المواطن: ما جاء في قول موسى -عليه السلام- لفرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٢٢] حيث يرى الأخفش والفراء أن همزة السؤال محذوفة والتقدير: أو تلك نعمة[١].

وأرجح هذا الرأي اعتمادا على استنطاق طريقة موسى في أداء العبارة، فقد قالها مستنكرا متعجبا مستعظما؛ لأنها جاءت ردا على قول فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٨].

ولعل حذف أداة السؤال اكتفاء بتنغيم العبارة بنغمة السؤال أفاد إبراز مقولة موسى بما فيها من دلالات قارة أهمها التناقض الصارخ بين التسمية والمسمى؛ فكيف يكون القتل والسبي نعمة يمن بها الظالم على المظلوم؟!

وتنوعت القيم التعبيرية التي تمخضت عن أسلوبي قراءة كلمة (السحر) بالإخبار والسؤال[٢] في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ:مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١] تبعا لاختلاف النظرة إلى السياق وتمثل طريقة الأداء، فلكل قراءة بعد دلالي؛ فقراءة

١- التوحيدي، البحر المحيط، ج٧، ص١١.

٢- قرأها جمهور القراء بهمزة وصل على الإخبار، وقرأها أبو عمرو وأبو جعفر بهمزة قطع ممدودة على السؤال (السحر)، ينظر الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر، ج٢، ص١١٨.

الإخبار تتضمن معنى التقرير والمواجهة. أما قراءة الكلمة بتنغيم السؤال فإنها توحي بدلالات متعددة تدور حول الإنكار والتوبيخ والتحقير، وفيها مقابلة بالمثل، فقد سبق أن قالوا لموسى بعد أن جاءهم بالبينات الواضحة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:٧٦]، فقابلهم موسى بمثل مقالتهم متسائلاً فقال:(ما جئتم به؟ آلسحر؟) وقد أحدثت هذه القراءة تغييراً في نسق الجملة وطريقة الأداء، إذ تولّد تساؤل آخر أدى إلى تجاور بنى السؤال، وهذا أشد وقعاً في نفس المتلقي، وأكثر إثارة، فالأسئلة المتتابعة تلاحق المتلقي بالدلالات والأبعاد الانفعالية التي يريد السائل أن يستثيرها فيه، لما فيها من استفزاز للاستجابة الشعورية والقولية.

ومن المواطن التي قد تحمل على الإخبار والسؤال ما جاء في قول السحرة لفرعون: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٣] الذي قد يفيد معنى الخبر المؤدي مقصداً بلاغياً يتمثل في إثبات الأجر الكبير وإيجابه على تقدير الغلبة التي هم واثقون منها، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر إن كنا الغالبين.

وقد تحمل الجملة على معنى السؤال الذي أغنى التنغيم عن أداته المحذوفة، ودلت عليه قرينة المقال الظاهرة في قول فرعون : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٤] فحرف الجواب (نعم) يشي بالسؤال المكنون في مقولة السحرة. كما يقوّي ظهور همزة الاستفهام وقراءتها بالإجماع في سورة الشعراء[1] احتمالية صدور المقولة بتنغيم السؤال. ولعل ظهور أداة السؤال في موقع واختفاءها في موقع آخر حاكى الصوت الجمعي الذي حمل المقولة بتنغيمات متعددة الدرجات ومتنوعة الإيحاءات؛ فمن السحرة من أداها بقوة الخبر وثباته، ومنهم من أداها بتنغيم السؤال الذي يتسع تلوينات الانفعال وأبعاده.

وحملت الجملة الخبرية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ في قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

١- (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين) (الشعراء/٤١).

﴿فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠] على معنى الخبر والسؤال؛ فقد يوجه الخطاب إلى أهل النار بأسلوب الخبر الذي يفيد المواجهة بحقيقة لا مفر من الإقرار بها.

وقد يوجه الخطاب بأسلوب السؤال الذي أغنى التنغيم عن أداته المحذوفة بدليل قراءة مجاهد وقتادة وابن كثير بهمزة مد طويلة (آذهبتم طيباتكم)، وقراءة ابن عامر بهمزتين محققتين (أأذهبتم) [1].

ولعل حمل المقولة بتنغيم السؤال يتماشى مع أسلوب مخاطبة أهل جهنم الذي شكل السؤال بنية مهيمنة فيه؛ لقدرته على استيعاب الأبعاد الانفعالية التي يريد السائل إيصالها للمتلقي بتلوينها المتفاوتة. هذا بالإضافة إلى ما يفيده حذف الهمزة من تسليط الضغط الصوتي على التركيب (أذهبتم) وإبراز ما فيه من دلالات التوبيخ واللوم والتحسير والإنكار وملاحقة المخاطب بها.

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ: ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٢٣] حيث يحمل التركيب (آمنتم) على معنى الخبر الممزوج بالتقريع والانكار؛ أي فعلتم هذا الفعل الشنيع الذي لا يليق بكم وما كان ينتظر منكم.

كما يحمل على معنى السؤال وهذا أرجح، فسياق الآية يشي بانهيار فرعون وتأجج غضبه أمام إعلان السحرة إيمانهم بموسى ودعوته، ولنا أن نتخيل نبرة صوته التي حملت عبارته، لا شك في أن صوته كان يرتجف غضباً وحيرة وخوفاً وتعجباً، فكيف ينقلب أعوانه فجأة عليه مؤيدين خصمه؟!

يؤيد هذا الربط غير المنطقي في قوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾ إنه لا يعرف كيف تفلت زمام الأمور من بين يديه، فهل إيمانهم بموسى ينتظر موافقته؟! وهل سيعطيهم الموافقة أن طلبوها منه؟!

١- الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر، ص٣٩٢.

وتركيب السؤال أقدر من الخبر على استيعاب هذه الأبعاد الانفعالية المتأججة في مقولة فرعون، لأنه يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة يأتي اكتمالها على لسان المتلقي أو في ذهنه كاشفا عجز المرسل عن تكوين تراكيب جاهزة، فقد وصل التوتر في نفس فرعون أقصى درجاته فعقد لسانه سالبا إياه القدرة على إعداد تركيب جاهز يوحي بالاستقرار. يؤكد هذا قراءة الجمهور التركيب (آمنتم) بهمزتين على السؤال، وقراءة حفص عن عاصم بمد الألف بهمزة واحدة على الخبر[1].

وقد تذهب القراءة بأداة السؤال، ومع هذا يبقى تنغيم السؤال حيا في التركيب يستمد نبضه من القرائن الحالية واللفظية المحيطة. فقد قرأ حفص وابن كثير ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٨] بإسقاط همزة السؤال[2]، لوجودها في (إنكم) المحاورة لها في بنية النص: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت:٢٩]. ولعل هذه القراءة تكشف عن طريقة أدائية جديدة من طرائق توجيه المقولة التي كررها لوط على مسامع قومه في أكثر من مقام لتكرار ممارستهم للفاحشة وإصرارهم عليها، فقد كان غاضبا منهم مستنكرا فعلهم ومستقبحا، فقولب انفعالاته المتأججة في قالب السؤال ملاحقا إياهم بهذه الانفعالات، ليتنبهوا إلى قبح انحرافهم فيخجلوا ويرتدعوا. وقد يواجه قومه، في مقام آخر بأسلوب الخبر.

كما ذهبت قراءة الأعرج (بشرتموني) بهمزة السؤال[3] في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ؟ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر:٥٤] ولكنها لم تسلب التركيب تنغيم السؤال، فقد أتبع التركيب بتركيب سؤال آخر يرجح دلالاته ويقوي تنغيمه ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾.

١- ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص(٢٩٠-٢٩١).

٢- الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر، ج٢، ص٢٢٧.

٣- التوحيدي، البحر المحيط، ج٥،ص٤٥٨.

ويحمل الصوت الجمعي تنغيمات متنوعة الأداء قد يكون السؤال واحدا منها، وإن لم تظهر أداته، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ: ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف:٣٠] فقد احتضنت بنية المقولة الخبرية ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ في ثناياها العميقة تنغيمات متنوعة الدرجات بتنوع انفعالات كل متلق للخبر، فواحدة ألقت الخبر مؤكدة مشوقة، وواحدة أعادت الخبر ذاته ولكنها حملته دهشتها، وأخرى أعادته بنبرة المستعظم المستنكر، وأخرى بتنغيم المتقزز المتعفف، إنها انفعالات تشي بالبنية الوحيدة القادرة على استيعابها، وهل ستكون غير بنية السؤال؟!

وقد تذهب القراءة بأداة السؤال في مقولة صادرة عن صوت جمعي فتكشف العطاء عن التنغيمات الممتزجة فيه المتأرجحة بين حافتي السؤال والخبر، ومثالها قراءة ابن كثيرٍ وأبي جعفر (إنك) على الإيجاب[1] في قوله تعالى: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ [يوسف:٩٠] التي تجسم أقصى درجات اليقين بأن المخاطب هو يوسف، وهذه الدرجة قد يصل إليها شخص قبل الآخر، فمن اخوة يوسف من شك في أن العزيز هو يوسف، ومنهم من اختلط عنده الشك باليقين، ومنهم من تغلب يقينه على شكه ولكنه ما زال مندهشا لا يصدق ما يراه، وهؤلاء جميعهم قولبوا مقولتهم في قالب السؤال الذي استوعب حيرتهم وترددهم في الحكم ودهشتهم وتصاعد اليقين في نفوسهم. أما من كان متيقنا فقد قولب مقولته في بنية الخبر.

وقد يحوي خطاب أحد أطراف الحوار بنى سطحية متطابقة لكنها تحوي تنغيمات متنوعة يكشفها تأمل الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، ومنه ورود جملة (هذا ربي) ثلاث مرات أديت في كل مرة بتنغيم مختلف باختلاف درجة

١- الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر، ج٢، ص٢٦٧.

تقبل المتلقي للفكرة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ: هَٰذَا رَبِّيۖ. فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ: لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ. فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ: هَٰذَا رَبِّيۖ. فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ: لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ، قَالَ: هَٰذَا رَبِّي، هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ. فَلَمَّآ أَفَلَتۡ، قَالَ: يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٧٥-٧٨].

حيث قدر الأخفش همزة استفهام قبل جملة ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾، وخالفه في ذلك معظم النحاة الذين ذهبوا إلى أن هذه الجملة في المواطن الثلاث خبرية[1].

وأرى أن وضع هذه الجملة في السياقات التي وردت فيها يبين نوعها، فالجمل الثلاثة لم ترد في وقت واحد، كما أنها لم توجه بتنغيم واحد، فقد حملت كل منها بالطريقة التي تناسب المتلقي ودرجة تقبله للفكرة، فهي في الأولى جملة خبرية، بينما يمتزج الخبر مع السؤال في الجملة الثانية، وهي في الثالثة سؤال حذفت أداته. ولتوضيح هذا دعونا نتأمل السياق الذي وردت فيه:

استخدم إبراهيم أسلوبا في استدراج الخصم يطلق عليه (تجاهل العليم)، فقد كان يحكي كلام قومه، مع علمه بأنه باطل معظما ما يعظمونه، ثم يكر عليهم مبطلا كلامهم بالحجة الواضحة.

إنه يريد إقناع قومه أن لا شيء يستحق العبادة إلا الله، فبدأ معهم بحيادية العرض المتجسمة في بنية الخبر ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ مشيرا إلى كوكب في السماء، فلما أفل هذه الكوكب، استقى إبراهيم من أفوله جرعة من قوة، وتسربت قوة من يقين الخصم باستحقاق هذا المعبود للعبادة.

١- ابن هشام، مغني اللبيب، ص: (٢٠-٢١).

وبعد هذا التمهيد الموضعي صرح إبراهيم بمشاعره إزاء معبودهم الآفل ﴿ قَالَ: لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ ثم يشير إبراهيم إلى معبود آخر وهو القمر قائلاً: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾، وأخال السؤال بما فيه من تنغيم التشكيك والحيرة يطل باستحياء من حيادية الخبر، ولكنه لا يلبث أن يختفي، فالمواجهة ووضوح الموقف القاران في السؤال قد يثيران زوبعة غضب ورفض تحول دون قبول المتلقي لدعوة الرسول. ويأفل القمر، ويكتسب إبراهيم قوة اضافية، ويخسر الخصم مزيداً من يقينه بمعبوداته.

وتبزغ الشمس فيشير إليها إبراهيم قائلاً: ﴿ هَٰذَا رَبِّى، هَٰذَآ أَكۡبَرُ ﴾ بنغمة المستبعد المشكك الذي أصابه الضجر ولفته الحيرة، والسؤال هو الاختيار المناسب لقولبة هذه النغمة بكل أبعادها. ولعل تراجع قوة الخصم أمام أفول آلهته اكسب إبراهيم جرأة تجسمت في مواجهة الخصم بالسؤال دون أن يخشى ما يوحي به من أبعاد. ومع هذا فقد حرص على إظهار حياديته ورغبته في التجربة حتى النهاية، فأتبع سؤاله بجملة ﴿ هَٰذَآ أَكۡبَرُ ﴾، أي لنجرب فقد يكون هذا هو الإله لكبر حجمه.

وقد يحول تقدير أداة سؤال ملكية المقولة من قائل لآخر، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ. قُلۡ: إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ، أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ ﴾ [آل عمران:٧٣] حيث يمكن أن تنسب مقولة ﴿ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ ﴾ إلى قائلين، وتؤدي هذه النسبة إلى اختلاف نوع البنية؛ فهي مع قائل بنية خبرية، وهي مع آخر بنية سؤال حذفت أداته.

والقائلان اللذان تنسب إليهما المقولة هما: أهل الكتاب في حوارهم مع بعضهم، والله -عز وجل- بواسطة رسوله محمد (ص). فإن صدرت المقولة من أهل الكتاب كانت خبرية، لأنها ستكون تتمة لخطابهم بعد أن اعترضته الجملة الملقنة للرسول ﴿ قُلۡ: إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾. وهي بنية سؤال تفيد الإنكار

والتوبيخ إن كان القائل هو الله بوساطة رسوله، وقد حذفت أداة السؤال اكتفاء بالتنغيم، كما حذف الفعل فيها اكتفاء بذكر العلة وتركيزا عليها لفضح نوايا أهل الكتاب ومواجهتهم بها، فيكون تقديرها: (أأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم كتمتم الحق الذي أظهره الله لكم).

ب- حذف تركيب السؤال:

وإبراز المذكور من عناصر بنية الخطاب بتنغيم السؤال يحقق دلالات عديدة منها: التأدب مع المتلقي بعدم التصريح بالسؤال والاكتفاء بالتلوين الصوتي الدال عليه، ومنه ما جاء في قول إبراهيم مخاطبا ربه في الحوار الآتي: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ. قَالَ: إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. قَالَ: وَمِن ذُرِّيَّتِى؟ قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤] فمقولة إبراهيم: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ تخفي في بنيتها العميقة سؤالا يمكن أن نقدره بـ: (ومن ذريتي ألن تجعل للناس إماما؟)

وقد يحذف السؤال لفرط الدهشة والمفاجأة، ومنه ما جاء في قول زوج إبراهيم في الحوار الذي دار بينها وبين الرسل المبشرين: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ: لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ. فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ: عَجُوزٌ عَقِيمٌ ؟! قَالُواْ: كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات:٢٨-٣٠].

ويكشف تأمل الظروف المحيطة بمقولة زوج إبراهيم عن التنغيم الذي تجسمت فيه، وهو تنغيم سؤال إنكاري يمتزج تعجبا ومفاجأة وفرحة حائرة؛ فهي امرأة عاقر كبيرة السن تبشر فجأة بأنها ستنجب غلاما، لا شك في أن وقوع البشارة كان عليها كبيرا وقد تمثل في:

١- صرخة انفعالية (صرة).

٢- حركة انفعالية (صكت وجهها).

٣- كلام مبتور (عجوز عقيم)؛ يمكن أن نقدر عناصره المحذوفة بـ (أألد

وأنا عجوز عقيم).

ج- حذف الجملة الفعلية التي تلي أداة السؤال:

وذلك لإبراز المذكور بتنغيم السؤال ومواجهة المتلقي به، وجاء هذا اللون من الحذف في موضعين؛ الأول في ردود الأنبياء على تكذيب أقوامهم وتهديدهم، والثاني في خطاب الملائكة لأهل جهنم معنفين إياهم، فمن الأول:

حذف الجملة الفعلية التالية لأداة السؤال في قول شعيب لقومه، بعد أن خيروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف:٨٨] أي: (أتعيدوننا في ملتكم ولو كنا كارهين). ويعكس هذا الطي في مقولة شعيب الحوار المباشر الدائر بين الطرفين، الذي يحول دون الحاجة إلى ذكر عناصر الخطاب بكاملها؛ لأنها مفهومة ومدركة. كما يبرز الحذف تعجب شعيب من تهديد قومه بتنغيم السؤال. ومنه ما جاء في رد المرسلين على أصحاب القرية في الحوار الآتي: ﴿ قَالُوٓاْ: إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ. قَالُواْ: طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾ [يس:١٨-١٩].

حيث حذف المرسلون جواب الشرط المقدر بـ (تطيرتم) المستشف من قول أصحاب القرية: (إنا تطيرنا بكم)، مبرزين بهذا الحذف جملة الشرط (إن ذكرتم) بتنغيم السؤال لبيان الفارق بين الفعل الإيجابي الذي يقومون به ورد فعل أصحاب القرية السلبي عليه.

وقد حذفت الجملة الفعلية التالية للسؤال في رد موسى على تهديد فرعون في الحوار الآتي:

﴿ قَالَ: لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ.

قَالَ: أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء:٢٩-٣٠].أي (أتسجنني ولو جئتك بشيء

مبين)، وأفاد الحذف إبراز ما فيه إغراء لفرعون وإثارة فضوله.

كما جاء هذا اللون من الحذف على لسان الملائكة الموكلة بإيقاع العذاب على الكافرين، ومنه ما جاء في رد الملك الموكل بإغراق فرعون وقد أعلن الأخير إيمانه: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩١-٩٢] أي (آالآن تؤمن).

وقول خزنة جهنم للكافرين وقد أعلنوا إيمانهم حين رأوا العذاب: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ، ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ؟! ﴾ [يونس:٥١] أي (آالآن تؤمنون).

ويعكس حذف الجملة الفعلية الواقعة بين أداة السؤال وظرف الزمان (الآن) غضب الملائكة من هؤلاء المكابرين المعاندين الذين لا يؤمنون إلا بعد فوات الوقت، وقد حال الغضب والرفض دون إدراج الجملة التي تحوي فعل الإيمان (تؤمن، تؤمنون)، كما أوحى الحذف بتعطش الملائكة لتعذيب الكافرين إثباتاً للعذاب الذي طالما أنكروه ولم يعترفوا به إلا حين رأوه.

وأفاد الحذف توجيه السؤال بما فيه من إنكار وتوبيخ وشماتة إلى ظرف الزمان (الآن) وقد أدى هذا إلى تمطيط الصوت وإطالته لمحاصرة المتلقي بدلالة الرفض والاستحالة وبعث اليأس في نفسه من قبول إيمانه في هذا الوقت وما يليه.

د- الحذف في جواب السؤال:

عمد أطراف الحوار في إجابتهم إلى حذف جل العناصر الموجودة في الأسئلة الموجهة إليهم، كأن تقتصر الإجابة على تعيين الشيء المسؤول عنه اختصاراً ووصولاً بالسؤال إلى غايته مباشرة دون أن تفصله عنها عناصر مدركة ضمناً في ذهنه، وقد يجسم هذا الحذف عدم قدرة المجيب على إتمام إجابته خجلاً أو ألماً أو خوفاً أو غيرها من المشاعر التي تلجم اللسان وتطوي الكلام. وقد تتبلور الإجابة مبينة موقف صاحبها بحرف من حروف الجواب

(نعم، لا، كلا، بلى، إي)، ويكشف سياق الحال التلوين الصوتي الحامل لهذه الإجابة، كما يبين سبب هذا الاقتصار. وأحيانا يلجم المسؤول فلا ينبس بإجابة. وعند حصر الأسئلة التي تعرضت إجاباتها للحذف وجدنا أنها تدور في أربعة محاور:

المحور الأول:

الأسئلة التي يلقنها السائل العليم (الله) لرسوله ليقوم بتوجيهها إلى خصومه من الكفار والمعاندين الإقرار بالحق.

وتدور الأسئلة حول قدرة الله المطلقة وسيطرته على كل ما في الكون. يتبع الله أسئلته المفحمة إجابة مؤكدة لا يخرج المتلقي عن حدودها أبدا تمثلت في كلمة واحدة هي (الله)، ومثالها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٣٨]؛ أي: خلق السماوات والأرض الله. فقد حذفت العناصر المذكورة في السؤال للتلاحم المباشر بين السؤال والجواب، ولأن السائل والمجيب هو الله، فما ذكر في الجواب كان تتمة للسؤال.

وأفاد الحذف تسليط الضوء على الإجابة الوحيدة التي تبرز المفارقة الواضحة بين يقين أولئك الكفرة وممارستهم الفعلية.

وقد يلقن الله رسوله السؤال والجواب، فيكون الرسول هو السائل وهو المجيب في الوقت ذاته، وهذا أدعى للحذف، لأن السؤال والجواب مندمجان يتمم أحدهما الآخر، فالله –عز وجل– اختار أسلوب السؤال والجواب في طرح الفكرة على الكافرين، لما فيه من ملاحقة المخاطب وإثارته بكيفية لا تتحقق بأسلوب الخبر (الله يرزقكم من السماوات والأرض).

والمحور الثاني:

الأسئلة الموجهة إلى أهل جهنم التي يمتزج فيها الإنكار والتوبيخ والتهكم والتحسير في بوتقة واحدة مسببة لهم الألم والحسرة والشعور بالندم، فتحول هذه المشاعر دون القدرة على التفصيل في الكلام أو الإطالة، ولهذا اقتصرت جل

إجابتهم على حرف من حروف الجواب، ومن ذلك: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا. قَالُواْ: نَعَمْ ﴾ [الأعراف:٤٤] أي نعم، وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ؟ قَالُواْ: بَلَىٰ ﴾ [1][غافر:٥٠] أي: بلى أتتنا.

والمحور الثالث:

الأسئلة التي يوجهها الخالق إلى البشر بهدف إقامة الحجة عليهم، فيدل الحذف في إجاباتهم على القبول والتسليم المطلق الذي يحول دون النقاش أو الإطالة: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُواْ: بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف:١٧٢].أي: بلى أنت ربنا شهدنا (على أنفسنا وأقررنا).

والمحور الرابع:

أسئلة حقيقية تطلب تعيين شيء محدد وتوضيحه، فتأتي الإجابة عنها مقتصرة على ذكر هذا الشيء فقط مراعاة لتعطش السائل، فالحذف هنا ضرورة، والاشتغال بذكر المحذوف يفضي إلى تفويت المهم، ومثالها ما جاء في الحوارات الآتية:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ. قُلِ: ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة:٢١٩] أي: أنفقوا العفو.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ: مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُواْ: خَيْرًا ﴾ [النحل:٣٠]. أي أنزل الله خيراً.

﴿ قَالُواْ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُواْ: ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣] أي: قال ربنا الحق.

١- ولمزيد من الأمثلة ينظر: المائدة: ٣٠، الزمر: ٧١، الأحقاف: ٣٤

هـ - حذف السؤال:

وذلك لاستهلال الحوار بكلمة تدل على نوع التركيب متمثلة بـ(سأل وأخواتها)، وتبين موضوعه من الإجابة المفصلة؛ أي أن القرينة السابقة لبنية السؤال المحذوف تحدد ماهية التركيب (نوعه)، بينما تشي القرينة اللفظية اللاحقة بمحور السؤال وموضوعه. ومنه ما جاء في الحوارات الآتية:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ، قُلِ: ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال:١]، حيث وشت القرائن اللفظية السابقة للتركيب المحذوف واللاحقة بالعناصر المشكلة لبنيته وكيفية تآلفها، مبينة أن السؤال المحذوف هو: (لمن الأنفال؟)

ويقدر السؤال المحذوف في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ، فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه:١٠٥] بـ (ماذا يحل بالجبال يوم القيامة؟) لأن في الإجابة تفصيلا لوقوع فعل النسف. ويقدر السؤال المحذوف في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. قُلْ: أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥] بـ (لم كنتم تستهزئون بالله وآياته ورسوله؟) وجاء هذا التقدير من عناصر إجابة العصاة الساخرين، ومن السؤال الإنكاري وما فيه من تفصيلات وتوضيحات.

ونشير هنا إلى ضرورة ارتباط الإجابة بمضمون السؤال، فكلاهما يشير إلى الآخر ويندمج معه بحيث لو غاب السؤال دلت عليه عناصر الجواب، فالإجابات في الأمثلة السابقة محددة ومقيدة بحدود بنية الاستهلال التي تؤكد هذا الترابط.

و- حذف تركيب السؤال بعد (أرأيت/أوأيتم):

ولهذا الحذف دلالات منها: عكس حالة الألم والغضب التي تسيطر على

المتكلم فتحول دون قدرته على إتمام مقولته، ومثاله ما جاء في قول شعيب – عليه السلام – لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨] فقد حذف جواب (أرأيتم) وتقديريه: (أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصر ونحن الأنبياء لا نبعث إلا لهذا؟!).

وكسر هذا البتر توقع المتلقي الذي يسير وصولاً إلى نقطة استقرار تتمثل في ذكر جواب الشرط، ولكن هذا لم يحدث؛ فالموقع ما زال شاغراً، والمتكلم ينطلق إلى عبارة جديدة تاركاً مقولته نهاية مفتوحة.

وقد يدل حذف السؤال بعد (أرأيت) على التأدب في الخطاب بالابتعاد عن توجيه توبيخ مباشر إلى المتلقي استمالة له، ومثاله ما جاء في الخطاب الذي أمر الله رسوله أن يوجهه إلى أهل الكتاب: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف:١٠]، فقد حذف جواب (أرأيتم) وتقديره (ألستم أضل الناس وأظلمهم؟!)، وأفاد هذا الحذف التعريض بالمتلقي دون توجيه الإنكار والتوبيخ القارين في السؤال المحذوف إليه مباشرة.

٢- الحذف في التركيب الشرطي:

أ- حذف جواب الشرط:

شكل حذف جواب (لولا) في الحوار القرآني ظاهرة أسلوبية لافتة في خطاب الكفار الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجسماً رفض تصديقه والإيمان بدعوته، ومنه ما جاء في الخطابات الآتية:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ [الرعد:٢٧].

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١].

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ [العنكبوت:٥٠].

فقد حذف جواب (لولا) في المقولات السابقة، وتقديره: (لصدقناه أو لآمنا برسالته أو لاتبعناه) فاضحاً ما يعتمل في نفوس الكفار من إصرار على الكفر، فهم يظهرون جانباً من الاستجابة الإيجابية بإمكانية تصديق الرسول، ولكنهم يحيطون هذه الاحتمالية بشروط معينة يتغنون في تعدادها رافضين حتى أن ينطقوا بكلمة توحي بإيمانهم أو تصديقهم، فقد اكتفوا بذكر الشرط دون أن يذكروا نتيجة تحقيق هذا الشرط، وهذا انعكاس لقصور في الإيجابية والاستعداد، لأن النية السليمة والشرط الصادق يستدعيان التصريح بالإيمان والتصديق.

وعكس حذف جواب الشرط انفعالات المتكلم، فجملة الشرط المبتورة الجواب تدل على شخصيات مثارة. ومن الانفعالات التي تمخض عنها حذف جواب الشرط:

الخوف والمفاجأة:

﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا . قَالَتۡ: إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم:١٧-١٨] أي: إن كنت تقياً (فلا تقترب مني).

الطرف المثار: مريم

الطرف المثير: رجل غريب

سبب الإثارة: دخول الرجل فجأة محراب مريم وهي في معزلٍ عن أهلها.

نتيجة الإثارة: خوف وارتباك حالا دون إتمام العبارة. وربما نهضت مريم من مكانها ومدت ذراعيها محاولة منع هذا الغريب من الاقتراب بحركة فطرية لحماية نفسها، مستعيضة بهذه الحركة عن الكلام.

الغضب والحرج والحيرة:

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠].

التقدير: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد (لدفعتهم وحميتكم)

الطرف المثار: سيدنا لوط عليه السلام

الطرف المثير: قوم لوط

سبب الإثارة: ضيوف لوط وما أثاره مجيؤهم من فتنة قومه الذي فسدت فطرتهم ومالوا إلى حب ممارسة الفاحشة مع الرجال، فجاءوا يهرولون مطالبين لوط بتسليمهم ضيفه.

نتيجة الإثارة: غضب لوط من قومه، وشعر بالحرج من تصرفاتهم الشاذة، وخاف على ضيفه الذين بدوا لا حول لهم ولا قوة، واحتار أين يذهب بهم، وكيف يدفع هذا التيار الكاسح القابع وراء بابه، وسيطر عليه الإحساس بالضعف والوحدة وفقدان النصير، فنظر إلى ضيفه بألم، وانفرجت شفتاه عن عبارة متبورة تعكس إحساس شخصية مقهورة، تبحث عن مخرج من هذا الكرب بقوة عملية فعلية لا بألفاظ أو حجة كلامية خطابية.

الحزن واليأس من المخاطب:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ: إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ. قَالُواْ: تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ [يوسف:٩٤-٩٥] أي: لولا أن تفندون لصدقتموني.

الطرف المثار:	يعقوب عليه السلام
الطرف المثير:	قومه الذين اتهموه بالخرف لكبره في السن وحزنه الدائم على ابنه يوسف.
سبب الإثارة:	وصول رائحة يوسف إلى أبيه يعقوب، ورغبة يعقوب بنقل إحساسه بقرب عودة يوسف إلى قومه، ولكنه خاف أن يتهم بالخرف، فهذا إحساس لا يدركه إلا الأنبياء لتواصلهم الدائم بالقدرة الإلهية.
نتيجة الإثارة:	عبارة غير مكتملة لشعور المتكلم باليأس من تصديق قومه له، وفرحته لاقتراب الفرج بعودة ابنه الغائب، إنها إذاً مشاعر متناقضة تأججت في نفس يعقوب وعكستها عبارته المتبلورة.

ب- حذف جملة الشرط:

إن حذف جملة الشرط في الاستعمال اللغوي استثناء بدلالة الأمر أو النهي عليها يسلط الضوء على جواب الشرط (النتيجة المرغوب بتحقيقها)؛ ويلائم الإغراء بسرعة تنفيذ الطلب ومثاله ما جاء في الخطابات الآتية:

﴿ وَقَالُواْ: كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ ﴾ [البقرة:١٣٥].

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ

﴿ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم:٤٤].

﴿ قُلْ: إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].

٣- دلالة حذف الفعل في كلام المتحاورين:

من الدلالات التي أفادها حذف الفعل في مقولات المتحاورين:

أ- الإشعار باللهفة وأن الزمن يتقاصر عن ذكر الفعل، ومنه قول نبي الله صالح لقومه: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس:١٣] أي: ذروا ناقة الله والزموا سقياها حيث دل حذف الفعلين في العبارة على لهفة القائل، ورحمته بقومه، وشدة حرصه على نجاتهم، ودل أيضاً على اندفاعه السريع نحو دفع الخطيئة الموبقة لهم قبل فوات الوقت[١].

ب- إبراز المذكور لأهميته في تطمين المخاطب ونزع هواجسه اتجاه المتكلم. وهذا من آداب الحوار نجده في قول الرسل الذين بعثهم الله لتبشير إبراهيم عليه السلام بغلام من صلبه: (سلاماً) [٢] فقد ناب المصدر عن فعله (نسلم) في هذه التحية المطروحة من زائرين غرباء، ينبغي أن توضح نوازعهم وأهدافهم للمخاطب حتى لا تذهب به الظنون كل مذهب، فكان التركيز على إبراز (السلام) ضرورة تلاشت عندها أهمية ذكر الفعل[٣].

ج- وقد يبرز المذكور لا لتطمين المخاطب ونزع هواجسه بل لهز كيانه وإيقاظ مخاوفه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ :أَيْنَ

١- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٣، ص١٩٠.

٢- ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا: سلاماً، قال: سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ" (هود/٦٩).

٣- يذكر الزمخشري في شرحة للآية الكريمة أن إبراهيم عليه السلام اختار أن يرد عليهم برفع كلمة السلام (سلام) للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به آخذاً بأدب الله وهذا أيضاً من احرامه لهم. (الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص(٣٩١-٣٩٢).

شُرَكَآؤُكُمۡ ﴾ [الأنعام:٢٢] والتقدير، (الزموا) مكانكم أنتم وشركاؤكم. إن حذف الفعل أبرز كلمة (مكانكم)، ولا شك في أن نطق هذه الكلمة فيه من التقريع والعنف ما فيه.

كما ويلائم حذف الفعل التعبير عن حالة السكون والصمت وعدم الحراك، و يستلزم بسرعة التنفيذ موحياً بسوء المنقلب الذي سيحل بهؤلاء المشركين الذين سكنت حركتهم الخارجية وتحركت فيهم صراعات داخلية عنفيه.

٤- حذف المفعول به:

من الدلالات و القيم التعبيرية التي أفادها حذف المفعول به في مقولات المتحاورين:

التفخيم لما فيه إبهام:

ارتبطت هذه القيمة التعبيرية بسياق التهديد والوعيد، لما في الحذف من فتح لآفاق التخيل التي لا تحدها حدود التوقع، ومنه حذف المفعول به في قول هود،عليه السلام، لقومه: ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف:٧١] أي: انتظروا عذاب الله. وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ: لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ. فَقُلۡ: إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس:٢٠] أي: انتظروا عذاب الله. فقد جعل الحذف في المقولتين دليلاً على ضيق الكلام عن إمكانية وصف العذاب الذي سيحل بأولئك المكذبين.

التأدب بعدم تحديد المطلوب:

وذلك بأن يترك للمتلقي حرية اختيار المفعول الذي سيقع عليه فعل الطلب تأدباً في الطلب وإظهاراً للقبول والتسليم المطلق بما يختار، ومنه ما جاء في قول إبراهيم داعياً ربه: ﴿ رَبِّ ،هَبۡ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات:١٠٠]، إنه يطلب من الله أن يهب له من الصالحين دون أن يحدد أو يخصص وقوع فعل

الهبة على شخص معين، كأن يقول: هب لي ابناً أو أخاً أو صديقاً أو غلاماً.

وقد يوحي هذا الحذف بالإضافة إلى التأدب والتسليم المطلق باستبعاد أن يكون هذا الصالح ابناً ينجبه إبراهيم من صلبه؛ لأنه،عليه السلام، كان كبير السن وزوجه عقيماً لا تنجب. ولكن الله عليم بذات الصدور؛ يعلم حاجة إبراهيم حتى وان لم ينطق بها لسانه، ولهذا فقد وهبه غلاماً من صلبه إكراماً له وكرامة: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١]. ولعل استخدام كلمة (هب) قد وشى بطلب إبراهيم للذرية، لأنها هبة من الله.

تنزيه الذات من وقوع فعل الفاعل عليها:

وهذا ما جاء في قول فرعون للملأ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟! ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥] فقد أبى إحساس فرعون بالعظمة والشموخ والاستعلاء أن يوقع ذاته موقع المأمور، وإن كانت حاجته إلى رأي الملأ ملحة، وهذا ما دل عليه حذف ياء المتكلم أو (نا) المتكلمين التي تعود عليه من بنية التركيب (تأمرون) التي تعني تأمروننا أو تأمرونني.

التحقير والسخرية والرفض:

إن رفض أحد أطراف الحوار للطرف الآخر قد يؤول إلى محاولة إبعاد وقوع أي فعلٍ إيجابي المردود عليه تحقيراً له وسخرية يكشف عن منبعهما السياق. ومثاله حذف المفعول الذي وقع عليه الفعل (بعث) في قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا: أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ؟!﴾ [الفرقان:٤١] أي: بعثه. حيث كشف حذف المفعول به رفض الاعتراف بوقوع فعل البعث على محمد صلى الله عليه وسلم سخرية به واحتقاراً له منبعهما الغيرة والحقد والإحساس بالتميز الذي يدفع إلى دحض الآخر ومحاولة إخفاء أية ميزة قد يخص بها.

التركيز على الفعل دون الالتفات أو الاكتراث بما يقع عليه اعتماداً على إدراك المتلقي للمحذوف.

ومثاله ما جاء في المقولات الآتية:

- "﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف:٤٩] أي: يعصرون العنب أو الزيتون. فقد كان تركيز يوسف منصباً على فعل العصر ذاته لا على ما يقع عليه.

- ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ: يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٤٢] أي: لا يسمعك ولا يبصرك. فهمُّ إبراهيم كان مسلطاً على تجريد الآلهة من فعل السمع والبصر، لا على ما يقع عليه هذان الفعلان اثباتاً للفرق بين هذه الآلهة والإله الذي يعبده.

- ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ : رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ.

- قَالَ: أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة:٢٥٨]. أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. فهذه المفاعيل مدركة في ذهن المخاطب، وقد يفيد غيابها حضور قائمة لا حصر لها من المفاعيل التي يمكن ادارجها تحت بند (الأحياء) وبند (الأموات).

٥- حذف الجملة بعد حروف الجواب:

يدل حذف الجملة بعد حروف الجواب التي تفيد الإيجاب على تأكيد حدوث مضمونها؛ لأنه أمر حتمي لا يحتاج تأكيده إلى تكرار ذكره خاصة إذا كان المتكلم مالكاً زمام الفعل؛ لأن من يملك قوة الفعل لا يحتاج إلى أن يفصّل في كلامه، و مثاله:

- حذف جملة (ستبعثون) في الرد الذي لقنه الله لرسوله في قوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ: إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ، أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟! أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ؟ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات:١٥-١٨]

أي: نعم ستبعثون.

لقد أوحى حذف جملة (ستبعثون) بأن قضية البعث بعد الموت قضية حتمية لا نقاش فيها، وعزز هذه الحتمية بيان الحالة التي سيكون عليها هؤلاء الساخرين.

- ومنه حذف جملة (إن لكم أجرا) بعد حذف حرف الجواب (نعم) في رد فرعون على سؤال السحرة في الحوار الآتي:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ: أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:٤١-٤٢].

وكأنه أراد بهذا الحذف أن يبين للسحرة أن استحقاقهم للأجر أمر حتمي، وقد عزز هذا الأمر بعطف التركيب الشرطي (إنكم إذا لمن المقربين) على الجملة المحذوفة؛ لتسليط الضوء على مكافأة لم يطلبها السحرة وهي جعلهم من أصحاب الحظوة والمكانة عند فرعون تشجيعا لهم.

وحذفت الجملة بعد (بلى) لتأكد القائل من حدوث الفعل الذي نفى الطرف الآخر حدوثه، ومثاله ما جاء في رد الملائكة على إنكار الكافرين في الحوار التالي:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ: مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ.

: بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٢٨]. أي: بلى، كنتم تعملون السوء.

حيث اكتفى الملائكة بذكر كلمة (بلى) لإثبات ما أنكره الكافرون دون تكرار ذكر مقولتهم بأسلوب الإيجاب، لأنهم كانوا على يقين بوقوع فعل السوء منهم، فهذا أمر لا يحتاج إلى إثبات ولا يحتمل النقاش.

كما حذفت الجملة بعد حرف الجواب (كلا) في ردين، أفاد الحذف فيهما تأكيد عدم حصول الفعل الذي يؤكد الطرف الآخر وقوعه:

﴿ قَالَ: رَبِّ، إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدۡرِى، وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى، فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ. وَلَهُمۡ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ.

قَالَ: كَلَّاۖ، فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٢-١٥]. أي: كلا، لن يقتلوك ولن يحصل ما تخشاه. لقد صدرت الكلمة الفصل (كلا) من لدن القوة الإلهية التي بيدها زمام الأمور كلها، إنها كلمة لا تقبل التردد ولا أنصاف الحلول ولا تترك مجالاً للشكوك. ودل غياب الجملة بعدها على انتفاء وقوع فعل القتل، وهذا أبلغ، في رأيي، من نفي وقوع الفعل نفياً صريحاً.

كما حذفت الجملة بعد حرف الجواب (كلا) في مقولة موسى رداً على مخاوف أتباعه وقد لحقهم فرعون وجنوده في الحوار الآتي:

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ، قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ: إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ.

قَالَ: كَلَّآۖ، إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].أي: كلا، لن يدركوكم.

لقد حالت ثقته بالنجاة دون تكرار عبارة أتباع الانهزامية مكتفياً بنفيها بكلمة واحدة بلور فيها رفضه، وسلط الضوء بهذا الحذف على المذكور الذي فيه ما يزرع الأمل والثقة في النفوس (إن معي ربي سيهدين) وهذه من صفات القائد الناجح.

٦- حذف الصفة:

من المواضع التي حذفت فيها الصفة في مقولات المتحاورين ما جاء في قول الخضر معللاً لموسى -عليه السلام- سبب خرقه للسفينة ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِى ٱلۡبَحۡرِ، فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا، وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا ﴾ [الكهف:٧٩]، فقد حذف صفة السفينة (صالحة)

والمعنى يطلبها، فلو لم نقدر هذه الصفة، لكان ذلك يعني أخذ الملك لكل سفينة، ولما احتاج الخضر إلى خرقها (فأردت أن أعيبها) لأن تعييبها لا يخرجها عن كونها سفينة. وقد ظهرت هذه الصفة في قراءة أبي وعبد الله[1].

وحذفت الصفة في قول أتباع موسى له: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٧١] أي بالحق الواضح. ولعل أهمية هذا التقدير تعود إلى دفع الشك في كون أتباع موسى كفارا بدعوته[2].

كما حذفت الصفة في قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل:٢٣]. أي: من كل شيء مرغوب فيه.

وقد سبق أن أشرنا إلى دلالة التنغيم في الموقف الكلامي على الصفة المحذوفة، فالصفة تحذف اكتفاء بتلوين صوتي يجسمه الموقف أو المقام. فالهدهد كان مندهشا ومبهورا بما رآه من ملك حاكمة سبأ، ولعل الانبهار عقد لسانه، فما رآه عجز عن وصفه والإحاطة به، وهنا تقف الكلمات عاجزة فتغيب عن الساحة تاركة مكانها للخيال ليشغله بالطريقة التي يريد.

٧- الحذف في بنية النداء:

أ- حذف أداة النداء (دلالات وقيم تعبيرية):

اطرد حذف أداة النداء عند توجيه الخطاب للذات الإلهية[3]. وقد تقاسم نداء لفظ الجلالة دون أداة النداء فريقان متناقضان:

١- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٧١٢..

٢- ابن هشام، مغني اللبيب، ص٨١٨.

٣- استهل الحوار بنداء الله عز وجل دون حرف نداء (١٨) مرة؛ ١٢ مرة على لسان الأنبياء والصالحين، و ٦ مرات على لسان أهل جهنم. ينظر: البقرة: ١٢٤، يوسف: ٨٥، المائدة: ٢٥، المائدة: ١١٤، الأنعام: ١٢٨، الأعراف: ٢٣، ١٤٣،١٥٥، يونس: ٨٨، هود: ٤٥، إبراهيم: ٤٤، النحل: ٨٦، السجدة: ١٢، فاطر: ٣١، الصافات: ١٠٠، مريم: ٤.

- الرسل والصالحين من عباد الله.
- أهل جهنم.

دل نداء الرسل والصالحين من عباد الله للذات الإلهية دون أداة على استشعارهم قرب الله منهم، وسماعه دعائهم، ورؤيته مكانهم. وقد تولد هذا الشعور نتيجة لإيمانهم، ويقينا بوجود خالق يملك زمام أمورهم، فنادوه داعين راجين قدرته، وتلاشت ياء النداء إزاء التحام الداعي بمن يدعوه، دل على هذا الالتحام إضافة ياء المتكلم إلى لفظ الجلالة (رب) أو إضافة (نا) المتكلمين إليه (ربنا).

وقد تجسم هذا القرب حوارا مباشرا بين أولئك الصالحين وأنبياء والله عز وجل، وهذه نعمة يمنها الله على من يشاء من عباده.

نجد في المقابل حذفا مطابقا ورد على لسان أهل جهنم ليقينهم بقدرة الله، ورؤيته إياهم، وسماعه كلامهم، ولكنه يقين متأخر لا يدفع عن صاحبه عذابا.

والحوار المباشر بين الله عز وجل وأولئك الخاسرين يختلف اختلافا واضحا عن الحوار السابق مكانا وزمانا وغاية ونتيجة. وهذا يعني أن حذف ياء النداء قبل لفظ الجلالة جاء تعبيرا عن صحوة متأخرة تأمل أصحابها أن تلحقهم بالركب الناجي.

وقد يكتفي أحد أطراف الحوار في توجيه خطابه للطرف الآخر بأن يدعوه باسمه أو صفته، دون أن تتوسط أداة النداء بين المنادي والمنادى. ويعود هذا إلى طبيعة التواصل القائمة على تبادل الكلام تبادلا حيا ومباشرا تتلاشى أمامه الحاجة إلى أية وساطة، ويضاف إلى هذا لقرب المادي رغبة الداعي في خلق قرب معنوي بينه وبين المدعو. ومن ذلك قول العزيز ليوسف عليه السلام وقد ثبتت تهمة المراودة على زوجته: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف:٢٩]، حيث دل حذف حرف النداء في كلام العزيز على كون يوسف منادى قريبا منه يستقبل كلامه مباشرة.

ولنا أن نتخيل الطريقة التي حاور بها العزيز يوسف؛ إنها طريقة المتودد المتلطف الذي يخشى شيوع فضيحة تمس شرفه ورجولته، فهو يسعى إلى التكتيم

على الخبر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. أخاله اقترب من يوسف حـــد الملامســة هامساً في أذنه: (يوسف أعرض عن هذا) فأي موقع لياء النداء سيكون هنا؟!

وقد تحذف أداة النداء لتسليط انتباه المدعو على الصفة التي يدعـــوه بـــها المنادي وذلك لإثارة مشاعره، والتأثير على تصرفاته، وتغير موقفه، ومن ذلــك حذف أداة النداء في قول موسى لقـــوم فرعـــون: ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الدخان:١٨] فقد حذف موسى أداة النداء تحبباً وتلطفـــاً، داعيـــاً إياهم بصفة (عباد الله) لعلهم يؤدون واجب العبودية.

كما حذفت أداة النداء في قول هارون مستعطفاً أخيه موســـى: ﴿ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٠] فهارون يحاول أن يرقق قلب أخيه وقد هجـــم عليه معنفاً غاضباً مذكراً إياه بالعلاقة التي تربطهما فهما ابنان لام واحدة (ابـــن أمّ) وذكر الأم أرق وأبلغ في الحنو والعطف[١].

وقد يسأل سائل عن سبب حذف ياء النداء فـــي آيـــة ســـورة الأعـــراف، وظهورها في آية سورة طه[٢].

أقول: ظن موسى أن خليفته هارون قد قصر في نهي المخالفين والإنكـــار عليهم، فقام بحركة مادية عنيفة نحو أخيه، حيث سحبه من شعر رأسه ولحيتـــه، وراح يجره إليه: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف:١٥٠]، وهذا تعبـــير حركي يجسد لومه وتعنيفه لأخيه لأنه لم يلحق به.

وخـــاطب موســـى أخـــاه لائمـــاً: ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ [طه:٩٢-٩٣] لقد استخدم موسى (يا) النداء حين وجه خطابه لأخيه هارون مع كونهما في مكان واحد (تقارب مكاني)، ولعـــلّ في هذا

١- ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٣، ص١٥٩.

٢- " يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل و لم ترقب قولي" (طه:٩٤).

تجسيد لحالة الغضب والأسف التي تلبست موسى وانعكست على كلامه، فقد لائم النطق بياء النداء وما فيها من مد الصوت وإطالته التعبير عن تلك الصرخة الانفعالية المتأججة فيه.

وربما دلّ استخدام ياء النداء في مناداة هارون على شعور موسى بابتعاد هارون المعنوي عنه، لأنه لم يلحق به حين رآهم عاكفين على عبادة العجل، ولم ينهرهم بقوة وعنف كافيين لردعهم.

وجاء ردّ هارون: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه:٩٤] وفيه ردّ على ياء موسى الغاضبة بياء يدل ظهورها على الألم، فهو يرزخ تحت قبضة إنسان غاضب منفعل تجره بعنف مسببة له ألماً تندّ عنه آهة مكتومة بياء النداء. يضاف إلى هذا قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو والكسائي وحفص عن عاصم: (ابن أم) بفتح الميم[١]، التي يرجح فيها حذف الألف المبدلة من ياء الإضافة (ابن أماه)[٢]. ومد الصوت فيها يلائم التعبير عن الألم.

لقد قال هارون هذه العبارة وأخاله اقترب من موسى هامساً في أذنه مكرراً دعوته ، بـ(ابن أم) ليخفف من غضبه وتوتره، وليؤكد طاعته له: (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين)، لقد قال هذا الكلام لموسى هامساً، يؤكد هذا مضمون الرسالة الذي حملته مفردات توحي بالسرية والبوح الخاص (استضعفوني، كادوا يقتلونني، لا تشمت بي الأعداء، لا تجعلني مع القوم الظالمين)، انه كلام خاص يبوح به الأخ لأخيه شاكياً من حوله، طالباً نصرته. وهذا، في رأيي، يبرر حذف ياء النداء في آية سورة الأعراف.

ب- حذف أداة النداء والمنادى:

وقد تحذف أداة النداء والمنادى لمفاجأة المتلقي بحضور المنادى، ومنه دعوة امرأة العزيز يوسف إلى المجلس الذي اجتمعت فيه النساء بفعل الأمر ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف:٣١] دون أن تناديه (يا يوسف) لأنها تريد أن تفاجئهن

١- أبو حيان، البحر المحيط، ج٤، ص٣٩٦.

٢- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٥، ص٢١.

بطلعته البهية التي لا يحيط بها وصف، وربما أدى ذكر اسم المنادى إلى تخفيف وقع المفاجأة على المتلقي.

ويتحقق الذهول وتسيطر المفاجأة على الموقـــف ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ: حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف:٣١].

ويحذف أسلوب النداء لوجود قرينة لفظية تدل عليه كأن يستهل الحوار بين الأطراف بالفعل نادى أو دعا: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟: مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف:٤٨] فقد أغنى الفعل (نادى) عن ذكر أداة النداء والمنادى (يا هؤلاء أو يا أهل النـــار أو يا فلان).

ج- حذف المنادى:

حذف المنادى في قراءة ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾[1] [النمل:٢٥] وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا وقد يعلل الحذف في هذه القراءة باهتمام الهدهد بفعل (السجود) وحثــــه عليه، وربما تطلع إلى الجهة التي يقطن فيها المنادى فدل تطلعه علـــــى هويـــة مـــن يناديه.

د- الترخيم:

بتر الحرف الأخير من المنـــادى فـــي قـــراءة ﴿ يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[2] [الزخرف:٧٧] أي: يا مالك. قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: ونـــادوا يا مال، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم[3].

١- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٣٥٠

٢- وهي قراءة ابن مسعود، ينظر الزمخشري، الكشاف ج٤، ص٢٥٧

٣ – المصدر السابق، ج٤، ص٢٥٧

وأرى أن الترخيم حسن في هذه القراءة؛ لأنه جاء محاكيا لحالة الضعـــف والألم التي تحول دون قدرة المعذبين على إتمام نطق الاسم، فاقتطعــوا بعــض الاســم

لضعفهم وعظم ما هم فيه لا تحببا لمالك كما فهم ابن عبـــاس. وتوصلنـــا هـــذه القراءة القرآنية إلى الحديث عن صورة من صور الحذف هي حذف الحروف.

٨- حذف حرف من حروف الكلمة:

ومثاله حذف النون الأصلية الساكنة من مضارع (كان) يعكس ألم شخصيته مقهورة، ومثالـــه حذف نون (أكن) في قول مريم ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[1] [مريم:٢٠]

وهذا موضع ثان يظهر فيه الحذف في مقولة سيدتنا مريم للرجل الغريـــب الذي بشرها بأنها ستلد غلاما*.

لقد صعق كلام هذا الغريب الفتاة الطاهرة العفيفة، فانتفضت غاضبة مدافعة عن شرفها الذي لم يمس، نافية إمكانية مجيء هذا الغلام وهي لم تتزوج بعد ولم يمسها رجل غريب، وانعكست هذه المشاعر على كلامها، فجاء الحـــذف دليـــلا يجسم الغضب والتوتر والخوف والرفض أو غيرها من الأحاسيس التي تحـــول دون القدرة على إتمام نطق حروف الكلمة.

ومثاله أيضا قول أصحاب النار متألمين متحســوين ﴿ قَالُواْ: لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر:٤٣-٤٤] أخالهم يشـــهقون بالبكـــاء الذي دفعهم إلى الوقوف عند الصوت الانفجاري المتمثل بالكاف.

---

١ – (قالت: أنى يكون غلام و لم يمسسني بشر و لم أك بغيا) الموضع الأول ظهر في قولها: (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) مريم: ١٨ الموضع الأول ظهر في قولها: (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) مريم ١٨

لطيفة قرآنية في (تستطع)[1] و(تسطع)[2]

وعد الخضر موسى عليه السلام بأن يؤول أفعاله الثلاثة التي أثارت ثائرته، ولما أول تلك الأفعال حذف التاء الثانية من الفعل (تستطع) فقال: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾. فلم أثبتت التاء في الفعل الأول وحذفت في الثاني؟

لعل إثبات التاء في الفعل الأول يناسب التعبير عن حالة الضغط النفسي والضيق التي عاناها سيدنا موسى حين شاهد الأفعال الثلاثة العجيبة التي عجز عن تفسيرها وتعليلها، فضاق صدره ونفذ صبره، فزيادة التاء في بنية الفعل تؤدي إلى تثقيله، وهذا التثقيل يتناسب والثقل النفسي الذي كان يسيطر على سيدنا موسى، وقد أدرك الخضر، عليه السلام، ذلك، فلما أول أفعاله أخذت الحقائق تتكشف عن حكمة ورحمة وعبرة تبرر ما فعله. فتزيل الثقل عن صدر موسى وأعصابه، فجاء الفعل خفيفا من ثقل التاء عاكسا التخفيف الذي جد على مشاعر موسى.

وهكذا نجد أن الحذف ظاهرة أسلوبية قارة في لغة الحوار القرآني تدعونا للإبحار في أعماق المتكلم والمخاطب والظروف المصاحبة للموقف الكلامي الظاهرة منها والكامنة، فاللغة التي تدور مشافهة بين الأطراف المتحاورة تشكل بيئة خصبة للحذف عندما تعضدها القرائن المصاحبة لفظية كانت أو حالية، فيصبح الكلام إشارات موجزة ذكية ما تنقله من معان أكبر بكثير من حجم الألفاظ.

والحذف لحظة من لحظات الصمت في الحوار، والصمت لون من ألوان الكلام، فليس السكوت بكما، ولكنه تجسيم لحالة من حالات النفس التي تفوق حدود الكلمة، ففي النفس أشياء قد يعجز الأسلوب التام عن بيانها.

وقد اختيرت لحظات الصمت بدقة في الحوارات القرآنية، وعبرت تعبيرا واضحا عما يدور في داخل المرسل، وما يسعى لإيصاله للمتلقي.

١- إشارة إلى قوله تعالى: (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا). الكهف: ٧٨

٢- إشارة إلى قوله تعالى: (وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا). الكهف: ٨٢

الالتفات

(أسلوبية التحول)

يدور لفظ الالتفات في اللغة حول معاني الصرف والتحول من جهة إلى أخرى، يقال: لفتَ وجهه عن القوم: صرفه، واللّفت: ليٌّ الشيء عن جهته، ولفت فلاناً عن رأيه: صرفته عنه. ومنه الالتفات(1).

ولا يختلف مفهومه في الاصطلاح كثيراً عن ذلك المعنى اللغوي؛ فقد أجمع جمهور البلاغيين على أن الالتفات يعني الانتقال أو التحول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر، مع وحدة السياق بين الملتفَت عنه والملتفت إليه؛ أي أن الشرط اللازم لتحقق الالتفات أن يكون المسند إليه في الحالين واحداً، وأن يكون التعبير الثاني معدولاً به عن ظاهر الكلام(2).

وبرزت هذه السمة الأسلوبية في عدد من الخطابات الحوارية في القرآن الكريم مكسبة التعبير دلالات وإيماءات خاصة تشابكت فجأة مع الدلالة الأصلية فأضفت على التعبير عمقاً ونبضاً وحيوية تكسر نمطية الأداء لتحقيق فائدة لا تحد بتطرية نشاط السامع وإيقاظه للإصغاء فقط، وإنما تتنوع وتتشعب مستعصية على التحديد والضبط.

يقول ابن الأثير: "والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولكن يشار إلى مواضع

١- ابن منظور، اللسان، مادة (لفت).

٢- ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص١٧٠؛ والسكاكي، مفتاح العلوم، ص٨٦؛ والخطيب القزويني، الإيضاح، ص٢٥٢.

منها، ليقاس عليها غيرها"[1].

ويقول السيوطي:"وللالتفات فوائد منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسلامة من الاستمرار على منوال واحد، هذه هي فائدته العامة، ويختص كل موضع بنكت ولطائف باختلاف محله"[2]. فالالتفات مخالفة سياقية تكسر توقع المتلقي فتستفز انتباهه واهتمامه، للدلالة الكامنة وراء هذا العدول، مجسمة السلوك الحيوي للنص الحواري.

الالتفات في الحوار القرآني: نماذج ودلالات:

١- التحول عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين:

وجاء هذا التحول في قول فرعون و ملأيه لموسى وهارون: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٧٨]. فقد توجه الخطاب إلى موسى أولا (جئتنا) ثم تحول الخطاب إلى صيغة المثنى (لكما)، وذلك لأن موسى أصل الرسالة وهارون وزيره، فتوجه الخطاب إلى موسى أولا ثم تحول إليه مع هارون.

٢- التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد:

كقول فرعون: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ؟! ﴾ [طه:٤٩] حيث توجه الخطاب إلى موسى وهارون أولا (ربكما) ثم تحول إلى الخطاب المفرد (يا موسى) ويشي هذا التحول بعدة دلالات:

- تخصيص موسى بالخطاب، لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره أو تابعه.

١- ابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص١٧٠.

٢- السيوطي، الاتقان، ص١٠٩.

- رغبة فرعون في السخرية من موسى باستنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى.
- ملاحقة موسى بالخطاب زيادة في لومه والإنكار عليه وتوبيخه، وفيها تنبيه له وتذكير بطبيعة العلاقة بينهما، فقد تربى موسى في قصر فرعون، الذي أولاه عناية واهتماماً يستوجبان من موسى الولاء لفرعون وتأليهه وعدم الوقوف ضده أو تحديه.

٣- التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الجمع، ومن الجمع إلى المفرد:

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٨٧] إذ حدث تحول عن خطاب الاثنين (تبوءا) إلى خطاب الجمع (اجعلوا)، ثم حدث تحول عن خطاب الجمع (أقيموا) إلى خطاب المفرد (بشّر).

ومغزى هذه التحولات يعود إلى طبيعة الأفعال التي أمر الله مخاطبه بتنفيذها؛ فقد أمر موسى وهارون أن يتبوءا لقومهما بيوتاً، ويختارها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومها باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص الله موسى،عليه السلام، بالبشارة تعظيماً لها وللمبشر بها[1].

٤- التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع:

ومثاله ما جاء في قول الملأ الذين كفروا من قوم نوح: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا، وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧] فقد تحولوا من خطاب المفرد (ما نراك) إلى خطاب الجمع (ما نرى لكم) ليشمل خطابهم الهجومي الساخط المتبوع والأتباع.

١- الزمخشري، الكشاف، (ج٢، ص٣٥١).

٥- التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع، إلى المفرد:

جاء هذا في الخطاب الذي وجهه موسى إلى فرعون: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ: يَـٰفِرْعَوْنُ، إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥]. فقد بدأ، عليه السلام، بتوجيه خطابه إلى فرعون (يا فرعون) لأنه الحاكم والقائد الذي إن آمن آمنت رعيته، وهذا ما دعاه الله إليه: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ... فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [طه:٤٣-٤٧]

ثم تحول عن خطاب فرعون إلى خطاب الجمع (فرعون والملأ): ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ لأن المعجزة لا تختص بفرعون فقط، وإنما هي موجهة إلى كل أتباعه ورعيته. ثم يعود فيتحول من خطاب الجمع (جئتكم) إلى خطاب المفرد (فأرسل) لأن إرسال بني إسرائيل أمر يتعلق بفرعون دون الملأ.

٦- التعبير عن المثنى بالمفرد:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٦] حيث عبر عن موسى وهارون، عليهما السلام، (وهما مثنى) بالمفرد في (رسول).

ويشي هذا التعبير غير المتوقع بعدة دلالات:

- وحدة الرسالة التي كلف هارون وموسى بتبليغها إلى فرعون جعلت منهما رسولاً واحداً.
- كان هارون لسان موسى لتميزه عنه بقوة الإفصاح والحجة، فجعل الله منهما كياناً واحداً تتجاوب أعضاؤه في توصيل الخطاب الإلهي إلى فرعون والملأ.

٧- الانتقال من الغيبة للخطاب:

وبرز هذا التحول في سياقات التوبيخ والإنكار خاصة، لما يحققه من مواجهة المتلقي وملاحقته والإقبال عليه باللوم والتقريع والانكار، وهذا ما لا يحققه لفظ الغيبة، فالعدول بالخطاب يهز السامع ويستنفر مشاعره وينبهه افضل تنبيه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ: أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ، بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ، إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٣٥-٣٩] فقد تحول الخطاب من الأخبار عن الكافرين بضمير الغائب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ ﴾ إلى مواجهتهم بضمير المخاطب ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ﴾.

وقوله تعالى حكاية عن الهدهد: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل:٢٤-٢٥]، إنه يتحول في خطابه من الغيبة ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ إلى المخاطب ﴿ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ولهذا التحول احتمالات منها:

استحضار الهدهد المتلقي الغائب الذي يتحدث عنه مظهراً رغبته في إيصال دعوة التوحيد إليه. وقد يكون تحول إلى المتلقي الحاضر المتمثل في سليمان ورعيته لكون خطابه يتناول موضوعاً يشمل جميع الخلق دون اختصاص أو استثناء.

وقد يكون التحول يعني اختفاء صوت الهدهد وظهور صوت الراوي العليم الذي ينقل كلام الشخوص نقلاً تاماً وكاملاً بلسانها تارة، أو ينقلها نقلاً جزئياً خالطاً الصوتين في بوتقة واحدة.

وتوجه قراءة الفعل (ألا يتقون) بالتاء[1] من قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ؟! ﴾ [الشعراء:١٠-١١] على طريقة الالتفات إليهم ومواجهتهم بالإنكار والغضب عليهم.

يقول الزمخشري: " فإن قلت: فما فائدة هذا الالتفات والخطاب مع موسى، عليه السلام، في وقت المناجاة والملتفت إليهم غيب لا يشعرون؟! قلت: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم؛ لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا بموردها"[2].

٨- الانتقال من الخطاب إلى المتكلم إلى الخطاب إلى الغيبية:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ. وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٢-٤٤] يؤكد هذا حضور الراوي العليم، وتسييره للخطاب، وتنويعه لطرق الأداء، وتوجيه خطابه لكل الناس. فقد بدأ بنقل خطابه الذي وجهه إلى أيوب نقلاً حياً مباشراً مستخدماً ضمير المخاطب الذي يستلزم تنفيذاً فعلياً ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾، ثم تحول في خطابه إلى ضمير المتكلم: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وناسب هذا التحول الحديث عن الهبة والرحمة التي يمنحها الله دون أي تدخل من الخلق، فهي شيء يختص به الله وحده. ثم عاد إلى ضمير المخاطب مكملاً نقل خطابه مع أيوب عليه السلام،

١- قرأها عبد الله بن مسلم وشقيق بن سلمة وأبو قلابة، ينظر أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٧، ص٧.

٢- الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٢٩٣. وأبو حيان، البحر المحيط، ج٧، ص٧.

وكأن الالتفات صلة وصل تكشف الستار من جديد عن خطاب غيبة الالتفات: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾. ويحدث التفلت جديد يستخدم فيه ضمير الغائب الذي يناسب المدح والثناء؛ فضمير الغائب يحقق أخبار الناس بأمر أيوب ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

٩- الانتقال من الخطاب إلى التكلم:

وأتى هذا التحول الأسلوبي في موضع النصح والإرشاد، ومنه قول رجل مؤمن من قوم فرعون يكتم إيمانه: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا؟! ﴾ [غافر:٢٩] إنه يتحول في خطابه من ضمير المخاطب ﴿ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ﴾ إلى ضمير المتكلم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا ﴾، وناسب هذا التحول التعبير عن وحدة المصير الذي سيحيق بهم إن لم يستجيبوا لدعوة موسى مظهرا ولاءه لقومه، والتصاقه بهم، وحرصه على مصلحتهم، فهو يدرج نفسه مع المجموع متحولا عن أسلوب التجريد والتنصل الذي يوحي به أسلوب الخطاب.

١٠-الانتقال من التكلم إلى الخطاب:

ومنه قول رجل مؤمن لقومه الكافرين ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٢٢] فقد صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم، وذلك أبلغ في النصح والإرشاد، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، فاختار: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ مكان: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟) ثم عاد إلى توجيه الخطاب لهم مباشرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد أن مهد لذلك بتوجيه اللوم والإنكار على نفسه أولاً.

١١-الانتقال من زمن الحضور في (المضارع) إلى زمن الآتي في (الأمر):

وعلى هذا قول هود، عليه السلام، لقومه ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى

﴿ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [هود:٥٤] حيث تمت المخالفة بين الفعلين (أشهد) (واشهدوا)، لأن السياق الأصلي يقتضي توافقاً زمنياً بين الفعلين: (أُشهد وأُشهِدُكم)، ولعل هذا يعلل بكون صيغة الخبر لا تحتمل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه فلما كان إشهاده لله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر، لأنه إشهاد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو المراد في هذا المقام معهم.

ويحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر؛ للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم بأن يعبر عن خطاب الله بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر[1].

١٢-الالتفات في السرد الحواري:

حيث ينقل الله – عز وجل- كلام الشخوص بأصواتها، ثم يختفي صوت تلك الشخوص فجأة، ويطل صوته -عز وجل- مندمجاً بالصوت الذي نقله ببراعة تدهش المتلقي لما فيها من مخالفة سياقية تخرج عن حدود توقعه للسلوك الأدائي، وذلك في عدد من المشاهد الحوارية نذكر منها: ما جاء في الحوار التالي الذي دار بين موسى وقومه:

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ: يَٰمُوسَى، ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ

قَالَ: إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ، إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ.

قَالَ:أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ. وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤١].

١- الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٣٨٨.

حيث ظهر صوت الله بضمير المتكلم (أنجيناكم) وقد التحم بخطاب حكاه بصوت موسى، عليه السلام، تكريما له، وإقرار بكلامه، وإظهارا للنعمة، وإثباتا.

كما يجسم هذا الوصل الخطابي بين كلام الله وما يحكيه من كلام رسوله التزام رسل الله بتبليغ أوامره، واظهار نعمه، وتحذير عصاته، ومراقبة الله لهذا التبليغ واطلاعه على الحوار الدائر بين رسله وأقوامهم. ونجد مثل هذه اللفتة الانتقالية في الحوار التالي الذي دار بين فرعون وموسى:

﴿ قَالَ: فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ؟!

قَالَ: عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى. ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ. كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ. مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥١-٥٥].

ففي المقولة السابقة تمت الانتقالة من ضمير الغائب ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ إلى ضمير المتكلم ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾، وتعهدنا هذه الالتفاتة إلى التفاته سابقة وصلت خطابه، عز وجل- لموسى بخطاب موسى لفرعون فجأة :

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ، إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ. قَالَ: فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ؟ ﴾ [طه:٤٧-٤٩].

إن حواره -عز وجل- مع موسى ينتقل فجأة إلى فرعون، حيث نجده يرد على موسى وهارون اللذين حملا إليه خطاب الله بحرفيته دون تغيير أو تبديل، وجسمت الالتفاتة هذا النقل الحرفي الذي لا يستلزم تكرار الحضور في النص،

فهما يتحدثان بصوت الله الذي بدا محيطاً بالحدث الحواري مسيراً له ومحركاً.

واخترق الصوت الإلهي خطاب الملائكة للظالمين في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٣-٩٤]. وتحقق هذه اللفتة الصوتية بعداً انفعالياً في نفس المخاطب، فتوجيه التقريع والإنكار والاستهزاء بصوت الله – عز وجل– أشد وقعاً على الظالمين.

وهكذا فقد برز التفات في النص الحواري القرآني بوصفه سمة أسلوبية تزخر بتنويعات وتلوينات شتى. إنه حركة نابضة في جسد النص ثرية الأبعاد متعددة الوجود والتبديات.

وقبل أن ننهي حديثنا عن الالتفات نتطرق لبيان فائدة حذف فعل القول في بيان تحول المتكلم بحديثه من مخاطب إلى آخر، وكيف أعطى الحوار هذه الدلالة بذاته دون الحاجة إلى قطعة أو اعتراضه، بالتنبيه على التفات المتكلم من هذا المخاطب وتوجهه بمقولته إلى آخر. ومثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان العزيز وهو يخاطب امرأته ويوسف منقلاً مقولته بينهما: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ، وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ، إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٢٨-٢٩]. لقد حقق حذف فعل القول حضوراً لمشهد المتكلم وهو يتلفت بين المخاطبين تلفتاً سريعاً يوحي بسرية المقولة وحرص العزيز على الإمساك بزمام الخبر مخافة أن يشيع وتتناقله الألسنة. وما جاء في قوله على لسان سحرة فرعون: ﴿ قَالُوٓاْ: إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ، رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

حيث تحول السحرة بحديثهم من فرعون إلـــى الله عــز وجــل، دون أن يعترض هذا التحول لفظ القول، وأفاد التحول استشعار السحرة بقرب الله منـــهم وحضوره لموقفهم، ورغبتهم في مماحكة فرعون وتحديه بتوجيه مقولتهم إلى الله وما يعنيه هذا التوجه من تأكيد لإيمانهم وإعلانه أمام فرعون.

وما جاء في قوله تعـــالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ: أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ، أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ، لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٥-٤٦].

حيث دلت مقولة السجين الناجي على تحول المتكلم بحديثه من المخـــاطبين المتمثلين في الملك وحاشيته إلى يوسف عليه السلام، وعلى انتقاله من مكان إلى مكان؛ من قصر الملك إلى السجن دون اعتراض بالسرد الموضح أو المفصـــل، فقد حقق الالتفات في الحـــوار الانتقـــال والتحـــول دالا علـــى حـــذف وطـــي التفصيـــلات بين جزئي المقولة.

ويوحي هذا الالتفات بلهفة المتكلم على الوصول إلى يوسف -عليه السلام- للحصول على تأويل لرؤية الملك، فكأنه قد قفز أو طار إلى سجن يوسف، فـــإذا به بين يديه يقص عليه الرؤيا. وقولـــه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ: يَٰقَوْمِ، ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ، ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟! ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً؟! إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ. إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ. إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ. قِيلَ: ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ. قَالَ: يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ: بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس:٢٠-٢٧].

لقد حوت مقولة الرجل المؤمن ثلاثة التفاتات؛ تمثل الالتفات الأول في تحوله من المخاطب إلى المتكلم ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ثم التفت إلى المخاطب مرة أخرى ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وتمثل الالتفات تمثل في تحوله من مخاطب إلى مخاطب، فقد تحول من مخاطبه قومه إلى مخاطبة رسل الله دون التمهيد لهذا التحول بفعل القول تقوية لروح العرض بترك الحوار يتصاعد بانفعالات المتكلم وصولاً إلى الذروة: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾.

وجاء الالتفات الثالث وفيه تحققت قفزة طوت الزمان والمكان، فإذا بالرجل المؤمن في عالم الغيب وقد دخل الجنة: ﴿ قِيلَ: ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ، قَالَ: يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾ لقد أوحى ظهور فعل القول (قيل) بأحداث حذفت، فالرجل قد قتل ودفن وبعث وأدخل الجنة وشاهد نعيمها، كل هذا دلت عليه لفظة (قيل) تاركة ساحة العرض للحوار.

وهذا يعني أن المخالفة السطحية المتمثلة في الانتقال والتحول الظاهرين في المقولة الحوارية يعاد تنظيمها وتعليلها بالنظر في المستوى العميق، وإيجاد توافق بين المنتقل عنه والمنتقل إليه، ومثل فعل القول دور المنبه الدال على تعدد السياق وبالتالي يزيل المخالفة السطحية، ومن ثم تتساوى بنية السطح مع بنية العمق. ويفيد تكرار فعل القول في الخطاب الصادر من متكلم لا يقطعه كلام غيره أو سرد انتقال المتكلم من مخاطب إلى آخر كما يفيد التحول من حال إلى حال. فمن الأول ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ: أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم، بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ. ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا، وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ. قَالَ: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ، أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣٦-٣٨].

فالكلام قبل القول الثاني موجه إلى رسول ملكة سبأ، ويتضمن أمراً له بالرجوع إلى سبأ؛ أي الخروج من المشهد، والكلام بعد القول الثاني لا يصح أن يقال في حضوره لاحتوائه على تدبير خطة ضد مليكته، فلو سمع هذا التدبير لبطل. فالإتيان بلفظ القول (قال) أفاد التحول بالكلام إلى مخاطب بعد انصراف المخاطب الأول. وهذا يعني وجود محذوف سرد يحوي مغادرة رسول ملكة سبأ، وانعقاد مجلس ضم سليمان والملأ. وقد وقع هذا المحذوف بين طرفي القول.

ومن الثاني تكرار لفظ القول بين جزئي خطاب ملكة سبأ لحاشيتها: ﴿ قَالَتْ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ، إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ، وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ، أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل:٢٩-٣٢].

إن تكرار لفظ القول مع إمكان حذفه واتصال الكلام واتساقه، دليل على تحول كلام الملكة من تلاوة رسالة سليمان إلى خطاب حاشيتها. ولعله دليل على المحذوف من كلام الحاشية، التي ربما ثارت على تهديد سليمان وتحديه وتعالت أصواتها في مجلس الملكة، فسكتت الملكة منتظرة انتهاء هذه الزوبعة. وتصمت الحاشية فتكمل الملكة حديثها.

وهكذا فقد أفاد تكرار لفظ القول تحولاً من حالة في الخطاب إلى حالة أخرى، كما دل على أن وراءه محذوفاً من المشهد يكمن وراء التحول، فطبيعي أن لا يسجل القرآن الكريم كلّ مراحل الحوار تسجيلاً كاملاً، إنه يمسك من الموقف الحواري بالعناصر الحية والمشاهد البارزة فيه تاركاً لخيال المتأمل أن يملأ الفراغات ويلونها.

ويعد ما ذكرناه من الأمثلة جزء من أمثلة كثيرة في القرآن الكريم لحوارات مركزة مضغوطة تحمل في كلمات قليلة عناصر قصة كاملة مستخدمة تكتيك الالتفات الذي خلقته الكلمات النابضة بالحركات الموحية التي يستغنى بها عن التشخيص والتمثيل والتجسيم.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. قد تناولت هذه الدراسة تلاحم الشكل والمضمون في زوايا في بناء لغة الحوار القرآني تناولا أسلوبيا واقفة على اكثر البنى التركيبية حضورا في النصوص الحوارية، ومبرزة آثار من آثار التواصل الحواري على الصياغة اللغوية للمقولة الحواري. و خلصت إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- الحوار القرآني الذي تحول من تحولات الخطاب الإلهي في النص القرآني تتمثل فاعليته في علة اختياره الأدوار التي يؤديها.
- حصل القسم المكي من القرآن على نصيب الأسد من الحوارات القرآنية لكبر حجم القرآن المكي مقارنة بنظيره المدني، ولارتباط الحوار بالقصص القرآني أثره على مكونات المقولة الحوارية وخصائصها.
- شمل الحوار القرآني موضوعات القرآن على تنوعها، وأبدت الحوارات القرآنية التي تدور في فلك مضموني متقارب تقاربا أسلوبيا، فمضامين الحوار أثرت في مكونات المقولة الحوارية وخصائصها.
- تنازعت المقولات الحوارية أطراف متعددة تنوعت في جنسها وعددها وصفاتها مثبتة أن باب الحوار مفتوح للجميع، وأن التفاعل مع **الآخر- أيا** كان نوعه- غاية في ذاتها.
- **حوارات** الأنبياء مع أقوامهم أكثر الحوارات القرآنية حضورا وتكرارا، **اجتمع** جلها في حيز مخصوص من بنى عدة سور، ورتب بتناسق وتسلسل يعكسان وحد دعوة الأنبياء وسيرهم في درب واحد.

- فتح الصوت الجمعي الذي حمل مقولات حوارات عديدة الباب لاحتمال صدور المقولة الحوارية ذاتها في قوالب تركيبية متعددة، وهذا ما وضحه التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية.
- أكثر أشكال التواصل الحواري حضورا في القرآن الكريم: الحوار الثنائي(الخارجي)، الحوار الداخلي(المنولوج)، الحوار التقيني، المناجاة(الدعاء)، الحوار بالإشارة.
- حقق الحوار أدوارا هامة في النص القرآني عامة والقصة القرآنية خاصة منها: بعث الحياة والحركة في الحدث، وكشف الصراع وتأجيجه، ترجمة الشخصية بانفعالاتها المختلفة، تحقيق الحضور.
- البنى التركيبية الأكثر حضورا في الحوارات القرآنية هي: الأمر، السؤال، النداء، النهي. ويبين الوقوف على فاعلية هذه البنى في إنتاج الدلالة علة اختيارها وقيمتها الأسلوبية التأثيرية الموجهة إلى التركيب من المرسل أو الناتجة عن التركيب في المتلقي.
- تؤكد الانحرافات الخارجية في بنى التراكيب القارة في لغة الحوار القرآني انحرافات ذات عمق جوهري يتمثل في التجدد الدائم لدلالات التراكيب في سياقات الموقف الحواري المختلفة.
- تختلف الدلالات التي يحويها التركيب ذاته باختلاف المخاطب؛ فالدلالة التي يحويها التركيب الموجه إلى طرف ما قد تحول إلى دلالة أخرى حين يوجه التركيب ذاته إلى طرف آخر.
- أبرز السؤال حضوره الأكبر في إنتاج دلالات النص وتقديم حيثيات المضامين الحوارية، وتنوع وجوده الفعلي في النصوص. وقد أثبت الرد الطرف المسؤول على سائله بسؤال في عدد من المشاهد الحوارية التي تحوي صراعا متأججا بين الطرفين فاعلية السؤال في تجسيم انفعالات الأطراف المتحاورة أكثر تقولبا في أسئلة الحوار القرآني دلالة الإنكار ودلالة التقرير، وقد انضوت تحت مظلتها دلالات عديدة، وللأسئلة التي حوتها طابعها التشكيلي الخاص.

- الحذف والتقديم والتأخير من الظواهر الأسلوبية القارة في بنية السؤال، وقد تضافرت مع البعد الانفعالي الكامن فيه وجاعلة منه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات والتأثير في نفس المخاطب.
- جاءت الإجابة على لسان المسؤول في عدد من المشاهد الحوارية، وخرجت عن الأصل في مشاهد أخرى حيث جاءت على لسان السائل نفسه، وجاءت ممتزجة مع السؤال في بوتقة واحدة في مواطن أخرى وذلك عندما تكون الإجابة قاطعة صارمة لا يحتمل السؤال سواها.
- توالت تراكيب الأمر في سياقات الدعاء والنصح والوصايا والتوجيه الإلهي وغيرها بوتيرة الأمر الأول فيها ووقعت على مفاعيل واحدة أو متقاربة تدور في إطار واحد وتأرجحت بين ثنائية رفض التنفيذ وقبوله عاكسة طبيعة العلاقة بين الآمر والمأمور.
- أدى تركيب النداء في الحوارات القرآنية دورئين رئيسيين؛ الأول: لفت انتباه السامع إلى مضمون الرسالة الكلامية بتوجيهها له توجيها خاصا، والثاني: قولبة أحوال النفس وعواطفها ومشاعرها.
- أثرت طبيعة التواصل الحواري على بنية المقولة الحوارية وتمثل هذا الأثر بعدول الألفاظ عن مواقعها في مواطن (العدول عن الرتبة بالتقديم والتأخير)، وتغييبها تاركة للملتقي خلق عالم حضورها في مواطن (العدول عن التضام بالحذف)، وترسيخ حضورها في النص بواسطة التكرار، والعدول عن ارتباطها المتوقع بوساطة الالتفات.
- انطوى كل تقديم وتأخير في المقولات الحوارية على حكمة بالغة وفطنة أسلوبية جاذبة، فكان المعنى يقتضى ما تقدم أو تأخر اقتضاء طبيعيا للتأثير على المخاطب، فترتيب الكلمات في لغة الحوار القرآني لم يرد اعتباطا، إنه يعكس ترتيب المعاني في النفس كما يرسم صورة لغوية لانفعال المتكلم وموقفه من السامع. وقد أمكن حصر التقديم والتأخير في أربعة أقسام: ما قدم والمعنى عليه، ما قدم والنية به التأخير، ما قدم في آية وأخر في أخرى، ما قدم وأخر في الآية ذاتها.

- لائم التكرار المضامين الحوارية التي عولجت من خلاله خالقاً عمقاً دلالياً لا يترك السياق على سطحيته الإيقاعية فحسب وإنما ينفذ إلى الإيقاع الداخلي للمقولة الحوارية تاركاً أثره على المتلقي. وأمكن دراسة التكرار اللفظي في الحوار القرآني ضمن ثلاثة أنماط: الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في المقولة أو النص وفق توزيعات مكانية متنوعة الأبعاد بين الدال الأول والدال المكرر في السورة الواحدة. والثاني تكرار جمل من حورا الشخصية ذاتها في غير سورة تكرارا لفظياً تاماً أو منقوصاً تعتوره تغيرات يتطلبها السياق. والثالث تكرار المحاورة وتعدد المرسل في سورة واحدة أو غير سورة.
- في تكرار الحوار الواحد إبراز لجوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجه التعبير، فالمقولة تعاد أكثر من مرة مبرزة في كل مرة وجهاً من وجه الزاوية المحيطة بالحدث الحواري، فيخرج الناظر بتصور كامل للمشهد الحواري، ويتأكد المضمون في نفسه ويتثبت لتكرار وروده في سياقات متنوعة تبرزه ويبرزها.
- جسم الحذف في الحوار القرآني الفارق بين مقررات النظام اللغوي ومطالب السياق الكلامي في واقعه الفعلي فاتحاً للقارئ فضاءات من التأويل والتخيل لا حد لها. إنه لحظة من لحظات الصمت اختيرت بدقة، وعبرت تعبيراً واضحاً عما يدور في نفس المُحَاوِرْ وما يسعى لإيصاله إلى المُحاوَر.
- جسم الالتفات السلوكي الحيوي في النص الحواري جاعلاً الكلمات نابضة بالحركات الموحية، وحقق قفزات أدهشت المتلقي؛ لما فيها من مخالفة سياقية تخرج عن حدود توقعه للسلوك الأدائي. وقد طوى كثيراً من التفصيلات بين أجزاء المقولات الحوارية مبرزاً المواقف البارزة فيها، ومحققاً روح العرض والحضور.

وبعد؛

فقد أنرت ظلمة عقلي، وتولد الربيع في خريف قلبي بشعاع من أشعة شمس

سماء النص القرآني، وبقيت في النفس حاجات وتطلعات أرجو الله أن يعينني على تحقيقها منها:

- تأمل أسلوبية التوكيد والنفي والاعتراض والشرط في لغة الحوار القرآني.
- دراسة تنغيم المقولة الحوارية بواسطة أجهزة التحليل الصوتي.
- تأمل أسلوبية المقولة الحوارية لكل طرف من أطراف الحوار.
- استخلاص أسس الحوار الفعال وقواعده من حوارات القرآن وتقديمها للأجيال بما يناسب أحوالهم وهمومهم المختلفة.
- إجراء دراسة أسلوبية مقارنة بين الحوار وأنماط الخطاب الإلهي في النص القرآني لمعرفة ميزاته المخصوصة وكيفية تضافره معها.

أما هذه الدارسة فهي محاولة بذلت فيها من التأمل والتدبر ومحاولة التصنيف والربط ما استطعت إليه سبيلا، فإن أحسنت فهذا فضل من الفتاح العليم الذي أعانني على ولوج عالم النص القرآني، وإن أسأت فلي أجر المحاولة ولا يكلف الله نفسها إلا وسعها.

والله اسأل أن يجعل عملي كله خالصا لوجهه،وأن يدب في قلبي، ما حييت، عشقا للقرآن يقر عيني في الدنيا والآخرة.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

قائمة المصادر والمراجع

أ - المصادر

القــرآن الكريــم

- أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت ٤٠٣ هـ) - حجة القراءات، ط٤، تحقيق وتعليق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن الأثير، بضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري (ت ٦٣٧ هـ) - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٤ج، تحقيق وتقديم وتعليق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم (ت ٦٥١ هـ) - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ط١، تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) - تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) - تفسير
- القرآن العظيم، ط٢، ٨ج، تحقيق سامي محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٩م.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) - لسان العرب، ٧ج، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط٦، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.
- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت ١٢٧٠ هـ) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٥م، تحقيق محمد أحمد الأمد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.
- الأندلسي، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف (ت ٧٤٩ هـ) - تفسير البحر المحيط، ٨ج، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣هـ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرون بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) - البيان والتبيين، ط٥، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٥٦م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٢ هـ) - أسرار البلاغة، ط١، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ١٩٩١م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٢ هـ) - دلائل الإعجاز، ط٢، تعليق محمد ورشيد رضا، تصحيح الأصل محمد عبده ومحمد الشنقيطي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد البستي (ت ٣٨٨ هـ) - بيان إعجاز القرآن، ط٣، شرح وتعليق عبد الله الصديق، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ١٩٥٣م.
- الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠ هـ) - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣م.
- الدمياطي، أحمد بن محمد بن أحمد (ت ١١١٧ هـ)- اتحاف فضلاء

البشر في القراءات الأربعة عشر، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، ٢ج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧م.

- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ) – نهاية الايجاز ودراية الإعجاز في علوم البلاغة وبيان إعجاز وبيان إعجاز القرآن الكريم، ط١، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) – البرهان في علوم القرآن، ط٢، ٤م، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٢م.
- الزمخشري، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد (ت٥٣٨هـ)- الكاشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، ٤م، وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت ٦٢٦ هـ) – مفتاح العلوم، ط٢، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) – الإتقان في علوم القرآن، ط٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) – جامع البيان في تفسير القرآن، ١٢م، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت ٣١٠ هـ)- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٧ج، تحقيق صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م.
- العكبري، محب الدين أبو البقاء (ت ٦١٦ هـ)- التبيان في إعراب القرآن، ٢ج، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

- الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٨ هـ) – ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، ٢ج، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٥م.
- الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر (ت ٥٠٥ هـ)- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، ط٢، تحقيق أحمد عز الدين، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

ب- المراجع

- إبراهيم خليل – الأسلوبيّة في النقد العربي الحديث، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٧م.
- إبراهيم عبد الله أحمد – الاتجاهات الأسلوبيّة في النقد العربي الحديث، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٦م.
- أحمد الشايب – الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، ط٥، النهضة المصرية، القاهرة.
- أحمد سعد محمد – التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- أ. ف. تشيتشرن – الأفكار والأسلوب: دارسة في الفن الروائي ولغته، ترجمة حياة شرارة، دارة الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- بيير جيرو – الأسلوب والأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء العربي، بيروت.
- تمام حسان – البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية للنص القرآني، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- تمام حسان – اللغة العربيّة: معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار

البيضاء، ١٩٩٤م.
- تمام حسان – مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م
- التهامي نقرة – سيكولوجيّة القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧١م.
- ثروت أباظة – السرد القصصي في القرآن الكريم، دار نهضة مصر، القاهره.
- جورج مولينيه – الأسلوبيّة، ط١، ترجمة وتقديم بسّام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩م.
- جون لاينز – اللغة والمعنى والسياق، ط١، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.
- حسن غزالة – الأسلوبية والتأويل والتعليم، كتاب الرياض، العدد (٦٠)، يصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٩٩٨م.
- حميد أحمد العامري – التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٦م.
- خوسيه ماريا إيفانكوس – نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسات النقدية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م.
- رجاء عيد – البحث الأسلوبي: معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- رمزي منير البعلبكي – معجم المصطلحات اللغويّة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠.
- ستيفن أولمان – اتجاهات جديدة في علم الأسلوب، في كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، ط١، ترجمة شكري عياد، دار العلوم للطباعة والنشر.
- سليمان الطراونة – دراسة نصيّة (أدبيّة) في القصة القرآنية، ط١، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ١٩٩٢م.

- سيد قطب – في ظلال القرآن، ط١٠، ٦م، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م.
- شكري محمد عيّاد – اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، ط١، ١٩٨٨م.
- شكري محمد عيّاد – مدخل إلى علم الأسلوب، ط١، ١٩٨٢م.
- شوقي علي الزهرة – جذور الأسلوبيّة من الزوايا إلى الدوائر: دراسة فيلولوجيّة، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٧.
- صلاح فضل – بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢م.
- طاهر حمودة – ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٢.
- عبد الحليم حفني – أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، ١٩٨٥.
- عبد القادر الشخلي – أخلاقيات الحوار، ط١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٣م.
- عبد الكريم الخطيب – القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت.
- عبد الله أبو ملوح – حوارات في يوم الحسرات، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٩م.
- عبد المرضى زكريا – الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧م.
- علي أحمد فرّاج علي – الإعجاز والبيان في قصص القرآن، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- فضل حسن عباس – قصص القرآن الكريم، ط١، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٠م.

- كاظم الظواهري – بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ط١، دار الصابوني، بغداد، ١٩٩١م.
- كراهم هاف – الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥.
- محمد أبو موسى – دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، ط١، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٧٩م.
- محمد بركات حمدي أبو علي – البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م.
- محمد بركات حمدي أبو علي – بحوث ومقالات في البيان والنقد الأدبي، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م.
- محمد بركات حمدي أبو علي – فصول في البلاغة، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.
- محمد خطابي – لسانيات النص: مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١.
- محمد عبد المطلب – البلاغة العربيّة قراءة أخرى، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٧م.
- محمد علي نوح قوجيل – أصول الجدل وآداب المحاجّة في القرآن الكريم، ط١، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ١٩٩٩م.
- محمد مفتاح – التلقي والتأويل: مقارنة نسقية، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
- محمود أحمد نحلة – لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- محمود السيد حسن – روائع الإعجاز في القصص القرآني: دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

- محمود ياقوت – علم الجمال اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٥.
- ميشال زكريا – الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيديّة، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤م.
- ميشيل ريفاتير – معايير لتحليل الأسلوب، في كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، ترجمة شكري عياد، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر.
- وليد منير – النص القرآني من الجملة إلى العالم، ط١، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- يوسف أبو العدوس – البلاغة والأسلوبيّة: مقدمات عامة، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩م.

الملحق

(١)

رقم السورة التنزيلي	السور المكية	عدد الآيات في السورة	عدد الآيات المضمنة جملا حوارية
١	العلق	١٩	-
٢	القلم	٥٢	٨
٣	المزمل	٢٠	-
٤	المدثر	٥٦	٦
٥	الفاتحة	٧	-
٦	المسد	٥	-
٧	التكوير	٢٩	-
٨	الأعلى	١٩	-
٩	الليل	٢١	-
١٠	الفجر	٣٠	٢
١١	الضحى	١١	-
١٢	الشرح	٨	-
١٣	العصر	٣	-
١٤	العاديات	١١	-

١- اعتمادنا في ترتيب الترول على ما رجحه كثير من العلماء وما اختاره صاحب الاتقان.

١٥	الكوثر	٣	-
١٦	التكاثر	٨	-
١٧	الماعون	٧	-
١٨	الكافرون	٦	٦
١٩	الفيل	٥	-
٢٠	الفلق	٥	-
٢١	الناس	٦	-
٢٢	الإخلاص	٤	-
٢٣	النجم	٦٢	-
٢٤	عبس	٤٢	-
٢٥	القدر	٥	-
٢٦	الشمس	١٥	-
٢٧	البروج	٢٢	-
٢٨	التين	٨	-
٢٩	قريش	٤	-
٣٠	القارعة	١١	-
٣١	القيامة	٤٠	-
٣٢	الهمزة	٩	-
٣٣	المرسلات	٥٠	-
٣٤	ق	٤٥	١٠
٣٥	البلد	٢٠	-
٣٦	الطارق	١٧	-

٣٧	القمر	٥٥	-
٣٨	ص	٨٨	٣١
٣٩	الأعراف	٢٠٦	١٠٥
٤٠	الجن	٢٨	١٧
٤١	يـــس	٨٣	٢٦
٤٢	الفرقان	٧٧	١١
٤٣	فاطر	٤٥	٢
٤٤	مريم	٩٨	٣٠
٤٥	طه	١٣٥	٨٩
٤٦	الواقعة	٩٦	-
٤٧	الشعراء	٢٢٧	١٢٩
٤٨	النمل	٩٣	٤٢
٤٩	القصص	٨٨	٣٧
٥٠	الإسراء	١١١	١٩
٥١	يونس	١٠٩	٣٧
٥٢	هود	١٢٣	٥٧
٥٣	يوسف	١١١	٩٢
٥٤	الحجر	٩٩	٣٨
٥٥	الأنعام	١٦٥	٦١
٥٦	الصافات	١٨٢	٤٨
٥٧	لقمان	٣٤	٧
٥٨	سبأ	٥٤	٢١

٥٩	الزمر	٧٥	٥
٦٠	غافر	٨٥	٣٠
٦١	فصلت	٥٤	٢٠
٦٢	الشورى	٥٣	٢
٦٣	الزخرف	٨٩	٢٥
٦٤	الدخان	٥٩	٦
٦٥	الجاثية	٣٧	٧
٦٦	الأحقاف	٣٥	١٦
٦٧	الذاريات	٦٠	١٣
٦٨	الغاشية	٢٦	-
٦٩	الكهف	١١٠	٣٤
٧٠	النحل	١٢٨	٧
٧١	نوح	٢٨	٢٧
٧٢	إبراهيم	٥٢	١٥
٧٣	الأنبياء	١١٢	٢٥
٧٤	المؤمنون	١١٨	٣٢
٧٥	السجدة	٣٠	٤
٧٦	الطور	٤٩	٩
٧٧	الملك	٣٠	٩
٧٨	الحاقة	٥٢	١٥
٧٩	المعارج	٤٤	-
٨٠	النبأ	٤٠	-

٨١	النازعات	٤٦	٦
٨٢	الانفطار	١٩	-
٨٣	الانشقاق	٢٥	-
٨٤	الروم	٦٠	-
٨٥	العنكبوت	٦٩	١٨
٨٦	المطففين	٣٦	٢

رقم السورة التنزيلي	السور المدنية	عدد الآيات في السورة	عدد الآيات المضمنة جملا حوارية
٨٧	البقرة	٢٨٦	٤٦
٨٨	الأنفال	٧٥	٧
٨٩	آل عمران	٢٠٠	٤٤
٩٠	الأحزاب	٧٣	١٠
٩١	الممتحنة	١٣	٢
٩٢	النساء	١٧٦	٨
٩٣	الزلزلة	٨	–
٩٤	الحديد	٢٩	–
٩٥	محمد	٣٨	–
٩٦	الرعد	٤٣	٣
٩٧	الرحمن	٧٨	–
٩٨	الانسان	٣١	–
٩٩	الطلاق	١٢	–

١٠٠	البينة	٨	–
١٠١	الحشر	٢٤	٢
١٠٢	النور	٦٤	–
١٠٣	الحج	٧٨	–
١٠٤	المنافقون	١١	٤
١٠٥	المجادلة	٢٢	–
١٠٦	الحجرات	١٨	٤
١٠٧	التحريم	١٢	١
١٠٨	التغابن	١٨	–
١٠٩	الصف	١٤	٣
١١٠	الجمعة	١١	–
١١١	الفتح	٢٩	٤
١١٢	المائدة	١٢٠	٣٤
١١٣	التوبة	١٢٩	١٠
١١٤	النصر	٣	–


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com